

الأرض الطيبة

بييرل باك

- ♦ المؤلف: بيرل باك
- ♦ العنوان : الأرض الطيبة
- ♦ ترجمة : إيناس التركي
- ♦ الطبعة الأولى 2024
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٣ / ١٤٦٩٨

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 378 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيرل باك
الأرض الطيبة

ترجمة
إيناس التركي

آفاق للنشر والتوزيع

كان يوم زواج وانج لونج. عندما فتح عينيه في بادئ الأمر وسط عتمة الستائر المحيطة بفراشه، لم يستطع التفكير في سبب اختلاف فجر هذا اليوم عن أيِّ فجرٍ آخر. سادَ السكونُ المنزلَ، فيما عدا السُّعال الخافت اللاهث لوالده العجوز، الذي كانت غرفته تقع أمام غرفته هو، عبر الغرفة الوسطى. كان سُعالُ العجوز أول صوتٍ يمكن سماعه كل صباح. عادة ما كان وانج لونج يبقى مُمدِّدًا وهو يستمع له، ولا يتحرك إلا عندما يسمعه يقترب، وعندما يسمع صرير المفصلات الخشبيَّة لباب حجرة والده.

لكنّه لم ينتظر هذا الصباح؛ قفز قائمًا، وأزاح الستائر جانبًا. كان الفجر مُظلمًا ضاربًا للحمرة، والتمعتُ لمحةً من السماء البرونزية عبر فتحة النافذة المربعة الصغيرة، حيث رفرق الورق المُمزَّق الذي يغطيها. توجه نحو الفتحة، ونزع الورقة.

تمتم قائلاً:

- الجو ربيعيٌّ، ولست بحاجة إلى هذا.

أَحْسَّ بالخجل من أن يعلن بصوتٍ مرتفعٍ أنه يتمنى أن يبدو المنزل أنيقاً في هذا اليوم. كانت الفتحة بالكاد تكفي يده، التي دفعها للخارج ليستشعر الهواء. هبَّت رِيحٌ خفيفة ناعمة برفقٍ من جهة الشرق: رِيحٌ معتدلة هامسة محمَّلة بالمطر. كان فألاً حسناً؛ فالحقول بحاجة إلى المطر لتؤتي ثمارها. لن يهطل أيُّ مطرٍ اليوم، لكن في غضون أيامٍ قليلة لو استمرَّت هذه الريح، سيتوفَّر الماء. كان ذلك أمراً جيّداً. قال لوالده بالأمس إنه في حال استمرار هذه الشمس الساطعة المتلاثلة، فلن تمتلئ السنابل بالقمح. بدا الآن كما لو أنّ السماء اختارت هذا اليوم لتتمنّى له الخير. ستؤتي الأرض ثمارها.

خرج مسرعاً إلى الغرفة الوسطى، وهو يرتدي سرواله الخارجي الأزرق، وبينما هو ذاهبٌ في طريقه، عقد حول خصره الممتلئ حزامه المصنوع من قماش قطني أزرق. ترك جسده العلوي عارياً. سخَّن الماء ليغتسل، ثم ولج السقيفة المستندة إلى المنزل، والتي كانت بمثابة المطبخ، ومن وسط العتمة، لَوَى ثورٌ رأسه من خلف الركن المجاور للباب، وأصدر خواراً عميقاً. كان المطبخ مبنياً من الطين اللبن، مثل المنزل، مكعبات ضخمة من الطين المُنتزع من حقولهم، ومسقوفة بالقشّ المُستمد من محصول قمحهم. بنى جدُّه من أرضهم إبان شبابه أيضاً الفرن الذي احترق واسودّ بفعل سنواتٍ عديدة من تحضير الوجبات. فوق هذا الهيكل الطيني كان يوجد قدرٌ حديديةٌ مستديرة عميقة.

ملاً هذه القدر جزئياً بالماء الذي اغترفه بنصف قشرة من نبات القرع، من جرّة طينية بالحوار. لكنّه اغترف الماء بحذرٍ؛ لأنّه كان ثميناً.

بعد ترددٍ، رفع الجرة فجأةً، وأفرغ الماء كلّ داخل القدر. سيغسل جسده بأكمله في هذا اليوم؛ لم ينظر أحد لجسده منذ أن كان طفلاً على ركة أمه، لكنّ هناك من سينظر إليه اليوم، ويريده أن يكون نظيفاً.

دار حول الفرن، وذهب خلفه، وانتقى حفنة من الأعشاب الجافة والسيقان القائمة في ركن المطبخ، وربّتها بعناية في فُوّه الفرن؛ ليستفيد لأقصى حدّ من كل ورقة. أشعل لهباً بحجر صوانٍ قديمٍ وقطعة حديدٍ، ودفع به وسط القشّ فاشتعلت النار.

كان هذا هو صباح اليوم الأخير الذي سيضطرّ فيه إلى إشعال النار. لقد أشعلها كلّ صباح، منذ وفاة والدته قبل ست سنواتٍ. أشعل النار، وغلّى الماء، ثم صبّ الماء في الوعاء، وحمله إلى الغرفة، حيث كان والده يجلس على فراشه، وهو يسعل ويتحسّس حذاءه على الأرض. انتظر العجوز ابنه كلّ صباحٍ خلال تلك السنوات الست ليحلب له الماء الساخن لتخفيف سُعاله الصباحي. صار بوسع الأب والابن أن يستريحا الآن. هناك امرأةٌ قادمة للمنزل. لن يضطرّ وانج لونج إلى الاستيقاظ فجراً مرّةً أخرى صيفاً وشتاءً لإشعال النار. بوسعه أن يرقد في فراشه ويتنظر، وسيُجلب إليه أيضاً وعاءٌ من الماء. وفي حال ما إذا جادت الأرض بالثمر، ستكون هناك في الماء أوراق الشاي. كان ذلك يحدث مرّةً كل بضع سنواتٍ.

ولو اعترى المرأة التعب، سيكون هناك أولادها لإشعال النار: الأطفال العديدون الذين ستلدهم لوانج لونج. توقّف وانج لونج، وقد سرّه التفكير في الأطفال وهم يركضون دخولاً وخروجاً من غرفهم

الثلاث. لطالما بدت ثلاث غرفٍ زائدة على الحدِّ بالنسبة لرجلين، حيث بات نصف المنزل فارغاً منذ وفاة والدته. كان عليهما دوماً مقاومة الأقارب بعدد أطفالهم المتزايد- وخاصة عمّه المتملّق، الذي لديه عددٌ لا متناهٍ من الأبناء.

- كيف يمكن أن يحتاج رجلان وحيدان الآن إلى كلّ هذه المساحة الكبيرة؟ ألا يمكن أن ينام الأب والابن معاً، بحيث يخفف دفء جسد الشاب من سُعال العجوز؟

لكنّ الأب كان دوماً يجيب:

- أنا أحتفظ بفراشي لحفيدي. سوف يدفئ هو عظامي في شيخوختي.

كان الأحفاد في طريقهم للقدوم الآن. أحفادٌ وراء أحفادٍ! سيتعيّن عليهم وضع أسرةٍ بحذاء الجدران، وفي الغرفة الوسطى. سيتملىء المنزل بالأسرة. خمدت النيران في الفرن بينما وانج لونج يفكر في كلّ الأسرة التي ستشغل المنزل نصف الخالي، وبدأ الماء يبرد في القدر. ظهرت هيئة ظلّ العجوز في المدخل، وهو يمسك حول جسده بملابسه التي كانت أضرارها مفكوكة. كان يسعل ويصق ويلهث.

- كيف لا يوجد ماءٌ حتّى الآن لتدفئة رئيّ؟

حدّق به وانج لونج وهو ينتبه لنفسه، وأحسّ بالخجل.

تمتم قائلاً، من خلف الموقد:

- هذا الوقود رطبٌ. الريح الرطبة...

استمرّ العجوز في السُّعال على نحوٍ متواصلٍ، ولم يتوقّف حتّى علَى الماء. صبّ وانج لونج بعضًا منه في إناءٍ، وبعد لحظةٍ فتح جرّةً لأمعةً تقبع على حافة الموقد، وتناول منها حوالي دسّة من الأوراق الجافّة الملتفّة، ونثرها على سطح الماء. اتّسعت عينا العجوز بشراهةٍ، وشرع في الشكوى على الفور.

- لِمَ أنت مبذّر؟ تناول الشاي يعادل أكل الفضة.

أجاب وانج لونج بضحكةٍ قصيرةٍ:

- اليوم هو اليوم الموعود، تناول الطعام، وليهنأ بالكلّ.

قبض العجوز على الإناء بأصابعه المغضّنة الخشنة، وهو يتمتم، ويطلق همهماتٍ خافتة. راقب الأوراق وهي تنفرد وتنتشر على سطح الماء، عاجزًا عن أن يتحمّل شرب السائل الثمين.

قال وانج لونج:

- سيكون الجو باردًا.

قال العجوز باضطرابٍ:

- صحيح، صحيح.

وشرع يتناول جرعاتٍ كبيرة من الشاي الساخن. اعتراه شعورٌ حيوانيٌّ بالرّضى، مثل طفلٍ ركّز جُلَّ اهتمامه على طعامه. إلّا أنّه لم يفته الانتباه لوانج لونج وهو يغترف الماء بتهوّرٍ من القدر إلى حوضٍ خشبيٍّ عميقٍ. رفع رأسه، وحدّق بابه.

قال فجأةً:

- هذا قدرٌ من الماء يكفي لإنبات المحصول.

استمرّ وانج لونج في اغتراف الماء حتّى آخر قطرة، ولم يُحرّ جوابًا.

صاح والده بصوتٍ مرتفعٍ:

- حسنًا، إذن!

قال وانج لونج بصوتٍ خفيضٍ:

- لم أغسل جسدي كلّ دفعّة واحدة منذ مطلع العام الجديد.

خجل أن يقول لوالده إنّه يتمنّى أن يكون جسده نظيفًا حين تراه المرأة. أسرع خارجًا وهو يحمل الحوض لغرفته. تعلّق الباب دون إحكامٍ على إطار خشبي مُعَوّجٍ، ولم يكن يُغلّق تمامًا. ترنّح العجوز ماشيًا إلى الغرفة الوسطى، وألصق فمه إلى الفتحة صائحًا:

- سيكون أمرًا سيئًا لو بدأنا مع المرأة هكذا. شاي في الماء صباحًا،

وكل هذا الاغتسال!

صاح وانج لونج:

- إنه يومٌ واحدٌ فقط.

ثم أضاف قائلاً:

- سأصبّ الماء على الأرض عندما أنتهي، ولن يُهدّر كلّ هذا.

صمت العجوز عندها، وحلّ وانج لونج حزامه، وخلع ملابسه. في الضوء المتدفق من الفتحة على هيئة كتلة مربعة، اعتصر منشفة صغيرة من الماء الساخن، ودعك جسده النحيل الداكن بقوة. على الرغم من

اعتقاده أنَّ الهواء كان دافئاً، فقد أحسَّ بالبرد عندما صار جسده مبتلاً. تحرَّك مسرعاً، وهو يُدخِل ويُخرج المنشفة من الماء حتَّى تصاعدت من جسده بأكمله سحابةٌ رقيقةٌ من البخار. توجهَ بعدها نحو صندوقٍ كان لأمه، وأخرج منه ثوباً نظيفاً من القطن الأزرق. ربما يشعر بالبرد بعض الشيء في هذا اليوم دون بطانة ملابسه الشتوية، إلا أنَّه شعر فجأةً أنَّه لا يطيق ارتدائها على جسده النظيف. كان غطاؤها قدراً ومُمرَّقاً، وقد علق الحشو خارجاً من الثقوب، رمادياً ومبللاً. لم يرغب أن تراه هذه المرأة لأول مرة والحشو يتدلَّى خارجاً من ملابسه. سيتعيَّن عليها لاحقاً أن تغسلها وترتقها، لكن ليس في اليوم الأول. ارتدى فوق السترة القطنية الزرقاء والسرّوال رداءً طويلاً مصنوعاً من الخامة ذاتها - رداءه الوحيد الطويل الذي يلبسه في أيام الأعياد فقط، حوالي عشرة أيام في العام في المجمل. ثم بأصابعه السريعة، حلَّ جديدة شعره الطويلة المتدلّية على ظهره، وتناول مشطاً خشبياً من درج الطاولة الصغيرة غير المستقرة، وبدأ يمشط شعره.

اقترب والده مرّةً أخرى، وألصق فمه في شقّ الباب. اشتكى قائلاً:
- ألن أتناول أيّ طعام اليوم؟ في سنّي هذه تكون العظام كالماء في الصباح، حتّى يُقدّم لها الطعام.

قال وانج لونج، وهو يضفّر شعره بسرعة وسلاسة، وينسج بين خصلاته رباطاً من الحرير الأسود المُزَيّن بشراشيب:
- أنا قادمٌ.

خلع رداءه الطويل بعد لحظة، ولفَّ جديدته حول رأسه، وخرج

حاملًا حوض الماء. نسي أمر الإفطار تمامًا. سيقَلَّب القليل من الماء في دقيق الذرة، ويقَدِّمه لوالده. أمَّا عنه هو، فلم يكن بوسعه تناول الطعام. ترنَّح حاملًا الحوض إلى العتبة، وسكب الماء على الأرض في أقرب بقعة بالقرب من الباب. بينما هو يفعل ذلك، تذكَّر أنَّه استخدم كلَّ الماء الموجود بالقدر للاستحمام، وسيضطرَّ إلى إشعال النار ثانية. اعترته موجةٌ من الغضب حيال والده.

تمتم في فُوْهة الفرن قائلاً:

- ذلك العجوز، لا يفكر في شيء سوى طعامه وشرابه.

لكنَّه لم يُقل شيئاً بصوتٍ مرتفع. كان ذلك هو صباح اليوم الأخير الذي سيضطرَّ فيه إلى إعداد الطعام للعجوز. وضع كمية ضئيلة للغاية من الماء في القدر، بعد أن سحبها في دلوٍ من البئر المجاور للباب. غلى سريعاً، فقلَّب الوجبة، وأخذها للعجوز.

قال:

- ستتناول الأرز هذه الليلة يا أبي. وفي الوقت الحالي، إليك بعض الذرة.

قال العجوز، وهو يجلس إلى المائدة في الغرفة الوسطى، ويقَلَّب العصيدة الصفراء السمكية بأعواد الطعام:

- لم يتبقَّ سوى القليل من الأرز في السلة.

قال وانج لونج:

- إذن سنأكل أقل بعض الشيء في عيد الربيع.

لكنَّ العجوز لم يسمعه. كان يتناول طعامه من طبقه بصوتٍ مرتفعٍ. عندها ذهب وانج لونج إلى غرفته، ولفَّ حول جسده مرَّةً أخرى رداءه الأزرق الطويل، وأسدل جديدة شعره. مرَّ يده على جبينه الحليق وعلى وجنتيه. ربما كان من الأفضل أن يحلق مجدداً؟ بالكاد حان وقت شروق الشمس. بوسعه المرور عبر شارع الحلاقين، والحلاقة قبل الذهاب إلى المنزل حيث تنتظره المرأة. سيقوم بذلك لو كان بحوزته المال.

تناول من حزامه كيساً صغيراً من القماش الرمادي مُبقِعاً بالدهون، وأحصى النقود الموجودة بداخله. كانت هناك ستة دولارات فضيَّة، وحفتان من العملات النحاسيَّة. لم يُخبر والده بعد أنَّه دعا أصدقاءه لتناول الطعام تلك الليلة. دعا الابن الأصغر لعمِّه، ودعا عمِّه من أجل والده، وثلاثة مزارعين من الجيران الذين يعيشون بالقرية. كان قد خطَّط لأن يُحضِر من البلدة ذلك الصباح لحم الخنزير، وسمكة صغيرة من أسماك البرك، وحفنة من الكستناء. ربما يشتري حتَّى بعض فروع الخيزران الغضَّة من الجنوب، وقليلًا من لحم البقر ليطهيه مع الكرنب الذي زرعه في حديقته. لكنَّ هذا فقط في حال ما إذا تبقى أيُّ مالٍ بعد شراء زيت الفول وصلصة حبوب الصويا. إذا حلق رأسه، فربما لا يتمكَّن من شراء لحم البقر. حسنًا، قرَّر فجأةً أنَّه سيحلق رأسه.

ترك العجوز دون حديثٍ، وخرج في الصباح الباكر. على الرغم من الفجر الأحمر الداكن، كانت الشمس تعتلي السحب في الأفق، وتتلألأ على الندى فوق القمح والشعير النامي. تشتَّت انتباه وانج لونج المزارع

للحظة، وانحنى ليتفحص قمم السنابل. كانت لا تزال فارغة، بانتظار المطر. تشمّم الهواء، وتأمل السماء بقلق. كان المطر هناك وقد أظلمت به السحب، وأثقلت به الريح. سيشتري عودًا من البخور؛ ويضعه في المعبد الصغير لإله الأرض. سيقدّم على ذلك في يومٍ مثل هذا.

شقّ طريقه بين الحقول على الطريق الضيق. ارتفع سور المدينة الرمادي على مسافة قريبة. عبر تلك البوابة في السور، والتي كان سيمرُّ من خلالها، كان يقع المنزل الكبير حيث كانت المرأة جارية منذ طفولتها: منزل هوانج. كان هناك من يقول: «إنّه من الأفضل أن يعيش المرء بمفرده، عوضًا عن أن يتزوج من امرأة كانت جارية في منزلٍ كبيرٍ».

لكن عندما قال لوالده:

- ألن تكون لي امرأةً أبدًا؟

أجاب والده قائلاً:

- مع تكلفة الأعراس في هذه الأيام اللعينة، وكلّ امرأةٍ تريد الخواتم الذهبية والملابس الحريرية قبل أن تقبل رجلًا، لم يبقَ للفقراء سوى الجوّاري.

عندها، تحرّك والده بنفسه، وذهب إلى منزل هوانج، وسأل إن كانت لديهم جارية يمكنهم الاستغناء عنها.

قال:

- ليست جارية صغيرة للغاية في السنّ، وفوق كلّ شيء، ليست جميلة.

عانى وانج لونج بسبب أنّها لن تكون جميلة. سيكون أمراً رائعاً أن تكون لديه زوجة جميلة، يهتّئ عليها الرجال الآخرون. عندما لمح والده السخط على ملامحه، صاح فيه قائلاً:

- وما الذي سنفعله بامرأة جميلة؟ يجب أن تكون لدينا امرأة تهتمّ بالمنزل، وتحمل الأطفال بينما تعمل في الحقول. هل ستقوم المرأة الجميلة بهذه الأشياء؟ سيظلّ تفكيرها منشغلاً طوال الوقت بالملابس التي تليق بملامحها! لا، لن تكون لدينا امرأة جميلة في منزلنا؛ نحن مزارعون. علاوة على ذلك، فهل سبق وأن سمع عن جارية جميلة وعذراء في منزلٍ ينعم بالثراء؟ سيكون كلّ الأسياد الشباب قد نالوا منها حتّى الشيع. من الأفضل أن تكون الأوّل مع امرأة قبيحة، عن أن تكون رقم مئة مع امرأة جميلة. هل تظن أن امرأة جميلة ستعتقد أنّ يديّ المزارع اللتين تمتلكهما أنت ممتعتين كالأيدي الناعمة لابن رجلٍ ثريٍّ، وأنّ وجهك الذي اسودّ بفعل الشمس جميلٌ كالبشرة الذهبية التي يمتلكها الآخرون ممن استمتعوا بها؟

كان وانج لونج يعرف أنّ والده أجاد القول. على الرغم من ذلك، اضطرّ إلى أن يجاهد نفسه قبل أن يتمكّن من الإجابة. ثم قال بعنفٍ:

- على الأقل لن اتّخذ امرأة مشوّهة من آثار الجدري، أو لديها شقّة عليا مشقوقة.

أجاب والده:

- علينا أن نرى ما هو متاح.

حسنًا، لم تكن المرأة مشوّهة من آثار الجدري، ولم تكن شفّتها العليا مشقوقة. كان يعرف هذا القدر، ولا شيء أكثر من ذلك. اشترى هو ووالده خاتمين من الفضة المطلية بالذهب، وقرطاً من الفضة، أخذهم والده إلى مالك المرأة لإعلان الخطبة. لم يكن يعرف أبعد من ذلك عن المرأة التي ستكون من نصيبه، سوى أنّه بوسعه الذهاب ليجلبها هذا اليوم.

مشى عبر العتمة الباردة لبوابة المدينة. كان السقّاءون بالخارج مباشرة، بعرباتهم المُحمّلة بأحواضٍ ضخمة من الماء، والتي تمرّ جيئةً وذهاباً طوال اليوم، والمياه تتناثر من الأحواض على الحجارة. كان الجو دوماً رطباً وبارداً في نفق البوابة، أسفل الجدار السميك المُشيّد من الطين واللّبن. كان رطباً حتّى في أيام الصيف، لذا كان باعة البطيخ يفرشون ثمارهم على الحجارة، وقد شقّوا البطيخ ليتشرب الرطوبة الباردة. لم يكن هناك أيُّ بطيخ، حيث لم يحن الموسم بعد. لكنّ سلاّلاً من الخوخ الصغير الأخضر الصلب تراصّت بحذاء الجدران، وصاح البائع قائلاً:

- أوّل خوخٍ في الربيع، أوّل خوخ! اشترِ، وكُل، وطهّر أمعاءك من سموم الشتاء.

قال وانج لونج لنفسه:

- لو كانت تحبّه، سأشتري لها حفنة عندما نعود.

لم يستطع تخيّل أنّه عندما يسير عائداً عبر البوابة، ستكون هناك امرأةٌ تسير خلفه.

انعطف يميناً داخل البوابة، وبعد لحظة كان في شارع الحلاقين. لم يسبقه سوى عددٍ قليلٍ للغاية في مثل هذا الوقت المبكر: مجرد بعض المزارعين الذين حملوا محاصيلهم للمدينة الليلة السابقة كي يبيعوا خضراتهم في أسواق الفجر، ثم يعودوا للعمل اليومي في الحقول. خلدوا للنوم وهم يرتجفون، جالسين القرفصاء فوق سلالهم، وقد أضحت السلال الآن خالية عند أقدامهم. تفاداهم وانج لونج حتى لا يتعرّف عليه أحدهم، فلم يكن يرغب في أيّ من مزاحهم في هذا اليوم. وقف الحلاقون وراء أكشاكهم الصغيرة في صفٍّ طويلٍ، بطول الشارع. توجّه وانج لونج إلى أبعدهم، وجلس على المقعد، وأشار للحلاق الذي وقف يثرثر مع جاره. حضر الحلاق على الفور، وشرع يصبّ الماء الساخن بسرعة من برادٍ في قدرٍ من الفحم إلى حوضه النحاسي.

قال بنبرة احترافية:

- حلاقة كاملة؟

أجاب وانج لونج:

- رأسي ووجهي.

سأله الحلاق:

- هل أنظف أذنيك، وفتحتي أنفك؟

سأل وانج لونج بحذر:

- كم يتكلّف ذلك علاوة على ما سبق؟

قال الحلاق:

- أربعة بنسات.

وبدأ يغمس قطعة من القماش الأسود في الماء، ويخرجها ثانية.

قال وانج لونج:

- سأعطيك اثنين.

أجاب الحلاق على الفور:

- إذن سأنظف أذنًا واحدة وفتحة أنفٍ واحدة. على أيٍّ من جانبي

وجحك تريد القيام بذلك؟

لوى قسّمت وجهه نحو الحلاق المجاور بينما هو يتحدث،
وانفجر الآخر مقهقهًا. أدرك وانج لونج أنّه وقع بين يدي مهرجٍ، وأحسَّ
بالدونية على نحوٍ غير قابلٍ للتفسير، مثلما كان يفعل دومًا حيال سكان
المدن هؤلاء، على الرغم من أنّهما كانا مجرد حلاقين، ومن أقل الناس
شأنًا. قال بسرعة:

- كما تشاء، كما تشاء.

ثم استسلم لصابون الحلاق وفركه وحلقه. في نهاية الأمر، منحه
الحلاق - دون أي تكلفة إضافية - حيث كان رجلًا كريمًا بما فيه الكفاية،
سلسلة من الضربات الماهرة على كتفيه وظهره لإرخاء عضلاته. علّق
على وانج لونج، بينما هو يحلق أعلى جبينه:

- لن يكون هذا المزارع سيئ المظهر لو قام بقصّ شعره. تقتضي

الأناقة الحديثة قصّ الجديلة.

حام بموسه بالقرب من دائرة الشعر التي تعلو قمة رأس وانج لونج،
فصاح وانج لونج قائلاً:

- لا يمكنني قصّها دون استئذان والدي!

فضحك الحلاق، وتجنّب بقعة الشعر المستديرة.

عند الانتهاء من الأمر، وإحصاء المال في يد الحلاق المُجعّدة
والمُبَلّلة بالماء، انتاب الرعب وانج لونج لوهلة. كل هذا القدر من
المال! لكن بينما هو يسير في الشارع ثانية والريح منعشة على جلده
الحليق، قال لنفسه:

- إنّها مرّة واحدة فحسب.

بعد ذلك، ذهب إلى السوق واشترى رطلين من لحم الخنزير،
وراقب الجزار وهو يلفّها بورقة لوتس جافّة، ثم تردّد قبل أن يشتري
أيضاً ست أواقٍ من لحم البقر. عندما اشترى كلّ شيء، حتّى
المكعبات الطازجة من جبن حليب فول الصويا التي ترتعش مثل
الهلام فوق الورق، ذهب إلى متجر صانع الشموع حيث اشترى
عودين من أعواد البخور. ثم استدار بخطواتٍ يملؤها الخجل
متوجّهاً إلى منزل هوانج.

ما إن وصل إلى بوابة المنزل حتّى غمره الرعب. كيف أتى وحده؟
كان عليه أن يطلب من والده، أو عمّه، أو حتى أقرب جيرانه، تشينج، أو
أي شخصٍ أن يأتي معه. فلم يسبق وأن دخل منزلاً كبيراً من قبل. كيف
يمكنه الدخول حاملاً وليمة زفافه على ذراعه ليقول:

- لقد جئتُ من أجل امرأة؟

وقف أمام البوابة لفترة طويلة وهو يتأملها. كانت مغلقة بإحكام: بوابتان خشبيتان ضخمتان مطليتان بالأسود، ملفوفتان ومرصعتان بالحديد، ومغلقتان على بعضهما. انتصب أسدان حجريان للحراسة، واحدٌ من كلِّ جانبٍ. لم يكن هناك أيُّ شخصٍ آخر. استدار مبتعدًا. بدا الأمر مستحيلًا.

شعر بالإعياء فجأة. سيذهب أولاً ويشتري بعض الطعام. لم يتناول شيئًا- كان قد نسي الطعام. دخل مطعمًا صغيرًا في الشارع، ووضع بنسئِن على الطاولة وجلس. اقترب منه صبيٌّ قذرٌ يرتدي مئزرًا أسودَ لامعًا، فناده قائلاً:

- طبقين من الشعرية!

عند وصولهما، التهمهما بنهم، وهو يدفعهما داخل فمه بأعواد طعامه المصنوعة من الخيزران، بينما وقف الصبي وهو يدير العملات النحاسية بين إبهامه الأسود والسبابة.

سأله الصبي دون اكتراثٍ:

- هل ستتناول المزيد؟

هزّ وانج لونج رأسه. اعتدل جالسًا وتلفّت حوله. لم يكن هناك أحدٌ ممن يعرفهم في الغرفة الصغيرة المظلمة المزدحمة المليئة بالطاولات. جلس عددٌ قليلٌ فقط من الرجال، يتناولون الطعام أو يحتسون الشاي. كان مكانًا للفقراء، وبدا وسطهم أنيقًا ونظيفًا، ويكاد يكون ميسورَ الحال، حتّى إنّ متسولًا عابرًا ولول تجاهه، قائلاً:

- فليكن قلبك طيباً، أيُّها المُعلِّم، ولتعطني عملة صغيرة؛ أنا أتضوّر
جوعاً!

لم يسبق لوانج لونج وأن طلب متسوّل منه المال من قبل، كما لم
يسبق وأن ناداه أحدٌ بالمُعَلِّم. شعر بالسرور، وألقى في وعاء المتسوّل
عملتين صغيرتين مقدار كل منهما خمس بنسٍ، فسحب المتسوّل
بسرعة يده الشبيهة بالمخلب الأسود، وقبض على النقود، وأخفاها
داخل ملابسه المهلهلة.

جلس وانج لونج، وارتفعت الشمس للأعلى. ظلّ الصبي المنتظر
يتسكّع حوله بفارغ الصبر. قال بوقاحة في نهاية الأمر:

- إذا لم تكن ستشتري شيئاً آخر، فسوف يتعيّن عليك دفع إيجار
المقعد.

استشاط وانج لونج غضباً من هذه الوقاحة، وكان سينهض، لولا
أنّه عندما فكر في دخول منزل هوانج الكبير وطلب امرأة هناك، تصبّب
جسده بأكمله عرقاً، وكأنّه يعمل في أحد الحقول. قال بوهنٍ للصبي:
- أحضر لي الشاي.

قبل أن يستدير، وصل الشاي، وسأله الصبي بحدّة:

- أين البنس؟

أحسّ وانج لونج بالصدمة عندما وجد أنّه لا مفرّ من إخراج بنسٍ
آخر من حزامه.

تمتم قائلاً رغماً عنه:

- هذه سرقة.

ثم شاهد جاره الذي دعا إلى الوليمة وهو يدخل المحل، فوضع البنس على المائدة في عجلة وجرع الشاي دفعة واحدة، وخرج مسرعاً من الباب الجانبي، وعاد إلى الشارع مرّة أخرى.

قال مخاطباً نفسه بيأس:

- يجب القيام بالأمر.

واستدار ببطء في طريقه نحو البوابات الضخمة.

كانت البوابات مواربة هذه المرّة، حيث كان الوقت بعد منتصف الظهيرة، وحارس البوابة متكاسلاً عند العتبة وهو ينظف أسنانه بشظية من الخيزران بعد تناول وجبته. كان رجلاً طويل القامة، لديه شامة كبيرة على خدّه الأيسر، وتدلت من الشامة ثلاث شعرات سوداء طويلة لم تُقص قط. صاح بخشونة عندما ظهر وانج لونج، حيث ظنّ -بسبب السلّة- أنّه أتى لبيع شيئاً ما.

- حسناً إذن، ماذا هناك؟

أجاب وانج لونج بصعوبة بالغة:

- أنا وانج لونج، المزارع.

ردّ حارس البوابة، الذي لم يكن مهذباً مع أحدٍ باستثناء الأصدقاء الأثرياء لسيده وسيدته:

- حسناً أيّها المزارع وانج لونج، ماذا تريد؟

تلعثم وانج لونج قائلاً:

- لقد أتيتُ ... لقد أتيتُ ...

قال حارس البوابة بصبرٍ مدروسٍ، وهو يبرم الشعرات الطويلة بشامته:

- أرى هذا.

قال وانج لونج وصوته يخفتُ هامساً في عجزٍ:

- هناك امرأة.

كان وجهه مبتلاً تحت أشعة الشمس.

أطلق حارس البوابة ضحكة صاخبة. صاح قائلاً:

- أنتَ هو، إذن! أخبروني أن أتوقع وصول عريسٍ اليوم. لكنني لم أتعرف عليك والسلة فوق ذراعك.

قال وانج لونج معتدراً، وهو ينتظر من حارس البوابة أن يقوده للداخل:

- إنها مجرد قليلٍ من اللحوم.

لكن حارس البوابة لم يتحرّك. أخيراً، قال وانج لونج بقلبي:

- هل أذهب وحدي؟

تصنّع حارس البوابة الرعب.

- سيقتلُك السيد العجوز!

ثم لاحظ أنَّ وانج لونج بالغ السذاجة، وقال:

- القليلُ من الفضة مفتاحٌ جيّد.

رأى وانج لونج أخيرًا أنَّ الرجل يريد منه المال. قال متوسِّلًا:

- أنا رجلٌ فقيرٌ.

قال حارس البوابة:

- دعني أرى ما لديك في حزامك.

ابتسم عندما وضع وانج لونج سلَّته بالفعل فوق الأحجار بكل سداجة، ورفع رداءه ليخرج الكيس الصغير من حزامه، وأفرغ في يده اليسرى ما تبقى من نقودٍ بعد مشترياته. كانت هناك قطعةٌ واحدةٌ من الفضة، وأربعة عشر بنسًا نحاسيًا.

قال حارس البوابة ببرودٍ:

- سأخذ الفضة.

وقبل أن يتمكن وانج لونج من الاحتجاج، وضع الرجل الفضة داخل كمِّه، وكان يتقدَّم عبر البوابة بخطى واسعة، صائحًا بصوتٍ مرتفعٍ:

- العريس، العريس!

على الرغم من غضبه ممَّا حدث للتو، وخوفه من هذا الإعلان الصاخب عن قدومه، إلَّا أنَّ وانج لونج لم يستطع القيام بشيءٍ سوى أن يتبعه، وهذا هو ما فعله بعد أن التقط سلَّته، دون أن يتلَفَّت يمينًا أو يسارًا.

بعد ذلك، على الرغم من أنَّها كانت المرَّة الأولى التي يدخل فيها منزل أسرة ذات مكانة، إلَّا أنَّه لم يتمكن من تذكر أي شيءٍ. قَطَعَ ساحةً تَلُو الأخرى، ووجهه مخضَّبٌ بالحمرة ورأسه محنيٌّ، سامعًا

ذلك الصوت يهدر أمامه، ورنين الضحك من كلِّ جانبٍ. ثم فجأة، وعندما بدا له أنه عَبَر مئة ساحة، صمت حارس البوابة، ودفعه إلى غرفة انتظارٍ صغيرة. وقف وحده هناك بينما ذهب حارس البوابة إلى مكانٍ ما بالداخل، وعاد بعد لحظة ليقول:

- تقول السيدة المبجلة إنَّ عليك المثل أمامها.

شرع وانج لونج يتقدَّم للأمام، لكن حارس البوابة أوقفه، صائحًا باشمئزاز:

- لا يمكنك الظهور أمام سيدة ذات مكانة حاملاً سلَّة على ذراعك! سلَّة من لحم الخنزير وجبن حليب فول الصويا! كيف ستتحني؟ قال وانج لونج بتوتر:

- هذا حقيقيُّ، هذا حقيقيُّ.

لكنه لم يجرؤ على إنزال السلَّة، لأنَّه كان يخشى أن يُسرق منها شيءٌ ما. لم يخطر بباله أنَّ باقي العالم قد لا يطعم في أطعمة لا تعدو مجرد رطلين من لحم الخنزير، وست أواقٍ من لحم البقر، وسمكة صغيرة من البركة. رأى حارس البوابة خوفه، فصاح بازديادٍ بالغ:

- في منزلٍ كهذا نُطعم مثل هذه اللحوم للكلاب!

اختطف السلَّة ملقيًا إياها خلف الباب، ودفع وانج لونج أمامه.

سارا عبر شرفة طويلة ضيقة، أسقفها مرفوعة على أعمدة دقيقة منحوتة، وولجاً قاعةً لم يرَ وانج لونج مثيلاً لها من قبل. كان يمكن وضع مجموعة من المنازل في حجم منزله بداخلها، وكانت ستختفي،

فلهذا الحدّ كانت المساحات شاسعة والأسقف مرتفعة. رفع رأسه متعجبًا ليتأمل الأعمدة الضخمة المنحوتة والمرسومة فوقه، وتعثّر في عتبة الباب المرتفعة. كان سيسقط لولا أن أمسك حارس البوابة بذراعه، وصاح قائلاً:

- الآن هل ستكون مهذبًا، بحيث ترتمي على وجهك هكذا أمام السيدة المبحّلة؟

استجمع وانج لونج نفسه بخجلٍ شديدٍ، ونظر أمامه، فرأى على منصّة في وسط الغرفة سيدة عجوزًا للغاية، وقد اكتسى جسدها الضئيل الرقيق بساتانٍ رماديٍّ لؤلؤيّ لامعٍ. على المقعد المنخفض بجوارها كان هناك غليونٌ من الأفيون المشتعل فوق مصباحٍ صغيرٍ. تأملته بعينين سوداوين صغيرتين ثاقبتين، غائرتين وحادتين كعيني قردٍ، وسط وجهها النحيف المغضّن بالتجاعيد. كان جلد يدها الممسكة بطرف الغليون مشدودًا فوق عظامها الصغيرة، في نعومة وصفار الذهب الذي يكتسي به الصنم. خرّ وانج لونج على ركبتيه، وخط رأسه على الأرض المبلّطة.

قالت العجوز بجلالٍ لحارس البوابة:

- ارفعه. لا داعي لهذا التبجيل. هل أتى من أجل المرأة؟

أجاب حارس البوابة:

- أجل، أيتها السيدة المبحّلة.

سألت السيدة العجوز:

- لم لا يتحدّث بنفسه؟

قال حارس البوابة، وهو يبرم شعر شامته:

- لأنَّه أحمق، أيتها السيدة المبعَّلة.

أثار ذلك غضب وانج لونج، ونظر بسخطٍ نحو حارس البوابة. قال:

- أنا مجرد شخصٍ فظٍّ، أيتها السيدة المبعَّلة الكبيرة. لا أدري أي كلماتٍ عليَّ التفوَّه بها في مثل هذا الحضور.

تفحَّصته السيدة العجوز بعنايةٍ، وبدت وكأنَّها على وشك الحديث بجديةٍ كبيرة، لكن يدها قبضتُ على الغليون الذي كانت إحدى الجواري تتولَّى أمره، وظهر وكأنَّها نسيت شأنه على الفور. انحنت ودخنت الغليون بشراهة للحظة، وتلاشت الحدة من عينيها اللتين حلَّت عليهما غمامةٌ من النسيان. بقي وانج لونج واقفاً أمامها، حتَّى لمحت عيناها هيئته على نحوٍ عابرٍ.

سألت بغضبٍ مفاجئ:

- ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟

بدت وكأنَّها نسيت كلَّ شيء. ظلَّت ملامح حارس البوابة ثابتة، ولم يقل شيئاً.

قال وانج لونج بدهشةٍ شديدة:

- أنا في انتظار المرأة، أيتها السيدة المبعَّلة.

شرعت العجوز قائلة:

- المرأة؟ أي امرأة؟

لكن الجارية الواقفة إلى جوارها انحنت هامسة، واستجمعت السيدة نفسها.

- آه، أجل، لقد نسيْتُ لوهلةٍ. إنه أمرٌ بسيطٌ. لقد أتيتَ من أجل الجارية المُسمّاة أولان. أذكر أنّنا وعدنا أحد المزارعين بمنحه إياها كزوجة. هل أنتَ ذلك المزارع؟

أجاب وانج لونج:

- أنا هو.

قالت العجوز لجاريته:

- استدعي أولان بسرعة.

بدتُ وكأنّ صبرها نفذ فجأةً، وترغب في الانتهاء من كلّ هذا، والبقاء بمفردها في سكونِ الغرفة الكبيرة مع غليون الأفيون.

وفي لحظةٍ، ظهرتُ الجارية، بهيئتها العريضة والطويلة إلى حدٍّ ما، مرتديّة سترة قطنية زرقاء نظيفة وسروالاً. ألقى وانج لونج نظرة واحدة، ثم أشاح ببصره وقلبه ينبض. كانت هذه هي امرأته.

قالت السيدة العجوز، دون اهتمام:

- تعالي هنا، أيتها الجارية. لقد أتى هذا الرجل من أجلكِ.

تقدّمتُ المرأة، ووقفتُ أمام السيدة محنيّة الرأس، ويدها معقودتان.

سألته السيدة:

- هل أنتِ مستعدّة؟

أجابت المرأة ببطءٍ، وكأنّها رجع صدى:

- مستعدّة.

سمع وانج لونج صوتها للمرّة الأولى، ونظر لظهرها وهي واقفة أمامه. كان صوتًا جيدًا بما فيه الكفاية، ليس مرتفعًا ولا خافتًا، بل عاديًا وليس عصبياً. كان شعر المرأة مرتّبًا وناعمًا، وسترتها نظيفة. شعر بخيبة الأمل على الفور عندما رأى أنّ قدميها غير مربوطتين. لكنّه لم يستطع التفكير في الأمر، حيث كانت السيدة العجوز تقول لحارس البوابة:

- احمل صندوقها إلى البوابة، ودعهما ينصرفان.

ثم نادَتْ وانج لونج، وقالت:

- فلتقف بجوارها بينما أنا أتحدّث.

وعندما تقدّم وانج لونج، قالت له:

- أتت هذه المرأة لمنزلنا عندما كانت طفلة في العاشرة، وعاشت هنا حتّى الآن، وهي تبلغ من العمر عشرين عامًا. اشتريتها في عامٍ من المجاعة، عندما أتى والداها للجنوب؛ لأنّه لم يكن لديهم ما يتناولونه من الطعام. كانا من الشمال من شانتونج، وقد عادا إلى هناك، ولا أعرف عنهما ما هو أبعد من ذلك. بوسعك أن ترى أنّها تتمتع بالبنية القوية والوجنات العريضة التي لبني جنسها. ستعمل بجدّ من أجلك في الحقل، وفي جلب الماء، وكلّ شيء آخر تتمناه. إنّها لا تتمتع بالجمال، لكنك لست بحاجة إلى ذلك. الأثرياء من الرجال فقط هم من يحتاجون النساء الجميلات لتسليتهم. كما أنّها ليست ذكية أيضًا. لكنّها تفعل ما

تؤمر به، وطبعها هادئ. وهي عذراء على حد علمي. فهي لا تمتلك ما يكفي من الجمال لإغراء أبنائي وأحفادي، حتى لو لم تكن في المطبخ. لو كان هناك أحدٌ ما، فقد كان مجرد خادم. لكن مع وجود عدد لا يُحصى من الجوّاري الجميلات اللاتي ينتقلن بحرية عبر الساحات، أشك أنّه كان هناك أيُّ شخصٍ. خذها وأحسن معاملتها. إنّها جاريةٌ جيّدة، على الرغم من أنّها بطيئةٌ إلى حدٍّ ما وغبيّة. ولو لم أكن أريد اكتساب بعض الفضل في المعبد من أجل حياتي المستقبلية من خلال جلب المزيد من الحياة إلى العالم، لكنت احتفظت بها. فهي ملائمة بما يكفي للمطبخ. لكنني أعمل على تزويج الجوّاري إذا كان أيُّ شخصٍ يريدهن، والأسياذ لا يرغبون فيهن.

وقالت للمرأة:

- أطيعيه، وأنجبي له الأبناء تلو الأبناء. وأحضري طفلك الأول لي كي أراه.

قالت المرأة بخنوع:

- أمرك، يا سيدتي المبحلة.

وقفا مترددين، وشعر وانج لونج بحرج بالغ، وهو لا يعرف هل يتوجّب عليه الحديث أم لا.

قالت السيدة العجوز بنفاد صبر:

- حسنًا، هلاًّ ذهبتما!

وانحنى وانج لونج على عجل، واستدار خارجًا وتبعته المرأة،

وبعدها حارس البوابة حاملاً الصندوق على ظهره. ألقى الصندوق في الغرفة حيث عاد وانج لونج ليجد سلّته، ورفض أن يحمله أبعد من ذلك، وفي الواقع فقد اختفى دون كلمة أخرى.

عندها، استدار وانج لونج نحو المرأة، ونظر إليها لأوّل مرّة. كان وجهها مربعاً وبريئاً، ذا أنفٍ قصيرٍ وعريضٍ، له فتحتان سوداوان عريضتان، وكان فيها واسعاً كجرحٍ عريضٍ بوجهها. كانت عيناها صغيرتين، لهما لونٌ أسود باهتٌ، ومليّتين بحزنٍ دفينٍ. بدا وجهها اعتاد الصمت وعدم الحديث، وكأنّه لا يستطيع الكلام حتّى لو أراد ذلك. تحمّلت نظرات وانج لونج بصبرٍ، دون حرجٍ أو رد فعلٍ، وهي تنتظر ببساطة حتّى يتأمّلها. رأى أنّه من الصحيح أن وجهها يخلو من أي لمحة جمالٍ، كان وجهها أسمر عادياً ارتسم عليه الصبر. لكن لم تكن هناك آثارٌ ندوبٍ على بشرتها الداكنة، كما لم تكن شفتها مشقوقة. رأى قرطه معلقاً في أذنيها، القرط المطلي بالذهب الذي كان قد اشتراه، وفي يديها ارتدت الخواتم التي أعطاه إياها. استدار بفرحة خفيّة. حسناً، صارت لديه امرأة!

قال بفضاضة:

- هاك هذا الصندوق وهذه السلّة.

انحنّت دون النطق بكلمةٍ، ورفعت أحد طرفي الصندوق، ووضعت على كتفها، وترنّحت تحت ثقله وهي تحاول النهوض. شاهدها تقوم بذلك، ثم قال فجأة:

- سأخذ الصندوق. هاك السلّة.

نقل الصندوق إلى ظهره، دون أن يهتم بأفضل رداءٍ لديه، الذي كان يرتديه، بينما تناولتُ هي السلّة وهي لا تزال صامتة. فكر في المئة ساحة التي عبر خلالها، وفي هيئته المثيرة للضحك أسفل حمولته. غمغم قائلاً:

- لو كانت هناك بوابةٌ جانبية... -

أومأتُ برأسها بعد أن فكرت قليلاً، كما لو أنّها لم تفهم ما قاله بسرعة، ثم قادتِ الطريق عبر ساحة صغيرة مهجورة ملأتها الحشائش الضاربة حتّى اختنقت بها البركة. تحت شجرة صنوبر محنية، كانت هناك بوابةٌ قديمةٌ مستديرةٌ، فتحتُ مزلاجها؛ وعبرا منها إلى الطريق.

التفتَ نحوها مرّةً أو مرّتين. تقدّمتُ بشتاتٍ على قدميها الكبيرتين، وكأنّها سارت هناك طوال حياتها، ووجهها العريض خالٍ من أي تعبير. وقف بترددٍ عند بوابة السور، وتحسّس حزامه بيدٍ واحدة؛ بحثاً عن البنسات المتبقية لديه، بينما هو يثبّت الصندوق فوق كتفه باليد الأخرى. أخرج بنسين، واشترى بهما ست حباتٍ من الخوخ الأخضر الصغير. قال بفضاظة:

- خذوها لك، وكليها.

قبضتُ عليها بشراهة، مثلما قد يفعل طفلٌ، وأبقتها في يدها دون حديثٍ. عندما نظر إليها ثانية بينما هما يسيران على حافة حقول القمح، كانت تقضم إحداهما بحذرٍ. لكن عندما رآته ينظر نحوها، أخفتها ثانية بيدها، وأبقتُ فكيتها بلا حراكٍ.

سارا هكذا حتّى وصلا إلى الحقل الغربي، حيث كان المعبد المُكرّس للأرض قائمًا. كان هذا المعبد هيكلاً صغيراً، لا يزيد ارتفاعه على كتف رجلٍ، مبنياً من الطوب الرمادي ومسقوفاً بالقرميد. كان جدّ وانج لونج، الذي عمل في ذات الحقول التي يقضي فيها وانج لونج حياته الآن، قد بناه، جالباً الطوب من المدينة على عربته اليدوية. كانت الجدران مغطاة بالحصّ من الخارج، وقد استعانوا بفنانٍ من القرية ذات مرّة في موسم من المواسم الجيدة ليرسم على الحصّ الأبيض مشهداً للتلال والخيزران. لكنّ الأمطار هطلت على هذه اللوحة طوال أجيالٍ، حتّى لم يتبقّ الآن سوى ظلّ خافتٍ للخيزران، وكادت التلال تختفي بالكامل.

داخل المعبد تحت حماية السقف، جلست هيتان صغيرتان مهيتان من الطين، حيث صُنعا من أرض الحقول المحيطة بالمعبد. كانا يمثلان الإله نفسه، وامراته. اكتسبا بأردية من الورق الأحمر والمُذهّب، وكان للإله شاربٌ ضئيلٌ متدلّ من الشعر الطبيعي. في كلّ عامٍ عند رأس السنة الجديدة، كان والد وانج لونج يجلب أفرخاً من الورق الأحمر، ويقصّ ويلصق بعناية أردية جديدة للزوجين. وفي كل عامٍ كان المطر والثلج يتساقط بالداخل، وتلتمع شمس الصيف داخله حتّى تتلف ملابسهما.

لكن في هذه اللحظة، كانت الثياب لا تزال جديدة، حيث كان العام في بدايته، وشعر وانج لونج بالفخر لأناقة مظهرهما. تناول السلّة من ذراع المرأة، وبحث بعناية أسفل لحم الخنزير عن أعواد البخور التي اشتراها. انتابه القلق من أن يكونا قد انكسرا، ممّا سيشكّل فألاً سيئاً، إلّا

أنَّهما كانا سليمين. عندما عثر عليهما، غرسهما جنباً إلى جنبٍ وسط رماد أعواد البخور الأخرى الذي تكدّس أمام الإلهين، حيث كان الحي بأكمله يعبد هذين التمثالين الصغيرين. ثم بحث عن حجر صوانه وقطعة من الحديد، واستعان بورقة شجرٍ جافّة ليشعل اللهب لإشعال البخور.

وقف الرجل والمرأة معاً أمام آلهة حقولهما. راقبتِ المرأة أطراف أعواد البخور وهي تحمّرُ وتحوّل إلى اللون الرمادي. عندما صار الرماد ثقيلاً، مالتُ للأمام، ودفعتُ قمة الرماد جانباً بسبابتها. بعد ذلك، كما لو أنّها شعرتُ بالخوف مما فعلته، نظرتُ إلى وانج لونج بسرعة، وعيناها خاليتان من التعبير. لكن كان هناك شيءٌ ما أحبه في حركتها. بدا وكأنّها أحسّت أنّ البخور ملئٌ لهما معاً. كانت لحظة بين زوجين. وقفنا هناك في صمتٍ تامٍّ، جنباً إلى جنبٍ، بينما البخور يحترق متحوّلاً إلى رمادٍ. ولأنّ الشمس شرعت في المغيب، حمل وانج لونج الصندوق على كتفه، وتوجّها إلى المنزل.

وقف العجوز عند باب المنزل ليلحق بآخر أشعة للشمس وهي تسقط فوقه. لم يقُم بأيّ حركة عندما اقترب وانج لونج بصحبة المرأة. لم يكن ليليق به أن يعيرها أي انتباهٍ. عوضاً عن ذلك، تظاهر بالاهتمام البالغ بالسحب، وصاح قائلاً:

- تلك السحابة المعلّقة على الطرف الأيسر للهلال الجديد تنبئ بالمطر. سيهطل في موعدٍ لا يتجاوز ليلة الغد.

وعندما رأى وانج لونج يتناول السلّة من المرأة، صاح ثانية:

- هل أنفقت أيّ مالٍ؟

وضع وانج لونج السلّة على الطاولة. قال باقتضاب:

- سيكون هناك ضيوفٌ الليلة.

وحمل الصندوق إلى الغرفة التي كان ينام بها، ووضعها بجوار الصندوق الذي يحوي ملابسه هو. نظر إليه باستغراب. لكن العجوز أتى إلى الباب، وقال بصوتٍ مسموعٍ:

- لا حدّ للمال الذي يُنفَق في هذا المنزل!

شعر بالسعادة سرّاً لأنّ ابنه دعا الضيوف، لكنّه شعر أنّه لا يليق سوى أن يجار بالشكوى أمام زوجة ابنه الجديدة، حتّى لا تعتاد الإسراف منذ البداية. لم يقلّ وانج لونج شيئاً، لكنّه خرج وأخذ السلّة إلى المطبخ، وتبعته المرأة إلى هناك. تناول الطعام من السلّة، قطعة وراء الأخرى، ووضعها على حافة الموقد البارد، وقال لها:

- ها هو لحم الخنزير والبقر والسمك. سيكون هناك سبعة لتناول الطعام. هل يمكنكِ تجهيز الأكل؟

لم ينظر للمرأة وهو يتحدّث. لم يكن ذلك ليبدو لائقاً. أجابت المرأة بصوتها الواضح:

- لقد كنتُ جارية في المطبخ منذ أن دخلت منزل هوانج. كانت هناك لحومٌ في كل وجبة.

أوماً وانج لونج وتركها، ولم يرها ثانية حتّى تراحم الضيوف داخلين. كان عمّه مرِحاً وماكراً وجائعاً، وابن عمّه صبيّاً وقحاً في الخامسة عشرة، والمزارعون خُرَقاً ويتسمون في خجلٍ. كان اثنان

منهما من سكان القرية يتبادل وانج لونج معهما البذور والعمل في وقت الحصاد، وكان أحدهما جاره تشينج، وهو رجلٌ ضئيلٌ هادئ، لا يرغب أبدًا في الحديث ما لم يكن مضطرًا إلى ذلك. بعد أن جلسوا في الغرفة الوسطى وهم يحتجّون ويرفضون شغل المقاعد بدافع من التهذيب، دخل وانج لونج المطبخ ليأمر المرأة بتقديم الطعام. أحسَّ بالسرور حينها عندما قالت له:

- سأناولك الأطباق، لو توليتَ أنتَ وضعها على الطاولة. فأنا لا أحب الخروج أمام الرجال.

شعر وانج لونج بفخرٍ بالغ؛ بأنَّ هذه امرأته ولا تخشى الظهور أمامه، لكنها ترفض الظهور أمام الآخرين من الرجال. تناول الأطباق من يديها عند باب المطبخ، ووضعتها على الطاولة في الغرفة الوسطى، ونادى بصوتٍ مرتفعٍ:

- فلتأكلوا، يا عمي ويا إخوتي.

وعندما قال عمُّه، الذي يهوى المزاح:

- أَلن نشاهد العروس الجميلة؟

أجاب وانج لونج بحزم:

- نحن لم نقترن بعد. ولا يليق أن يراها رجالٌ آخرون حتّى نتمّم زواجنا.

وحثَّهم على تناول الطعام؛ فأكلوا بشهيةٍ من الطعام الطيّب وهم صامتون، حتّى أشاد أحدهم بالصلصة البنية التي على السمك، وأثنى

آخر على لحم الخنزير المطهو جيداً. كرّر وانج لونج قولة مرّة تلو الأخرى:

- إنه طعامٌ رديءٌ، سيئ الإعداد.

لكن بداخله، كان فخوراً بأطباق الطعام، حيث إنّ المرأة مزجت مع اللحوم المتوفرة لديها السكر والخل والقليل من النبيذ وصلصة الصويا، وأبرزت بمهارة كلّ نكهة اللحم نفسه، حتّى إن وانج لونج لم يسبق له وأن تذوّق مثل هذه الأطباق على موائد أصدقائه.

بعد أن تباطأ الضيوف طويلاً تلك الليلة وهم يتناولون الشاي، وانتهوا من المزاح، ظلّت المرأة وراء الموقد. وبعد أن ودّع وانج لونج آخر ضيفٍ، ودخل عندها، كانت منكمشة هناك وسط أكوام القش، نائمة بجوار الثور. كان هناك قشٌّ في شعرها عندما أيقظها، وعندما ناداها رفعت ذراعها فجأة خلال نومها، وكأنّها تحمي نفسها من ضربة متوقعة. بعد أن فتحت عينيها أخيراً، تأمّلت بنظرها الغربية الصامتة، وأحسّ أنّه يواجه طفلة. أخذها من يدها وقادها إلى الغرفة التي اغتسل فيها من أجلها ذلك الصباح، وأشعل شمعة حمراء على الطاولة. أحسّ بالخجل فجأة في هذا الضوء، عندما وجد نفسه بمفرده بصحبة المرأة، واضطرّ إلى أن يذكّر نفسه:

- هذه المرأة لي. يجب إتمام الأمر.

وشرع يخلع ملابسه بثباتٍ. أمّا المرأة، فقد تسلّلت حول ركن الستار، وبدأت تستعد للفراش دون صوتٍ. قال وانج لونج بفضفاضة:

- قبل أن تستلقي، أطفئي النور أولاً.

ثم استلقي، ورفع اللحاف السميك على كتفيه، وتظاهر بالنوم. لكنه لم يكن نائماً. بقي يرتجف، وكلُّ عصبٍ في جسده متيقظاً. وعندما أظلمت الغرفة بعد فترة طويلة، وظهرت الحركة البطيئة الهادئة الزاحفة للمرأة بجواره، امتلأ جسده بالبهجة حتّى كاد ينفجر. أطلق ضحكة مبحوحة وسط الظلام، وقبض عليها.



صارت هناك رفاهية بالحياة. استلقى وانج لونج على فراشه في الصباح التالي، وراقب المرأة التي باتت الآن ملكه بالكامل. قامت ولفّت حولها ملابسها التي ارتخت، وثبتتها بإحكام حول رقبتها وخصرها لتلائم جسدها، وهي تلويها وتلفّها ببطء. ثم أدخلت قدميها في حذائها المصنوع من القماش، وثبتته بالأشرطة التي تتدلى من الخلف. التمع فوقها شريط الضوء الداخِل عبر الفتحة الصغيرة، فرأى وجهها خافتاً. بدا كما هو دون تغيير. كان هذا مصدرًا للدهشة لوانج لونج. شعر وكأنّ الليلة لا بُدَّ وأن تكون قد غيرته. لكن ها هي تلك المرأة، وهي تنهض من فراشه وكأنّها كانت تقوم منه كلّ يوم طوال حياتها. علا سعال العجوز متبرماً من وسط الفجر المعتم، وقال لها:

- خذي لوالدي أولاً وعاءً من الماء الساخن من أجل رثيته.

سألت بصوتٍ يماثل تمامًا صوتها، عندما تحدثت بالأمس:

- هل أضع فيه أوراق الشاي؟

أزعج هذا السؤال البسيط وانج لونج. كان يودُّ أن يقول:

- بالطبع يجب أن تكون هناك أوراق شاي. هل تظنين أننا متسولون؟
كان يتمنى لو اعتقدت المرأة أنهم لا يكثرثون لأمر أوراق الشاي
في هذا المنزل. ففي منزل هوانج بالطبع، كان كل إناء من الماء يصطبغ
بالخضرة من أوراق الشاي. حتى الجارية هناك ربما لم تكن لتشرب
الماء فقط. لكنه كان يعلم أن والده سيغضب إذا قدمت له المرأة الشاي
في اليوم الأول بدلاً من الماء. بالإضافة إلى ذلك، فهما لم يكونا أثرياء
حقاً. لذا أجاب بإهمال:

- الشاي؟ لا، لا. إنه يزيد سُعاله سوءاً.

بعدها استلقى في فراشه، وهو ينعم بالدفع والرضى، بينما المرأة
في المطبخ تشعل النار، وتغلي الماء. كان يود أن ينام، وقد صار بوسعه
ذلك الآن، إلا أن جسده الأحرق الذي ظل يجبره على الاستيقاظ مبكراً
للغاية كل صباح طوال هذه السنوات رفض الخلود للنوم على الرغم من
أنه كان يستطيع ذلك، لذا استلقى هناك، وهو يتذوق ويتلذذ في عقله
وجسده برفاه كسله.

كان لا يزال يشعر بالخجل إلى حد ما من التفكير في امرأته هذه.
انشغل بالتفكير لجزء من الوقت في حقوله وفي حبوب القمح، وفيما
سيكون عليه محصوله إذا هطلت الأمطار، وفي بذور اللفت الأبيض
التي يرغب في شرائها من جاره تشينج إذا اتفقا على السعر، لكن وسط
كل هذه الأفكار التي كانت تشغل باله كل يوم، كانت هناك أفكار جديدة
متشابهة عما صارت عليه حياته الآن، وطراً على باله فجأة وهو يفكر
في الليلة الماضية، أن يتساءل عما إذا كانت معجبة به. كان هذا تساؤلاً

جديدًا. كان قد تساءل فقط عمّا إذا كان هو سيُعجّب بها، وما إذا كانت ستصير مُرضية في فراشه وفي منزله. على الرغم من ملامحها التي تفتقر إلى الجمال، وخشونة جلد يديها، إلّا أنّ جسدها الضخم كان ناعمًا ولم يمسسه أحدٌ، وضحك عندما فكر فيه، نفس الضحكة القصيرة الجامدة التي أطلقها في الظلام الليلة الماضية. لم يرَ الأسياد الشباب إذن ما هو أكثر من ملامح الوجه العادية لجارية المطبخ. كان جسدها جميلًا، وواقرًا وعريضًا، إلّا أنّه كان على الرغم من ذلك ملفوفًا وناعمًا. تمنّى فجأة أن تحبّه بوصفه زوجها، ثم شعر بالخجل.

فُتِحَ الباب، ودخلت بطريقتها الهادئة، وهي تحمل إليه بكلتا يديها وعاءً يتصاعد منه البخار. جلس في الفراش وتناوله. كانت هناك أوراقُ شايٍ طافية على سطح الماء. رفع عينيه إليها بسرعة. انتابها الخوف على الفور، وقالت:

- لم آخذ الشاي للعجوز - فعلت كما أمرت - لكن لك أنت قمتُ

ب...

رأى وانج لونج أنّها خائفة منه، وأحسّ بالسرور، وأجاب قبل أن تنهي الحديث:

- إنّني أعجبني، إنّني أعجبني.

وارتشف الشاي في فمه بصوتٍ مرتفعٍ، تشوبه المتعة.

خامره شعورٌ جديدٌ بالبهجة، أحسّ بالخجل من التعبير عنه حتّى لنفسه:

- امرأتي هذه تميل إليّ بما فيه الكفاية!

بدا له أنّه لم يفعل شيئًا خلال هذه الأشهر التالية سوى مراقبة امرأته هذه. في الواقع، كان يعمل كما فعل دومًا من قبل. حمل معوله على كتفه، وسار إلى حقوله، وزرع صفوف الحبوب، وربط الثور بالمحراث، وحرث الحقل الغربي لزراعة الثوم والبصل. لكنّ العمل كان ترفًا، حيث إنّ كان يستطيع الذهاب لمنزله عندما ترتفع الشمس لذروتها، وسيكون الطعام جاهزًا هناك ليتناوله، وقد مُسح الغبار عن المائدة، وتراصّت فوقها الصحون وأعواد الطعام بشكلٍ منظمٍ. كان يضطرّ في السابق إلى إعداد الوجبات عند عودته، على الرغم من تعبهِ، إلّا إذا شعر العجوز بالجوع قبلها وأعدّ وجبةً صغيرةً، أو خَبَزَ قطعة من الخبز المسطح غير المختمر ليلفّها حول سيقان الثوم.

صار كل ما كان متوفّرًا جاهزًا من أجله الآن، وكان يمكنه الجلوس على المقعد بجوار الطاولة وتناول الطعام على الفور. كانت الأرض الترابية مكنوسة، وكومة حطب الوقود عامرة. عند خروجه في الصباح، كانت المرأة تأخذ المعول المصنوع من الخيزران وحبلاً تجوب بهما الريف، فتحصد بعض الأعشاب هنا، أو غصنًا وحفنة من الأوراق هناك، وتعود في الظهرية بما يكفي لطهي الطعام. شعر الرجل بالسعادة لأنّهم لم يعودوا بحاجة إلى شراء الوقود.

بعد الظهرية، كانت تأخذ معولًا وسلّة وتذهب حاملة إياهما على كتفها إلى الطريق الرئيس المؤدي إلى المدينة؛ حيث تحمل البغال والحمير والخيول الأثقال جيئةً وذهابًا، وكانت تلتقط فضلات الحيوانات

هناك وتحملها إلى المنزل، وتكوّم الروث في الفناء لاستخدامه كسمادٍ في الحقول. فعلتْ هذه الأشياء دون أن تنبس بكلمة، ودون أن يأمرها أحدٌ بذلك. وبحلول آخر النهار، لم تكن ترتاح حتّى يتم إعطام الثَّور في المطبخ، وحتّى تغترف الماء لتمسكه أمام خطمه ليشرّب كما يشاء.

كما أخذتْ ملابسهما المُمزّقة، وبخيطٍ غزلته بنفسها على مغزلٍ من الخيزران من كتلة من القطن، أصلحتها، وحاولتْ تغطية الأجزاء المُمزّقة في ملابسهما الشتوية. أخرجتْ أغطية الفراش إلى الشمس عند عتبة الباب، وخلعتْ الأغطية عن الألفحة وغسلتها وعلّقتها على الخيزران لتجفّ، كما نظّفتِ الألفحة القطنية التي صارتْ صلبة ورمادية بمرور السنوات، وقتلتِ الحشرات التي نمت في ثناياها الخفيّة، وعرضتها جميعها للشمس. يومًا بعد يوم، كانت تفعل شيئًا تلو الآخر، حتى بدتِ الغرف الثلاث نظيفة، بل وتكاد تكون مزدهرة. تحسّن سُعال العجوز، وجلس في الشمس بجانب الجدار الجنوبي للمنزل، وهو نصفُ نائمٍ دومًا، وينعم بالدفء والراحة.

لكنّ هذه المرأة لم تكن تتكلّم قطُّ، سوى لضرورات الحياة المقتضبة. لم يتمكّن وانج لونج من فهمها، وهو يراقبها بينما هي تتحرك بثباتٍ وبطءٍ بين الغرف على قدميها الكبيرتين، ويراقب سرًّا وجهها الهادئ العريض، والنظرة شبه الخائفة الدفينة في عينيها. كان يعرف جسدها البضّ الناعم خلال الليل. لكن أثناء النهار، كانت ملابسها المؤلّفة من سترتها القطنية الزرقاء البسيطة وسروالها تغطي كلّ ما يعرفه، وكانت تبدو كخادمة مخلصة صامتة، ولا تزيد على كونها مجرد

خادمة. ولم يكن من اللائق أن يقول لها: «لِمَ لا تتكلمين؟»، حيث كان يكفي أن تؤدي مهامها.

كان يفكر فيها أحياناً بينما هو يعمل وسط كتل الطين في الحقول. ما الذي رأيته في تلك الساحات المائّة؟ كيف كانت حياتها، تلك الحياة التي لم تشاركه فيها قط؟ لم يعرف أيّ شيء عنها. ثم انتابه الخجل من فضوله، ومن اهتمامه بها. فلم تكن في النهاية سوى مجرد امرأة.

لكن لا يوجد في ثلاث غرفٍ ووجبتين يومياً ما يُبقي امرأة مشغولة، بعد أن كانت جارية في منزلٍ كبيرٍ، واعتادتُ العمل من الفجر حتّى منتصف الليل. في أحد الأيام، عندما كان أمام وانج لونج الكثير من العمل مع القمح النامي، وهو يعزق حوله بمعوله يوماً بعد يوم، حتّى أخذ ظهره ينبض بالتعب، سقط ظلُّها على الأخدود الذي انحنى فوقه، ووقفتُ هناك بمعولها على كتفها. قالت باقتضابٍ:

- لا يوجد شيءٌ أعمله بالمنزل حتّى حلول الليل.

ودون أن تتكلم، أخذتِ الأخدود الواقع إلى يساره، وشرعتُ تعزق في ثباتٍ.

غمرتهما الشمس، حيث كان الوقت في مطلع الصيف، وسرعان ما أخذ وجهها يقطر عرقاً. كان وانج لونج قد خلع سترته، وصار ظهره عارياً، لكنّها كانت تعمل بملابسها الخفيفة التي تغطي كتفيها، فابتلّت والتصقتُ بها مثل جلدها. تحرّكا معاً بإيقاعٍ مثاليٍ دون كلمة، ساعة بعد ساعة، واتحدّ معها بطريقة خففتُ من ألم كدّه. لم تكن لديه فكرة واضحة بخصوص أي شيء، لم يكن هناك سوى هذا التوافق الكامل

في الحركة، وهما يعزقان أرضهما هذه مرة تلو الأخرى في الشمس، هذه الأرض التي شكَّلت منزلهما، وغذَّت جسديهما، وصنعت ألهتهما. كانت الأرض غنيّة وداكنة، وتفتت بخفة تحت أطراف معوليهما. أحيانًا كانا يستخرجان قطعة من الطوب أو شظية من الخشب. لم يكن شيئًا ذا بال. ففي وقتٍ ما وفي عصرٍ ما، دُفِنَت أجساد الرجال والنساء هنا، وقامت منازل هنا وتهدّمت، وعادت إلى الأرض ثانية. كما سيعود منزلهما أيضًا في وقتٍ ما إلى الأرض، وجسداهما كذلك. لكلِّ دوره على هذه الأرض. استمرَّ في العمل وهما يتحركان معًا، وينتجان ثمار هذه الأرض معًا، دون كلامٍ في حركتهما معًا.

عندما غربت الشمس، فرد ظهره ببطءٍ، ونظر للمرأة. كان وجهها مبللًا ومُلطَّخًا بالطين. بدت داكنة مثل التربة نفسها. التصقت ملابسها المبلَّلة الداكنة بجسدها العريض. ساوت الأخدود الأخير ببطء. ثم قالت مباشرة بطريقتها البسيطة المعتادة، وصوتها منخفضٌ وواضحٌ أكثر من المعتاد في هواء المساء الهادئ:

– أنا حُبلى.

وقف وانج لونج ساكنًا. ماذا كان يمكنه أن يقول لمثل هذا الخبر، إذن! انحنى لتلتقط قطعة من الطوب المكسور، وألقته خارج الأخدود. كان الأمر كما لو أنها قالت: «لقد جلبتُ لك الشاي»، أو كأنها قالت: «يمكننا تناول الطعام». بدا الأمر عاديًّا مثل ذلك بالنسبة لها. لكن بالنسبة له – لم يستطع القول ما كان يمثلُه بالنسبة له. فاض قلبه وتوقَّف، وكأنَّه واجه قيودًا مفاجئة. حسنًا، لقد أتى دورهما على هذه الأرض!

تناول المعول فجأة من يدها، وقال، وقد اختنق صوته في حلقه:

- هذا يكفي الآن. لقد انتهى اليوم. سنخبر العجوز.

عادا للمنزل، وقد تخلفَتْ هي وراءه بست خطواتٍ كما يليق
بامرأة. وقف العجوز عند الباب جائعًا يريد وجبته المسائية، حيث لن
يقوم بتجهيزها لنفسه أبدًا؛ وقد صارت المرأة موجودة بالمنزل الآن.
كان صبره قد نفذ، وصاح قائلاً:

- لقد صرْتُ أكبر سنًّا من أن أنتظر طعامي هكذا!

لكنَّ وانج لونج مرَّ بجواره داخلًا الغرفة، وقال:

- لقد صارت حُبلى بالفعل.

حاول أن يقولها ببساطة، كما قد يقول المرء: «لقد زرعْتُ البذور
في الحقل الغربي اليوم»، إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من ذلك. فعلى الرغم من أنَّه
تحدَّث بصوتٍ منخفضٍ؛ بدا الأمر له وكأنَّه صاح بالكلمات بصوتٍ
أعلى ممَّا كان يريد.

رمش العجوز بعينه للحظة، ثم استوعب وقهقه ضاحكًا. صاح
مخاطبًا زوجة ابنه عندما حضرت:

- هه هه هه، إذَنْ فقد لاح موعد الحصاد!

لم يستطع رؤية وجهها في الغسق، لكنَّها أجابت بهدوءٍ:

- سأعدّ الطعام الآن.

قال العجوز بحماسة:

- أجل، أجل، الطعام.

وتبعها إلى المطبخ كالطفل. مثلما جعلته فكرة الحفيد ينسى
وجبته، جعلته فكرة الطعام الطازج الآن ينسى الطفل.
لكنَّ وانج لونج جلس على المقعد بجوار الطاولة وسط الظلام،
واضعاً رأسه على ذراعيه المعقودين. من جسده هذا، ومن صلبه، تخرج
الحياة!



عندما اقتربت ساعة الولادة، قال للمرأة:

- يجب أن نجلب شخصاً للمساعدة عندما يحين الوقت، امرأة ما.
إلا أنها هزّت رأسها. كانت تزيل الأطباق بعد وجبة المساء. كان
العجوز قد أوى إلى فراشه، وصار الاثنان بمفردهما في الليل، مع الضوء
الساقط عليهما فقط من اللهب المتراقص لمصباح صغير من الصفيح
الممتلئ بزيت الفول، يطفو بداخله فتيل مصنوع من خيط قطني.
سأل بقلق:

- ألن نجلب امرأة؟

بدأ يعتاد الآن هذه الأحاديث معها، التي كان دورها فيها لا يزيد
كثيراً على حركة للرأس أو اليد، أو على الأكثر كلمة عارضة تسقط على
مضغ من فمها الواسع. حتّى إنه لم يعد يشعر بوجود نقص في مثل
هذه المحادثات. واصل قائلاً:

- لكن سيكون الأمر غريباً مع وجود رجلين فقط في المنزل! جلبت
والدتي امرأة من القرية. لا أعلم شيئاً عن هذه الأمور. ألا يوجد أحد في
المنزل الكبير، جارية عجوز كنت على صداقة معها، يمكنها المجيء؟

كانت هذه المرّة الأولى التي يذكر فيها المنزل الذي أتت منه.
استدارت إليه كما لم يرها أبداً من قبل، وقد اتسعت عينها الضيقتان،
ووجهها يعلوه غضبٌ خافتٌ.

صاحتُ نحوه، قائلة:

- لا أحد من ذلك المنزل!

أسقط غليونه الذي كان يملؤه، وحدّق بها. إلّا أنّ وجهها عاد فجأة
كالمعتاد، وشرعتُ تجمع أعواد الطعام، وكأنّها لم تتحدث.
قال بدهشة:

- حسناً، هذا أمرٌ غريبٌ.

لكنّها لم تقل شيئاً. ثم واصل الجدال، قائلاً:

- نحن رجالان، لا قدرة لنا على التعامل مع الولادة. بالنسبة لوالدي،
فليس من اللائق أن يدخل غرفتك. وبالنسبة لي، فلم يسبق حتّى وأن
رأيتُ بقرة تلد. قد تؤذي يدي الخرقاء الطفل. لكنّ شخصاً ما من البيت
الكبير، حيث تلد الجواري على الدوام...

وضعتُ أعواد الطعام بعناية في كومة منظمة على المائدة، ونظرتُ
إليه. قالت بعد لحظة قضتها وهي تتأمّله:

- عندما أعود لذلك المنزل، سيكون ابني بين ذراعي. سأكسوه
بسترة حمراء، وسروالٍ أحمر منقوشٍ بالزهور، وعلى رأسه قبعة مطرزٌ
عليها من الأمام صورة بوذا ذهبي صغير، وعلى قدميه حذاءً بوجه نمرٍ.
وسأرتدي أنا حذاءً جديداً، وسترةً جديدةً من الساتان الأسود، وسأذهب

للمطبخ حيث كنت أمضي أيامي، وسوف أذهب للقاعة الكبرى حيث تجلس العجوز مع أفيونها، وسأظهر نفسي وابني أمامهم جميعاً.

لم يسبق وأن سمع منها مثل هذا العدد من الكلمات من قبل. توالَتْ بثباتٍ ودون انقطاع، وإن كان ذلك ببطءٍ، وأدرك أنَّها خطَّطت الأمر كله بنفسها. كانت تخطِّط لكلِّ هذا وهي تعمل في الحقول بجانبه! ما أعجبها! كان سيقول إنَّها بالكاد تفكَّر في الطفل، حيث كانت تباشر عملها في هدوءٍ، يوماً وراء الآخر. لكن بدلاً من هذا، كانت ترى هذا الطفل وهو مولودٌ، وبكامل ثيابه، وترى نفسها كوالدته في سترَةٍ جديدة! صار هو عاجزاً عن التعبير لأوَّل مرَّة، وضغط التبغ بعناية على شكل كرة بين إبهامه والسبابة، والتقط غليونه، ووضع التبغ في التجويف.

قال أخيراً، بفضاضةٍ بادية:

- أعتقد أنَّك ستحتاجين إلى بعض المال.

قالت بخوفٍ:

- إذا أعطيتني ثلاث قطع فضية... إنَّه مبلغٌ كبيرٌ، لكنني حسَّبتُه بعناية، ولن أضيع أيَّ بنسٍ منه هدرًا. سأجعل تاجر الأقمشة يعطيني حقي كاملاً ويزيد.

تحسَّس وانج لونج حزامه. كان قد باع في سوق المدينة في اليوم السابق حمولة ونصفاً من أعواد القصب من البركة الواقعة في الحقل الغربي، وكان لديه في حزامه مبلغٌ أكثر قليلاً ممَّا تريد. وضع الدولارات الفضيَّة الثلاثة على الطاولة. ثم بعد قليلٍ من التردد، أضاف قطعة رابعة،

كان محتفظاً بها منذ فترة طويلة؛ في حال ما إذا أراد أن يلعب بعض القمار في صالة الشاي ذات صباح. لكنّه لم يفعل أكثر من التسكّع حول الطاولات، ومراقبة الزهر وهو يتخبط على المنضدة، خوفاً من الخسارة إذا لعب. كان ينتهي به المطاف عادة وهو يقضي ساعات فراغه في المدينة عند كشك الحكواتي، حيث يمكن للمرء الاستماع لحكاية قديمة دون أن يدفع ما يزيد على بنسٍ واحدٍ، عندما يمرّر طبقه.

قال، وهو يشعل غليونه بين الكلمات، وينفخ سريعاً في الورق كي يشعل فيه النار:

- من الأفضل أن تأخذي القطعة الأخرى. يمكنكِ صنع سترته من قطعة صغيرة من بقايا الحرير. فهو الأوّل، على أيّ حالٍ.

لم تأخذ النقود على الفور، بل وقفت تتأمّلها ووجهها ساكنٌ. ثم قالت، بنصف همسٍ:

- إنّها المرّة الأولى التي أمسك فيها نقوداً فضيّة في يدي.

فجأة، تناولتها، وقبضت عليها بكفّها، وأسرعت داخله غرفة النوم. جلس وانج لونج يُدخّن، ويفكر في الفضة وهي موضوعة على الطاولة. خرجت هذه الفضة من الأرض، من أرضه التي حرثها وقلّبها، وأفنى نفسه فيها. استمدّ حياته من هذه الأرض: قطرة بقطرة، انتزع منها الطعام بعرقه، ومن الطعام، حصل على الفضة. في كلّ مرّة قبل هذه كان يُخرج فيها الفضة ليمنعها لأي شخصٍ، كان الأمر أشبه بأخذ جزءٍ من حياته، ومنحها لشخصٍ بلا مبالاة. لكنّ الآن ولأوّل مرّة، لم يكن مثل هذا

العطاء مؤلماً. لم ير الفضة في يد غريبة لتاجر في المدينة، بل رأى الفضة تتحوّل لشيء له قيمة أكبر حتّى من ذاتها - ملابس على جسد ابنه. وامرأته الغريبة هذه، التي كانت تعمل دون أن تنطق بشيء، والتي يبدو عليها أنّها لا ترى شيئاً، هي من رأت الطفل لأوّل مرّة مرتدياً هذه الملابس!

رفضت أن يكون معها أحدٌ عندما يحين الأوان. حان الوقت مبكراً ذات ليلة، عندما كانت الشمس قد غربت للتوّ. كانت تعمل إلى جواره في الحصاد بالحقل. كان القمح قد نضج، وتمّ حصاده، وغُمر الحقل وزُرِع الأرز، والآن طرح الأرز الغلّة، وقد نضجت السنابل، وامتلائت بعد أمطار الصيف والشمس الدافئة في مطلع الخريف التي أنضجته. قطعاً الحزم معاً طوال اليوم، وهما منحنيان ويقطعان بمناجل ذات مقابض قصيرة. كانت قد انحنت بصعوبة بسبب عبء حملها، وتحركت ببطء أكثر منه، بحيث قطعاً بشكلٍ غير متساوٍ، فكان صفّه يسبقها وهي متخلّفة ورائه. شرعت تقطع ببطء أكثر فأكثر مع تقدّم الظهيرة حتّى العصر، ثم المساء، والتفت لينظر إليها بنفاد صبر. توقّفت وفردت قامتها، ثم سقط منجلها. كان على وجهها عرقٌ جديدٌ، عرق ألمٍ من نوعٍ جديدٍ.

قالت:

- لقد حان الأوان. سأذهب إلى المنزل. لا تدخل الغرفة حتّى أنادي. اجلب لي فقط قصبة مُقشّرة حديثاً، وشُقّها حتّى أستطيع فصل الطفل عن جسدي.

عبرت الحقل في اتجاه المنزل، كما لو أنّ شيئاً لن يحدث، وبعد أن راقبها، ذهب إلى حافة البركة في الحقل البعيد، واختار قصبة خضراء

رفيعة وقشّرها بعناية، وشقّها بحافة منجله. كان الظلام الخريفي يحلُّ سريعاً حينها، ثم حمل منجله على كتفه، وتوجّه للمنزل.

عندما وصل إلى المنزل، وجد عشاءه ساخنًا على المائدة، والعجوز يتناول الطعام. وقفت في وسط مخاضها لتعدّ لهما الطعام! قال لنفسه: «إنّها امرأة لا يوجد مثلها كثيرًا». ثم توجّه إلى باب غرفتهما، ونادى قائلاً:

– ها هي القصة!

انتظر، متوقعاً أن تناديه طالبة منه أن يحضرها لها. لكنّها لم تفعل. جاءت إلى الباب، ومدّت يدها عبر الصدع، وتناولت القصة. لم تنبس بكلمة، لكنّه سمعها تلهث مثلما يلهث حيوانٌ ركضَ لمسافة طويلة.

رفع العجوز رأسه عن صحنه، وقال:

– كُل، وإلا سيبرد.

ثم قال:

– لا تزعج نفسك بعد، سيطول الأمر. أذكر جيداً عند ولادة طفلي الأوّل، حلّ الفجر قبل أن ينتهي الأمر. آه، من بين جميع الأطفال الذين أنجبتهم، والذين حملتهم أمك – حوالي عشرين تقريباً، لقد نسيت – أنت فقط من عشت! هل ترى، لهذا يجب أن تحمل المرأة كثيراً.

ثم قال ثانية، وكأنّه فكر في الأمر للتوّ:

– في مثل هذا الوقت غداً، قد أكون جدّاً لذكرٍ صغير!

شرع يضحك فجأة، وتوقّف عن الأكل، وجلس يضحك لفترة طويلة، وسط الغسق في الغرفة.

لكنّ وانج لونج وقف عند الباب، يستمع إلى ذلك اللهات الحيواني الثقيل. انبعثت من الصدع رائحة دماءٍ ساخنة، رائحة مقرزة أخافته. صار لهات المرأة بالداخل سريعاً ومرتفعاً، كصرخاتٍ خافتة، لكنّها لم تُصدر صوتاً مرتفعاً. عندما لم يُعد يتحمل المزيد، وكان على وشك اقتحام الغرفة، نَدّت صرخة حادة وقوية، ونسي كلّ شيء.

صاح بإلحاح، ناسياً أمر المرأة:

- هل هو ذكرٌ؟

انفجرت الصرخة الحادة مرّة أخرى، قويّة ومُليحة.

صاح ثانية:

- هل هو ذكرٌ؟ أخبريني هذا على الأقل، هل هو ذكرٌ؟

وأجاب صوت المرأة بوهنٍ، مثل رجع الصدى:

- إنّه ذكرٌ!

ذهب عندها، وجلس إلى المائدة. كم انتهى كلّ شيءٍ سريعاً! برد الطعام منذ فترة، وكان العجوز نائماً على مقعده، لكن ما أسرع انتهاء الأمر! هزّ كتف العجوز.

صاح بنبرة انتصار:

- إنّه ذكرٌ صغيرٌ! أنت جدُّ، وأنا أبُ!

استيقظ العجوز فجأة، وأخذ يضحك كما كان يفعل عندما غفا.

قهقه قائلاً:

- أجل، أجل، بالطبع. جدّ، جدّ.

وقام وأوى إلى فراشه، وهو لا يزال يضحك.

تناول وانج لونج طبق الأرز البارد، وبدأ يأكل. شعر بالجوع الشديد فجأة، ولم يستطع دفع الطعام إلى فمه بسرعة كافية. سمع المرأة وهي تجر أقدام خطواتها في الغرفة، وكان صراخ الطفل مستمراً وثاقباً.

حدّث نفسه بفخر، قائلاً:

- أعتقد أننا لن ننعم بالهدوء في هذا المنزل بعد الآن.

عندما تناول كفايته من الطعام، ذهب إلى الباب ثانية، ونادته فدخل. كانت رائحة الدماء النازفة لا تزال حارّة، عالقة بالجو، لكن لم يكن لها أثرٌ سوى في الحوض الخشبي. لكنّها سكبت في الماء، ودفعته أسفل الفراش، حتّى إنّّه كان يراه بصعوبة. كانت الشمعة الحمراء مشتعلة، وكانت ممدّدة على الفراش، وقد تغطّت بعناية. رَقَدَ ابنه بجوارها، ملفوفاً في أحد سراويله القديمة، كما كانت العادة في هذه المنطقة.

تقدّم إليها، ولم تكن هناك أيّ كلماتٍ على لسانه في تلك اللحظة. رفر قلبه بين ضلوعه، وانحنى فوق الطفل ليتأمّله؛ كان وجهه مستديراً ومُغضّناً، وبدا داكناً للغاية، وشعره أعلى رأسه طويلٌ ورطبٌ وأسود. كان قد توقّف عن البكاء، وركد وعيناه مغمضتان بشدة.

نظر لزوجته، وبادلته النظر. كان شعرها لا يزال مبتلاً من آلامها، وعيناهما الضيقتان غائرتين. بخلاف هذا، كانت كعدها دوماً. لكنّها

مست مشاعره، وهي راقدة هناك. فاض قلبه بالمشاعر لهذين الاثنين،
وقال، وهو لا يعرف ما يمكنه قوله سوى هذا:

- سأذهب للمدينة غدًا، وأشتري رطلًا من السكر الأحمر، وأذيه
لك في الماء المغلي كي تشربه.

ثم نظر للطفل ثانية، وتفوه قائلًا فجأة، وكأن الأمر خطر له للتو:
- سيتعين علينا شراء سلّة مليئة بالبيض، وصبغها كلها باللون
الأحمر لسكان القرية. هكذا سيعرف الجميع أن لديّ ابنًا!



في اليوم التالي بعد ولادة الطفل، قامت المرأة كالمعتاد، وأعدت لهما الطعام، لكنّها لم تذهب مع وانج لونج لحصاد الحقول، لذا عمل وحده حتّى ما بعد الظهيرة. ثم ارتدى ثوبه الأزرق، وذهب إلى المدينة. توجه إلى السوق واشترى خمسين بيضة. لم تكن طازجة، إلّا أنّها كانت جيّدة بما فيه الكفاية، وثمانها بنس للبيضة الواحدة. واشترى ورقاً أحمر ليغليه معها في الماء حتّى يصبغها باللون الأحمر. ثم ذهب إلى متجر الحلويات ومعه البيض في سلّته، وهناك اشترى ما يزيد قليلاً على رطل من السكر الأحمر، وشاهده بينما يتم لفّه بعناية في ورق بُنيّ. ووضع بائع السكر شريطاً من الورق الأحمر تحت خيط القش الذي ربطه به، وهو يتسم أثناء قيامه بذلك.

- ربّما كان لأم طفلٍ حديثٍ الولادة.

قال وانج لونج بفخر:

- إنّهُ ابني البكر.

أجاب الرجل، دون اهتمامٍ، وعيناه على زبونٍ أنيق الملبس دخل للتوّ:

- آه، هذا طالعٌ حسنٌ.

قال هذا مراتٍ عديدةً للآخرين، وكلَّ يومٍ حتَّى لشخصٍ ما، لكنَّ ذلك بدا مميّزًا لوانج لونج، وأحسَّ بالسُرور من مجاملة الرجل؛ فأنحني له، ثم انحني ثانية وهو يخرج من المتجر. بدا له وهو يسير في الشمس الحارة بالطريق المُتْرَب أنَّه لم يكن هناك رجلٌ قطَّ يغمره حُسن الطالع مثله.

فكر في هذا بفرحٍ في بادئ الأمر، ثم انتابته نوبةٌ من الخوف. لم يكن من المُستَحَب أن ينعم بالحظ المفرط في هذه الحياة، فالهواء والأرض مليئة بالأرواح الخبيثة التي لا تطيق سعادة البشر، خاصّة الفقراء منهم. دخل فجأةً لمتجر بائع الشموع الذي كان يبيع البخور أيضًا، واشترى أربعة أعوادٍ من البخور، واحدًا لكلِّ شخصٍ في منزله. ثم دخل المعبد الصغير المُكرَّس لآلهة الأرض بهذه الأعواد الأربعة، وغرسها في الرماد البارد للبخور، الذي وضعه هناك من قبل هو وزوجته. راقب العيدان الأربعة وهي مشتعلة جيّدًا، ثم توجّه نحو المنزل يغمره الارتياح. تلك الهيئتان الصغيرتان الحاميتان الجالستان بثباتٍ تحت سقفهما الصغير- يا لقوتهما التي يتمتّعان بها!

بعدها، وقبل أن يدرك المرء أيَّ شيءٍ تقريبًا، عادتِ المرأة إلى جواره في الحقول. انتهى الحصاد، وكانا يدرسان الحبوب على الأرض التي كانت هي ذاتها فناءً المنزل. ضرب هو والمرأة معًا الحبوب بالمِدْرَس. وعندما تمّ درس الحبوب، قاما بغربلتها، وهما يلقيان بها للأعلى وسط الريح، من سلال خيزران كبيرة مسطّحة، ثم يلتقطان

الحبوب الجيدة وهي تسقط بينما تتطاير القشور بعيداً في سحابة مع الريح. ثم كانت هناك الحقول التي يجب زراعتها بالقمح الشتوي مرة أخرى. وعندما شدَّ الثور إلى النير، وحرث الأرض، سارت المرأة خلفه بمعولها، وكسرت الكتل الطينية في الأخاديد.

كانت تعمل طوال اليوم الآن، بينما الطفل يرقد نائماً على لحافٍ قديمٍ مُمزَّقٍ على الأرض. كانت المرأة تتوقَّف عند بكائه، وتكشف صدرها أمام فم الطفل، وهي تجلس منبسطة على الأرض والشمس تغمرهما: الشمس المترددة لأواخر الخريف التي لن تتخلَّى عن دفء الصيف حتى يجبرها برد الشتاء القادم على ذلك. كانت المرأة والطفل داكنين مثل التربة، وجلسا هناك كأشكالٍ صُنِعت من الأرض. استقرَّ غبار الحقول على شعر المرأة، وعلى رأس الطفل الأسود الناعم.

لكنَّ الحليب تدفَّق للطفل من ثدي المرأة البني الضخم، في بياض الثلج. وحينما كان الطفل يرضع من أحد الثديين، تدفَّق الحليب كينبوع من الثدي الآخر، فتركته يتدفَّق؛ كان هناك ما يزيد على حاجة الطفل رغم نهمه: حياة تكفي العديد من الأبناء. تركته يتدفَّق بلا مبالاة، مدركة لِمَا تتمتع به من وفرة. دوماً ما كان هناك المزيد والمزيد. كانت ترفع ثديها أحياناً، وتتركه يسيل على الأرض لتحافظ على ملابسها. كانت الأرض تتشربُه فيصنع بقعة داكنة وناعمة وغنية وسط الحقل. كان الطفل سميناً ولطيفاً، ويتغذى من الحياة التي لا تنضب، التي تمنحها له والدته.

حلَّ الشتاء، وكانوا مستعدين له. كانت هناك وفرة في المحاصيل كما لم يحدث من قبل، حتَّى كاد المنزل الصغير ذو الغرف الثلاث

ينفجر. تدلّت من العوارض الخشبية للسقف المُغطّى بالقشّ حبالٌ تَلَوّ أخرى من البصل والثوم المُجفّف. وفي الغرفة الوسطى وغرفة العجوز وغرفتهما، انتشرتُ حصائر مصنوعة من القصب، وتمّ لفّها على شكل جرارٍ ضخمة امتلأت بالقمح والأرز. كان معظمه سيّباع، لكنّ وانج لونج كان مدبّرًا، ولم يكن ينفق ماله دون حسابٍ مثل العديد من سكان القرية على القمار أو الأطعمة الفاخرة بالنسبة لهم. لذا لم يكن مضطرًّا مثلهم إلى بيع الحبوب وقت الحصاد عندما كان السعر منخفضًا، وبدلًا من ذلك، أدّخرها وباعها عند سقوط الثلوج أو في مطلع العام الجديد، حينما يدفع الناس في المدن جيدًا مقابل الطعام، وبأي ثمنٍ.

كان عمّه دائمًا يضطرُّ إلى بيع حبوبه حتّى قبل أن تنضج. كان يبيعها في بعض الأحيان وهي لا تزال منتصبة في الحقل، ليوفّر على نفسه عناء الحصاد والدرس، وليحصل على القليل من المال الجاهز. وبينما كانت زوجة عمّه امرأة حمقاء، سميّة وكسولة، ودائمًا تطالب بصخبٍ راغبةً في الحلوى وبهذا الشيء أو ذاك، وبحذاءٍ جديدٍ يُشترى من المدينة، كانت امرأة وانج لونج تصنع كل الأحذية له وللعجوز، ولقدميها هي والطفل. لم يكن يدري كيف يتصرف لو رغبت في شراء الأحذية!

لم يكن هناك أيُّ شيءٍ يتدلّى أبدًا من عوارض السقف في منزل عمّه القديم المتداعي. لكن في منزله هو كان هناك فخدٌ من لحم الخنزير، كان قد اشتراه من جاره تشينج عندما قتل خنزيره الذي بدا وكأنّه مصابٌ بالمرض. أمسكوا بالخنزير في وقتٍ مبكرٍ قبل أن يفقد وزنه، وكان الفخذ ضخّمًا. قامت أولان بتجليحه جيدًا، وعلّقته ليُجفّ. كما دُبّحتُ

دجاجتين من دجاجهما، وتمّ تجفيفهما بالريش، وحشوهما بالملح من الداخل.

لذا عندما هبّت ريح الشتاء من الصحراء الواقعة جهة الشمال الشرقي، جلسوا في المنزل وسط كل هذه الوفرة. كانت ريحاً مريّة قارسة. سرعان ما صار الطفل قادراً على الجلوس وحده تقريباً. تناولوا وليمة من الشعرية والتي ترمز للعمر الطويل، بعد مولده بشهرٍ عندما أتمّ شهراً قمرياً كاملاً. ودعا وانج لونج أولئك الذين حضروا وليمة زفافه، وأعطى كلّاً منهم عشر بيضاتٍ من البيض الأحمر الذي سلقه وصبغه، وأعطى كلّ من جاء من القرية لتهنئته بيضتين. حسده الجميع على ابنه الذي كان طفلاً كبيراً وسميناً، مستدير الوجه وله عظام وجنتين مرتفعتين مثل والدته. والآن مع حلول الشتاء، جلس على اللحاف الموضوع على أرض المنزل الترابية بدلاً من الحقول، وفتحوا الباب المواجه للجنوب للضوء، فدخلت الشمس. وضربت الريح من جهة الشمال عبثاً في الجدار الطيني السميك للمنزل.

سرعان ما تمزّق سعف نخلة التمر على عتبة الباب، وأوراق شجر الصفصاف والخوخ بالقرب من الحقول. بقيت أوراق الخيزران فقط متشبّثة بالخيزران في الكتلة الضئيلة الكائنة شرق المنزل، وعلى الرغم من أنّ الريح ثنت السيقان نصفين، إلّا أنّ الأوراق بقيت ثابتة.

لم تتمكّن حبوب القمح المبذورة في الأرض من الإنبات مع هذه الريح الجافّة، وانتظر وانج لونج الأمطار بلهفّة. ثم هطلت الأمطار فجأة في يومٍ غائمٍ هاديّ، عندما سكنت الريح وكان الجو ساكناً ودافئاً.

جلسوا جميعاً في المنزل العامر بالرفاه، يراقبون المطر وهو يسقط غزيراً باستقامة، ويُغْرِق الحقول حول الفناء، ويقطر من حواف السقف المُغطَّى بالقشِّ أعلى الباب. اندهش الطفل، ومدَّ يديه ليلتقط خيوط المطر الفضيّة وهي تتساقط، وضحك وضحكوا معه. جلس العجوز القرفصاء بجوار الطفل على الأرض، وقال:

- لا يوجد طفلاً آخر كهذا في عشرات القرى. لا يلحظ أطفال أخي المزعجون هؤلاء أيَّ شيء قبل أن يبدأوا المشي.

ونبتت حبوب القمح في الحقول، ودفعت رماحاً خضراء رقيقة فوق الأرض البنية الرطبة.

في مثل هذا الوقت، كان الناس يتبادلون الزيارات، لأنَّ كلَّ مزارعٍ شعر أنَّ السماء تقوم بالعمل في الحقول، وكانت محاصيلهم تُروى دون أن تنكسر ظهورهم من أجل هذا، حاملين الدلاء جيئةً وذهاباً، وهي تتدلى من عامودٍ على أكتافهم. كانوا يجتمعون صباحاً في هذا المنزل أو ذاك، ويشربون الشاي هنا وهناك، ويتنقلون حفاة من منزلٍ إلى منزلٍ عبر الطريق الضيق بين الحقول، أسفل مظلاتٍ ضخمة مصنوعة من الورق المُزَيَّت. بقيت النساء في المنزل، وصنعن الأحذية، ورتقن الثياب في حال ما إذا كنَّ مدبراتٍ، وفكرن في الاستعدادات لعيد العام الجديد.

لكنَّ وانج لونج وزوجته لم يُكثِرا من الزيارات. لم يكن هناك منزلٌ في القرية ذات المنازل الصغيرة المتناثرة، والتي كان منزلهم واحداً من بين ستة فيها، يملؤه الدفء والوفرة مثل منزلهم، وشعر وانج لونج أنَّه لو بالغ في الحميميّة مع الآخرين، فسوف يقترضون منه. أوشك حلول

العام الجديد، ومن كان يملك كلَّ المال الذي يريده من أجل الملابس الجديدة والولائم؟ بقي في منزله، وبينما انشغلت المرأة برتق الملابس والحيّاكة، أخذ هو أمشاط أرضه المصنوعة من الخيزران المشقوق وتفحصها، وحيث انكسرت خيوطها، نسج خيوطاً جديدة من القنب الذي زرعه بنفسه، وحيث انكسرت إحدى الأسنان كان يغرس بمهارة قطعة جديدة من الخيزران.

وفعلت زوجته أولان لأدوات المنزل ما فعله هو لأدوات المزرعة؛ فإذا كانت إحدى الحِرار الفخاريّة تُسرّب الماء، لم تكن تلقيها جانباً وتطلب واحدة جديدة مثل النساء الأخريات. بدلاً من ذلك، كانت تمزج التراب والطين، وتلحم الشقّ، وتسخّنه ببطء حتّى يصير كالجديد.

لذا جلسوا في منزلهم مبتهجين بقبول بعضهم لبعض، على الرغم من أنّ حديثهم لم يكن يزيّد على كلماتٍ متناثرة، كهذه:

«هل احتفظت بالبذور من القرعة الكبيرة للزراعة الجديدة؟»، أو: «سنبيع قشّ القمح، ونحرق أعواد الفول في المطبخ». أو ربما نادراً قد يقول وانج لونج: «هذا طبقٌ جيّدٌ من الشعيرة». وتجيّه أولان منتقصة منها وهي تقول: «لدينا دقيقٌ جيّدٌ من الحقول هذا العام».

توفّر لوانج لونج من المحصول في هذا العام الوفير حفنة من الدولارات الفضيّة تكفي احتياجاتهم وتزيد. كان يخشى الاحتفاظ بها في حزامه، أو إخبار أيّ شخصٍ سوى المرأة بما في حوزته. فكّر أين يحتفظان بالفضّة، وفي النهاية حفرت المرأة بدهاءٍ حفرةً صغيرةً في الجدار الداخلي لغرفتهما خلف الفراش. ودفع وانج لونج الفضة

بداخلها، وغطّت هي الفتحة بكتلة من الطين، وبدا الأمر كما لو أنّه لا يوجد شيءٌ هناك. لكن بالنسبة لكلّ من وانج لونج وأولان، فقد منحهما الأمر شعورًا بالشراء السري والوفرة. كان وانج لونج مدركًا أنّ لديه مالاّ يفيض على ما يحتاج إلى إنفاقه، وعند سيره بين أقرانه، كان يسير شاعرًا بالراحة مع نفسه ومع الجميع.



اقترب العام الجديد، وكانت هناك استعدادات في كل منزل بالقرية. ذهب وانج لونج لمتجر صانع الشموع بالمدينة، واشترى مربعات من الورق الأحمر، كُتِبَ على بعضها بالحبر المذهَّب الحرف الدال على السعادة، وعلى البعض الآخر الحرف الدال على الثراء. وألصق هذه المربعات على أدواته الزراعية؛ لتجلب له حُسن الطالع في العام الجديد. ألصق مربعاً على محراثه، وعلى نير الثَّور، وعلى الدلوين اللذين يحمل فيهما السماد والماء. ثم ألصق على أبواب منزله أشرطة طويلة من الورق الأحمر، كُتِبَ عليها شعارات حُسن الطالع، وألصق فوق باب المنزل شريطاً من الورق الأحمر مقصوفاً بمهارة على شكل زهرة مُشكَّلة بعناية فائقة. كما اشترى ورقاً أحمر لصنع ملابس جديدة للآلهة، وقام العجوز بهذا بمهارة كافية بالنسبة ليديه العجوزين المرتعشتين، وأخذهما وانج لونج وألبسهما للإلهين الصغيرين في معبد الأرض، وأحرق بعض البخور أمامهما بمناسبة العام الجديد. واشترى لمنزله أيضاً شمعتين حمراوين ليشعلهما عشية العام الجديد على الطاولة، أسفل صورة الإله المُلصَّقة على جدار الغرفة الوسطى حيث تقف الطاولة.

وذهب وانج لونج للمدينة مرّة أخرى، واشترى دهن الخنزير والسكر الأبيض. سيّحت المرأة الدهن حتّى صار ناعماً أبيض اللون، وأخذت دقيق الأرز الذي طحنوه من محصولهم بين أحجار رحاهم التي كانوا يستطيعون ربط الثور إليها عندما يحتاجون إلى ذلك، وأخذت الدهن والسكر وخلطت وعجنّت كعكات العام الجديد التي يُطلق عليها كعك القمر، مثل تلك التي كانت تؤكل في منزل هوانج.

عندما رصّت الكعكات على المائدة في صفوفٍ وهي جاهزة للخبز، أحسّ وانج لونج بقلبه يكاد ينفجر فخرًا. لم تكن هناك امرأة أخرى في القرية قادرة على فعل ما فعلته امرأته، وصُنعت كعكاتٍ مثل التي يأكلها الأثرياء فقط في العيد. وضعت في بعض الكعكات أشرطة من ثمار الزعرور البري الحمراء الصغيرة، وقطعًا من البرقوق الأخضر المُجفّف، لتصنع منها الزهور والأشكال.

قال وانج لونج:

- من المؤسف أن نأكل هذه.

كان العجوز يحوم حول الطاولة، مسرورًا كطفلٍ بالألوان الزاهية.

قال:

- فلتنادِ شقيقي، عمّك، وأولاده، دعهم يروُن!

إلا أنّ الرخاء جعل وانج لونج حذرًا؛ فلا يمكن أن يطلب المرء من أشخاصٍ جياعٍ الاكتفاء بالنظر إلى الكعك.

أجاب بعجلٍ:

- من سوء الطالع النظر إلى الكعك قبل حلول العام الجديد.

وقالت المرأة، ويدها مغبرة بدقيق الأرز الناعم ولزجة بالدهن:

- هذه ليست لنا كي نتناولها، فيما عدا واحدة أو اثنتين من الكعكات البسيطة حتّى يتذوقها الضيوف. نحن لسنا أثرياء بما يكفي لتناول السكر الأبيض وشحم الخنزير. أنا أعدّها للسيدة العجوز في المنزل الكبير. سأخذ الطفل في اليوم الثاني من العام الجديد، وأحمل معي الكعك كهدية.

عندها صارت الكعكات أكثر أهمية من أيّ وقتٍ مضى، وأحسّ وانج لونج بالسروور لأنّ زوجته ستذهب كزائرة للقاعة الكبرى التي وقف فيها بخجلٍ شديدٍ وفقرٍ بالغٍ، حاملّة ابنه، وهو يرتدي ملابس حمراء وكعكات كهذه مصنوعة من أجود دقيقٍ وسكرٍ وشحم خنزيرٍ. تضاءلت أهمية كلّ شيء آخر في ذلك العام الجديد، مقارنة بهذه الزيارة. جعلته السترة الجديدة التي صنعتها له أولان من قماش القطن الأسود يحدّث نفسه قائلاً عندما ارتداها:

- سألبسها عندما آخذهما لبوابة البيت الكبير.

حتّى إنّّه تحمّل اليوم الأوّل من العام الجديد بلا مبالة، عندما أتى عمّه وجيرانه يتزاحمون داخل المنزل ليتمنّوا الخير له ولوالده، وهم صاخبون من أثر الطعام والشراب. اهتمّ بنفسه بوضع الكعك الملوّن في سلّة بعيداً؛ حتّى لا يضطرّ إلى تقديمها للبطساء من الرجال، على الرغم من أنّه وجد صعوبة بالغة عندما أشادوا بالكعكات البيضاء البسيطة لنكهتها الغنية بالدهن والسكر، حتّى لا يصبح قائلاً:

- يجب أن تشاهدوا الكعكات الملوّنة!

لكنّه لم يفعل، لأنّه تمنّى أكثر من أي شيء آخر أن يدخل المنزل الكبير بفخرٍ.

استيقظوا عند الفجر في اليوم الثاني من العام الجديد، وهو يوم تبادل النساء للزيارة، بعد أن يكون الرجال قد أكلوا وشربوا جيّدًا في اليوم السابق. وألبست المرأة الطفل سترته الحمراء وحذاءه المُزَيّن بوجه النمر الذي صنّعه، ووضعت على رأسه الذي حلقه وانج لونج بنفسه حديثًا، في اليوم الأخير من العام المنصرم، القبعة الحمراء المفتوحة من الأعلى والمطرز عليها من الأمام صورة بوذا صغيرٍ ذهبي اللون، ثم أجلسته على الفراش. بعد ذلك ارتدى وانج لونج ملابسه سريعًا، بينما مشّطت زوجته شعرها الأسود الطويل من جديد، وثبّته بالدبوس النحاسي المطلي بالفضّة الذي اشتراه لها، وارتدت سترتها السوداء الجديدة المصنوعة من نفس قطعة القماش الذي صُنعت منها سترته الجديدة. أربعة وعشرون قدمًا من القماش الجيّد لهما هما الاثنان، إلى جانب قدمين إضافيين من القماش منحهما البائع إياهما كما هي العادة في متاجر القماش. ثم حمل الطفل، وحملت هي الكعكات في السلة، وانطلقوا في الطريق عبر الحقول المجذبة الآن في الشتاء.

بعد ذلك تلقّى وانج لونج مكافأته عند البوابة الضخمة لمنزل هوانج، حيث أتى حارس البوابة بعد أن نادته المرأة، واتّسعت عيناه لكل ما رآه، وبرم الشعرات الثلاث الطويلة في شامته، وصاح قائلاً:

- آه، وانج المزارع، ثلاثة هذه المرة بدلًا من واحد!

ثم رأى الملابس الجديدة التي يرتديها الجميع، والطفل الذي كان ذكرًا فأضاف، قائلاً:

- لا حاجة إلى أن يتمنى لك المرء حظاً أوفر هذا العام ممّا تمتعت به في العام السابق.

أجاب وانج لونج دونما اهتمامٍ، كما يحدث المرء رجلاً بالكاد ندّاً له:

- حصاد جيد... حصاد جيد.

وتقدّم بثقة داخلاً من البوابة. أعجب الحارس بكلّ ما رآه، وقال لوانج لونج:

- هلا جلست في غرفتي البائسة، بينما أعلن عن قدوم امرأتك وابنتك بالداخل.

ووقف وانج لونج يراقبهما وهما يعبران الساحة، زوجته وابنه، وهما يحملان الهدايا لربة المنزل الكبير. كان كلّ هذا على شرفه، وعندما لم يعد بوسعه رؤيتهما، بعد أن تضاءلا في الأفق البعيد للساحات التي تقود كلّ منها إلى الأخرى، وانعطفًا أخيراً بعيداً عن الأنظار تماماً، دخل منزل الرجل، وقيل بالطبع مقعد الشرف على يسار الطاولة بالغرفة الوسطى، من زوجة حارس البوابة التي شوّهت وجهها آثارُ الجدرى. كما قبل بإيماءة طفيفة فقط وعاء الشاي الذي قدّمته له، ووضعتة أمامه ولم يشرب منه، وكأنّ أوراق الشاي ليست ذات جودة ملائمة بالنسبة له.

بدا أنّ وقتًا طويلًا انقضى، قبل أن يعود حارس البوابة جالبًا معه المرأة والطفل مرّة ثانية. تأمل وانج لونج وجه المرأة بدقة لوهلة، محاولًا معرفة ما إذا كان كلُّ شيءٍ على ما يرام. حيث تعلّم الآن كيف يكتشف تغيّراتٍ بسيطة في ذلك الوجه المربع الخالي من التعبير، كانت غير مرئية له في بادئ الأمر. إلّا أنّ ملامحها بدتُ عليها نظرة من الرضى البالغ، وصار متحمسًا على الفور لسمعها تحكي عمّا حدث في تلك الساحات الخاصة بالسيدات التي لا يستطيع دخولها، حيث لم يعد له شأنٌ يقضيه هناك.

لذا تبادل الانحناءات القصيرة مع حارس البوابة وزوجته المشوّهة بالجذري، وأسرع مبتعدًا مع أولان، وحمل بين ذراعيه الطفل النائم ملفوفًا في سترته الجديدة.

ناداها خلف كتفه وهي تتبعه، قائلاً:

– حسنًا؟

شعر بنفاد الصبر هذه المرّة بسبب بطئها. اقتربتُ منه قليلًا، وقالت بصوتٍ هامسٍ:

– لو سألني أحدهم، فأنا أعتقد أنّهم يعانون من ضيق الحال في ذلك المنزل هذا العام.

تحدّثتُ بنبرةٍ يغلب عليها الصدمة، كما قد يتحدّث المرء عن آلهة تعاني الجوع.

حَثّها وانج لونج، قائلاً:

- ما الذي تعنيه؟

لكنّها رفضت أن تتعجّل. كانت الكلمات بالنسبة لها أشياءً تلتقط
الواحدة تلو الأخرى، ويُطلق سراحها بصعوبة.

- ارتدت السيدة العجوز هذا العام نفس سترة العام الماضي. لم أرَ
هذا يحدث من قبل قط. ولم يكن لدى الجوّاري ستراتٌ جديدة.

ثم قالت، بعد أن توقّفت لوهلة:

- لم أرَ ولو جارية واحدة بسترّةٍ جديدةٍ مثل سترتي.

ثم قالت، بعد فترة مرّة أخرى:

- أمّا بالنسبة لابننا، فلم يكن هناك حتّى طفلٌ وسط محظّيات السيد
العجوز نفسه يُقارَن به في الجمال والملبس.

ارتسمت على ملامحها ابتسامة بطيئة، وضحك وانج لونج بصوتٍ
مرتفع، وضمّ الطفل إليه بحنان. كم أبلى بلاءً حسنًا! كم أبلى بلاءً
حسنًا! ثم وبينما هو مبتهجٌ، شعر بالخوف. يا لحماقة تصرّفه، وهو يسير
هكذا تحت السماء المكشوفة ومعه طفلٌ ذكرٌ جميلٌ، يمكن لأي روحٍ
شريرة عابرة خلال الهواء بالمصادفة أن تراه! فتح سترته على عجلٍ،
ودفع رأس الطفل إلى صدره، وقال بصوتٍ مرتفع:

- يا له من أمرٍ مؤسفٍ، أنّ طفلتنا أثنى، لا يمكن أن يرغب فيها
أحدٌ، ويغطيها الجدرى أيضًا! فلندعو أن تموت.

قالت زوجته بأسرع ما في وسعها، وقد فهمت على نحوٍ مبهمٍ ما
فعلاه:

- أجل، أجل.

بعد أن شعر بالارتياح لهذه الاحتياطات التي اتخذها الآن، حثَّ وانج لونج زوجته مرّة ثانية، قائلاً:
- هل عرفتِ لم صاروا أفقر؟
قالت:

- لم تسنح لي سوى لحظة لإجراء محادثة خاصّة مع الطاهية التي عملتُ تحت إشرافها من قبل. لكنّها قالت إنّ هذا المنزل لا يمكنه أن يظل قائماً إلى الأبد مع كلّ الأسياد الشباب، خمسة منهم، وهم ينفقون المال في بقاعٍ أجنبيّة كما يُلقى الماء القدير، ويعيدون امرأة تَلَوُ الأخرى إلى ديارهن بعد أن يملّوا منهن، والسيد العجوز الذي يعيش في المنزل يضيف محظية أو اثنتين كل عام، والسيدة العجوز تستهلك من الأفيون كلّ يومٍ ما يكفي ثمنه لملء حذاءين بالذهب.

غمغم وانج لونج مسحوراً:

- هل يفعلون حقاً؟

واصلت أولان، قائلة:

- ثم إنّ الابنة الثالثة ستزوِّج في الربيع، والدوطة الخاصّة بها تعادل فدية أمير، وتكفي لشراء منصبٍ رسميٍّ في مدينة كبيرة. ولا تقبل أن تكون ملابسها سوى من أفخر أنواع الساتان، بنقوشٍ خاصّة منسوجة في سوتشاو وهانغتشو. وسيحضر إليها خياطٌ من شانغهاي، مع حاشيته من الخياطين العاملين تحته، حتّى لا تجد ملابسها أقلّ عصرية من ملابس النساء في البقاع الأجنبيّة.

قال وانج لونج، وقد أحسّ بالإعجاب والرعب من تدفُّق الثروة على هذا النحو:

- من الذي ستتزوَّجه إذن، مع كلِّ هذه التكاليف؟

قالت المرأة:

- ستتزوَّج الابن الثاني لأحد قضاة شانغهاي.

ثم أضافت، بعد أن توقفت لفترة طويلة:

- لا بد أنَّهم يزدادون فقرًا؛ فقد أخبرتني السيدة العجوز بنفسها أنَّهم يريدون بيع الأرض. بعض الأرض الواقعة جنوب المنزل، خارج سور المدينة مباشرة، حيث كانوا يزرعون الأرز دومًا كلَّ عام، لأنَّها أرضٌ جيّدة، ويسهل غمرها من الخندق المائي المحيط بالجدار.

كرّر وانج لونج، وقد اقتنع بحديثها:

- يبيعون أرضهم! إذن فهم يزدادون فقرًا بالفعل. الأرض هي لحم المرء ودمه.

تفكّر لبعض الوقت، ثم خطرت له فكرةٌ فجأة، وضرب جانب رأسه بكفِّه. صاح وهو يلتفت للمرأة:

- لِمَ لم أفكر في هذا! سنشتري الأرض!

حدّق بعضهما إلى بعض، هو بسرورٍ، وهي في ذهولٍ.

تلعثمت قائلة:

- لكن الأرض ... الأرض ...

صاح بصوتٍ متغطرسٍ:

- سأشترئها! سأشترئها من منزل هوانج الكبير!

قالت بذعرٍ:

- لكنّها بعيدة جدًا. سيتعيّن علينا المشي لنصف النهار حتّى نصل إليها.

كرّر قوله بغيطٍ، كما قد يكرر طلبًا من والدته التي عارضته:

- سوف أشترئها.

قالت بهدوءٍ:

- شراء الأرض أمرٌ جيّدٌ. من المؤكّد أنّه أفضل من وضع المال داخل جدارٍ طينيٍّ. لكن لمّ لا تشتري قطعة من أرض عمّك؟ فهو يثير الصخب، طالبًا بيع ذلك الشريط بجوار الحقل الغربي الذي نملكه الآن.

قال وانج لونج بصوتٍ مرتفعٍ:

- لا أريد أرض عمّي تلك. فقد ظلّ يسحب منها المحصول بهذه الطريقة أو تلك طوال عشرين عامًا، ولم يعد إليها ولو القليل من الروث أو فضلات الفول للتسميد. تربتها مثل الجير. لا، بل سأشترئ أرض هوانج.

قال «أرض هوانج» بشكلٍ عرضيٍّ، كما قد يقول «أرض تشينج»- تشينج، جاره المزارع. سيكون أكثر من نَدٍّ لهؤلاء الناس في البيت الكبير الأحمق المسرف. سيذهب والفضّة في يده، ويقول بوضوح:

- لديّ النقود. ما هو ثمن الأرض التي ترغبون في بيعها؟

سمع نفسه يقول أمام السيد العجوز، مخاطبًا وكيله:
- اعتبرني مثل أي شخصٍ آخر. ما هو السعر العادل؟ إنَّه لديّ في قبضتي.

وزوجته التي كانت جارية في مطابخ تلك العائلة الفخورة، ستكون زوجة لرجلٍ يمتلك قطعةً من الأرض التي جعلتُ منزل هوانج كبيرًا طوال أجيالٍ. بدت وكأنَّها أحسَّت بفكرته هذه، حيث توقفتُ عن مقاومتها فجأة، وقالت:

- لنشتريها. فعلى كلِّ حالٍ، أرض الأرض جيّدة، وهي قريبة من الخندق، ويمكننا الحصول على الماء كلَّ عام. هذا مؤكّد.

وارتسمت الابتسامة البطيئة على ملامحها مرّة ثانية، تلك الابتسامة التي لم تخفّف أبدًا من بهتان عينيها السوداوين الضيقتين. وقالت، بعد فترة طويلة:

- كنتُ جارية في ذلك المنزل، في مثل هذا الوقت من العام الماضي.

وواصلتا سيرهما وهما صامتتان، تشغلها هذه الفكرة.



أحدثت قطعة الأرض هذه التي صار وانج لونج يمتلكها تغييرًا كبيرًا في حياته. في بادئ الأمر، بعد أن أخرج الفضة من الجدار وأخذها إلى المنزل الكبير، وبعد أن مضى شرف التحدث إلى السيد العجوز كندّ له، حلّ على روحه اكتئابٌ يكاد يشارف حدود الندم. عندما فكّر في الفجوة الموجودة بالجدار وهي فارغة الآن، بعد أن كانت ممتلئة بالفضة الفائضة على حاجته، تمنّى لو استعاد فضّته. ففي النهاية ستحتاج هذه الأرض ساعاتٍ من العمل مرّة أخرى، وكما قالت أولان، فهي تقع على مبعده أكثر من «لي»، الذي يعادل ثلث ميل. كما أنّ شراءها لم يكن عامرًا بالمجد كما توقّع. فقد ذهب إلى البيت الكبير في وقتٍ مبكرٍ للغاية، وكان السيد العجوز لا يزال نائمًا. صحيحٌ أنّه كان وقت الظهر، لكن عندما قال بصوتٍ عالٍ:

- فلتبلغ السيد الكبير المبجل أنّ لديّ شأنًا مهمًّا - أخبره أنّ الأمر متعلّق بالمال!

أجاب حارس البوابة بثقة:

- لن تغريني كلُّ أموال العالم لإيقاظ النمر العجوز. فهو نائمٌ مع محظيته الجديدة، زهر الخوخ، التي حصل عليها منذ ثلاثة أيامٍ فقط. إن إيقاظه لا يستحقُّ التضحية بحياتي.

ثم أضاف بحقدٍ إلى حدٍّ ما، وهو يجذب شعرات شامته:
- ولا تظنَّ أن الفضة ستجعله يستيقظ، فقد كان لديه فضةٌ تحت يده منذ ولادته.

اضطرَّ في النهاية إذن إلى ترتيب الأمر مع وكيل السيد العجوز، الذي كان غداً متملقاً، ويداه مثقلتان بالمال الذي يلتصق بهما في تعاملاته. لذا فقد بدا لوانج لونج في بعض الأحيان أنَّ الفضة في النهاية أكثر قيمة من الأرض. فبوسع المرء رؤية بريق الفضة.

حسنًا، لكنَّ الأرض كانت ملكًا له! خرج ليراها في يومٍ غائمٍ بالشهر الثاني من العام الجديد. لم يكن أحدٌ يعلم بعد أنَّها ملكه، وخرج لرؤيتها بمفرده. كانت مستطيلًا طويلًا من الطين الأسود الثقيل الممتدَّ بجوار الخندق المائي المحيط بسور المدينة. قاس الأرض بخطواته بعناية: ثلاثمائة خطوة بالطول، ومئة وعشرون عرضًا. كان هناك أربعة أحجارٍ لا تزال تميِّز أركان الحدود، وقد طُبعت الأحجار بالختم العظيم لمنزل هوانج. حسنًا، سيحتاج إلى تغيير ذلك. سيرفع الأحجار لاحقًا، وسيضع اسمه هو هناك - ليس بعد، حيث لم يكن مستعدًا لأن يعرف الناس أنَّه ثريٌّ بما فيه الكفاية لشراء أرضٍ من المنزل الكبير. لكن فيما بعد، عندما يزداد ثراءً، بحيث لا يعود ما يفعله يُهمُّ أحدًا. وفكر قائلاً لنفسه، وهو يتأمل ذلك المستطيل الطويل من الأرض:

- لا تعني حفنة الأرض هذه شيئاً بالنسبة لأولئك الموجودين في المنزل الكبير، لكنّها تعني لي الكثير!

ثم حدث تحوّل في تفكيره، وامتلاً بالاحتقار لنفسه، لأنّ قطعة أرضٍ صغيرة تبدو مهمة لهذا الحد. فعندما سكب فضّته بفخرٍ أمام الوكيل، التقطها الرجل بيديه بلا مبالاة، وقال:

- يوجد هنا ما يكفي أفيون السيدة العجوز لبضعة أيامٍ على أي حالٍ.

فجأة، بدا الفرق الشاسع الذي لا يزال قائماً بينه وبين المنزل الكبير، وكأنّه لا يمكن عبوره، مثل الخندق المليء بالماء أمامه، والمرتفع كالجدار من خلفه، يمتد أمامه مستقيماً ورمادياً. ملأه تصميمٌ غاضبٌ، ثم خاطب قلبه، قائلاً إنّهُ سيملاً تلك الفجوة مراراً وتكراراً، حتّى يشتري من منزل هوانج ما يكفي من الأرض، حتّى تصير هذه الأرض على مبعده أقل من بوصةٍ واحدةٍ عن نظره. وهكذا صارت قطعة الأرض هذه بالنسبة لوانج لونج علامة ورمزاً.

أتى الربيع بريحٍ عاصفةٍ وسحبٍ محمّلة بالمطر، وبالنسبة لوانج لونج تحوّلت النهارات الشتوية نصف الخاملة إلى أيامٍ طويلة من الكدح اليائس في أرضه. صار العجوز يعتني بالطفل الآن، وعملت المرأة إلى جانب الرجل من الفجر حتّى غمر الغروب الحقول. وعندما أدرك وanj لونج ذات يومٍ أنّها صارت حُبلى مرّةً أخرى، كان أوّل ما طرأ على باله هو الانزعاج من أنّها لن تتمكّن من العمل خلال موسم الحصاد. صاح بها، وهو منفعلٌ من أثر التعب:

- إِذَنْ فَقَدْ اخْتَرْتُ هَذَا التَّوْقِيتَ كَيْ تَحْمِلِي مَرَّةً أُخْرَى، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

أَجَابَتْ بِصَلَابَةٍ:

- هَذِهِ الْمَرَّةُ لَيْسَتْ ذَاتَ بَالٍ. الْمَرَّةُ الْأُولَى فَقَطْ هِيَ الصَّعْبَةُ.

لَمْ يُقَلِّ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ عَنِ الطِّفْلِ الثَّانِي مِنْذُ أَنْ لَاحَظَ انْتِفَاحَ جَسَدِهَا بِهِ وَهُوَ يَنُمُو، حَتَّى أَتَى يَوْمٌ فِي الْخَرِيفِ، عِنْدَمَا وَضَعْتُ مَعُولَهَا جَانِبًا ذَاتَ صَبَاحٍ، وَتَسَلَّلْتُ إِلَى الْمَنْزَلِ. لَمْ يَعْذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى لَتَنَاوَلَ وَجِبَةَ الظَّهِيرَةِ، حَيْثُ كَانَتْ السَّمَاءُ مُثْقَلَةً بِالْغُيُومِ الرَّعْدِيَّةِ، وَكَانَ الْأَرُزُّ نَاضِجًا تَمَامًا، وَجَاهِزًا لِلْجَمْعِ فِي حُزْمٍ. فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ وَقَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، عَادَتْ إِلَى جَوَارِهِ، وَقَدْ صَارَ جَسَدُهَا مَسْطَحًا، وَهِيَ مِنْهَكَةٌ الْقُوَى، إِلَّا أَنَّ وَجْهَهَا بَدَأَ صَامِتًا وَبَاسِلًا. أَحَسَّ بِدَافِعٍ لِأَنَّهُ يَقُولُ:

- لَقَدْ نَلَيْتُ مَا فِيهِ الْكَفَايَةُ الْيَوْمَ. اذْهَبِي وَاسْتَلْقِي عَلَى فِرَاشِكَ.

لَكِنْ آلامُ جَسَدِهِ الْمَنْهَكِ جَعَلَتْهُ قَاسِيًا، وَقَالَ لِنَفْسِهِ، إِنَّهُ عَانِي فِي عَمَلِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَا يَسَاوِي مَعَانَاتِهَا هِيَ فِي الْوِلَادَةِ. لِذَا اكْتَفَى فَقَطْ بِالسُّؤَالِ بَيْنَ ضَرْبَاتِ مَنْجَلِهِ:

- هَلْ هُوَ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟

أَجَابَتْ بِهَدْوٍ:

- إِنَّهُ ذَكَرٌ آخَرُ.

لَمْ يَقُولَا شَيْئًا آخَرَ لِبَعْضِهِمَا، لَكِنَّهُ شَعَرَ بِالسُّرُورِ، وَبَدَأَ الْإِنْحِنَاءَ وَالْمِيلَ الْمُتَوَاصِلَانَ أَقْلَ مَشَقَّةٍ. وَعَمَلًا حَتَّى ارْتَفَعَ الْقَمَرُ فَوْقَ كُومَةٍ مِنَ السَّحَبِ الْبَنَفْسَجِيَّةِ، فَانْتَهَى مِنَ الْحَقْلِ، وَعَادَا إِلَى الْمَنْزَلِ.

بعد أن تناول وجبته، وغسل جسده المحترق من الشمس بالماء البارد، وشطف فمه بالشاي، ذهب وانج لونج ليلقي نظرة على ابنه الثاني. كانت أولان قد استلقت على الفراش بعد طهي الوجبة، ورقد الطفل بجوارها. كان طفلاً سميناً وهادئاً وبصحة جيّدة بما فيه الكفاية، لكن ليس كبيراً بحجم الطفل الأول. نظر إليه وانج لونج، ثم عاد للغرفة الوسطى شاعراً بالرضى. ابنٌ آخر، يليه آخر وآخر، كلّ عامٍ لا يمكن أن يزعج المرء نفسه بالببيض الأحمر كل عام، حيث كان يكفي القيام بذلك للابن الأوّل. امتلأ المنزل بحسن الطالع. لم تجلب له هذه المرأة شيئاً سوى الحظ السعيد. صاح قائلاً لوالده:

- حسناً أيها العجوز، مع حفيدٍ آخر، سنضطرُّ إلى وضع الكبير في فراشك!

سُرَّ العجوز أيّما سرور. لطالما رغب منذ فترة طويلة أن ينام هذا الطفل في فراشه، وأن يدفئ جسده العجوز البارد بالعظام والدماء الفتية المتجددة، إلّا أنّ الطفل كان يرفض ترك والدته. إلّا أنّه ترنّح داخلاً الآن بخطواتٍ طفولية لا تزال غير مستقرة، وحدّق بهذا الطفل الجديد بجوار والدته. وبدا أنّه أدرك بعينه الجادّتين أنّ هناك من احتلّ مكانه، فسمح بأن يوضع في فراش جدّه دون احتجاجٍ.

كان الحصاد جيّداً مرّة أخرى، وجمع وانج لونج الفضة من بيع محاصيله، وأخفاها في الجدار ثانية. لكن الأرز الذي جناه من أرض هوانج جلب له ضعف ما حصل عليه من أرض الأرز الخاصّة به هو. كانت تربة تلك القطعة من الأرض رطبة وغنية، وكان الأرز ينمو بها كما

تنمو الحشائش، حيث لا تكون مرغوبًا فيها. وصار الجميع يعرفون الآن
أنّ وانج لونج يمتلك هذه الأرض، وسرى حديثٌ في قريته بخصوص
جعله رئيسًا للقريّة.



بدأ عمُّ وانج لونج في هذا الوقت يمثل مشكلة، كما توقَّع وانج لونج منذ البداية. كان هذا العمُّ هو الشقيق الأصغر لوالد وانج لونج، وتبعاً لكلِّ حقوق الصلة بينهما فيمكنه الاعتماد على وانج لونج لو لم يكن لديه ما يكفيه هو وأسرته. عندما كان وانج لونج ووالده فقيرين يعانيان سوء التغذية، استجمع العمُّ قواه ليعمل في أرضه كيما اتفق حتَّى يجمع ما يكفي ليطعم نفسه وأطفاله السبعة وزوجته. لكن بمجرد إطعامهم، لم يكن أحدٌ منهم يعمل. لم تكن الزوجة تكلف نفسها عناء التحرك حتَّى تكنس أرضية كوخهم، كما لم يكن الأطفال يتجشَّمون عناء غسل آثار الطعام عن وجوههم. كان من العار أنَّه مع تقدُّم الفتيات في السنَّ وحتَّى بلوغهن سنَّ الزواج، كنَّ لا يزلن يركضن في شوارع القرية، تاركات شعرهن المهُوَّش البني من أثر الشمس دون تمشيطة، حتَّى إنَّهن كنَّ أحياناً يبادلن الرجال الحديث. التقى وانج لونج أكبر بنات عمِّه هكذا في أحد الأيام، واشتاط غضباً للعار الذي لحق بأسرته، لدرجة أنَّه تجرَّأ على الذهاب لزوجة عمِّه، وقال:

- والآن من سيتزوج فتاة مثل ابنة عمي، والتي يستطيع أي رجل النظر إليها؟ لقد بلغت سن الزواج منذ ثلاث سنوات، ولا تزال تركض في الأرجاء. واليوم رأيت متشردًا عاطلاً في شارع القرية يضع يده على ذراعها، ولم تجبه هي سوى بضحكة وقحة!

لم يكن لدى زوجة عمه أي شيء نشط في جسدها سوى لسانها، الذي أطلقته الآن على وانج لونج:

- حسنًا، ومن الذي سيدفع الدوطة، وتكاليف الزفاف وأتعاب وسيط الزواج؟ من السهل أن يتحدث أولئك الذين يمتلكون أرضًا أكثر مما يعرفون عما يفعلونه بها، ومع ذلك يمكنهم الذهاب وشراء المزيد من الأرض من الأسر الكبيرة بالفضة الزائدة على حاجتهم. لكن عمك رجل سيئ الحظ، وكان كذلك منذ البداية. إن قدره خبيث دون أي ذنب منه. هذه مشيئة السماء. حيث يمكن للآخرين إنتاج حبوب جيدة، تموت منه البذور في الأرض، ولا ينبت أي شيء سوى الحشائش، على الرغم من أنه يعمل حتى ينكسر ظهره!

شرعت تبكي بسهولة بصوت مرتفع، وأخذت تزيد نفسها احتياجًا. شددت شعرها المعقود في مؤخرة رأسها، ومزقت الشعر المتساقط حول وجهها، وبدأت تصرخ بلا تحفظ.

- آه، هذا شيء لا تعرفه أنت، أن يكون لك قدر خبيث! حيث تطرح حقول الآخرين أرضًا جيدًا وقمحًا، تطرح حقولنا الحشائش الضارة. وحيث تقف منازل الآخرين لمئة عام، تهتز الأرض نفسها أسفل منزلنا

حتّى تشقّق الجدران. وحيث تنجب الأخريات رجالاً، فإنّني أنا، على الرغم من أنّني أحمل ولدًا، ألد فتاة، آه، يا للقدر الخبيث!

صرخت بصوتٍ مرتفع، واندفعت الجارات خارجات من منازلهنّ كي تشاهدن وتسمعن. إلّا أنّ وانج لونج وقف بصلافة، عازمًا على إكمال ما أتى ليقوله. قال:

- مع ذلك، على الرغم من أنّه ليس لي أن أتجرأ وأقدّم النصّح لشقيق والدي، لكنني سأقول هذا: من الأفضل أن تتزوّج الفتاة وهي لا تزال عذراء، ومن سمع من قبل عن أنثى كلب سُمح لها بالتجوّل في الشوارع، دون أن تكون قد أنجبت الجراء؟

بعد أن تحدّث هكذا صراحة، ذهب لمنزله وترك زوجة عمّه وهي تصرخ. كان يفكر في شراء المزيد من الأرض من منزل هوانج هذا العام، والمزيد من الأرض عامًا بعد عام، كلما استطاع ذلك. وكان يحلم بإضافة غرفة جديدة لمنزله. وقد أغضبه أنّه رأى نفسه وأبناءه ومكانتهم ترتفع ليصيروا أسرة مالكة للأراضي، بينما أبناء عمومته الكسالى يركضون في الأرجاء دونما رابطٍ، حاملين نفس اسمه.

في اليوم التالي، أتى عمّه إلى الحقل الذي كان يعمل فيه. لم تكن أولان هناك، حيث مرّت عشرة أشهرٍ منذ مولد طفلها الثاني، وقد شارفت على الولادة الثالثة. لم تكن على ما يرام هذه المرّة، ولم تأت للحقل لبضعة أيام، لذا كان وانج لونج يعمل وحده. جاء عمّه متسكّعًا بجانب أحد الأخاديد، ولم تكن ملابسه مغلقة بالأزرار كما يجب أبدًا،

بل جُمِعت أطرافها معًا، وثُبَّتَ بحزامه بصورةٍ غير محكمة، بحيث بدا دومًا أنه في حال هبوب زوبعة من الريح تجاهه، فقد يقف عاريًا فجأة. جاء إلى حيث كان وانج لونج، ووقف في صمتٍ، بينما كان وانج لونج يعزق خطأً ربيعًا بجوار الفول الذي يزرعه. أخيرًا، قال وانج لونج بخبثٍ، دون أن يرفع رأسه:

- أستمحك عذرًا يا عمي، لعدم توقُّفي عن العمل. إذا كانت حبوب الفول هذه ستثمر، فيجب كما تعلم، أن تُحرث مرتين وثلاثة. لقد انتهيت أنت من زراعتها بلا شك. لكنني أنا بطيءٌ للغاية - مزارعٌ مسكينٌ - لا أنتهي من عملي أبدًا ويتسنى لي الراحة.

فهم عمُّه تمامًا خبث وانج لونج، لكنَّه أجاب بهدوءٍ:

- أنا رجلٌ صاحب قدرٍ خبيثٍ. هذا العام، أنبتت بذرة فولٍ واحدة من بين كلِّ عشرين بذرة. ومع مثل هذا النمو الضعيف، فلا فائدة تُرجى من ضربات المعول. سنضطرُّ إلى شراء الفول هذا العام، لو كنّا سنأكله. وتنهَّد بعمقٍ.

قسى وانج لونج قلبه. كان يعلم أنَّ عمَّه جاء ليطلب منه شيئًا. ضرب الأرض بمعوله بحركاتٍ طويلة منتظمة، وبنايةٍ شديدة، ليفتت أصغر كتلة في التربة اللينة المزروعة جيّدًا بالفعل. انتصبت نباتات الفول مزدهرة بانتظامٍ، وألقت هوامش صغيرة من الظلال حيث تقف وسط الشمس. أخيرًا، بدأ عمُّه في الحديث:

- أخبرتني تلك الموجودة بمنزلي عن اهتمامك بأكبر جارية لديّ،
والتي بلا قيمة. ما تقوله صحيحٌ تمامًا. أنت حكيمةٌ بالنسبة لسنّك. يجب
أن تتزوَّج. فهي في الخامسة عشرة من العمر، وكان من الممكن أن
تنجب خلال الثلاث أو الأربع سنوات الماضية. أشعر بالرعب على
الدوام من أن تحمل من كلبٍ مُشرَّدٍ، وتجلب العار لي ولاسمنا. فكّر لو
حدث هذا في عائلتنا المحترمة، لي، لشقيق والدك!

ضرب وانج لونج الأرض بمعوله بقوة. كان يريد الحديث صراحة.
كان يودُّ أن يقول:

- لِمَ لا تتحكّم بها، إذن؟ لِمَ لا تبقّيها في المنزل بشكلٍ لائقٍ،
وتجعلها تكنس وتنظف وتطهو، وتصنع ملابس للعائلة؟

لكن لا يمكن للمرء قول مثل هذه الأشياء لجيلٍ أكبر سنًّا. لذا التزم
الصمت، وعزق الأرض بالقرب من نباتٍ صغيرٍ، وانتظر.

واصل عمّه بحزنٍ:

- لو كان قدري طيبًا، وتزوجتُ امرأةً كما فعل والدك، تستطيع أن
تعمل وتنجب الذكور في نفس الوقت، كما تفعل زوجتك أيضًا، بدلًا
من امرأة مثل زوجتي التي لا تجعل أيَّ شيء ينمو سوى شحمها، ولا تلد
سوى الإناث، وابني الوحيد الكسول هذا الذي هو أقل من ذكرٍ بسبب
كسله، فربما كنتُ أنا الآخر ثريًا حينها مثلك الآن. وربما كنتُ أشاركك
ثروتي ساعتها عن طيب خاطرٍ. كنت سأزوِّج بناتك من رجالٍ صالحين،

وسأضع ابنك كمتدربٍ في محل أحد التجار، وأدفع رسوم الضمان عن طيب خاطرٍ. وكنتُ سأسعد لإصلاح منزلك، وكنتُ سأطعمك بأفضل ما لديّ، أنت ووالدك وأبناءك، لأننا من دمٍ واحدٍ.

أجاب وانج لونج على الفور:

- أنت تعلم أنني لستُ ثريًا. لديّ خمسة أفواهٍ لأطعمها الآن، ووالدي عجوزٌ ولا يعمل، ولا يزال يأكل. وعلى حدّ علمي، فهناك فمٌ آخر يُولد في منزلي في هذه اللحظة الآن.

أجاب عمّه بحدّة، قائلاً:

- أنت ثريٌّ، أنت ثريٌّ! فقد اشتريتَ الأرض من المنزل الكبير، والآلهة وحدها من تعلم أيّ ثمنٍ باهظٍ دفعته. هل هناك شخصٌ آخر في القرية يمكنه فعل هذا الشيء؟

عندها استفزّ غضب وانج لونج، فألقى معوله، وصرخ فجأةً، وهو يرمق عمّه بغضبٍ:

- إذا كانت لديّ حفنةٌ من الفضة، فذلك لأنني أعمل، وزوجتي تعمل، ولا نفعل مثل البعض، فلا نتسكّع عند موائد القمار، أو نثرثر على عتبات الأبواب التي لا تُكسّ أبدًا، تاركين الحشائش الضاربة تنمو في حقولنا، وأطفالنا نصف جياع!

تدفّقت الدماء إلى وجه عمّه الأصفر، واندفع نحو ابن أخيه، وصفعه بقوة على كلا وجنتيه. صاح قائلاً:

- هذا لأنك تحدثت بهذه الطريقة لجيل والدك! أليس لديك أي دين ولا أخلاق، لدرجة أنك تفتقر إلى بر الأبناء لهذا الحد؟ ألم تسمع أن التعاليم المقدسة تأمر بالآل يوبّخ الرجل من هو أكبر منه أبداً؟

وقف وانج لونج متجهماً في ثباتٍ، مدرّكاً خطأه، لكنّه شعر بالغضب من أعماق قلبه حيال هذا الرجل الذي كان عمّه.

صرخ عمّه بصوتٍ مرتفعٍ مبحوحٍ من شدة الغضب:

- سأكرر كلماتك على مسامع القرية بأكملها! بالأمس هاجمت منزلي، وصحت بصوتٍ مرتفعٍ في الطرقات أن ابنتي ليست عذراء، واليوم توبّخني أنا؛ أنا من يجب أن يكون في مقام والدك في حالة وفاة أبيك! والآن قد لا تكون جميع بناتي عذارى، لكنني لن أسمح لأحدٍ بالتفوّه بمثل هذا الحديث عنهن!

وظلّ يعيد، مراراً وتكراراً: «سأخبر القرية، سأخبر القرية»، حتّى قال وانج لونج أخيراً على مضضٍ:

- ما الذي تريدني أن أفعله؟

حيث مسّ كبرياءه أن هذا الأمر قد يفتضح بالفعل أمام القرية. ففي النهاية، كان لحمه ودمه.

تغيّر عمّه على الفور. زال عنه الغضب. ابتسم، ووضع يده على ذراع وانج لونج.

قال بهدوءٍ:

- آه، أنا أعرفك. فتى طيب، فتى طيب. عمُّك العجوز يعرفك.
أنت ابني. يا بني، القليل من الفضة في هذا الكفِّ العجوز المسكين،
لنقل عشر قطع، أو حتَّى تسع، ويمكنني البدء في الترتيبات مع الخاطبة
لجاريته تلك. آه، أنت محقٌّ. لقد آن الأوان، لقد آن الأوان!

تنهّد، وهزّ رأسه، ونظر إلى السماء بورعٍ.

التقط وانج لونج معوله، ثم ألقى به ثانية. قال بخشونة:

- تعال إلى المنزل. فأنا لا أحمل معي الفضة كالأمير.

تقدّم للأمام، تملؤه مرارة أكثر مما تستطيع أن تعبّر الكلمات، لأنَّ
بعض الفضة الطيّبة التي كان يخطط أن يشتري بها المزيد من الأرض
كانت ستُنقل إلى كفِّ عمّه، ومن هناك ستنزلق لطاولة القمار قبل
حلول الليل.

دخل المنزل، وأبعد عن طريقه ابنيه الصغيرين، اللذين كانا يلعبان
عاريين تحت دفء أشعة الشمس عند عتبة الباب. نادى عمّه الطفلين
بلطفٍ، وأخرج من فتحة ما في ملابسه المُجعدّة عملة نحاسيّة لكلِّ
طفلٍ. ضمَّ إليه الجسدين الصغيرين السمينين اللامعين، وألصق أنفه
في عنقيهما الناعمين، وتشمّم بحنانٍ جسديهما اللذين اسمرا بفعل
الشمس.

قال، وهو يحتضن واحدًا بكلِّ ذراعٍ من ذراعيه:

- آه، أنتما رجلان صغيران.

لكنَّ وانج لونج لم يتوقّف. دخل الغرفة التي كان ينام فيها مع زوجته وطفله الأخير. كان الظلام شديداً، حيث دخل من وهج الشمس بالخارج، وباستثناء شريط الضوء الداخل عبر الفتحة، لم يتمكّن من رؤية شيء. لكن رائحة الدماء الحارّة التي يذكرها جيداً ملأت أنفه، ونادى بحدّة:

- ماذا الآن؟ هل حان أوانك؟

أجابه صوتُ زوجته من الفراش بوهنٍ أكبر ممّا سمعها تتحدّث به من قبل قطّ:

- انتهى الأمر مرّةً أخرى. إنّها مجرد جارية هذه المرة. لا تستحق الذكر.

وقف وانج لونج ساكناً. انتابه شعورٌ بالشرّ. فتاة! كانت فتاة تتسبّب في كلّ هذه المشاكل بمنزل عمّه، والآن وُلِدَتْ فتاة في منزله أيضاً.

توجّه إلى الجدار دون أن يردّ، وتحسّس موضع الخشونة التي كانت العلامة الدالّة على المخبأ، وأزال كتلة الطين. تحسّس خلفها كومة الفضّة الصغيرة، وأحصى تسع قطعٍ.

قالت زوجته، فجأةً وسط الظلام:

- لماذا تُخرج الفضّة؟

أجاب بخشونة:

- أنا مضطّرٌّ إلى إقراضها لعمّي.

لم تقل زوجته شيئاً في البداية، ثم ردّت بأسلوبها الصريح البطيء:

- من الأفضل عدم قول إقراض، فلا يوجد إقراضٌ في ذلك المنزل.
هناك إعطاءً فقط.

أجاب وانج لونج بمرارة:

- حسنًا، أعرف ذلك. فأنا أقتطع من لحمي كي أمنحه إياه، لا لشيء
إلا لأننا من دمٍ واحدٍ.

ثم خرج إلى العتبة، ودفع المال نحو عمّه، وعاد مسرعًا إلى الحقل،
وشرع يعمل هناك وكأنّه سيقتلع الأرض من أساساتها. انشغل تفكيره
في ذلك الوقت بالفضّة فقط. رآها تنسكب بإهمالٍ على مائدة القمار،
ورأى يدًا عاطلة تغترفها. فضّته هو، الفضّة التي جمعها بجهدٍ بالغٍ من
ثمار حقوله، ليحوّلها مرّةً أخرى إلى مزيدٍ من الأرض له.

حلّ المساء قبل انقضاء غضبه، وفرد قامته، وتذكّر منزله وطعامه.
ثم فكّر في ذلك الفم الجديد الذي أتى لمنزله ذلك اليوم، وطرأ له بحزنٍ
أن ولادة البنات قد بدأت بالنسبة له، بنات لا يتتمين لوالديهن، لكنهنّ
يولدن وتتمّ تنشئتهنّ لأسرٍ أخرى. لم يكن قد فكّر حتّى، وسط غضبه
حيال عمّه، أن يتوقّف ليرى وجه هذا المخلوق الصغير الجديد.

وقف متكئًا على معوله، وغمره الحزن. سيمضي حصادٌ آخر قبل أن
يتمكّن من شراء تلك الأرض الآن، قطعة مجاورة لتلك التي كانت لديه.
كما كان هناك فمٌ جديدٌ في المنزل. طار سربٌ من الغربان، لونه أسود
بدرجة حادّة، عبر سماء الشفق الشاحبة التي بلون المحار، وحلّق فوقه
ناعقًا بصوتٍ مرتفعٍ. راقبها تختفي كسحابة وسط الأشجار المحيطة
بمنزله، وركض تجاهها صارخًا، وهو يهزُّ معوله. ارتفعت ببطءٍ مرّةً

ثانية، وأخذت تدور وتدور حول رأسه، مستهزئة به بصيحاتها، حتى
طارَت أخيراً وسط السماء المظلمة.

تأوّه بصوتٍ مرتفعٍ. كان ذلك فألاً سيئاً.



بدا الأمر وكأنّ الآلهة ما إن تنقلب على الرجل، فلن تضعه بعين الاعتبار مرّة ثانية. احتجبت الأمطار التي كان من المفترض أن تأتي في مطلع الصيف، وتألّقت السماء يومًا بعد يومٍ بوهجٍ منعشٍ ومبهجٍ. لم تكن الأرض الظمأى المجدبة تعني شيئًا لهم. لم تكن هناك سحابة من مطلع الفجر، حتّى الفجر الذي يليه. وتدلّت النجوم من السماء ليلاً، ذهبية وقاسية في جمالها.

على الرغم من أنّ وانج لونج زرع حقوله باهتمام يائسٍ، فإنّها جفّت وتشقّقت. وعندما لم تجد أعواد القمح الصغيرة التي نبتت بشجاعة بحلول الربيع وأعدّت قممها لاستقبال الحبوب، أيّ إمدادات لها من التربة أو من السماء، توقّفت عن النمو وبقيت ساكنة في بادئ الأمر تحت الشمس، حتّى انكمشت، واصفرت في نهاية المطاف، وصار المحصول مجدّبًا. كانت أحواض الأرز الصغيرة التي زرعها وانج لونج في البداية مربعاتٍ من الإشم فوق الأرض البنية. حمل إليها الماء يومًا بعد يومٍ، بعد أن يئس من القمح، والدلاء الخشبية الثقيلة معلّقة على عودٍ من الخيزران على كتفيه. لكن على الرغم من تكوّن جزءٍ غائرٍ عميقٍ في لحمه، تصلّب فيه الجلد بمساحة كبيرة تعادل حجم وعاء، فإنّ المطر لم يهطل.

أخيرًا، جفَّت المياه في البركة، وصارت طبقةً لزجةً من الطين، وانخفض منسوب مياه البئر بشدّة لدرجة أن أولان قالت له:

- إذا كان الأطفال سيشرّبون، والعجوز سيتناول ماءه الساخن، فيجب أن نترك النباتات لتجفّ.

أجاب وانج لونج بغضبٍ تحوّل إلى نسيج:

- حسنًا، إذا كانت النباتات ستظمأ، يجب أن يظمأوا جميعًا.

كان من الصحيح أن حياتهم جميعًا تعتمد على الأرض.

كانت قطعة الأرض المجاورة للخندق المائي وحدها فقط التي طرحَتْ محصولًا. وهذا لأنّه عندما انتهى الصيف أخيرًا دون أمطارٍ، تخلّى وانج لونج عن جميع حقوقه الأخرى، وقضى اليوم كلّ في هذا الحقل وهو يغترف الماء من الخندق ليصبّه على الأرض العطشى. وللمرّة الأولى باع حبوبه هذا العام بمجرد حصادها، وعندما لمس الفضة في كفه، قبض عليها بقوة في تحدّد. قال لنفسه إنّّه على الرغم من الآلهة والجفاف، فسوف ينفذ ما اعتزم القيام به. كان قد أنهك جسده، وسكب عرقه من أجل هذه الحفنة من الفضة، وسيفعل بها ما يريد. أسرع إلى منزل هوانج، وقابل وكيل الأرض هناك، وقال دون الالتزام بالرمميّات:

- لديّ ما أشتري به الأرض المجاورة لأرضي، بجانب الخندق.

كان وانج لونج قد سمع هنا وهناك أن ذلك العام بالنسبة لمنزل هوانج كاد يشارف حدّ الفقر. لم تحصل السيدة العجوز على حصتها

الكاملة من الأفيون لعدة أيام، وكانت مثل نمرة عجوزٍ في جوعها، بحيث كانت ترسل في طلب الوكيل كلَّ يومٍ، وتسبُّه، وتضربه على وجهه بمروحتها، صارخة فيه:

- ألم تعد هناك فدادين باقية من الأرض بعد؟
حتّى بات متأزماً لا يدري ما يفعله.

لدرجة أنّه تخلّى عن الأموال التي كان يحتجزها عادة من معاملات الأسرة، لاستخدامه الشخصي: لهذا الحد بلغت به الأزمة. وكما لو أنّ هذا لم يكن كافياً، فقد اتّخذ السيد العجوز محظية أخرى، جارية كانت ابنة إحدى جواريه في شبابها، لكنّها صارت متزوجة الآن من أحد الخدم العاملين في المنزل، لأنّ السيد العجوز فَقَدَ رغبته فيها قبل أن يأخذها لغرفته كمحظية. وقد نظر الآن لابنة الجارية هذه، والتي لم يكن عمرها يتجاوز السادسة عشرة، بشهوة جديدة. فمع تقدّمه في السنّ وضعفه وزيادة وزنه، بدا وكأنّه يرغبُ في المزيد والمزيد من النساء النحيفات الشابات، حتّى لدرجة الطفولة، لدرجة أنّ شهوته لم تكن ترتوي. كما كان حال السيدة العجوز مع الأفيون، كان هو مع شهوته. ولم تكن هناك طريقة لجعله يفهم أنّه لا توجد أموالٌ لشراء الأقرات المصنوعة من اليشم لأولئك المفضّلات لديه، فضلاً عن شراء الذهب لأيديهن الجميلة. لم يستطع فهم عبارة «لا توجد أموالٌ»، وهو الذي قضى حياته بأكملها دون أن يحتاج إلى أكثر من أن يمدّ يده ويملأها بالقدر الذي يشاؤه.

عند رؤية والديهما على هذا النحو، هزَّ الأسياد الشباب أكتافهم، وقالوا إنّّه حتماً لا يزال هناك ما يكفيهم طوال حياتهم. اتّحدوا في شيء

واحدٍ فقط، وهو توييخ الوكيل على سوء إدارته للممتلكات، لدرجة أنّه بعد أن كان رجلاً هادئاً وثرياً، متملقاً ومداهنًا، صار الآن قلقاً ومضطرباً، حتّى ترهّل جلده عليه كثوبٍ قديمٍ.

كما لم ترسل السماء المطر إلى حقول منزل هوانج، ولم يكن لديهم حصادٌ هناك أبضاً. لذا عندما أتى وانج لونج إلى الوكيل صائحاً: «لديّ فضّة»، كان الأمر وكأنّ أحدهم أتى، قائلاً للجياغ: «معي طعامٌ». تمسّك الوكيل بالفرصة. وفي حين كانت هناك من قبل مساوماتٌ وشرّبٌ للشاي، تبادل الرجلان الحديث الآن بهمسٍ يغلب عليه الحماسة، وبسرعة تسبق إنهاءهما للكلمات، انتقل المال من يدٍ لأخرى، وتمّ توقيع وختم الأوراق، وصارت الأرض ملكاً لوانج لونج. ومرةً أخرى، لم يعتبر وانج لونج دفع الفضّة، التي كانت لحمه ودمه، أمراً صعباً. فقد اشترى بها ما يتمنّاه قلبه. صار لديه الآن حقلٌ شاسعٌ من الأرض الجيِّدة، حيث كان الحقل الجديد ضعف مساحة الأوّل. لكن ما كان يهّمه أكثر حتّى من خصوبة تربتها الداكنة، هو أنّها كانت ذات مرةً ملكاً لعائلة أحد الأمراء. ولم يُخبر أحداً بما فعله هذه المرة، ولا حتّى أولان.

مرّ شهرٌ تلو الآخر، ولم يسقط المطر بعد. مع اقتراب الخريف، تجمّعت السحب في السماء على مضضٍ: سحبٌ صغيرةٌ وخفيفةٌ. وكان بوسع المرء رؤية الرجال واقفين في شوارع القرية، خاملين وقلقين، وقد رفعوا وجوههم نحو السماء، وهم يتفحصون بدقة هذه السحابة أو تلك، ويتناقشون معاً حول ما إذا كانت محمّلة بأي أمطارٍ. لكن قبل أن

تتمكّن غيومٌ كافية من التجمّع بحيث تصير واعدة، هبّت ريحٌ مريّةٌ من جهة الشمال الغربي، الريح القارسة للصحراء البعيدة، ونفخت السحب بعيداً في السماء، كما يجمع المرء الغبار من الأرض بالمكنسة. وعادت السماء خالية وناضبة، وأشرقَت الشمس بجلالٍ كلّ صباحٍ، وتحركت في مسيرتها حتّى موعد غروبها وحيدة كلّ ليلة. والتمع القمر في وقته كشمسٍ صغرى بسبب صفاء السماء.

جنى وانج لونج من حقوله محصولاً ضئيلاً من حبوب الفول التي تتحمّل الجفاف، ومن حقل الذرة التي زرعتها في يأسٍ، عندما ذبلت أحواض الأرز وماتت من قبل أن تُزرع الشتلات في الحقل المرويّ، قطف أكواذاً قصيرة مكتنزة، بها حبوبٌ متناثرة هنا وهناك. لم تُهدّر حبة فولٍ واحدة أثناء درس الحبوب. جعل الولدين الصغيرين يعملان في غربة تراب الجرن بأصابعهما، بعد أن انتهى هو والمرأة من درس الفول. كما قشّر الذرة على الأرض في الغرفة الوسطى، مراقباً بحدّة كل حبة طارت بعيداً. عندما أراد تخزين القوالح لاستخدامها كوقودٍ، قالت زوجته:

- لا، لا تهدرها في النار. أذكر عندما كنْتُ طفلة في شانتونج وكانت تأتي أعوامٌ كهذه، حتّى القوالح كانت تُطحن وتؤكل. فهي أفضل من الحشائش.

صمت الجميع عند حديثها هذا، حتّى الأطفال. كان هناك خوفٌ في تلك الأيام الغريبة المشرقة بالشمس عندما أحسّوا بالخدلان من الأرض. وحدها الطفلة الصغيرة هي من لم تعرف الخوف، حيث كان

ثديا والدتها الكبيران لا يزالان يشبعان احتياجاتها. لكن أولان غمغمت قائلة، وهي ترضعها:

- كُلِّي أيتها البلهاء المسكينة، كُلِّي بينما لا يزال هناك ما يمكن أكله. بعدها، وكأنّه لم يكن هناك ما يكفي من الشرّ، صارت أولان حُبلى مرّة أخرى وجفّ حليبها، وامتلاء البيت بالخائف بصوت الطفلة، وهي تبكي باستمرار طالبة الطعام.

لو كان أحدهم قد سأل وانج لونج :

- كيف تجد حاجتك من الطعام خلال الخريف؟
لكان أجاب قائلاً:

- لا أعرف، نجد القليل من الطعام هنا أو هناك.

لكن لم يكن هناك من يسأله ذلك. لم يسأل أحدٌ أيّ شخصٍ آخر في الريف كلّهُ: «كيف تتقوت؟». لم يسأل أحدٌ شخصاً سوى نفسه: «كيف سأجد ما أكله اليوم؟». وقال الوالدان: «كيف سنتقوت، نحن وأطفالنا؟».

اعتنى وانج لونج بثوره لأطول فترة ممكنة. قدّم للحيوان القليل من القشّ وحفنة من العروش الزاحفة ما دامت متوفرة، ثم خرج وقطف له الأوراق من الأشجار حتّى حلّ الشتاء واختفت هذه. بعد ذلك، حيث لم تكن هناك أرضٌ بحاجة إلى الحرّاة، لأنّ البذور كانت تجفّ في الأرض إذا تمّت زراعتها، ولأنّهم أكلوا كلّ الحبوب التي لديهم، لذا فقد أطلق الثور ليرعى لنفسه، وأرسل الولد الأكبر ليجلس على ظهره

طوال النهار ممسكًا بالحبل المار عبر فتحة أنفه حتّى لا يتعرض للسرقة. لكنّه لم يعد يجرؤ مؤخرًا حتّى على القيام بذلك، كي لا يتمكّن رجال من القرية، حتّى جيرانه، من التغلّب على الصبي، والاستيلاء على الثور لذبحه وأكله. لذا أبقى الثور عند عتبة الباب إلى أن صار هزيلًا كهيكلي عظمي.

لكن جاء يوم لم يتبقّ فيه أيُّ أرزٍ أو قمح، وبقيت فقط بعض حبوب الفول، ومخزون ضئيل من الذرة. أصدر الثور خوارًا بدافع من جوعه، وقال العجوز:

– سنأكل الثور بعد ذلك.

عندها صاح وانج لونج، حيث كان الأمر بالنسبة له وكأنّ أحدهم قال: «سنأكل رجلًا بعد ذلك». كان الثور رفيقه في الحقول، وكان يسير خلفه وهو يمدحه أو يلعنه تبعًا لحالته المزاجية. وكان يعرف الحيوان منذ صغره، عندما اشتروه عجلًا صغيرًا. لذا قال:

– كيف نأكل الثور؟ كيف سنحرث الأرض ثانية؟

لكن العجوز أجاب بهدوءٍ كافٍ:

– حسنًا، إنّها إمّا حياتك أو حياة ذلك الحيوان، وحياة ابنك أو حياة ذلك الحيوان. ويمكن أن يشتري الرجل ثورًا مرّة أخرى، بسهولة أكبر من شراء حياته.

إلا أنّ وانج لونج رفض قتله في ذلك اليوم. ومّر اليوم التالي، والذي يليه، وصرخ الأطفال طالبين الطعام، ولم يكن من الممكن تهدّثهم،

ونظرت أولان إلى وانج لونج مُتوسِّلة من أجل الأطفال، فرأى أخيراً أنّه لا مفرّ من الأمر. لذا قال بخشونة:

- فليُقتلِ إذن، لكنني لا أستطيع القيام بذلك.

دخل الغرفة التي كان ينام فيها، ورقد على الفراش، ولفّ اللحاف حول رأسه كي لا يسمع خوار الحيوان عند قتله.

ثم تسلّلت أولان خارجة، وأخذت سكيناً كبيراً من الحديد كان لديها في المطبخ، وحزّت شقاً كبيراً في رقبة الحيوان، وبذلك أنهت حياته. تناولت وعاءً، وجمعت دمه لتصنع لهم منه السجق كي يأكلوه، وسلخت وقطّعت الجثة الضخمة. رفض وانج لونج الخروج حتّى انتهى الأمر برمته، وطُهي اللحم وقُدّم على المائدة. لكن عندما حاول أكل لحم ثوره، كاد يتقيأ، ولم يتمكّن من ابتلاعه، واكتفى بشرب القليل من الحساء فقط.

قالت له أولان:

- الثور ما هو إلا ثورٌ، وقد شاخ هذا الثور كثيراً. كُل، فسيكون هناك آخر يوماً ما، أفضل كثيراً من هذا.

أحسّ وانج لونج بالراحة بعض الشيء ساعتها، فأكل لقمة، ثم أخرى، وأكلوا جميعاً. لكن الثور أُكِل أخيراً، وحتّى العظام كُسِرت من أجل النخاع، وسرعان ما انتهى، ولم يبقَ منه سوى الجلد الذي جفّ وتصلّب، مشدوداً على دعامة من الخيزران صنعتها أولان لتثيبته.

في البداية، ساد العداء في القرية ضد وانج لونج لأنهم افترضوا أن لديه فضة يخفيها وطعامًا يخزنه. أتى عمه، الذي كان من بين أول الجياع، طارقًا بابه ومزعجًا إياه. وبالفعل، لم يكن لدى الرجل وزوجته وأبنائه السبعة ما يأكلونه. صبَّ وانج لونج على مضضٍ في رداء عمه كومةً صغيرة من الفول، وحفنة ثمينة من الذرة.

ثم قال بحزم:

- هذا كل ما يمكنني الاستغناء عنه. ويجب أن أضع والدي العجوز في الاعتبار أولاً، حتّى لو لم يكن لديّ أطفال.

عندما أتى عمه مرّة أخرى، صاح وانج لونج، قائلاً:

- حتّى ير الأبناء لن يوفر الطعام لبيتي!

وأرسل عمه خالي الوفاض.

منذ ذلك اليوم، انقلب عمه ضده مثل كلبٍ تعرّض للركل، وهمس في القرية في هذا المنزل وذاك، قائلاً:

- ابن أخي هناك لديه فضة ولديه طعام، لكنّه لن يمنحنا أيًا من ذلك، ولا حتّى لي أنا ولأولادي، نحن الذين من لحمه ودمه. لم يعد هناك ما يمكننا فعله سوى التضمّور جوعًا.

وبعد أن أنهت أسرة تلو أخرى في القرية الصغيرة مخزونها من الطعام، وأنفقوا آخر أموالهم في الأسواق الهزيلة بالمدينة، وهبّت ريح الشتاء من الصحراء باردة كسكينٍ من الصلب وجافّة وقاحلة، اضطربت

قلوب أهل القرية من جوعهم ومن جوع زوجاتهم النحاف وأطفالهم الباكين. وعندما ارتجف عمّ وانج لونج في الشوارع ككلبٍ نحيلٍ هامسًا من شفّتيه الجائعتين:

- هناك شخصٌ لديه طعامٌ. هناك من لا يزال أطفاله سمانًا.

حمل الرجال العصي، وتوجّهوا لمنزل وانج لونج ذات ليلة، وطرقوا الباب. وعندما فتح لأصوات جيرانه، هجموا عليه، ودفعوه بعيدًا عن الباب، وطرّدوا أطفاله الخائفين خارج المنزل، واندفعوا إلى كلّ ركنٍ متحسّسين جميع الأسطح بأيديهم، بحثًا عن المكان الذي يُخفي فيه طعامه. عندما عثروا على مخزونه البائس المؤلّف من بعض الفول الجاف ووعاءٍ من الذرة الجافّة، أطلقوا صرخة يأسٍ عظيمة، واستولوا على قطعٍ من أثاثه: الطاولة والمقاعد، والفراش حيث كان العجوز يرقد خائفًا وهو يبكي.

عندها، تقدّمت أولان وتحدّثت، وارتفع صوتها الجلي البطيء فوق صوت الرجال. نادى قائلة:

- ليس هذا... ليس هذا بعد. لم يحن الوقت بعد لأخذ الطاولة والمقاعد والفراش من منزلنا. بحوزتكم كلّ طعامنا. لكنكم لم تبيعوا طاولاتكم ومقاعدكم من منازلكم بعد. لذا اتركوا لنا طاولتنا ومقاعدنا، فنحن متساوون. ليس لدينا حبة من الفول أو الذرة أكثر منكم. لا، بل لديكم أكثر منّا الآن، فقد أخذتم كلّ ما نملك. ستعاقبكم السماء لو أخذتم المزيد. والآن، سنخرج معًا بحثًا عن الحشائش لنأكلها وعن

لحاء الشجر، أنتم تبحثون لأطفالكم، ونحن سنبحث لأطفالنا الثلاثة، ولهذا الرابع الذي سيُولد في مثل هذا الوقت.

ضغطت بيدها على بطنها وهي تتحدّث، وشعر الرجال بالخزي أمامها، وخرجوا واحداً تلو الآخر، فلم يكونوا أشراراً إلا عندما يعانون الجوع.

تخلّف أحدهم، ذلك المدعو تشينج، والذي كان رجلاً ضئيلاً صامتاً أصفر البشرة، بوجه يشبه القرد في أفضل الأحوال، وقد صار وجهه الآن نحيلًا بادي القلق. كان سينطق بعض الكلمات تعبيراً عن خجله، حيث كان رجلاً شريفاً، ولم يدفعه لاقتراف الشرّ سوى بكاء طفلته. لكنّه كان يخفي في صدره حفنة من الفول اختطفها عندما عُثِر على المخزون، وخشي أن يضطرّ إلى إعادتها لو تحدّث على الإطلاق، لذا اكتفى بالنظر إلى وانج لونج بعينين منهكتين صامتتين، وخرج.

وقف وانج لونج هناك في ساحة منزله، التي درس فيها محاصيله الجيدة في السابق عامًا بعد عام، والتي بقيت لأشهرٍ طويلة خالية وبلا فائدة. لم يتبقَّ شيءٌ في المنزل لإطعام والده وأطفاله، ولا شيء لإطعام امرأته هذه التي كان عليها إلى جانب تغذية جسدها هي، أن تغذي جسداً آخر حتى ينمو: هذا الآخر الذي سيسرق من لحم أمه ودمها، بقسوة الحياة الجديدة وحماسها. انتابه الخوف البالغ للحظة، ثم تدفّقت الراحة في دمائه كنبيدٍ مهدئ. قال في قلبه:

- لا يمكنهم أخذ الأرض مني. لقد وضعتُ كدَّ جسدي وثمره
الحقول فيما لا يمكن سلبه. لو كانت الفضة بحوزتي، لاستولوا عليها.
لو كنتُ اشتريتُ بالفضة ما أخزّنه، لاستولوا عليه كلّهُ. لا تزال الأرض
بحوزتي، وهي ملكٌ لي.



جلس وانج لونج على عتبة باب منزله، قائلاً لنفسه إنه يجب الآن القيام بشيء ما بكل تأكيد. لا يمكنهم البقاء والموت هنا في هذا المنزل الفارغ. كان هناك تصميم على الحياة، ملاً جسده النحيل، الذي أخذ يلف حزامه الواسع حوله بإحكام أكبر كل يوم. لم يكن لديه استعداد لأن يسلبه قدر أحمق الحياة فجأة، وقد بلغ للتو أوج فتوته. امتلأ بغضب شديد الآن، لدرجة صار يعجز معها عن التعبير في الكثير من الأحيان. استحوذ عليه الغضب كنوبات جنون في بعض الأوقات، حتى إنه كان يندفع لأرض جرنه الخالية، ويهز ذراعيه نحو السماء الحمقاء التي تلتهم فوقه، زرقاء وصافية وباردة، وخالية من السحب على الدوام.

كان يصيح بتهور، قائلاً:

- أوه، أنت شرير للغاية، أيها العجوز القابع في السماء!

ولو أحس بالخوف للحظة، كان يصيح متجهماً في اللحظة التالية، ويقول:

- وما الذي يمكنه أن يحدث لي أسوأ مما حدث بالفعل؟

سار ذات مرّة إلى معبد الأرض، وهو يجزّ قداماً وراء الأخرى بسبب ضعفه الناتج عن الجوع، وبصق عامداً على وجه الإله الصغير الهادئ الجالس هناك مع إلهته. لم تكن هناك أعوادٌ بخورٍ الآن أمام هذين الزوجين، كما لم يكن هناك طوال أشهرٍ عديدة. واهترأت ملابسهما الورقية، وظهر جسداهما المصنوعان من الطين عبر الأجزاء المُمزّقة. لكنّهما جلسا هناك دون أن يتأثّرا بشيءٍ، فجزّ وانج لونج بأسنانه تجاههما، وسار عائداً إلى منزله وهو يئنُّ، وسقط على فراشه.

نادراً ما صار أيُّ منهم ينهض من الفراش الآن. لم تعد هناك حاجة إلى ذلك، وحلَّ النوم المتقطع ولو لفترة على الأقل، محلّ الطعام الذي لم يعودوا يمتلكونه. كانوا قد جفّفوا قوالح الذرة وأكلوها، ونزعوا اللحاء عن الأشجار، وفي جميع أنحاء الريف أخذ الناس يأكلون الحشائش التي بوسعهم العثور عليها على التلال الباردة. لم يكن هناك أيُّ حيوانٍ في أيِّ مكانٍ. كان يمكن أن يسير المرء لعدة أيام ولا يرى ثوراً أو حمّاراً، ولا أيّ نوعٍ من الحيوانات أو الطيور.

انتفخت بطون الأطفال بالهواء الفارغ، ولم يُشاهد أحدٌ في هذه الأيام قطُّ طفلاً يلعب في شوارع القرية. على الأكثر، تسلّل الصبيان في منزل وانج لونج إلى الباب ليجلسا في الشمس القاسية التي لم تتوقف أبداً عن سطوعها اللانهائي. صارت أجسادهما التي كانت ممتلئة يوماً، ناحلة وناثئة العظام الآن، عظام صغيرة وحادة مثل عظام الطيور، فيما عدا بطونهم المتنفخة. ولم تتعلّم الطفلة الجلوس دون مساعدة أبداً، على الرغم من أنّ أوان ذلك قد فات، بل رقدت دون شكوى ساعة تلو

الأخرى، وهي ملفوفة في لحافٍ قديمٍ. في البداية، كان إلحاح بكائها الغاضب يملأ المنزل، لكنّها صارت صامتة، وهي تمصُّ بضعفٍ أيَّ شيءٍ يوضع في فمها، ولا ترفع صوتها أبداً. أطلّت إليهم جميعاً بوجهها الصغير النحيف وشفاهها الزرقاء الغائرة كشفاه عجوزٍ بلا أسنانٍ، وعيونها السوداء الغائرة تحدّق بهم.

فاز إصرار هذه الصغيرة على الحياة بعطف والدها، على الرغم من أنّها لو كانت سمينة ومرحة كما كان الآخرون في سنّها، لأهمّلها كونها فتاة. كان ينظر إليها أحياناً، ويهمس بهدوءٍ:

– أيتها البلهاء المسكينة. أيتها البلهاء الصغيرة المسكينة.

وعندما ابتسمت ابتسامة ضعيفة ذات مرّةٍ مظهره لثّتها التي بلا أسنانٍ، انفجرتُ دموعه، وقبض بيده النحيلة القاسية على يدها الصغيرة، وتعلّقت أصابعها الصغيرة بسبابته. بعدها صار يرفعها أحياناً وهي مستلقية عارية، ويدفعها داخل سترته بدفئها الضئيل، ضامّاً إياها إلى جسده، ويجلس معها هكذا بالقرب من عتبة المنزل المطلة على الحقول الجافة المنبسطة.

أمّا العجوز، فقد كان حاله أفضل من غيره. حيث إنّهُ في حال وجود أي شيء يؤكل، كانوا يمنحونه إياه، حتّى لو ظلّ الأطفال بلا طعامٍ. أخبر وانج لونج نفسه بفخرٍ أنّ أحداً لن يقول ساعة الموت إنّهُ نسي والده. يجب أن يأكل العجوز، حتّى لو أطعمه لحم جسده. كان العجوز ينام ليلاً ونهاراً، ويأكل ما يُقدّم له. وكان لا يزال يتمتع بالقوة الكافية ليتسلّل إلى الساحة في الظهيرة عندما تكون الشمس دافئة. كان أكثر ابتهاجاً من

أيّ منهم، وقال ذات يومٍ، بصوته العجوز المرتعش، الذي كان مثل ريح خفيفة ترتجف بين الخيزران المتصدّع:

- كانت هناك أيامٌ أسوأ... كانت هناك أيامٌ أسوأ. رأيتُ ذات مرّة الرجال والنساء وهم يأكلون الأطفال.

قال وانج لونج برعبٍ شديدٍ:

- لن يحدث مثل هذا الشيء في منزلي أبداً.

ذات يومٍ جاء جاره تشينج، الذي انكمش الآن، وصار أقل من ظلٍّ كائنٍ حيٍّ، إلى باب منزل وانج لونج وهمس من بين شفاهه الجافة والسوداء كالأرض:

- في المدينة تؤكل الكلاب، وفي كلّ مكانٍ تؤكل الخيول والطيور من كلّ نوع. هنا أكلنا الحيوانات التي كانت تحرث حقولنا، والحشائش ولحاء الأشجار. ماذا تبقى الآن كي نأكله؟

هزَّ وانج لونج رأسه بئسٍ. رقد في حضنه جسد طفلة الضئيل الشبيه بالهيكل العظمي، ونظر إلى الوجه الرقيق الناحل، وإلى العينين الحادّتين الحزبتين اللتين كانتا تراقبانه من مكانها في صدره بلا انقطاع. عند التقاء نظرتيه مع نظرة تلك العينين، كانت ترسم على وجه الطفلة دوماً ابتسامة واهنة تحطّم قلبه.

دفع تشينج وجهه على مقربة أكبر. همس قائلاً:

- إنهم يأكلون اللحم البشري في القرية. يقال إنَّ عمَّك وزوجته يأكلان. وإلا فكيف يبقيان على قيد الحياة ويتمتّعان بالقوة الكافية

للمشي، هما اللذان - كما هو معروف - لم يكونا يملكان شيئاً أبداً؟
تراجع وانج لونج مبتعداً عن رأس تشينج الشبيه بالموت، الذي دفعه للأمام أثناء حديثه. بدا الرجل مروّعاً وعيناه على مقربة هكذا. امتلأ وانج لونج فجأة بخوفٍ عَجَزَ عن فهمه. نهض بسرعة، وكأنه يريد التخلص من خطرٍ ما يتهدّد به.

قال، بصوتٍ مرتفعٍ:

- ستترك هذا المكان، وستتوجّه صوب الجنوب! هناك أناسٌ يتضوّرون جوعاً في كلّ مكانٍ من هذه البلاد العظيمة. لكن مهما بلغ خبث السماء، فهي لن تمحو أبناء هان من الوجود دفعة واحدة.

نظر إليه جاره بصبرٍ؛ قال بحزنٍ:

- آه، أنت شابٌّ. أنا أكبر منك، وزوجتي كبيرة في السن، وليس لدينا سوى ابنة واحدة. يمكننا أن نموت بكلّ سهولة.

قال وانج لونج:

- أنت أسعد حظاً مني. لديّ والدي العجوز، وهذه الأفواه الثلاثة الصغيرة، وآخرٌ على وشك أن يُولّد. يجب أن نذهب، حتّى لا ننسى طبيعتنا، ويأكل بعضنا بعضاً، كما تفعل الكلاب البرية.

ثم بدا له فجأة أنّ ما قاله كان صحيحاً للغاية، ونادى بصوتٍ مرتفعٍ على أولان، التي كانت تترقد ممدّدة على الفراش دون حديثٍ يوماً بعد يوم، الآن بعد أن لم يعد هناك طعامٌ للموقد ولا وقود للفرن. قال:

- تعالي يا امرأة، ستتوجه جنوباً!

كان صوته مشوباً بالبهجة، كما لم يسمعه أحدٌ منذ أشهرٍ عديدة.
رفع الأطفال أنظارهم، وخرج العجوز وهو يعرج من غرفته، ونهضت
أولان من فراشها بوهنٍ، وتوجّهت لباب غرفتهم، وتشبّثت بإطار الباب،
قائلة:

- إنه لأمرٌ جيدٌ أن نفعل ذلك. يمكن للمرء على الأقل أن يموت
سائراً.

تدلى الطفل الموجود داخل أحشائها من جسدها الهزيل كفاكهة
خشنة، وزال من وجهها أيُّ أثرٍ للحم، بحيث برزت عظامها الحادة
كالصخور أسفل جلدها. قالت:

- فلتنتظر فقط حتى الغد. سأكون قد أنجبتُ حينها. يمكنني التنبؤ
من خلال حركة هذا الكائن بداخلي.

أجاب وانج لونج:

- غداً إذن.

ثم رأى وجه زوجته، وأحسَّ نحوها بشفقة أكبر من تلك التي كان
يشعر بها حيال نفسه. كانت هذه المخلوقة المسكينة تسحب بداخلها
كائنًا آخر!

تمتم، قائلاً:

- كيف ستسيرين، أيُّتها المخلوقة المسكينة؟

وقال على مضضٍ لجاره تشينج، الذي كان لا يزال متكئاً إلى المنزل
بجانب الباب:

- إذا كان لديك أي طعام باقٍ، فلتعطني حفنة بدافع من طيبة قلبك لإنقاذ حياة أم أبنائي، وسوف أنسى أنني رأيتك في بيتي كلصّ.

نظر إليه تشينج وهو يشعر بالخزي، وأجاب بتواضع:

- لم أفكر فيك براحة بالٍ أبداً منذ ذلك الوقت. كان ذلك الكلب، عمك، هو من أغواني، قائلاً إنَّ لديك محاصيل جيّدة مُخزّنة. أمام هذه السماء القاسية، أقسم لك أنّه ليس لديّ سوى حفنة صغيرة من الفاصوليا الحمراء المجفّفة، مدفونة أسفل حجر باب منزلي. وضعتها هناك أنا وزوجتي من أجل ساعتنا الأخيرة، لنا ولابتنا، حتى نموت وفي بطوننا القليل من الطعام. لكنني سأمنحك بعضاً منها، ولتتوجّه صوب الجنوب غداً لو كان بوسعك ذلك. سأبقى، أنا وأهل بيتي. أنا أكبر منك ولا ابن لديّ، ولا يهم ما إذا كنت سأعيش أو أموت.

وذهب ثم عاد بعد قليل، جالباً معه في منديلٍ قطنيٍّ معقودٍ حفنتين من حبوب الفاصوليا الحمراء الصغيرة، متعفّنة من التربة. ضجّ الأطفال عند رؤية الطعام، وحتّى العجوز التمتعت عيناها. لكن وانج لونج دفعهم بعيداً هذه المرّة، وأخذ الطعام لزوجته وهي راقدة، فأكلت القليل منه، حبة وراء الأخرى. كانت غير راغبة، إلّا أنّ ساعة ولادتها حانت، وكانت تعرف أنّها لو لم تتناول أيّ طعام؛ فسوف تموت في برائن ألّمها.

احتفظ وانج لونج ببضع حباتٍ فقط من الفاصوليا في يده، ووضعها في فمه، ومضغها حتّى صارت لبّاً طريّاً، ثم ألصق شفّتيه بشفّتي ابنته، ودفع الطعام إلى فمها. وبينما هو يراقب شفّتيها الصغيرتين وهما تتحرّكان، شعر وكأنّه هو من تناول الطعام.

بقي في الغرفة الوسطى تلك الليلة. كان الصبيّان في غرفة العجوز، بينما أنجبت أولان الطفل في الغرفة الثالثة وحدها. جلس هناك يتسمّع، كما فعل أثناء ولادة ابنه الأوّل. حتّى في ذلك الحين، لم تسمح باقترابه منها أثناء ولادتها، كانت تَلِد بمفردها، وهي تجلس القرفصاء فوق الحوض القديم الذي احتفظت به لذلك الغرض، وتتسلّل في أرجاء الغرفة بعدها لإزالة آثار ما حدث، وتخفيها كما يُخفي الحيوان آثار ولادة صغاره.

أصاخ باهتمام لتلك الصرخة الصغيرة الحادّة التي يعرفها جيّدًا، وتسمّع بيأسٍ. سواء كان ذكرًا أم أنثى، لم يعد ذلك يهَمّ بالنسبة له الآن. لم يكن هناك سوى فم آخر قادم يجب إطعامه.

تمتم، قائلاً:

- ستكون رحمة لو لم يكن هناك نفسٌ.

ثم سمع الصرخة الضعيفة -يا لضعفها!- وقد علقت للحظة وسط السكون.

أكمل قائلاً، بمرارة:

- لكن لا توجد رحمة من أيّ نوعٍ في هذه الأيام.

وجلس يتسمّع.

لم تكن هناك صرخةٌ ثانية، حلّ السكون التام على المنزل، إلّا أنّ السكون كان قد ساد لعدة أيامٍ في كلّ مكانٍ؛ سكون انعدام النشاط والناس، وكلُّ في منزله، في انتظار الموت. امتلأ هذا المنزل بمثل ذلك السكون. فجأة، لم يعد وانج لونج يتحمّله. أحسّ بالخوف. نهض

وتوجّه لباب الغرفة، حيث كانت أولان، ونادى عبر الصدع، فشجّعهُ
صوته قليلاً.

نادى المرأة:

- هل أنت بخير؟

أصاخ إليها. ماذا لو ماتت وهو جالس هناك! إلا أنه سمع حفيفاً
بسيطاً. كانت تتحرك، وفي النهاية أجابت بصوتٍ مثل التنهيدة:

- تعال!

دخل ساعتها، وهي مُمدّدة على الفراش، وجسدها بالكاد يرفع
الغطاء للأعلى. كانت ترقد وحدها.

سأل:

- أين الطفل؟

حرّكت يدها حركة طفيفة على الفراش، ورأى جسد الطفل على
الأرض.

صاح قائلاً:

- ميت!

همست قائلة:

- ميت.

انحنى مُتفحّصاً الجسد الذي بحجم القبضة - حزمة من العظام
والجلد - كانت فتاة. أوشك أن يقول: «لكنني سمعتها تبكي، حية...»،

ثم نظر لوجه المرأة. كانت عيناها مغلقتين، وبشرتها بلون الرماد، وعظامها ناتئة أسفل جلدتها، وجهٌ مسكينٌ صامتٌ، راقدٌ هناك، وقد تحمّل لأقصى حدٍّ، ولم يكن هناك ما يمكن قوله. ففي النهاية، لم يكن يجزُّ سوى جسده هو طوال هذه الأشهر. كم تحمّلت هذه المرأة من عذاب الجوع، وهذا المخلوق النهم ينخر في أحشائها، يائساً للحفاظ على حياته!

لم يقل شيئاً، لكنّه أخذ الطفلة الميتة إلى الغرفة الأخرى، ووضعها على الأرض الترابية، وفتّش حتّى عشر على حصيرة مُمزّقة ولفّها حولها. ظلّ الرأس المستدير يسقط إلى هذا الجانب وذاك، ورأى على الرقبة بقعتين داكنتين من أثر الكدمات، لكنّه أتمّ ما كان عليه أن يفعله. ثم تناول الحصيرة الملفوفة، وابتعد عن المنزل بقدر ما واثته القوة، ووضع حمّله على الجانب المجوّف لقبرٍ قديم. كان هذا القبر يقع بين العديد من القبور الأخرى، وقد تهالك ولم يعدّ معروفاً أو مُعتنى به، على جانب أحد التلال عند حدود الحقل الغربي لوانج لونج. لم يكد يضع حمّله حتّى حام خلفه على الفور كلبٌ جائعٌ يشبه الذئب. كان جائعاً لدرجة أنّه على الرغم من أنّ وانج لونج التقط حجراً صغيراً وألقاه، وضرب جانبه الهزيل بصوتٍ مكتوم، فقد رفض الحيوان الابتعاد أكثر من بضعة أقدام. أحسّ وانج لونج أخيراً بساقيه تخوران أسفلّه، فغطّى وجهه بكفّيه وانصرف.

غمغم لنفسه قائلاً:

- الأمر أفضل هكذا.

ولأوّل مرّة ملأه اليأس تمامًا.

عندما أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي دون تغييرٍ وسط سمائها الزرقاء اللامعة، بدا له أنّه كان حلمًا، كونه فكّر على الإطلاق في مغادرة منزله بصحبة هؤلاء الأطفال العاجزين، وهذه المرأة الضعيفة، وهذا الرجل العجوز. كيف يمكنهم جرّ أجسادهم لمسافة تزيد على مئة ميلٍ، حتّى لو كان ذلك في طريقهم إلى حيث يوجد وفرّ طعامٌ؟ ومن كان يعرف حتّى ما إذا كان هناك طعامٌ في الجنوب أم لا؟ قد يقول المرء إنّّه لا توجد نهاية لهذه السماء النحاسية. ربما يستنفدون آخر قواهم، ليجدوا فقط المزيد من الجوع الذين ما هم إلّا غرباء بالنسبة لهم. من الأفضل كثيرًا البقاء حيث يمكنهم الموت في أسرّتهم. جلس يائسًا عند عتبة الباب، وحدّق باكتئابٍ بالحقول الجافة الصلبة التي انتزع منها فتات أي شيء يمكن اعتباره طعامًا أو وقودًا.

لم يكن بحوزته أي مالٍ. أنفقت آخر عملة منذ زمنٍ بعيدٍ. لكن حتّى المال لن يجدي نفعًا الآن، حيث لم يكن هناك طعامٌ ليشتريه. كان قد سمع في وقتٍ سابقٍ أنّ هناك رجالًا أثرياء في المدينة يحتكرون الطعام لأنفسهم، وليبيعوه لبالغي الثراء. لكن حتّى هذا لم يعدّ يثير غضبه. لم يشعر أنّه يستطيع المشي إلى المدينة اليوم، حتّى لو كان سيُطعم دون نقودٍ. بل لم يكن جائعًا بالفعل.

انقضى ذلك الشعور القارس الذي كان ينهش معدته، والذي أحسّ به في بادئ الأمر. صار بوسعه أن يغترف القليل من التربة من بقعة محدّدة في أحد حقوله، ويعطيها للأطفال دون أن يرغب في أيّ منها لنفسه.

كانوا يتناولون هذه التربة في الماء منذ بضعة أيامٍ. كان يُطلق عليها تربة إلهة الرحمة؛ لأنّها كانت تحوي بعض العناصر الغذائية الطفيفة، على الرغم من أنّها في النهاية لم يكن بوسعها الحفاظ على الحياة. لكن عند صُنْع عصيدة منها، كانت تخفّف من جوع الأطفال لبعض الوقت، وتملاً بطونهم الخاوية المنتفخة بشيء ما. رفض بثبات أن يمسه حبوب الفاصوليا القليلة التي كانت أولان لا تزال تمسكها بيدها، وكان يريحه بشكلٍ غامضٍ سماعها وهي تطحنها بأسنانها، واحدة في المرّة، على فتراتٍ متباعدة.

بعد ذلك، وبينما هو جالسٌ هناك في المدخل متخليًا عن أمله، ومفكّرًا بسرورٍ حالمٍ في أن يتمدّد على فراشه وينام حتّى يلقي الموت بسهولة، أتى أحدهم قادمًا عبر الحقول، رجال يسرون في اتجاهه. بقي جالسًا، وهم يقتربون، ورأى أنّ أحدهم كان عمّه، وبرفقته ثلاثة رجالٍ لا يعرفهم.

ناداه عمّه، قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ، وببهجةٍ مصطنعةٍ:

- لم أرك منذ أيامٍ عديدة!

وعندما اقترب، قال بنفس الصوت المرتفع:

- وكيف حالك؟ ووالدك، شقيقي الأكبر، هل هو بخير؟

نظر وانج لونج إلى عمّه. صحيحٌ أنّ الرجل كان نحيلًا، لكنّه لم يكن يتصوّر جوعًا كما يجب أن يكون. أحسّ وانج لونج في جسده الذابل بآخر قوى متبقية من الحياة، وهي تتجمّع في غضبٍ مدمرٍ ضد هذا الرجل، عمّه.

تمتم بصوتٍ أجشَّ:

- ما أكلتُ ما أكلتُ... ما أكلتُ ما أكلتُ!

لم يفكر في أولئك الغرباء على الإطلاق، ولا في أيٍّ من قواعد اللياقة. لم ير سوى عمِّه، واللحم لا يزال يكسو عظامه. فتح عمُّه عينيه على اتساعهما، ورفع يديه إلى السماء.

صاح قائلاً:

- أكلتُ! لو كان بوسعك رؤية بيتي! لا يستطيع حتى عصفورٌ أن يلتقط أيَّ فتاةٍ هناك. زوجتي، هل تذكر كم كانت سمينة؟ كم كانت جميلة ممتلئة وبشرتها لامعة؟ هي الآن كثوبٌ معلقٌ على عمودٍ، لا شيء بها سوى العظام المسكينة، وهي تتخبَّطُ معاً أسفل جلدها. ولم يبقَ سوى أربعة من أطفالنا. رحل الثلاثة الصغار... رحلوا! أمّا بالنسبة لي، فهي أنتَ تراني.

تناول طرف كمِّه، ومسح ركن كلِّ عينٍ من عينيه بعناية.

كرَّر وانج لونج دون اهتمام:

- لقد أكلتُ.

أجاب عمُّه بسرعة:

- لم ينشغل تفكيري في شيءٍ سواك أنتَ والدة، الذي هو شقيقي، وسوف أثبت لك ذلك الآن. ما إن تمكَّنتُ من ذلك حتى اقترضت القليل من الطعام من هؤلاء الرجال الطيِّبين في المدينة، على وعدٍ بأن أعاونهم في شراء بعض الأراضي في قريتنا، مستعيناً بالقوة التي

يَمْدَنِي بِهَا الطَّعَامَ. ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي أَرْضِكَ الطَّيِّبَةِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْتَ يَا ابْنَ أَخِي. لَقَدْ أَتَوْا لِيَشْتَرُوا أَرْضَكَ، وَلِيَمْنَحُوكَ الْمَالَ. الطَّعَامَ، وَالْحَيَاةَ!
مَا إِنْ نَطَقَ عُمُّهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، حَتَّى تَرَجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَعَقَدَ ذِرَاعِيهِ مُلَوِّحًا بِمَلَابِسِهِ الْقَدْرَةَ الْمُمَرَّقَةَ.

لَمْ يَتَحَرَّكَ وَانْجَ لَوْنَج. لَمْ يَنْهَضْ، وَلَمْ يَقَرَّ بِوُجُودِ الرِّجَالِ الَّذِينَ حَضَرُوا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ. لَكِنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِمْ، وَشَاهَدَ أَنَّهِمْ بِالْفِعْلِ رِجَالٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، يَرْتَدُونَ مَلَابِسَ طَوِيلَةَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُشْخِخِ. كَانَتْ أَيْدِيهِمْ نَاعِمَةً، وَأَظْفَارُهُمْ طَوِيلَةً. بَدَأَ عَلَيْهِمْ أَنَّهِمْ قَدْ تَنَاوَلُوا الطَّعَامَ، وَالدَّمَاءَ لَا تَزَالُ تَجْرِي سَرِيعًا فِي عُرُوقِهِمْ. أَحَسَّ فَجْأَةً بِكَرَاهِيَةِ شَدِيدَةٍ تَجَاهَهُمْ. هَا هُمْ أَوْلَئِكَ الرِّجَالُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَقَدْ أَكَلُوا وَشَرَبُوا، يَقِفُونَ بِجَوَارِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ أَطْفَالُهُ يَتَضَوَّرُونَ جَوْعًا، وَيَأْكُلُونَ طِينَ الْحَقُولِ ذَاتَهُ. هَا هُمْ أَتَوْا لِيَعْتَصِرُوا مِنْهُ أَرْضَهُ وَهُوَ فِي قِمَّةِ يَأْسِهِ. رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَيْهِمْ بِتَجْهِمٍ، وَعَيْنَاهُ غَائِرَتَانِ وَكَبِيرَتَانِ فِي وَجْهِهِ النَحِيلِ الشَّيْبِيِّ بِالْجَمِجَمَةِ.

قَالَ:

- لَنْ أُبَيِّعَ أَرْضِي.

تَقَدَّمَ عُمُّهُ إِلَى الْأَمَامِ. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، جَاءَ أَصْغَرُ ابْنَيْ وَانْجَ لَوْنَجَ زَاحِفًا إِلَى الْمَدْخَلِ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ. حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ الْقُوَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ، فَقَدْ عَادَ لِلْحُبُوِّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِي طِفْلُوته.

صاح عمُّه، قائلاً:

- هل هذا ابنك؟ الصبي الصغير السمين الذي أعطيته عملة نحاسية في الصيف؟

نظروا جميعاً إلى الطفل، وفجأةً شرع وانج لونج الذي لم يكن قد بكى على الإطلاق طوال هذا الوقت في البكاء بصمتٍ. تجمَّعت الدموع في حلقه في كتلٍ ضخمة من الألم، وسالت على خديه.
همس أخيراً:

- ما هو السعر الذي تعرضونه؟

حسناً، كان هناك هؤلاء الأطفال الثلاثة الذين بحاجة إلى الطعام. الأطفال والعجوز. كان بوسعه هو وزوجته أن يحفرا قبرين لأنفسهما في الأرض، ويستلقيا ويناما فيهما. حسناً، لكن كان هناك هؤلاء الأطفال والعجوز.

عندها تحدّث أحد الرجال القادمين من المدينة، وكان رجلاً له عينٌ كفيفة غائرة في وجهه، وقال بتزلفٍ:

- أئُّها الرجل المسكين، سنمنحك سعراً أفضل مما يمكن الحصول عليه في أي مكانٍ في هذه الأوقات، من أجل الصبي الذي يتضوَّر جوعاً. سنمنحك...

توقّف، ثم قال بخشونة:

- سنمنحك مئة بنسٍ مقابل الفدان!

ضحك وانج لونج بمرارة. صاح قائلاً:

- هذا وكأنكم تأخذون أرضي على سبيل الهدية. فأنا أدفع قدر هذا المبلغ عشرين مرّة عندما أشتري الأرض!

قال الرجل الآخر الآتي من المدينة:

- آه، لكن ليس عندما تشتريها من رجال يتصوّرون جوعًا.

كان رجلًا ضئيلاً ونحيلًا، له أنف مرتفع ورفيع، إلا أن صوته خرج ضخماً وخشناً وقاسياً، على نحو غير متوقّع.

نظر وانج لونج إلى ثلاثتهم. كانوا على ثقة من موقفهم، أولئك الرجال! فما الذي لن يقدّمه الرجل، من أجل أبنائه الذين يتصوّرون جوعًا، ومن أجل والده العجوز! ذاب ضعف الاستسلام بداخله، وتحول إلى غضب لم يعرفه في حياته من قبل. اندفع نحو الرجال كما يندفع كلب نحو العدو.

صرخ فيهم، قائلاً:

- لن أبيع الأرض أبدًا! سأحفر الحقول شيئًا فشيئًا، وأطعم الأرض نفسها للأطفال. وعندما يموتون سأدفنهم في الأرض، وأنا وزوجتي ووالدي العجوز، حتّى هو، سنموت على الأرض التي ولدتنا!

أخذ يبكي بعنف، ورحل عنه غضبه فجأة كالريح، ووقف يرتجف ويبكي. وقف الرجال هناك مبتسمين بعض الشيء، وبينهم عمّه، دون أن يتأثروا. كان هذا الحديث محض جنون، وانتظروا حتّى ينقضي غضب وانج لونج.

ثم جاءت أولان إلى الباب فجأة، وتحدّثت إليهم. كان صوتها

هادئًا وعاديًا، وكأنَّ مثل هذه الأشياء تحدث كلَّ يومٍ. قالت:

- لن نبيع الأرض، بكلِّ تأكيدٍ. وإلاَّ لن يكون لدينا ما يطعمنا عندما نعود من الجنوب. لكننا سنبيع الطاولة والفراشين، وأغطية الفراش، والمقاعد الأربعة، وحتى القدر على الموقد. أمَّا المجارف والمعول والمحراث، فلن نبيعها، لا هي ولا الأرض.

كان في صوتها هدوءٌ يحمل قوة أكبر من كلِّ غضب وانج لونج، وقال عمُّ وانج لونج بشكٍّ:

- هل ستوجهون حقًا إلى الجنوب؟

أخيرًا، تحدَّث الرجل ذو العين الواحدة مع الآخرين، وهمهموا فيما بينهم، واستدار الرجل ذو العين الواحدة قائلاً:

- إنها أشياءٌ رديئة، تصلح فقط كوقودٍ. عملتان فضّيتان صغيرتان مقابل كلِّ شيء؛ اقبلوا العرض كما هو أو ارفضوه.

استدار مبتعدًا باحتقارٍ، وهو يتحدَّث، لكن أولان أجابت بهدوءٍ:

- هذا أقلُّ من ثمن فراشٍ واحدٍ، لكن إذا كانت الفضة بحوزتك، فأعطيها لي بسرعة، وخذ الأشياء.

تحسَّس الرجل ذو العين الواحدة حزامه، وأسقط الفضة في يدها الممدودة، ودخل الرجال الثلاثة إلى المنزل وأخرجوا الطاولة والمقاعد وفراش غرفة وانج لونج أولاً بأغطيته، وانتزعوا القدر من على الفرن الطيني الذي كان قائمًا فوقه. لكن عندما دخلوا غرفة العجوز، وقف عمُّ وانج لونج بالخارج. لم يرغب في أن يراه شقيقه الأكبر، ولم يرغب

أن يكون موجودًا عندما يوضع العجوز على الأرض، ويؤخذ فراشه من تحته. عندما انتهى كلُّ شيء، وصار المنزل خاليًا تمامًا، باستثناء المجرفتين والمعوّلين والمحراث في أحد أركان الغرفة الوسطى، قالت أولان لزوجها:

- دعنا نرحل بينما لا تزال بحوزتنا قطعتان من الفضة، وقبل أن نضطرّ إلى بيع العوارض الخشبية للمنزل، فلا يعود لدينا جحرٌ نرحف إليه عند عودتنا.

أجاب وانج لونج بثاقلي:

- فلنذهب.

لكنّه نظر عبر الحقول إلى الهيئات الضئيلة للرجال وهي تبتعد، وتمتم مرارًا وتكرارًا:

- على الأقل لديّ الأرض. لديّ الأرض.



لم يكن هناك ما يفعلونه، سوى سحب الباب بإحكامٍ على مُفصّلاته الخشبية، وتثبيت القفل الحديدي. كانوا يحملون جميع ملابسهم على أجسادهم. دفعتُ أولان في يد كل طفلٍ صحنًا وزوجًا من أعواد الطعام، وقبض عليهما الصبيّان الصغيران بحماسةٍ، وأمسكا بها بقوة، كوعِدٍ بطعامٍ قادمٍ. هكذا شرعوا يعبرون الحقول، في موكبٍ صغيرٍ كئيبٍ يتحرك ببطءٍ، لدرجة أنَّه بدا أنَّهم لن يصلوا أبدًا حتّى سور المدينة.

حمل وانج لونج الفتاة، محتضنًا إياها، حتّى رأى أنّ العجوز سيسقط، فأعطى الطفلة لأولان، وانحنى أسفل والده ورفعها على ظهره وحمله، مترنحًا تحت جسد العجوز الذابل الخفيف. مرّوا في صمتٍ تامٍّ بجوار المعبد الصغير والإلهين الصغيرين الجليلين بالداخل، اللذين لم يكونا يلحظان أبدًا أيَّ شيءٍ مما يدور. تصبّب وانج لونج عرقًا بسبب ضعفه، على الرغم من الريح الباردة المريعة. لم تتوقّف هذه الرياح عن الهبوب عليهم وضدهم، حتّى بكى الصبيّان من برودتها. لكن وانج لونج لاطفهم، قائلاً:

- أنتما رجلاَن كيران، وأنتما مسافران إلى الجنوب. يوجد هناك الدفء والطعام كلَّ يومٍ، والأرز الأبيض كلَّ يومٍ لنا جميعاً، وستأكلان وتأكلان.

بمرور الوقت، وصلوا لبوابة السور، بعد أن ظلّوا يستريحون بعد كلِّ مسافة قصيرة. وفيما شعر وانج لونج من قبل بالسُرور لبرودته، جزَّ على أسنانه الآن في مواجهة تيار الريح الشتوية المندفع بقوة عبر مساره، كما يندفع الماء المُثلج بين الجروف الصخرية. كان الطين سميكاً تحت أقدامهم، وطعنهم بإبرٍ جليدية، فلم يتمكَّن الصبية الصغار من إحراز تقدُّمٍ، وكانت أولان تحمل الفتاة، ويأسّة تحت ثقل جسدها هي. ترنَّح وانج لونج عابراً بالعجوز ووضعه أرضاً، ثم عاد ورفع كلَّ طفلٍ، وحمله عبر البوابة، وعندما انتهى أخيراً مسح عرقه الذي تصبَّب منه كالـمطر، وقد استنفد كلَّ قواه، واضطرَّ إلى الاتِّكاء لفترة طويلة إلى الجدار الرطب مغلقاً عينيه وأنفاسه تتسارع، ووقفت أسرته ترتجف وتنتظره.

كانوا قريبين من بوابة المنزل الكبير الآن، لكنّه كان مغلقاً بإحكام، وقد علَّتِ البوابات الحديدية لأقصى ارتفاع، والأسود الحجرية الرمادية تلفحها الريح على كلا الجانبين. تمدَّدتْ على عتبات الأبواب بعض الهيئات القذرة لرجالٍ ونساءٍ حدَّقوا جائعين بالبوابة المُغلَّقة. وعندما مرَّ وانج لونج بموكبه الصغير البائس، صاح أحدهم بصوتٍ أجشَّ:

- قلوب هؤلاء الأغنياء قاسية، مثل قلوب الآلهة. لا يزال لديهم ما يتناولونه من الأرز، ولا يزالون يصنعون النبيذ من الأرز الذي لا يأكلونه، بينما نحن نتضوَّر جوعاً.

واشتكى آخر، قائلاً:

- أوه، لو كانت لديّ القوة للحظة في يدي هذه، لأشعلت النار في البوابات، وفي هذه المنازل والساحات بالداخل، حتّى لو احترقت أنا وسط النيران. ألف لعنة على الآباء الذين حملوا أبناء هوانج!
لكن وانج لونج لم يحرّج جواباً لكلّ هذا، وتوجّهوا جميعاً في صمتٍ صوب الجنوب.

عندما عبروا المدينة، وخرجوا من طرفها الجنوبي، وكانوا قد فعلوا ذلك ببطءٍ شديدٍ لدرجة أنّ المساء أتى وشارف حلول الظلام، وجدوا حشداً من الناس يتوجّهون جنوباً. بدأ وانج لونج يفكر أي ركنٍ من الجدار هو الأفضل ليختاروه للنوم بقدر استطاعتهم وهم متكؤمون معاً، عندما وجد نفسه وأسرته فجأة عالقين وسط حشيدٍ. سأل أحد الذين تراحموا بجواره:

- إلى أين تذهب كلّ هذه الجموع؟

قال الرجل:

- نحن نتصوّر جوعاً، وسنلحق بالقطار ونركبه صوب الجنوب. إنّه يخرج من تلك المحطة، وهناك عرباتٌ لأمثالنا بسعرٍ أقل من عملة فضّية صغيرة.

القطارات! كان المرء قد سمعَ بأمرها. سمع وانج لونج في صالة الشاي في الأيام الخوالي الرجال وهم يحكون عن هذه العربات المثبّثة بعضها إلى بعضٍ بالسلاسل، ولا يحرّنها إنسانٌ أو حيوانٌ، بل آلة تنفث

النار والماء كالتنين. أخبر نفسه كثيرًا آنذاك أنه سيذهب لرؤيتها في إحدى العطلات، لكن مع وجود أمرٍ أو آخر في الحقول لم يتسنَّ له الوقت أبدًا، حيث كان في أقصى شمال المدينة. ثم كان هناك دومًا انعدام الثقة فيما لا يعرفه المرء ولا يفهمه. ليس من الجيد أن يعرف الرجل أكثر مما هو ضروري لكسب قوت يومه.

إلا أنه استدار بتشككٍ الآن نحو المرأة، وقال:

- هل نستقلُّ نحن أيضًا إذن هذا القطار؟

أبعدا العجوز والأطفال قليلًا عن الحشد المار، وتبادلا النظر بقلقٍ وخوفٍ. في لحظة الراحة تلك، ارتمى العجوز على الأرض، وتمدّد الصبيان الصغيران وسط التراب، غير مكترئين بالأقدام التي تدهس حولهم في كلِّ مكانٍ. كانت أولان لا تزال تحمل الفتاة الصغيرة، لكنَّ رأس الطفلة تدلّت على ذراعها والموت يبدو على عينيها المغلقتين، لدرجة أنَّ وانج لونج نسي كلَّ شيء آخر، وصاح قائلاً:

- هل ماتت الجارية الصغيرة بالفعل؟

هزّت أولان رأسها.

- ليس بعد. ما زالت أنفاسها تتردّد، لكنّها ستموت هذه الليلة، وجميعنا كذلك، ما لم...

ثم نظرتُ إليه، وكأنّها لا تستطيع التفوّه بكلمةٍ أخرى، ووجهها المربع منهكٌ وهزيلٌ. لم يجبها وانج لونج بشيء، لكنّه فكّر بينه وبين نفسه أنه بعد يومٍ آخر من المشي مثل هذا اليوم، سوف يموتون جميعًا

بحلول الليل . قال بما استطاع انتحاله من بهجة في صوته :

- انهض يا ولداي، وساعدا الجدّ على النهوض . سنركب القطار،
ونجلس بينما نتوجّه جنوبًا.

لكن لا أحد يدري ما إذا كانوا سيتمكّنون من الحركة أم لا، لولا أن
اندفع من وسط الظلام صوتٌ كالنتين، وعينان كبيرتان تنفثان النار، حتّى
صرخ الجميع وفرّوا راكضين. تقدّموا للأمام وسط الفوضى، ودُفِعوا
هنا وهناك، لكنّهم بقوا متشبّثين ببعضٍ بيأسٍ على الدوام، حتّى دُفِعوا
بطريقة ما وسط الظلام، ووسط صياح وصراخ العديد من الأصوات عبر
بابٍ صغيرٍ مفتوحٍ، وإلى داخل غرفة تشبه الصندوق. ثم اندفع الشيء
الذي ركبوا فيه بهديرٍ متواصلٍ وسط الظلام، حاملاً إياهم في أحشائه.



دفع وانج لونج قطعتي الفضة اللتين بحوزته مقابل السفر عبر مئة ميل من الطريق، وأعاد له الضابط الذي أخذ منه الفضة حفنة من البنسات النحاسية، فاشترى وانج لونج ببعضها أربعة أرغفة صغيرة من الخبز، وصحنًا من الأرز الطري للفتاة، من بائع دفع صينية بضائعه داخل فتحة في العربة ما إن توقفت. كان ذلك أكثر مما تناولوه دفعة واحدة منذ أيام عديدة، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتصورون جوعًا، فإنهم فقدوا شهيتهم عندما صار الطعام في أفواههم، ولم ينجحوا في جعل الصبيين يتلعان الطعام إلا عن طريق الملاطفة. لكن العجوز أخذ يمتص الخبز بإصرار بين لثته الخالية من الأسنان.

قهقه، قائلاً بودّ بالغ لكلّ المزدحمين حوله، بينما القطار يرتج ويهتز في طريقه:

- يجب على المرء أن يأكل. لا يهمني أن معدتي الحمقاء صارت كسولة بعد كل تلك الأيام التي مكثت بها بلا عمل. يجب إطعامها. لن أموت بسبب رفضها القيام بعملها.

وضحك الرجال فجأة للعجوز الضئيل الذواوي المبتسم، الذي
تناثرت لحيته البيضاء الخفيفة على ذقنه.

لكنّ وانج لونج لم يتفق كل البنسات النحاسية على الطعام. أبقى
كلّ ما يمكنه الاحتفاظ به من أجل شراء الحُصر لبناء كوخ عندما يصلون
إلى الجنوب. كان هناك رجالٌ ونساءٌ في القطار ذهبوا إلى الجنوب في
سنواتٍ سابقة. كان بعضهم يتوجّه كلّ عامٍ إلى المدن الغنية في الجنوب
للعمل والتسوّل، وبهذا يوفّرون ثمن الطعام. وبعد أن تغلّب وانج لونج
على شعوره بالدهشة للمكان الذي يوجد به، ولرؤية الأرض وهي تمرُّ
سريعاً عبر فتحات العربة، استمع لما يقوله هؤلاء الرجال. فقد تحدّثوا
بصوت الحكمة، حيث كان البقية جهلة.

قال أحدهم، وهو رجلٌ له شفاةٌ خشنة تتدلّى كفم البعير:

- يجب أولاً أن تشتري ست حصائر. وهذه ثمنها بنسان للحصيرة
الواحدة، إذا كنتَ حكيماً ولم تتصرّف كقروي أحمق، لأنّك ستدفع
ثلاثة بنساتٍ في هذه الحالة، وهذا أكثر مما هو ضروريّ، كما أعرف
جيداً. لا يمكن أن أتعرض للخداع من قِبَل الرجال في مدن الجنوب،
حتّى لو كانوا أثرياء.

هزّ رأسه، وتلقّت حوله باحثاً عن الإعجاب. أنصت وانج لونج إليه
بلهفة.

حثّه قائلاً:

- وماذا بعد؟

جلس القرفصاء على أرض العرب، التي كانت في النهاية مجرد غرفة خالية مصنوعة من الخشب، ولا يوجد بها شيء يمكن الجلوس عليه. وكانت الريح والغبار يرتفعان متطايرين عبر الشقوق في الأرض. قال الرجل بصوتٍ أعلى، رافعاً صوته فوق ضجيج العجلات الحديدية أسفلهُ:

- ثم تربطها معاً لتشكّل كوخاً، وتخرج بعدها لتسوّل، بعد أن تلطّخ نفسك أولاً بالطين والقاذورات لتجعل نفسك تبدو مشيراً للشفقة بقدر الإمكان.

لم يكن وانج لونج قد تسوّل من أي رجلٍ من قبل في حياته، وكره فكرة الاستجداء من الغرباء في الجنوب. كرّر قائلاً:

- هل يجب على المرء أن يتسوّل؟

قال الرجل، ذو الفم الغليظ:

- آه، بكلّ تأكيدٍ. لكن ليس قبل أن تأكل. هؤلاء الناس في الجنوب لديهم الكثير جدّاً من الأرز، لدرجة أنّه يمكنك الذهاب كلّ صباحٍ لمطاعم الفقراء، وتناول كل ما تسعه معدتك من عصيدة الأرز الأبيض، مقابل بنسٍ واحدٍ. يمكنك بعدها التسوّل وأنت تشعر بالراحة، وشراء جبن حليب فول الصويا والكرنب والثوم.

انسحب وانج لونج مبتعداً قليلاً عن الآخرين، واستدار إلى الحائط، واضعاً يده في حزامه سرّاً، وأحصى البنسات المتبقية لديه. كان هناك ما

يكفي الحصائر الست، وما يكفي لأرز مقابل بنسٍ لكلٍ منهم، وسيتبقى لديه بعد ذلك ثلاثة بنسات. أحسَّ بالارتياح لأنَّ بإمكانهم بدء حياتهم الجديدة هكذا. لكن ظَلَّتْ تزعجه فكرة الإمساك بطبق، والاستجداء من أي شخصٍ مارًّا. كان ذلك ممكنًا بالنسبة للعجوز والأطفال، وحتى المرأة، لكن كانت لديه هو يدها.

سأل الرجل فجأة، وهو يستدير إليه:

- ألا يوجد أي عملٍ متوفر تقوم به يد الرجل؟

قال الرجل باحتقارٍ، وهو ييصق على الأرض:

- أجل، العمل! بوسعك أن تسحب أحد الأثرياء في عربة ريكشا صفراء لو أردت، ويتصبَّب دمك مع عرقك بفعل الحرارة خلال ركضك، ويتجمَّد عرقك ليشكِّل طبقة ثلجية تكسوك، بينما أنت تقف في انتظار أن يناديك أحدهم. أنا أفضل التسوُّل!

وأطلق سبابًا فاحشًا، فلم يسأله وانج لونج شيئًا آخر.

لكن كان من الجيّد أنَّه سمع ما قاله الرجل، فبعد أن حملهم القطار لأبعد مسافة ممكنة وترجَّلوا منه، كان وانج لونج قد فكَّر في خطة بالفعل. أوقف العجوز والأطفال بجوار جدارٍ طويلٍ رماديٍّ لأحد المنازل الكائنة هناك، وطلب من المرأة أن تراقبهم بينما انصرف هو لشراء الحصائر، سائلًا هذا وذاك عن مكان شارع السوق. في البداية كان يفهم بالكاد ما يقال له، حيث كان صوت هؤلاء الجنوبيين عند الحديث جافًا وحادًا، ونفذ صبرهم بعد أن سألهم عدة مراتٍ ولم يفهموه، فتعلَّم

أن يلاحظ نوع الشخص الذي يتوجّه إليه بالسؤال، وأن يختار شخصاً له ملامح تنمُّ عن الطيبة، حيث كان من السهل إثارة هؤلاء الجنوبيين وإزعاجهم.

لكنّه عثر على متجرٍ الحصر أخيراً عند طرف المدينة، ووضع بنساته على الطاولة كمن يعرف ثمن البضاعة، وحمل لفافة الحصر. عندما عاد للمكان الذي ترك فيه الآخرين، كانوا يقفون هناك بانتظاره، لكن الصبيّين صاحبا بارتياح عند مجيئه، ورأى أنّهما امتلأا بالربح من هذا المكان الغريب. كان العجوز فقط هو من يراقب كلّ شيءٍ بمتعة ودهشة، وغمغم قائلاً لوانج لونج:

- هل ترى كيف أنّ جميع هؤلاء الجنوبيين سمان، وكيف تبدو بشرتهم شاحبة ولا معة؟ لا شكّ أنّهم يتناولون لحم الخنزير كلّ يومٍ.

لكن لم يُلقَ أحدٌ من المارة بنظرةٍ نحو وانج لونج وأسرته. مرّ الرجال جيئةً وذهاباً على الطريق المرصوف بالأحجار والمؤدي إلى المدينة، يبدو عليهم الانشغال والعزم، ولا يلقون نظرة على المتسوّلين أبداً. وعلى فتراتٍ متقاربة، كانت تمرُّ قوافل من الحمير، وحوافرها الصغيرة تطرق الحجارة بانتظامٍ. كانت محمّلة بسلالٍ مليئة بالطوب لبناء المنازل، وبأجولة ضخمة من الحبوب على ظهورهم المتمايلة. في نهاية كلّ قافلة، كان القائد يمتطي الحيوان الأخير حاملاً سوطاً كبيراً، وكان يفرع بهذا السوط مُصدراً ضجيجاً عالياً فوق ظهور الحيوانات، وبصيح وهو يفعل ذلك. كان كلّ قائدٍ خلال مروره يلقي بنظرة ازدراءٍ وخطرة نحو وانج لونج، ولم يكن بوسع أي أميرٍ أن يبدو أكثر غطرسة

من أولئك القادة بملابس عملهم الخشنة أثناء مرورهم بمجموعة الأشخاص الصغيرة الواقعة في حيرة على جانب الطريق. كان من دواعي سرور كلِّ قائدٍ عند ملاحظة أنَّ وانج لونج وأسرته غرباء، أن يفرق بسوطة بمجرد المرور بجانبهم، فكانت فرقة الهواء الحادة تجعلهم يقفزون، وكان القادة يقهقهون لمرآهم. غضب وانج لونج عند حدوث هذا مرتين وثلاث، فاستدار مبتعدًا ليرى أين يمكنه أن يشيّد كوخه.

كانت هناك بالفعل أكواخٌ أخرى ملتصقة بالجدار خلفهم، لكن لم يكن أحدٌ يدري ما وراء الجدار، ولم تكن هناك طريقة لمعرفة ذلك. امتدَّ الجدار طويلاً ورمادياً وشاهق الارتفاع، والتصقَّت الأكواخ الصغيرة المشيَّدة من الحصير بقاعدته كالبراغيث بظهر كلبٍ. تأمل وانج لونج الأكواخ، وشرع يشكِّل حصائره بهذه الطريقة وتلك، لكنّها كانت قاسية وغير متقنة في أحسن الأحوال، حيث إنَّها صُنِعت من القصب المشقوق. انتابه اليأس، عندما قالت أولان، فجأة:

- يمكنني القيام بهذا. فأنا أتذكّره من طفولتي.

وضعت الفتاة أرضاً، وجذبت الحصائر في هذا الاتجاه وذاك، وشكّلت سقفاً مستديراً يصل حتّى الأرض، ويكفي ارتفاعه لأن يجلس تحته رجلٌ دون الاصطدام بالقمة. ووضعت على أطراف الحصير المفروش على الأرض بعض الطوب المُلَقَى حولها، وأرسلت الأولاد لالتقاط المزيد من الطوب. ولجوا للدخل بعد انتهائهما، وكانت هناك حصيرة تعمّدت عدم استخدامها، فرشوها على الأرض وجلسوا، وهكذا بات لديهم مأوى.

بينما هم جالسون هكذا ينظر بعضهم لبعضٍ، بدا من المستحيل أنّهم قد رحلوا في اليوم السابق، مخلفين وراءهم منزلهم وأرضهم، وأنّهم صاروا على مبعدة مئة ميل الآن. كانت مسافة شاسعة بما يكفي لأن تستغرق أسابيع من المشي، وكان من المحتم أن يموت بعضهم قبل انقضائها.

ثم ملأهم الشعور العام بالوفرة في هذه الأرض الغنية، حيث لم يكن هناك من يبدو عليه الجوع، وقال وانج لونج:

- فلنذهب لنبحث عن مطاعم الفقراء.

نهضوا، وهم يكادون يشعرون بالبهجة وخرجوا ثانية، وهذه المرّة طرّق الصبيان الصغيران طبقيهما بأعواد الطعام أثناء سيرهما، فلن يلبث أن يتوفّر لهما ما يملأنهما به. وسرعان ما اكتشفوا سبب بناء الأكواخ بجانب ذلك الجدار الطويل، حيث كان هناك طريق على مبعدة قصيرة من طرفه الجنوبي، وسار الكثير من الناس بامتداد ذلك الطريق حاملين الصحون والدلاء والأواني المصنوعة من الصفيح، وكلها فارغة. كان أولئك الناس متوجهين إلى مطاعم الفقراء، التي كانت في نهاية الطريق على مسافة غير بعيدة. لذا اختلط وانج لونج وأسرته بالآخرين، حتّى وصلوا معهم في النهاية إلى زوج من المباني الكبيرة المشيّدة بالحصائر، وتزاحم الجميع عند الطرف المفتوح لهذه المباني.

في مؤخرة كلّ مبنى، كانت هناك مواقد طينية أضخم من أيّ من تلك التي شاهدها وانج لونج من قبل. استقرّت فوقها قدورٌ حديديةٌ ضخمةٌ بحجم بحيراتٍ صغيرة، وعند رفع الأغطيّة الخشبية الكبيرة،

ظهر الأرز الأبيض الطيب وهو يغلي ويفور، وتصاعدت سحب عطرية من البخار. عندما اشتتم الناس رائحة الأرز العطرة هذه، كانت أطيّب رائحة في العالم لأنوفهم، واندفع الجميع للأمام في حشدٍ عظيم، وتصايح الناس، وصرخت الأمهات في غضبٍ وخوفٍ حتى لا يُدهَس أطفالهن، وبكى الأطفال الصغار.

زأر الرجال الذين فتحوا القدور:

- هناك ما يكفي كل رجل الآن، وكل في دوره!

لكن لم يكن هناك شيءٌ بوسعه إيقاف حشد الرجال والنساء الجياع، وهم يتقاتلون كالوحوش، حتى تمّ إطعام الجميع. لم يستطع وانج لونج فعل شيء وهو عالقٌ في وسطهم سوى أن يتشبّث بوالده وابنيه. وعندما انجرف نحو القدر الضخمة، مدّ طبقه، وألقى بالبنس بعد أن امتلأ الطبق. تمكّن بصعوبة من الوقوف بثبات كي لا ينجرف بعيداً قبل الانتهاء من الأمر.

لكن بعد أن خرجوا إلى الطريق ثانية، ووقفوا ليتناولوا الأرز، أكل حتى شبع، وتبقى القليل في صحنه، فقال:

- سأخذ هذا للمنزل كي أتناوله في المساء.

لكنّ أحد الرجال الواقفين بالقرب منه، والذي كان حارساً للمكان يرتدي زياً خاصاً باللونين الأزرق والأحمر، قال بحدة:

- لا، لا يمكنك أخذ شيء معك سوى ما في معدتك فقط.

تعجّب وانج لونج من هذا، وقال:

- حسنًا، إذا كنت قد دفعتُ بنسًا، فما شأنك أنتَ إذا حملته بداخل جسدي أو خارجه؟

عندها قال الرجل:

- يجب أن نضع هذه القاعدة، حيث إنَّ هناك من يتمتَّعون بقلوبٍ قاسية لدرجة أنَّهم قد يأتون لشراء هذا الأرز الذي يُقدَّم للفقراء - حيث إنَّ بنسًا لا يكفي لإطعام أي رجلٍ هكذا - وسيحملون الأرز ل منازلهم لإطعام الخنازير. وهذا الأرز مخصص للرجال وليس للخنازير.

استمع وانج لونج لهذا بدهشة، وصاح قائلاً:

- أهنأك رجالٌ بمثل هذه القسوة!

ثم واصل قائلاً:

- لكن لِمَ يتبرع أيُّ شخصٍ للفقراء على هذا النحو؟ ومن الذي يُقدِّم هذا العطاء؟

عندها أجاب الرجل:

- إنَّ أغنياء ونبلاء المدينة هم من يقومون بذلك، وبعضهم يفعل هذا الخير لمستقبلهم، لينالوا الحظوة لدى السماء لإنقاذهم للأرواح. والبعض الآخر يفعل ذلك بهدف الصلاح، حتَّى يتحدَّث الناس عنهم بالخير.

قال وانج لونج:

- على الرغم من ذلك فهو عملٌ طيبٌ، أيَّا كان السبب. ولا بُدَّ أنَّ البعض يفعل ذلك بدافعٍ من طيبة قلبه.

وعندما رأى أنّ الرجل لم يجبه، أضاف دفاعاً عن نفسه:

- على الأقل يوجد البعض من هؤلاء؟

لكنّ الرجل سئم من الحديث معه، وأدار له ظهره وهو يندندن لحناً بسيطاً. في تلك اللحظة جذب وانج لونج الأطفال، فقادهم جميعاً عائدين إلى الكوخ الذي صنعوه؛ حيث استلقوا وناموا إلى صباح اليوم التالي. كانت تلك هي المرّة الأولى منذ الصيف التي امتلأوا فيها بالطعام، وغلبهم النوم وهم يشعرون بالشبع.

كان من الضروري توفير المزيد من المال في صباح اليوم التالي، حيث أنفقوا آخر عملة نحاسية على أرز ذلك الصباح. نظر وانج لونج إلى أولان، متشكّكاً فيما يجب القيام به. لكن نظرت له لم تكن بنفس اليأس الذي رمقها به عبر حقولهما الفارغة الجرداء. بالتأكيد لم يكن من الممكن أن يتضوّر رجلٌ وأطفاله جوعاً هنا في وجود كل أولئك الناس الذي يروحون ويحيثون في الشوارع، ويبدو عليهم حُسن التغذية، وفي وجود اللحم والخضراوات في الأسواق، والأسماك السابحة في الأحواض في سوق السمك. لم يكن الحال كما هو في أرضهم، حيث لا يمكن حتّى شراء الطعام بالفضّة، لأنّه لم يكن هناك أيُّ طعامٍ أجابته أولان بنباتٍ، وكأنّ هذه هي الحياة التي طالما عرفتها:

- يمكنني التسوّل، أنا والأطفال، والعجوز أيضاً. سيمسّ شعره الأشيب بعض الذين قد لا يمنحوني أنا شيئاً.

نادت الصبيّين، لأنّهما مثل الأطفال، نسيا كلّ شيءٍ سوى أنّهما

صار لديهما طعامٌ مرّةً أخرى، وأنّهما أصبحا في مكانٍ غريبٍ، فركضا إلى الطريق، ووقفّا يحدّقان إلى كلّ ما يمر أمامهما. قالت لهما: - فليأخذ كلّ منكما طبقه، وليمسكه على هذا النحو، ويصبح هكذا...

وتناولت طبقها الفارغ في يدها، ومدّته صائحة، على نحوٍ مشيرٍ للشفقة:

- الرحمة يا سيدي الطيّب، الرحمة يا سيدتي الطيّبة! فلتحلّ بقلبٍ رحيمٍ. قم بعملٍ طيّبٍ من أجل حياتك في السماء! العملات الصغيرة - العملة النحاسية التي تلقي بها - تطعم طفلاً جائعاً!

حدّق بها الصبيّان الصغيران، ووانج لونج أيضاً. أين تعلمت النداء بهذه الطريقة؟ ما مدى الأشياء التي لا يعرفها عن هذه المرأة؟ أجابت نظرتة قائلة:

- كنت أنادي هكذا عندما كنت طفلة، وبهذه الطريقة كان يتمّ إطعامي.

ثم استيقظ العجوز الذي كان نائماً، فأعطوه صحنًا، وخرجوا هم الأربعة للطريق ليتسوّلوا. بدأت المرأة تنادي، وتهزّ طبقها ناحية كلّ عابرٍ سبيلٍ. كانت قد دفعتِ الطفلة داخل صدرها العاري، ونامت الطفلة ورأسها يتمايل يمينه ويسرة أثناء حركتها، بينما هي تركزس هنا وهناك ويطبقها ممدوداً أمامها. أشارت للطفلة وهي تتسوّل، صائحة بصوتٍ مرتفعٍ:

- ما لم تمنحني شيئاً يا سيدي الطيّب، وبأسيدي الطيّبة، ستموت هذه الطفلة. إننا نتضور جوعاً. نتضور جوعاً.

وكانت الطفلة تبدو ميتة بالفعل، ورأسها يتمايل هنا وهناك. ألقى إليها البعض على مضضٍ بعض العملات الصغيرة.

لكن الصبيان شَرعاً بعد فترة يُعدّان التسوّل وكأنّه لعبة، وكان أكبرهما يشعر بالخجل، ويتسم باستحياءٍ، وهو يتسوّل. عندما لاحظت أمهما الأمر، سحبتهما إلى داخل الكوخ حيث صفعتهما بقوة على أفواههما، ووبّختهما بغضبٍ، قائلة:

- أتتحدّثان عن التضور جوعاً، ثم تضحكان في ذات الوقت؟ أيّها الأحمقان، فلتتضورا جوعاً إذن!

وصفعتهما مراراً وتكراراً حتّى ألتمها يداها، وحتّى انهمرت الدموع بغزارة على وجهيهما وهما ينشجان. ثم أرسلتهما للخارج مرّة أخرى، وقالت:

- أنتما الآن في حالة تصلح للتسوّل! ستتلقيان مني هذا، وما هو أكثر من هذا، لو ضحكتما ثانية!

أمّا بالنسبة لوانج لونج، فقد خرج إلى الشوارع، وسأل هنا وهناك حتّى عثر على مكانٍ تُعرّض فيه عرباتُ الريكشا للإيجار، فذهب واستأجر واحدة لمدة يومٍ مقابل نصف عملة فضّية، تُدفع ليلاً. ثم سحبها خلفه، وخرج إلى الطريق مرّة أخرى.

بدا أن الجميع ينظرون له باعتباره أحمق، وهو يسحب هذه العربة

الخشبيّة المتهالكة خلفه على عجلتين. كان مرتبكا بين ذراعها مثل ثورٍ يُربط إلى المحراث لأوّل مرّة، وكان بالكاد يستطيع السير. ومع ذلك، كان عليه الركض لو كان سيكسب قوته، حيث ينتشر هنا وهناك في كلّ مكانٍ بشوارع هذه المدينة رجالٌ يركضون، وهم يسحبون رجالاً آخرين في هذه العربات. دخل إلى شارعٍ جانبيّ ضيّقٍ لم يكن به متاجر، بل فقط أبواب منازل خاصّة مُغلّقة. سار به جيئةً وذهاباً لفترة حتّى يعتاد الأمر، وفي اللحظة التي كان يقول فيها لنفسه بيأسٍ إنّّه من الأفضل أن يتسوّل، انفتح أحد الأبواب، وخرج رجلٌ عجوزٌ يرتدي نظارة وملابس مثل المعلم، وناداه.

شرع وانج لونج يخبره في البداية أنّ الأمر جديدٌ بالنسبة له، وأنّه لا يستطيع الركض، لكنّ العجوز كان أصمّ، فلم يسمع شيئاً ممّا قاله وانج لونج. أشار له فقط بهدوءٍ كي يُخفّض الذراعين، ويسمح له بالركوب. أطاعه وانج لونج، وهو لا يدري ما يفعله سوى هذا، وأحسّ أنّه مضطّرٌّ إلى ذلك بسبب صمم العجوز، ومظهره الأنيق المتعلّم.

جلس العجوز منتصب القامة، وقال:

- خذني إلى المعبد الكونفوشيوسي.

وجلس هناك منتصباً وهادئاً، وكان في هدوئه هذا شيءٌ لا يسمح بتوجيه الأسئلة، لذا تقدّم وانج لونج للأمام كما شاهد الآخرين يفعلون، على الرغم من أنّه لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكان المعبد الكونفوشيوسي.

لكنّه سأل خلال سيره، ولأنّ الطريق كان يمرُّ عبر شوارع مزدحمة

بالباعة الذين يمرّون جيئةً وذهابًا بسلالهم، والنساء الخارجات إلى السوق، والعربات التي تجرّها الخيل، وعرباتٍ أخرى عديدة مثل تلك التي يسحبها، وكل شيء مزدحم بجوار الآخر، بحيث لم تكن هناك إمكانية للركض، فقد سار بسرعة بقدر استطاعته، مدرّكًا على الدوام للاهتزاز المزعج لحمولته ورائه. كان معتادًا لوجود الأحمال على ظهره، لكنّه لم يألف سحبها، وقبل أن تلوح جدران المعبد على مرمى البصر، كانت ذراعاه تتألمان، ويدهاه متقرّحتين، حيث كانت ذراعا العربة تضغطان أماكن لا يمسّها المعول.

خرج المعلم العجوز من الريكشا، عندما خفّضها وانج لونج بعد وصوله لبوابة المعبد. تحسّس أعماق صدره، وسحب عملة فضية صغيرة، ومنحها لوانج لونج، قائلاً:

– أنا لا أدفع أكثر من هذا أبدًا، ولا جدوى من الشكوى.

وبهذا استدار مبتعدًا، ودخل إلى المعبد.

لم يكن وانج لونج قد فكّر في الشكوى، لأنّه لم يسبق وأن رأى هذه العملة من قبل، ولم يكن يعرف كم بنسًا يمكن استبدالها بها. دخل متجر أرزٍ يقع على مقربة، حيث يتمّ استبدال النقود، ومنحه الصراف ستة وعشرين بنسًا مقابل العملة. فتعجّب وانج لونج من سهولة اكتساب الأموال في الجنوب. لكنّ رجلًا آخر يسحب عربة ريكشا وقف بالقرب منه، ومال نحوه وهو يحصي المال، وقال لوانج لونج:

– ستة وعشرون فقط. لأيّ مسافة سحبت ذلك العجوز؟

وعندما أخبره وانج لونج، صاح الرجل:

- هذا عجوزٌ قاسي القلب! لقد منحك نصف الأجرة المناسبة فقط. كم المبلغ الذي ساومته عليه قبل أن تبدأ؟

قال وانج لونج:

- لم أساومه. قال تعال، فذهبت.

نظر الرجل الآخر لوانج لونج بإشفاقٍ. قال للواقفين على مقربة:

- ها هو قرويٌّ مغفلٌ، بجديلةٍ شعريٍّ! يقول له أحدهم تعال، فيذهب ولا يسأل أبدًا، هذا الأحمق سليل الحمقى، قائلًا كم ستدفع لي لو جئت؟ فلتعلم هذا أيُّها الأحمق: فقط الأجانب البيض وحدهم هم من يمكنكَ أن تأخذهم دون مساومةٍ. فمزاجهم سريع الاهتياج، مثل الجير، لكن عندما يقولون لك تعال، فبوسعكَ الثقة بهم. فهم حمقى للغاية، ولا يعرفون الثمن المناسب لأي شيء، بل يدعون الفضة تسيل من جيوبهم كالماء.

وضحك جميع المستمعين إليه.

لم يقل وانج لونج شيئًا. كان صحيحًا أنّه شعر بالتواضع والجهل الشديد وسط هذا الحشد من سكان المدينة، وسحب عربته مبتعدًا دون أن يجيب ولو بكلمة.

قال لنفسه، بعنادٍ:

- سيوفّر هذا الطعام لأطفالي غدًا، على الرغم من كلّ شيء.

ثم تذكر أنّ عليه دفع إيجار العربّة بحلول الليل، ولم يكن هناك ما يكفي حتّى لدفع نصف هذا المبلغ بعد.

كان لديه راكبٌ واحدٌ آخر خلال فترة الصباح، وساوّمه واتفق على السعر. كما ناداه اثنان آخران في المساء. لكن عندما أحصى كلّ نقوده في يده تلك الليلة، لم يكن بحوزته سوى بنسٍ واحدٍ فقط زائدٍ على ثمن إيجار الريكشا. عاد لكوخه بمرارة شديدة، قائلاً لنفسه إنّهُ لم يربح سوى بنسٍ نحاسيّ واحدٍ، في مقابل عمل أكثر مشقة من الكدّ لمدة يومٍ كاملٍ في حصاد الحقل. ثم غمرته ذكرى أرضه. لم يتذكرها ولو لمرةٍ خلال هذا اليوم الغريب، لكن عندما فكّر فيها الآن وهي ممتدة هناك - صحيح أنّها كانت بعيدة، لكنها كانت ملكه، وبانتظاره - ملأه الإحساس بالراحة، وهكذا عاد إلى كوخه.

عندما دخل، وجد أنّ أولان حصلت على أربعين عملة صغيرة مقابل تسوّلها ذلك اليوم، أي أقل من خمسة بنسات. أما الصبيّان، حصل أكبرهما على ثماني عملاتٍ صغيرة، وأصغرهما على ثلاث عشرة. بمجموعهما كان هناك ما يكفي لدفع ثمن الأرز في الصباح. لكن عندما وضعوا مال الصبي الصغير مع الباقي، أخذ يبيكي مطالباً بماله. كان يحب المال الذي استجده، ونام به في يده تلك الليلة، ولم يتمكّنوا من أخذه منه حتّى دفعه بنفسه مقابل حصته من الأرز.

لكنّ العجوز لم يحصل على شيء على الإطلاق. جلس على جانب الطريق في إذعان طوال اليوم، لكنّه لم يتسوّل. نام واستيقظ، وحدّق

بالمارة أمامه. وعندما شعر بالملل، نام ثانية. ولم يتمكنوا من توبيخه
لأنه كان ينتمي للجيل الأكبر. قال، ببساطة عندما رأى يديه خاويتين:
- لقد حرثتُ وزرعتُ البذور، وجمعتُ المحاصيل. وهكذا ملأتُ
طبقي بالأرز. وعلاوة على هذا، وُلِد لي ابنٌ، وأبناءٌ لابني.
وبهذا أحسَّ بالثقة كطفلٍ أنه سيتمُّ إطعامه الآن، حيث كان لديه ابنٌ
وأحفادٌ.



الآن، وبعد انتهاء حدة الجوع الأولى التي عانى منها وانج لونج، وبعد أن رأى أنّ أطفاله صار لديهم ما يأكلونه كلّ يوم، وعرف أنّ بوسعهم الحصول على الأرز كلّ صباح، وأنّ عمل يومه وحصيلة تسوّل أولان تكفي لدفع ثمنه، انتهت غرابة الحياة هذه، وبدأ يستكشف هذه المدينة، التي كان يتشبّث بأطرافها. تعلّم كيف يتعرّف على المدينة إلى حدّ ما وهو يركض في شوارعها ليل نهار، وشاهد مناطقها السرية هذه وتلك. تعلّم أنّ الناس الذين يسحبهم في عربته في الصباح، يذهبون إلى السوق في حال ما إذا كانوا نساءً، وإذا كانوا رجالاً، فقد كانوا يتوجّهون إلى المدارس ومقارّ الأعمال. لكن لم تكن لديه أيّ وسيلة لمعرفة نوع هذه المدارس، فيما عدا أنّها تحمل أسماءً من نوع «المدرسة الكبرى للتعليم الغربي»، أو «مدرسة الصين الكبرى». فلم يكن يذهب أبداً وراء البوابات. ولو حدث وأن دخل، فقد كان يعرف جيّداً أنّ أحدهم سيأتي ليسأله عمّا يفعله في مكانٍ لا ينتمي إليه. ولم يكن يعرف ماهية مقار الأعمال التي يأخذ الرجال إليها، حيث كان كلّ ما يعرفه فقط هو أجره الذي يتقاضاه.

وفي الليل، كان يعلم أنه يأخذ الرجال إلى المقاهي الكبيرة وأماكن المتعة، تلك المتعة المفتوحة والتي تنسلّ خارجة إلى الطرقات في صوت الموسيقى، واللعب بقطع العاج والخيزران على طاولة خشبية، والمتعة الصامتة السرية المختبئة وراء الجدران. لكن وانج لونج لم يختبر أيًا من هذه المتع بنفسه، حيث إنّ قدميه لم تعبرا أيّ عتبة سوى عتبة كوخه، وكان طريقه ينتهي دومًا عند بوابة. عاش في المدينة الثرية مثل فأر في منزل رجلٍ موسر، يتغذّى على ما يُلقى من فضلاتٍ، ويختبئ هنا وهناك دون أن يصير أبدًا جزءًا حقيقيًا من الحياة في المنزل.

لذا، فبالرغم من أنّ مئة ميلٍ ليست بعيدة كالفٍ، وطريق السفر عبر البر ليس بعيدًا أبدًا مثل الطريق عبر البحر، فإنّ وانج لونج وزوجته وأطفاله كانوا مثل الأجانب في هذه المدينة الجنوبية. صحيحٌ أنّ الناس الذين يسرون في الطرقات كان لديهم شعرٌ أسود وأعينٌ مثل تلك التي لدى وانج لونج وأسرته، ومثل التي لدى الجميع في الريف حيث وُلد وانج لونج، وصحيحٌ أنّه إذا استمع المرء للغة هؤلاء الجنوبيين يمكنه فهمهم، ولو بشيءٍ من الصعوبة.

لكن أنهوي ليست مثل جيانجسو. اللغة في أنهوي، حيث وُلد وانج لونج، بطيئة وعميقة وتنبعث من الحلق. لكن في مدينة جيانجسو حيث كانوا يعيشون الآن، كان الناس يتكلمون بمقاطعٍ تتشظى من شفاههم وأطراف ألسنتهم. وفيما كانت حقول وانج لونج تُنبِت محصولًا ببطءٍ وعلى مهلٍ مرتين في العام، من القمح والأرز والقليل من الذرة والفول والثوم، كان الرجال هنا في المزارع المحيطة بالمدينة يتعجلون أرضهم

بالتسميد التّن المستمر بالفضلات البشرية، لإجبار الأرض على أن تطرح سريعاً هذا المحصول أو ذاك من الخضراوات، إلى جانب محصولهم من الأرز.

في بلدة وانج لونج، لو كان لدى الرجل رغيْفٌ جيّدٌ من الخبز الأبيض بداخله ساقٌ من الثوم، فقد كانت لديه وجبة جيّدة ولا يحتاج المزيد. لكنّ الناس هنا كانوا يتناولون كرات لحم الخنزير وفروع الخيزران الغضّة، والكستناء المطهو مع كبد وقوانص الدجاج والإوز، وهذه الخضراوات أو تلك. وعند مرور رجلٍ شريفٍ تفوحُ منه رائحة ثوم الأمس، كانوا يرفعون أنوفهم صائحين:

- ها هو شماليّ ذو جديلة، تفوح منه الروائح الكريهة!

كانت رائحة الثوم تجعل الباعة في متاجر الأقمشة يرفعون سعر القماش القطني الأزرق كما قد يرفعون السعر بالنسبة للأجنبي.

لكنّ القرية الصغيرة المؤلّفة من الأكواخ المتشبّثة بالجدار لم تصبح أبداً جزءاً من المدينة، ولا من الريف الممتدّ فيما وراءها. سمع وانج لونج ذات مرة شاباً يخطب في حشدٍ عند ركن المعبد الكونفوشيوسي، حيث يمكن لأي رجلٍ أن يقف لو كان يتمتّع بالشجاعة الكافية للحديث، وقال الشاب إنّ الصين يجب أن تقوم بثورة، ويجب أن تثور ضد الأجانب المكروهين، فانزعج وانج لونج، وتسلّل مبتعداً، شاعراً وكأنّه هو الأجنبي الذي تحدّث الشاب ضده بكل هذه الحماسة. وعندما سمع شاباً آخر يتحدّث في يومٍ آخر - حيث كانت هذه المدينة مليئة بالشباب الذين يلقون الخطابات - وقال على ناصية شارعهِ إنّ الشعب الصيني

عليه أن يتّحد، ويجب أن يثقف نفسه في مثل هذه الأوقات، لم يخطر ببال وانج لونج أن أحداً يوجّه إليه الحديث.

لم يتعلّم أكثر ممّا كان يعرفه من قبل سوى في أحد الأيام، عندما كان في شوارع سوق الحرير يبحث عن راكبٍ، وعَلِمَ أنّ هناك من هو أجنبي أكثر منه في هذه المدينة. تصادف مروره في ذلك اليوم بجوار باب متجرٍ، كانت تخرج منه النساء أحياناً بعد شراء الحرير من الداخل، وهكذا كان يضمن أحياناً من يدفع له أجراً أفضل من معظم الآخرين. وفي هذا اليوم خرج إليه أحدهم فجأة، مخلوقٌ لم ير مثله من قبل. لم تكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان ذكراً أم أنثى، لكنّه كان طويل القامة، يلبس رداءً أسود ضيقاً من قماشٍ قاسٍ وخشن، وكان جلد حيوانٍ ميتٍ ملتصقاً حول رقبتة. عند مروره، أشار له الشخص بحدّة، سواء كان ذكراً أم أنثى، لينزل الذراعين، ففعل ذلك. وعندما وقف منتصباً مرّة أخرى، مذهولاً ممّا حدث له، أمره الشخص ولكنه متكسرة بالتوجّه لشارع الجسور. شرع يركض مسرعاً، وهو بالكاد يدرك ما يفعله. ونادى مرّة على آخر يسحب عربة، كان يعرفه بشكلٍ عرضيٍّ خلال العمل أثناء اليوم، قائلاً:

– انظر إلى هذا. ما هذا الذي أسحبه؟

فصاح به الرجل:

– أجنبية. أنثى من أمريكا. أنت ثريٌّ.

لكنّ وانج لونج ركض بأقصى سرعته خوفاً من المخلوق الغريب الجالس خلفه، وعندما وصل إلى شارع الجسور كان منهكاً والعرق يقطر منه.

عندها، ترَجَّلَت الأنثى، وقالت بنفس اللكنة المكسورة:

- لم يكن هناك داعٍ لأن تركز حتى تهلك تعبًا.

وتركته، وفي كفِّه قطعتان فضّيتان، وكان هذا ضعف الأجرة المعتادة.

عرف وانج لونج ساعتها أنّ هذه أجنبية بالفعل، وغريبة أكثر منه في هذه المدينة، وأنّ جميع الناس ذوي الشعر الأسود والأعين السوداء كانوا في النهاية من نوعٍ واحدٍ، والناس أصحاب الشعر الفاتح والأعين الفاتحة من نوعٍ آخر، ولم يعد بعد ذلك غريبًا تمامًا عن المدينة.

عندما عاد إلى الكوخ في تلك الليلة بالفضّة التي حصل عليها، والتي كانت لم تُمس بعد، أخبر أولان، فقالت:

- لقد رأيتهم. دومًا ما أتسوّّل منهم، فهم وحدهم من يلقون الفضّة في طبقي بدلًا من النحاس.

لكن لم يشعر وانج لونج أو زوجته أنّ الأجانب كانوا يلقون بالفضّة بدافعٍ من طيبة قلوبهم، بل بسبب الجهل وعدم معرفة أنّه من الأصح تقديم النحاس للمتسوّلين بدلًا من الفضّة، ومع ذلك، تعلّم وانج لونج من هذه التجربة ما لم يعلّمه الشباب إياه: إنّهُ ينتمي إلى جنسه، ممن لديهم شعرٌ أسود وأعين سوداء.

بدا وهم متعلّقون هكذا بأطراف المدينة العظيمة المترامية الموسرة أنّه على الأقل لا يمكن حدوث أي نقصٍ في الطعام. جاء وانج لونج وأسرته من بلدة يتصوّر فيها الناس جوعًا بسبب عدم وجود طعام، حيث

لا يمكن أن تطرح الأرض تحت سماءٍ قاسية. لم تكن الفضّة في اليد ذات قيمة كبيرة، لأنها لا تستطيع شراء شيءٍ في انعدام وجود ما يُشترى.

هنا في المدينة، كان الطعام في كلّ مكانٍ. تراصّت في شوارع سوق السمك المرسوفة بالحجارة سلالٌ ضخمة من الأسماك الفضّية الكبيرة، تمّ صيدها ليلاً من النهر الزاخر بالأسماك، وأحواض من الأسماك الصغيرة اللامعة أُفرِغت من شباكٍ أُلقيت في بركة، وأكوام من السلطعون الأصفر تتلوّى وتقرص بضيقٍ ودهشة، وثعابين تتلوّى للذواقة في الولاثم. وفي أسواق الحبوب، كانت هناك سلالٌ ضخمة من الحبوب حتّى إنّ كان من الممكن أن يخطو الرجل بداخلها ويغرق ويختنق، ولا يعرف أحدٌ ذلك لو لم يره: أرز أبيض وبني، وقمح أصفر داكن، وقمح ذهبي شاحب، وحبوب فول صويا صفراء، وفاصوليا حمراء، وفاصوليا خضراء عريضة، وحبوب الدخن التي بلون الكناري، والسمسم الرمادي. وفي أسواق اللحوم، تدلّت خنازير كاملة من أعناقها، مشقوقة بطول أجسادها الضخمة لإظهار اللحم الأحمر وطبقات الدهون الطيِّبة، وجلدها ناعمٌ وسميكٌ وأبيض. وفي متاجر البط تدلّت من أسقفها صفوفٌ وراء صفوفٍ من البط البني المشوي الذي تمّ تقليبه ببطءٍ أمام الفحم على سبخ، والبط الأبيض المملّح، وخيوطٌ من كبد وقوانص وقلوب البط، وكذلك الحال مع المتاجر التي تبيع الإوز وطائر التدرج، وكلّ أنواع الطيور.

أمّا الخضراوات، فكان هناك كلّ ما يمكن تناله يد الإنسان من التربة: الفجل الأحمر المتلألئ والأبيض، وجذور اللوتس الجوفاء

والقلقاس، والكرنب الأخضر والكرفس، والفاصوليا النابتة الملفوفة، والكستناء البني، وتوابل الخردل العطرة. لم يكن هناك شيء قد يشتهيه الإنسان لا يمكن العثور عليه في شوارع وأسواق تلك المدينة. وهنا وهناك، كان يتجول باعة الحلوى والفاكهة والمكسرات، والأطباق الشهية الساخنة من البطاطا المَحْمَرَّة بالزيت الحلو، وكرات صغيرة من لحم الخنزير المَتَبَّلَة بخفة، والملفوفة في العجين والمطهوه على البخار، وكعك السكر المصنوع من الأرز اللزج. كان أطفال المدينة يركضون خارجين إلى باعة هذه الأشياء، وأيديهم ممتلئة بالبنسات، وكانوا يشترون ويأكلون حتَّى تلتئم بشرتهم بالسكر والزيت.

نعم، بوسع المرء القول إنَّه لا يمكن أن يوجد من يتصور جوعًا في هذه المدينة. مع ذلك، في كلِّ صباحٍ بعد الفجر بقليلٍ، كان وانج لونج وأسرته يخرجون من كوخهم وبحوزتهم أطباقهم وأعواد طعامهم، مشكلين مجموعة صغيرة وسط موكبٍ طويلٍ من الناس الذين خرج كلُّ منهم من كوخه، يرتجفون بملابسهم الخفيفة بالنسبة لضباب النهر الرطب، ويسيرون منحنيين في مواجهة ريح الصباح البارد متوجهين إلى مطابخ الفقراء، حيث يمكن للرجل شراء طبقٍ من عصيدة الأرز الخفيفة مقابل بنسٍ. ومع كلِّ سَحَب وانج لونج وركضه أمام الريكشا، وكلِّ تسوُّل أولان، لم يتمكَّنوا أبدًا من كسب ما يكفي لطهي الأرز يوميًّا في كوخهم. في حال ما إذا توفَّر بنسٌ زائدٌ على ثمن الأرز في مطابخ الفقراء، كانوا يشترون القليل من الكرنب. لكن الكرنب كان غاليًا، مهما بلغ ثمنه. حيث كان يجب أن يذهب الصبيان للبحث عن الوقود لطهيهِ

بين قالبي الطوب اللذين أعدتهما أولان كموقدٍ. كان عليهما انتزاع ملء قبضتهما من الوقود بقدر استطاعتهما من المزارعين الذين يحملون أعواد القصب والحشائش لأسواق الوقود بالمدينة. في بعض الأحيان، كان يتم القبض على الأطفال وضربهما بشدة. وذات ليلة، عاد الصبي الأكبر، الذي كان أكثر جنباً من الصغير وأكثر خجلاً مما يفعله، وقد تورمت عينه، وانغلقت إثر ضربة من يد مزارع. لكن الصبي الأصغر صار أكثر مهارة، وفي الواقع أكثر براعة في السرقة منه في التسول.

لم يكن هذا الأمر يمثل شيئاً ذا بال بالنسبة لأولان. ما دام الصبيان غير قادرين على التوقف عن الضحك واللعب، فلتدعهما يسرقان كي يملأ بطنيهما. وعلي الرغم من أن وانج لونج لم يكن يملك حلاً يقدمه لها، إلا أنه شعر بالضيق من سرقة ابنه، ولم يلق باللوم على أكبرهما عندما كان يتباطأ في ذلك. لم تكن هذه الحياة في ظل الجدار الضخم هي الحياة التي يحبها وانج لونج. كانت أرضه في انتظاره.

عاد متأخراً ذات ليلة، وكانت هناك قطعة طيبة مستديرة من لحم الخنزير في حساء الكرنب. كانت هذه المرة الأولى التي يتناولون فيها اللحم منذ أن قتلوا ثورهم، واتسعت عينا وانج لونج.

قال لأولان:

- لا بُدَّ وأنك تسوّلت من أحد الأجانب اليوم.

لكن تبعاً لعاداتها، لم تقل شيئاً. ثم قال الابن الأصغر، الذي كان أصغر من أن يتمتع بالحكمة، والذي امتلأ فخراً لبراعته:

- لقد أخذته. هذا اللحم ملكي. عندما نظر الجزار في الاتجاه الآخر بعد أن قطعها من القطعة الكبيرة الموضوعة على الطاولة، ركضت أسفل ذراع امرأة عجوز أتت لتشتريها، وقبضت عليها، وركضت داخلاً أحد الأزقة، واختبأت داخل جرة ماء فارغة عند بوابة خلفية حتى جاء أخي الأكبر.

صاح وانج لونج بغضب:

- لن آكل هذا اللحم الآن! سنأكل اللحم الذي يمكننا شراؤه أو تسوّله، لكن ليس ذلك الذي نسرقة. ربما نكون متسولين، لكننا لسنا لصوفاً.

وأخرج اللحم من القدر بإصبعيه، وألقاه أرضاً دون أن يعير أي اهتمام لصراخ الابن الأصغر.

عندها تقدّمت أولان بطريقتها البليدة، والتقطت اللحم، وغسلته ببعض الماء، وألقت به ثانية داخل القدر الذي يغلي.

قالت بهدوء:

- اللحم هو اللحم.

لم يقل وانج لونج شيئاً حينها، لكن قلبه امتلأ بالغضب والخوف؛ لأنّ ابنه يتحوّلان إلى لصوص، هنا في هذه المدينة. وبالرغم من أنّه لم يقل شيئاً عندما مرّقت أولان اللحم الطري الناضج بأعواد طعامها، وبالرغم من أنّه لم يقل شيئاً عندما قدّمت قطعاً كبيرة منه للعجوز وللولدين، بل وحتى ملأت به فم الفتاة، وأكلت منه بنفسها؛ فهو نفسه لم

يتناول شيئاً منه، واكتفى بالكرب الذي اشتراه. لكن بعد انتهاء الوجبة، أخذ ابنه الأصغر إلى الشارع بعيداً عن مسامع المرأة، وأخذ رأس الصبي أسفل ذراعه خلف أحد المنازل هناك، وضربه بشدة من كل جانب، ولم يتوقف رغم صراخ الصبي.

صاح قائلاً:

- هاك! وهاك! وهاك! هذا ما يستحقّه اللص!

لكنّه قال لنفسه، عندما ترك الصبي يعود للمنزل باكياً:

- يجب أن نعود للأرض.



يومًا بعد يومٍ، تحت ثراء هذه المدينة، عاش وانج لونج في أسس الفقر الذي قامت عليه. مع كلِّ الطعام الذي تفيض به الأسواق، وشوارع متاجر الحرير ترفع راياتٍ زاهيةً من الحرير الأسود والأحمر والبرتقالي للإعلان عن بضائعها، والرجال الأثرياء يرتدون الساتان والمخمل، رجالٌ أثرياء ذوو أجسادٍ ناعمة، تغطِّي جلودهم الملابس الحريرية، وأيديهم كالزهور لنعومتها وعطرها وجمال خمولها، مع وجود كلِّ هذا الجمال الملكي بالمدينة، فلم يكن هناك في ذلك الجزء الذي يعيش به وانج لونج ما يكفي من الطعام لإشباع الجوع الوحشي، ولا ملابس كافية لتستر العظام.

كان الرجال يكدحون اليوم بأكمله لخبز الخُبز والكمك لولائم الأثرياء، والأطفال يكدّون من الفجر حتّى منتصف الليل، وينامون وأجسادهم تكسوها الشحوم والأوساخ، وهم على أسرّة من القشّ الخشن على الأرض، ثم يترنّحون في طريقهم إلى المخابز في اليوم التالي. ولم يُمنّحوا ما يكفي من المال لشراء قطعة من الخبز الغني الذي يصنعونه للآخرين. وعمل الرجال والنساء في قصّ وصناعة الفراء الثقيل للشتاء، والفراء الناعم الخفيف للربيع، وقصّ وتشكيل الحرير السميك

المزركش في أردية فاخرة لأولئك الذين كانوا يتناولون الوفرة المتاحة في الأسواق، بينما كانوا هم أنفسهم يختطفون قطعة من القماش القطني الأزرق الخشن، ويخطونها على عجلٍ لستر عُريهم.

عمل وانج لونج بين أولئك الذين يكدحون من أجل إمتاع الآخرين، وسمع أشياء غريبة لم يعرها انتباهًا. صحيحٌ أنَّ الرجال والنساء الأكبر سنًا لم يكونوا يقولون شيئًا لأي شخصٍ. سَحَبَ ذوو اللحي الرمادية عربات الريكشا، ودفعوا عربات الفحم والخشب إلى المخابز والقصور، وأرهقوا ظهورهم حتَّى نفرت عضلاتهم كالجبال، ودفعوا وسحبوا عربات البضائع الثقيلة على الطرقات المرصوفة بالأحجار، وأكلوا مقتصدين من طعامهم الشحيح، وناموا ساعات ليلهم القصيرة في صمتٍ. كانت وجوههم مثل وجه أولان، خالية من التعبير وصامتة. لم يكن أحدٌ يعرف ما يشغل أذهانهم. في حال ما إذا تحدّثوا عن الإطلاق، كان حديثهم يدور حول الطعام أو البنسات. نادرًا ما كانت كلمة الفضّة تأتي على شفاههم، لأنّه نادرًا ما كانت تمسك أيديهم أيّ فضّة.

كانت قسّمات وجوههم في حالة الاسترخاء ملتوية وكأنّما بفعل الغضب، إلّا أنّه لم يكن غضبًا. كان ذلك بفعل سنواتٍ من الإجهاد تحت أحمالٍ بالغة الثقل بالنسبة لهم، مما جعل شفاههم العليا ترتفع كاشفة عن أسنانهم فيما يبدو وكأنّه زمجرة. وتسبّب هذا الكدّ في ظهور تجاعيد عميقة في الجلد حول العيون والأفواه. لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مظهرهم. رأى أحدهم صورته ذات مرّة في مرآة فوق شاحنة بضائع منزلية عابرة، وصاح قائلاً:

- هذا رجلٌ قبيحٌ!

وعندما ضحك عليه الآخرون بصخبٍ، ابتسم متألِّمًا، دون أن يعرف قطَّ سبب ضحكهم، وتلفت حوله على عجلٍ؛ ليرى ما إذا كان قد أساء لأحدهم.

في المنزل، في الأكواخ الصغيرة التي كانوا يعيشون فيها، والمتكدّس بعضها فوق بعض، حول كوخ وانج لونج، خاطبت النساء الخرق لستر الأطفال الذين كُنَّ ينجبونهم باستمرارٍ. كما انتزعن قطع الكرب من حقول المزارعين، وسرقن حفّات الأرز من أسواق الحبوب، وجمعن الحشائش طوال العام من جوانب التلال. وفي موسم الحصاد، كنَّ يتبعن الحاصدين كالطيور، وعيونهن نافذة وحادة بحثًا عن كلّ حبة أو سنبله. ومَرَّ الأطفال عبر هذه الأكواخ؛ وُلِدوا وماتوا ووُلِد آخرون، حتّى لم يَعدُ الأم أو الأب يعرف عدد من وُلِد ومن مات، وبصعوبة يعرف عدد الأحياء، ويفكر فيهم فقط بوصفهم أفواهاً يجب إطعامها.

كان هؤلاء الرجال والنساء والأطفال يدخلون ويخرجون من الأسواق ومتاجر الأقمشة، ويتجولون عبر الريف الذي يحدُّ المدينة، والرجال يعملون في هذا المجال أو ذاك مقابل بنساتٍ قليلة، والنساء والأطفال يسرقون ويتسوّلون ويخطفون، وكان وانج لونج وامرأته وأطفاله من بينهم.

تقبّل العجائز من الرجال والنساء الحياة التي كانوا يعيشونها. لكن كان يأتي وقتٌ يكبر فيه الذكور من الأطفال ليلغوا سنًا معيّنًا، حيث لا يعودون أطفالًا، لكنّهم لم يصيروا عجائز بعد، وكان السخط يملؤهم

حينها. انتشر حديثٌ بين الشباب؛ حديثٌ غاضبٌ وهادرٌ. وعندما كانوا يبلغون أوج الرجولة لاحقاً ويتزوّجون، ويملاً قلبهم اليأس من الأعداد المتزايدة لأفراد الأسرة، كانت نوبات الغضب المتناثرة في شبابهم تستقرُّ لتصير يأساً شرساً، وثورة أعمق من أن تُعبّر عنها الكلمات. حيث ظلّوا يكدحون طوال حياتهم بدرجة أشد من الحيوانات، مقابل لا شيء سوى حفنة من الفضلات لملء بطونهم. بينما هو يستمتع لمثل هذا الحديث ذات مساءً، سمع وانج لونج لأوّل مرّة عمّا يقع على الجانب الآخر من الجدار الضخم الذي يتشبّث به صفٌّ أكوأخهم.

كان ذلك في أحد الأيام أواخر الشتاء، عندما بدا لأوّل مرّة أنّه من الممكن أن يحلّ الربيع مرّة ثانية. كانت الأرض حول الأكواخ لا تزال موحلة مع ذوبان الجليد، وتدفّق الماء داخلاً إلى الأكواخ، حتّى اضطرّت كلّ أسرة إلى البحث هنا وهناك عن بضعة قوالب من الطوب ليناموا فوقها. لكن مع رطوبة الأرض المزعجة، كان هناك في هذه الليلة هواءٌ رقيقٌ معتدلٌ، وجعل هذا الاعتدال وانج لونج قلقاً للغاية بحيث لم يتمكّن من الخلود إلى النوم على الفور، كما كانت عادته بعد تناول الطعام، فخرج إلى قارعة الطريق، ووقف هناك متكاسلاً.

اعتاد والده العجوز أن يجلس القرفصاء هنا مستنداً إلى الجدار، حيث كان يجلس الآن عقب أن أخذ طبق طعامه ليتناوله، بعد أن امتلأ الكوخ بالأطفال حدّ الانفجار وهم يثيرون الصخب. أمسك العجوز بيده طرف حلقة من القماش اقتطعتها أولان من حزامها، وبداخل الحلقة ترنّحت الفتاة جيئةً وذهاباً دون أن تسقط. هكذا كان يمضي

أيامه وهو يرمى هذه الطفلة التي تمرّدت على البقاء في حضن والدتها بينما هي تتسوّّل. بجانب ذلك، كانت أولان قد صارت حُبلى مرّة أخرى، وكان ضغط الطفلة الأكبر عليها من الخارج مؤلماً لدرجة يصعب تحمّلها.

راقب وانج لونج الطفلة وهي تسقط وتندفع، ثم تسقط ثانية، والعجوز يجذب طرفي الحلقة. وبينما هو واقفٌ هكذا، شعر بهواء المساء اللطيف على وجهه، وثار بداخله شوقٌ بالغٌ لحقوله.

قال لوالده، بصوتٍ مرتفعٍ:

- في يوم مثل هذا، يجب تقليب الحقول وزراعة القمح.

قال العجوز بهدوءٍ:

- آه، أعرف ما يدور بخلدك. اضطررتُ مرتين خلال سنوات عمري، ثم مرتين أخريين بعدها، إلى القيام بما قمنا به هذا العام، ومغادرة الحقول ونحن نعرف أنّه لا توجد بها حبوبٌ لحصادٍ جديدٍ.

- لكنّك دومًا ما كنتَ تعود، يا أبي.

قال العجوز، ببساطة:

- كانت هناك الأرضُ، يا بني.

حادث وانج لونج نفسه قائلاً إنّهم سيعودون هم أيضًا، لو لم يكن خلال هذا العام، ففي العام القادم. ما دامت الأرض هناك! وامتلاً شوقاً وهو يفكر فيها، وهي ممتدّة بانتظاره هناك، وغنية بأمطار الربيع. عاد إلى الكوخ، وقال لزوجته بخشونة:

- لو كان لديّ أيُّ شيءٍ يمكنني بيعه، لكنّ بُعِثَ وعدتُ إلى الأرض. لولا العجوز لكنّا سرنا، حتّى لو تصوّرنا جوعًا. لكن كيف يمكنه هو والطفلة الصغيرة السير لمائة ميلٍ؟ وأنّ، بحملك؟

كانت أولان تغسل أطباق الأرز بقليلٍ من الماء، وكوّمتها الآن في ركن الكوخ، ورفعت نظرها إليه من المكان الذي جلست فيه القرفصاء.

قالت ببطءٍ:

- لا يوجد شيءٌ لنبيعه سوى الفتاة.

حبس وانج لونج أنفاسه.

قال، بصوتٍ مرتفعٍ:

- حسنًا، لن أبيع الفتاة!

أجابت، ببطءٍ شديدٍ:

- لقد تمّ بيعي أنا. تمّ بيعي لمنزلٍ كبيرٍ؛ حتّى يتمكّن والداي من العودة إلى منزلهما.

- وهل ستبيعين الطفلة إذن؟

- لو كنتُ وحدي المعنّية، لقتلتها قبل أن تُباع... حيث كنتُ جارية لجوارٍ! لكن لن تجلب فتاة ميتة أيّ ثمنٍ. سأبيع هذه الفتاة من أجلك، حتّى أُعيدك إلى الأرض.

قال وانج لونج، بشجاعة:

- لن أفعل ذلك أبدًا، حتّى لو قضيتُ عمري في هذه البرية.

لكن عندما خرج مرّة أخرى، أغرته رغباً عنه الفكرة، التي لم تكن لتطراً له من تلقاء نفسه أبداً. نظر إلى الفتاة الصغيرة، التي تتعثر بإصرارٍ في طرف الحلقة التي يقبض عليها جُدّها. نَمَتْ بدرجة كبيرة وهي تتناول الطعام الذي يُقدّم لها كلَّ يومٍ، وعلى الرغم من أنّها لم تنطق بأيّ كلمةٍ بعد، فقد صارت ممتلئة مثلما يصبح الطفل مع أقلّ درجة من الرعاية. أصبحت شفاهها، التي كانت مثل شفاه امرأةٍ عجوزٍ، مبتسمة وحمراء. ومثلما كان الحال من قبل، غمرها السرور، وابتسمت عندما نظر إليها.

قال متأملاً:

- لربما فعلتها، لو لم تكن قد استلقتُ في حضني مبتسمة هكذا.

ثم فكر في أرضه مرّة أخرى، وصاح، وقد غلبته العاطفة:

- ألن أراها ثانية أبداً؟ مع كلّ هذا الكدّ والتسوّل، ولا يوجد أبداً ما يكفي لأكثر من إطعامنا كلّ يومٍ.

ومن وسط الغسق، أجابه صوتٌ عميقٌ قويٌّ، قائلاً:

- أنت لستَ الوحيد. يوجد المئات والمئات من أمثالك في هذه المدينة.

جاء الرجل، وهو يدخّن غليوناً قصيراً من الخيزران، وكان والد أسرة في كوخٍ مجاورٍ لوانج لونج، ويفصل بينهما كوخان. كان رجلاً نادراً ما يراه أحدٌ أثناء النهار، حيث كان ينام اليوم بأكمله، ويعمل ليلاً في جرّ العربات الثقيلة المُحمّلة بالبضائع التي كانت بالغة الضخامة بالنسبة للشوارع في فترة النهار، عندما تحتاج العربات الأخرى إلى

المروور بعضها بجانب بعض باستمرارٍ. لكنَّ وانج لونج كان يراه أحياناً وهو يتسلَّل عائداً إلى المنزل فجراً، لاهثاً ومنهكاً، وأكتافه الضخمة الخشنة محنيّة. كان وانج لونج يمرُّ بجواره فجراً هكذا وهو خارجٌ في طريقه لجرّ عربة الريكشا، وأحياناً عند الغسق قبل فترة العمل الليلي، كان الرجل يخرج ويقف مع باقي الرجال الذين على وشك دخول أكواخهم والخلود إلى النوم.

سأل وانج لونج بمرارة:

- حسناً، وهل سيستمرُّ هذا للأبد؟

نفث الرجل دخان غليونه ثلاث مراتٍ، ثم بصق على الأرض، وقال:

- لا، ليس للأبد. هناك سبيلٌ عندما يكون الأثرياء أغنى من اللازم، وهناك سبيلٌ عندما يكون الفقراء أفقر من اللازم. في الشتاء الماضي، بعنا فتاتين وتحمّلنا. وفي هذا الشتاء، إذا كان ما تحمله امرأتي فتاة، سنبيع مرّةً أخرى. احتفظتُ بجارية واحدة، الأولى. أما الباقي من الأفضل بيعهن بدلاً من قتلهن. على الرغم من أنّه يوجد من يفضّلون قتلهن قبل أن يأخذن أوّل نفسٍ لهن. هذه هي إحدى السبل عندما يكون الفقراء أشدَّ فقراً ممّا يجب. وعندما يكون الأغنياء بالغي الثراء، فهناك سبيلٌ، وإذا لم أكن مخطئاً، فسوف يأتي هذا السبيل عمّا قريب.

أوماً برأسه، وأشار بذراع غليونه إلى الجدار خلفهما.

- هل رأيتَ ما بداخل ذلك الجدار؟

هزّ وانج لونج رأسه، محملاً به. واصل الرجل قائلاً:

- أخذت إحدى جوارِي هناك لأبيعها، وشاهدته. لن تصدّق لو قلت لك كيف يأتي المال ويذهب في ذلك المنزل. سأخبرك بهذا: حتّى الخدم يأكلون بأعواد طعامٍ من العاج المُرصّع بالفضّة، وحتّى الجوّاري تتدلى من آذانهم اليشم واللالئ ويخطن اللؤلؤ على أحذيتهم، وعندما تتسخ الأحذية بشيء من الطين، أو تتمزّق بدرجة بسيطةٍ لا أعدها أنا ولا أنت تمزّقاً، يلقون بها بعيداً، بما في ذلك اللالئ!

سحب الرجل نفساً من غليونه بقوة، واستمع وانج لونج بضمٍ مفتوح. إذن كان وراء هذا الجدار أشياء من ذلك القبيل!

قال الرجل:

- هناك سبيلٌ عندما يكون الرجال أكثر ثراء مما يجب.

وظلّ صامتاً لفترة، ثم أضاف دون مبالاة، وكأنّه لم يقل شيئاً:

- حسناً، حان وقت العمل ثانية.

واختفى وسط الليل.

لكنّ وانج لونج لم يتمكّن من النوم تلك الليلة، لانشغاله بالتفكير في الفضّة والذهب واللالئ على الجانب الآخر من الجدار الذي استند إليه جسده، وهو مكسو بنفس ما يرتديه يوماً وراء الآخر، لأنّه لم يكن هناك لحافٌ يغطّيه، ولا شيء سوى فراشٍ من الطوب أسفل منه. راوده إغراء بيع الفتاة مرّة أخرى، لذا قال لنفسه:

- ربما كان من الأفضل بيعها لمنزلٍ ثريٍّ، كي تتمكّن من تناول الطعام اللذيذ وارتداء المجوهرات، إذا كبرت وصارت جميلة وأعجبت أحد الأسياد.

لكنّه أجاب نفسه ضد رغبته، وهو يفكر ثانية:

- حسنًا، وإذا فعلتُ ذلك، فهي لا تساوي وزنها ذهبًا وياقوتًا. لو جلبتُ لنا ما يكفي لنعود إلى الأرض، من أين سنأتي بما يكفي لشراء ثوبٍ وطاولة وفراشٍ ومقاعدٍ مرّةٍ أخرى؟ هل أبيع طفلة كي نتضوّر جوعًا هناك بدلًا من هنا؟ لا توجد لدينا حتّى بذور كي نزرعها في الأرض. ولم يرَ شيئًا من ذلك السبيل الذي تحدّث عنه الرجل، وهو يقول:

- هناك سبيلٌ، عندما يكون الأغنياء أكثر ثراء ممّا يجب.



ازدهر الربيع في قرية الأكواخ. صار بوسع أولئك الذين كانوا يتسوّلون، أن يذهبوا إلى التلال والمقابر للحفر والحصول على الحشائش الخضراء الغضة، والهندباء، وكيس الراعي، التي أنبتت أوراقًا جديدة ضعيفة. ولم يعد من الضروري كما كان من قبل سرقة الخضراوات هنا وهناك. تدفّق من الأكواخ كلّ يوم سربّ من النساء والأطفال ذوي الملابس المُمزّقة، وبحوزتهم قطع من القصدير والأحجار الحادة، وسِلّالٌ مصنوعة من أغصان الخيزران الملوية أو القصب المشقوق، وبحثوا في الريف وعلى جوانب الطرقات عن الطعام الذي يمكنهم الحصول عليه دون تسوّل ودون مالٍ. وفي كلّ يومٍ كانت أولان تخرج مع هذا السرب، هي والصبيان.

لكن يجب على الرجال مواصلة العمل، واستمرّ وانج لونج في العمل كما كان من قبل، على الرغم من أنّ الأيام الطويلة الحارة والشمس والأمطار المفاجئة ملأت الجميع بالشوق والسخط. خلال الشتاء، عملوا وظلّوا صامتين، متحمّلين بصلاية الثلج والجليد تحت أقدامهم العارية في الصنادل المصنوعة من القش، عائدين إلى أكواخهم في الظلام ليأكلوا في صمّت الطعام الذي حصلوا عليه من كدّ

يومهم ومن التسؤل، حتّى يفرق الجميع في النوم معاً، الرجال والنساء والأطفال، ليحصلوا لأجسادهم على ما كان الطعام أقلّ قدرًا، وأكثر رداءة من أن يمنحهم إياه. كان هذا هو الحال في كوخ وانج لونج، وكان يدرك جيّدًا أنّه لا بُدَّ وأن يكون هكذا في كلّ الأكواخ الأخرى.

لكن مع قدوم الربيع، بدأ الحديث يتدفّق من قلوبهم، ويصير مسموعًا على شفاههم. كانوا يتجمّعون خارج أكواخهم عندما يطول الشفق في المساء، ويتبادلون الحديث. ورأى وانج لونج هذا الرجل أو ذاك ممن كانوا يسكنون بالقرب منه، ولم يكن يعرفهم خلال الشتاء. لو كانت أولان من النوع الذي يتبادل معه الحديث، لربما كان سمع على سبيل المثال عن هذا الذي يضرب زوجته، أو ذاك المصاب بالجذام الذي تسبّب في تآكل وجنتيه، أو عمّن كان زعيم عصابة من اللصوص. إلّا أنّها كانت صامتة، باستثناء الأسئلة والأجوبة المقتضبة التي كانت تطرحها وتقدّمها، ولذا وقف وانج لونج بخجلٍ على حافة الدائرة، مُنصتًا للحديث.

لم يكن لدى معظم أولئك الرجال أصحاب الملابس الرثة شيئًا أكثر ممّا كانوا يحصلون عليه من كدّ يومهم ومن التسؤل. وكان دومًا على دراية بأنّه ليس واحدًا منهم بالفعل. فقد كان يمتلك أرضًا، وكانت أرضه في انتظاره. كان هؤلاء الآخرون يفكّرون في كيف يمكنهم أن يأكلوا بعض السمك غدًا، أو كيف يمكنهم التكاسل قليلًا، وحتّى كيف يمكنهم المقامرة بعض الشيء، ببسّ واحدٍ أو بنسين، حيث كانت أيامهم جميعها متشابهة، وملبئة بالشرّ والعوز، وعلى الرجل أن يلعب أحيانًا، على الرغم من يأسه.

لكنَّ وانج لونج انشغل بالتفكير في أرضه، وتأمل بهذه الطريقة وتلك، وقلبه سقيمٌ من الآمال المؤجلة، كيف يمكنه العودة إليها. لم يكن ينتمي إلى هذه الحثالة المتشبهة بجدران منزل رجلٍ ثريٍّ، كما لم يكن ينتمي إلى منزل الرجل الثري. كان ينتمي إلى الأرض، ولم يكن بوسعه العيش باستمتاعٍ حتَّى يشعر بالأرض تحت قدميه، ويسير خلف محراثٍ في الربيع، ويحمل منجلًا في يده عند الحصاد. لذا أنصت وهو يقف بعيدًا عن الآخرين، لأنَّ داخل قلبه كانت تختبئ معرفته بأنَّه يمتلك أرضه، أرض آبائه، أرض القمح الطيبة، وشريط أرض الأرز الخصبة التي اشتراها من المنزل الكبير.

كان هؤلاء الرجال يتحدثون دومًا وأبدًا عن المال؛ كم بنسًا دفعوه ثمنًا لقدمٍ من القماش، وما دفعوه مقابل سمكة صغيرة بطول إصبع رجلٍ، أو ما يمكنهم أن يكسبوه في يومٍ واحدٍ، ودومًا في النهاية ما سيفعلونه لو كان بحوزتهم المال الذي كان يحتفظ به الرجل وراء الجدار في خزائنه. كان الحديث ينتهي كل يومٍ بهذا:

- ولو كان بحوزتي الذهب الذي لديه، وفي يدي الفضة التي يحملها في حزامه كلَّ يومٍ، ولو كانت عندي اللآلئ التي ترتديها محظياته، والياقوت الذي ترتديه زوجته...

وبينما هو ينصت لكلِّ ما سيقومون به لو كانت لديهم هذه الأشياء، لم يسمع وانج لونج سوى عن كم سيأكلون وينامون، وأيّ أطعمة شهية سيتناولونها من تلك التي لم يتذوقوها قط، وعن كيف سيلعبون القمار في صالة الشاي الكبيرة هذه أو تلك، وعن النساء الجميلات اللاتي

سيشترونهنَّ لإشباع شهوتهم، وفوق كلِّ شيء، كيف لن يعمل أحدهم
مرَّةً أخرى، كما لم يكن الرجل الثري خلف الجدار يعمل أبداً.

عندها صاح وانج لونج فجأة، قائلاً:

- لو كان لديَّ الذهب والفضَّة والمجوهرات، فسوف أشتري بها
الأرض، أرضاً طيِّبة، وسأُخرج المحاصيل من الأرض!

وهنا اتحدوا في الانقلاب عليه وتوبيخه.

- ها هو الآن قرويٌّ أحمق، لا يفقه شيئاً عن حياة المدينة، وعمَّا
يمكن عمله بالمال. سيظلُّ يعمل مثل العبد، خلف ثورٍ أو حمارٍ!

وشعر كلُّ منهم أنَّه يستحقُّ أن ينعم بالثراء أكثر من وانج لونج؛
لأنَّهم يعرفون كيف يتمتَّعون به أكثر منه.

لكنَّ هذا الازدراء لم يغيِّر رأي وانج لونج. بل جعله يقول لنفسه
فقط، بدلاً من الحديث بصوتٍ مرتفعٍ ليسمعه الآخرون:

- على الرغم من ذلك، سأضع الذهب والفضَّة والمجوهرات في
أراضي طيِّبة خصبة.

وبينما هو يفكِّر في هذا، ازداد شوقه كلَّ يومٍ للأرض، التي كانت
لديه بالفعل.

نظراً لكونه ممسوساً على الدوام بالتفكير في أرضه، كان وانج لونج
يرى ما يحدث حوله في المدينة كلَّ يومٍ وكأنَّه في حلم. كان يتقبَّل غرابة
هذه الأشياء أو تلك دون أن يتساءل عن السبب وراء أيِّ شيء، سوى
أنَّ هذا الشيء حدث في ذلك اليوم. على سبيل المثال، كانت هناك

الأوراق التي يقوم رجالٌ بتوزيعها هنا وهناك، وحتى له هو الآخر في بعض الأحيان.

لم يكن وانج لونج قد تعلّم في صباه أو في أي وقتٍ آخر معنى الحروف على الورق، وبالتالي لم يتمكّن من فهم أي شيءٍ من هذه الأوراق المُغطّاة بالعلامات السوداء، والمُلصّقة على أبواب المدينة، أو تُباع بالحفنة، أو حتى يتمّ توزيعها. قُدّمت له مثل هذه الأوراق مرتين.

في المرّة الأولى، قدّمها له أجنبيٌّ، مثل تلك التي سحبها ذات يومٍ في عربته دون فهمٍ. لكن هذا الذي منحه الورقة كان رجلاً طويلاً للغاية، ونحيفاً كشجرة ضربتها ريحٌ مريّة. كان للرجل عينان زرقاوان كالجليد، ووجه مشعّرٌ. وعندما أعطى وانج لونج الورقة، بدا أن يديه أيضاً مشعرتان وجلدهما أحمر اللون. علاوة على ذلك، كان لديه أنفٌ كبيرٌ، يمتدُّ أمام وجنتيه كمقدّمة السفينة أمام جوانبها. وعلى الرغم من أنّ وانج لونج خشي تناول أي شيءٍ من يده، فإنّ خوفه من الرفض كان أكبر عندما رأى عيني الرجل الغريبة وأنفه المخيف. تناول ما دفعه إليه، وعندما واتته الجرأة على النظر إليها بعد رحيل الأجنبي، رأى على الورقة صورة رجلٍ أبيض البشرة، مُعلّق على صليبٍ خشبيٍّ. كان الرجل بلا ملابس، إلّا قليلاً حول خصره. وبدا أنّه ميتٌ، حيث تدلّى رأسه على كتفه، وكانت عيناه مغلقتين أعلى شفّتيه اللتين تحيطهما لحيته. تأمّل وانج لونج صورة الرجل برعبٍ واهتمامٍ متزايدٍ. كانت هناك أحرف تحتها، لكنّه لم يفهم منها شيئاً.

حمل الصورة إلى المنزل ليلاً، وأراها للعجوز. لكنّه لم يكن يعرف القراءة هو الآخر، وتناقش وانج لونج والعجوز والصبيان في معناها المُحتَمَل. صاح الولدان فرحاً ورعباً:

- انظر للدم المُسال من جنبه!

وقال العجوز:

- من المؤكد أنّ هذا رجلٌ شريرٌ للغاية، حتّى يُعلّق هكذا.

لكنّ وانج لونج شعر بالخوف من الصورة، وفكّر لِمَ أعطاهَا له الأجنبي، وما إذا كان أحد إخوة هذا الأجنبي قد تعرّض لذلك، وبات بقية الإخوة يسعون وراء الانتقام. لذا، تفادى الشارع الذي التقى فيه بالرجل. وعندما نسوا أمر الورقة بعد بضعة أيام، أخذتها أولان وخاطبتها في نعل حذاءٍ مع قطعٍ أخرى من الأوراق التي التقطتها هنا وهناك؛ لتقوية هذه النعال.

لكنّ المرّة الثانية التي أعطى أحدهم فيها ورقة لوانج لونج، كان رجلاً من المدينة، شاباً حسن الملبس يتحدّث بصوتٍ مرتفع، بينما هو يوزّع الأوراق هنا وهناك وسط حشود الذين يتزاحمون حول أي شيءٍ جديدٍ وغريبٍ في الطريق. كانت هذه الورقة أيضاً تحمل صورة للدماء والموت، لكنّ الرجل الميت هذه المرّة لم يكن أبيض البشرة ومشعراً، بل رجلاً مثل وانج لونج نفسه، رجلاً عادياً، أصفر وضيلاً، له شعرٌ عيونٌ سوداء، ويرتدي ملابس زرقاء مهلهلة. وقف رجلٌ ضخّمٌ وسمينٌ فوق الجسد الميت، وطعن الميت مراراً وتكراراً بسكينٍ طويلٍ يمسك به. كان مشهداً مثيراً للشفقة، وحدّق به وانج لونج وهو يتوق

لفهم الحروف الموجودة أسفل منه.

التفت إلى الرجل الواقف بجواره، وقال:

- هل تعرف حرفاً أو حرفين، حتّى تتمكن من إخباري عن معنى هذا الشيء المريع؟

فقال الرجل:

- اصمت، وأنصت للمعلم الشاب، فهو يخبرنا جميعاً.

وهكذا أنصت وانج لونج، وسمع ما لم يسمعه أبداً من قبل.

أعلن المعلم الشاب:

- الرجل الميت يمثلكم أنتم. والقاتل الذي يطعنكم بينما أنتم أمواتٌ ولا تدركون ذلك هم الأثرياء والرأسماليون، الذين يطعنونكم حتّى بعد موتكم. أنتم فقراءٌ ومضطّهدون؛ لأنّ الأثرياء يستولون على كلّ شيء.

الآن وقد صار فقيراً، صار وانج لونج يعرف ذلك جيداً. لكنّه في السابق كان يلوم السماء التي لا تمطر في موسمها، أو تستمر في المطر بعد هطوله، وكأنّ المطر عادة سيئة لديها. عندما كان هناك مطرٌ وشمسٌ بالتناسب بحيث تنبت البذور في الأرض، وتحمل السيقان الحبوب، لم يكن يعدّ نفسه فقيراً. لذا أنصت باهتمام، لسماع المزيد عن علاقة الأثرياء بهذا الأمر، وبعدم هطول المطر من السماء في موسمها. أخيراً، عندما أطل الشاب في الحديث دون أن يذكر أيّ شيء عن هذا الموضوع الذي كان محطّ اهتمام وانج لونج، تجرّأ وانج لونج، وسأله:

- يا سيدي، هل توجد هناك أيُّ طريقةٍ يمكن من خلالها للأغنياء الذين يضطهدوننا أن يجعلوا السماء تمطر، حتّى أتمكن من العمل في الأرض؟

عندها، استدار الشاب نحوه بازدياءٍ، وأجاب:

- يا لك من جاهلٍ، يا من تزال تحتفظ بشعركَ على هيئة جديدة طويلة! لا يوجد من يستطيع أن يجعل السماء تمطر عندما ترفض هي ذلك، لكن ما علاقة هذا بنا؟ لو كان الأغنياء سيتشاركون معنا فيما يملكونه، فلن يهم ما إذا أمطرت السماء أم لا، لأنّه سيكون لدينا جميعًا المال والطعام.

ارتفعت صيحة عظيمة من أولئك الذين كانوا يستمعون إليه، لكنّ وانج لونج استدار وهو يشعر بعدم الرضى. أجل، لكن كانت هناك الأرض. المال والطعام يؤكل ويزول، وإذا لم يكن هناك شمسٌ ومطرٌ متناسبين، سيحلّ الجوع مرّة أخرى. على الرغم من ذلك، فقد أخذ الأوراق التي أعطاه الشاب إياها عن طيب خاطرٍ، لأنّه تذكر أنّ أولان لم يكن لديها أبدًا ما يكفي من الورق لنعال الأحذية. لذا أعطاها لها عندما عاد إلى المنزل، وقال:

- هاك بعض الورق لنعال الأحذية.

وواصل العمل كما كان يفعل من قبل.

لكن كان هناك الكثير من بين الرجال في الأكواخ الذين كان يتبادل معهم الحديث في المساء، ممن استمعوا بحماسة لما قاله الشاب، وممّا

زاد حماستهم أنَّهم كانوا يعرفون أنَّ هناك رجلاً ثرياً يسكن وراء الجدار. وبدا من اليسير للغاية أنَّه لا يوجد بينهم وبين ثروته سوى هذه الطبقة من الطوب، التي يمكن هدمها بوضع ضرباتٍ من عمودٍ صلبٍ، مثل ذلك الذي كان لديهم لرفع أحمالهم الثقيلة كلَّ يومٍ على أكتافهم.

أُضيف الآن إلى السخط الذي أثاره الربيع، الشعور الجديد بالسخط الذي نشره هذا الشاب وآخرون من أمثاله في أرواح ساكني الأكواخ، والإحساس الجائر بحياسة الآخرين لما لا يملكونه. وعندما كانوا يفكرون في كلِّ هذه الأمور يوماً بعد يوم، ويتحدَّثون عنها في الغسق، وقبل كلِّ شيء، حيث لم يكن كدُّهم يوماً بعد يومٍ يجلب أيَّ دخلٍ إضافيٍّ، نشأ في قلوب الشباب والأقوياء تيارٌ لا يُقاوم كتيار النهر الذي يفيض بثلوج الشتاء، تيار الامتلاء برغبة وحشية.

لكن على الرغم من أنَّه كان يرى ذلك ويسمع الحديث، ويشعر بغضبهم بقلبيٍّ غريبٍ، لم يُردِّ وانج لونج شيئاً سوى أرضه تحت قدميه مرَّةً أخرى.

وفي هذه المدينة التي دوَّما ما كان يثب منها تجاهه شيء جديد، شاهد وانج لونج شيئاً آخر جديداً، لم يكن يفهمه. رأى ذات يوم، عندما كان يسحب عربة الريكشا الفارغة بحثاً عن زبونٍ، رجلاً قبضت عليه فرقة صغيرة من الجنود المسلحين، بينما هو واقفٌ. وعندما احتجَّ الرجل، لَوَّح الجنود في وجهه بالسكاكين. وبينما شاهد وانج لونج في دهشة، تمَّ القبض على آخر، ثم آخر. وخطر لوانج لونج أن كلَّ هؤلاء الذين قُبِضَ عليهم كانوا رجالاً بسطاء، يعملون بأيديهم. وبينما هو

يحملق بما يحدث، قُبِضَ على رجلٍ آخر، وكان هذا الرجل يسكن في أقرب كوخٍ مجاورٍ له عند الجدار.

ثم أدرك وانج لونج فجأةً بدهشة أن كل هؤلاء الرجال الذين أُلقي القبض عليهم كانوا يجهلون مثله تمامًا لماذا قُبِضَ عليهم هكذا، طوعًا أم كرهًا، شأؤوا أم أبوا. دفع وانج لونج عربية الريكشا في زقاقٍ جانبيٍّ وأسقطها، ثم اندفع داخلًا من باب متجرٍ للمياه الساخنة، حتّى لا يكون هو التالي. اختبأ هناك، جالسًا القرفصاء خلف القدور الضخمة، حتّى مرّ الجنود. ثم سأل البائع في متجر الماء الساخن عن معنى ما شاهده، فأجابه الرجل دونما اهتمام، وكان عجوزًا ذاويًا بسبب تصاعد البخار حوله على الدوام من القدور النحاسية خلال عمله.

- ليست سوى حربٍ أخرى في مكانٍ ما. من يعرف سبب كل هذا القتال، جيئةً وذهابًا؟ لكن الأمر كان هكذا منذ كنتُ صبيًا، وسيظلُّ كذلك بعد موتي، وأنا أعرف ذلك جيدًا.

سأل وانج لونج برعبٍ شديدٍ:

- حسنًا، لكن لم يلقون القبض على جاري، الذي هو بريءٌ تمامًا مثلي، أنا الذي لم أسمع أبدًا عن هذه الحرب الجديدة؟

خبط العجوز أغطية قدوره، وأجاب:

- هؤلاء الجنود ذاهبون إلى الحرب في مكانٍ ما، وهم بحاجة إلى حمّالين لقرشهم وبنادقهم وذخيرتهم، لذا يجبرون العمال مثلك على القيام بذلك. لكن من أيّ منطقة أنت؟ فهذا ليس مشهدًا جديدًا في هذه المدينة.

حثّه وانج لونج لاهثًا:

- لكن ماذا بعد؟ ما الأجر؟ ما العائد؟

كان العجوز كبيرًا جدًا في السن، ولم يكن لديه أمل كبير في أي شيء، ولا اهتمام بأي شيء بخلاف قدوره، وأجاب بلا مبالاة:

- لا يوجد أجر سوى قطعتين من الخبز الجاف في اليوم، وشربة ماء من بحيرة. يمكنك العودة إلى المنزل بعد الوصول إلى وجهتهم، إذا حملتك ساقاك.

قال وانج لونج مذعورًا:

- لكن، أسرة الرجل!

قال العجوز بازدراءٍ، وهو يحدّق بما تحت الغطاء الخشبي لأقرب قدر، ليرى ما إذا كان الماء قد غلى بعد:

- حسنًا، وما معرفتهم هم، أو همّهم بذلك الأمر؟

أحاطته سحابة من البخار، وكان يمكن بالكاد رؤية وجهه المُجعد وهو يحملق داخل القدر. على الرغم من ذلك، كان كريمًا. فعندما خرج ثانية من وسط البخار، لاحظ أنّ وانج لونج لا يستطيع أن يرى من مكانه حيث جلس القرفصاء، أنّ الجنود اقتربوا مرةً أخرى، باحثين في الشوارع التي قرّ منها الآن كلّ رجلٍ عاملٍ قوي البنية.

قال لوانج لونج:

- انحنِ أكثر، لقد عادوا مرةً أخرى.

انحنى وانج لونج خلف القدور، وقعقع الجنود على أحجار الطريق
متجهين غربًا. وعندما تلاشى صوت أحذيتهم الجلدية، اندفع وانج
لونج خارجًا، وقبض على الريكشا، وركض بها خالية حتى الكوخ.

بكلماتٍ مكسورة لاهثة، أخبر أولان، التي عادتُ للتو من جانب
الطريق لتطهو بعض النباتات الخضراء التي جمعتها، عمّا يجري وكيف
كاد ألا يهرب. وبينما هو يتحدث، نشأ بداخله رعبٌ جديدٌ: الرعب
من أن يتمّ جرّه إلى ساحات المعارك، وألا يبقى والده العجوز وأسرته
وحدهم ليتصوّروا جوعًا فقط، بل أن يموت هو أيضًا في ساحة المعركة،
ويُسأل دمه، ولا يتمكن من رؤية أرضه مرّة ثانية أبدًا.

نظر لأولان منهكًا، وقال:

- صرْتُ الآن أُميل حقًا لبيع الجارية الصغيرة، والعودة شمالًا إلى
الأرض.

لكن بعد أن استمعتُ إليه، تفكّرتُ، وقالت بأسلوبها البسيط
الهادئ:

- انتظر بضعة أيامٍ. هناك حديثٌ غريبٌ يدور.

مع ذلك، لم يعد يخرج في وضح النهار، بل أرسل الصبي الأكبر
ليعيد الريكشا إلى المكان الذي استأجرها منه، وانتظر حتى حلّ الليل،
وذهب إلى مخازن البضائع. ومقابل نصف ما كان يكسبه في السابق،
أخذ يجرّ طوال الليل عرباتٍ ضخمة محمّلة بالصناديق، كلُّ عربة
يسحبها اثنا عشر رجلًا وهم يجذبون ويتأوّهون. كانت الصناديق مليئة

بالحرير والأقطان، والتبغ العطر، لدرجة أنّ رائحته تسرّبت عبر الخشب.
وكانت هناك جرارٌ ضخمة من الزيوت والنيبذ.

ظُلَّ يجذب الجبال طوال الليل خلال الشوارع المظلمة، وجسده عارٍ، يتصبّب منه العرق، وقدماه العاريتان تنزلقان على أحجار الطريق اللزجة والمُبَلَّلَة برطوبة الليل. كان يركض أمامهم صبيٌّ صغيرٌ يحمل شعلة مضيئة لإظهار الطريق. وفي ضوء هذه الشعلة، التمعت وجوه وأجساد الرجال، والأحجار المُبَلَّلَة على حدٍّ سواء. عاد وانج لونج إلى المنزل قبل الفجر، لاهثًا ومنهكًا بدرجة تمنعه من تناول الطعام قبل أن ينام. لكن في وضح النهار عندما كان الجنود يبحثون في الشوارع، كان ينام في أمانٍ في أقصى ركنٍ من الكوخ، خلف كومة من القشّ جمعتها أولان لتصنع ساترًا له.

لم يكن وانج لونج يدري ماهي المعارك الدائرة، ولا أيّ طرفٍ يحارب الآخر. لكن مع تقدّم الربيع، امتلأت المدينة بالاضطراب الناتج عن الخوف. طوال اليوم، كانت العربات التي تجرّها الخيول تسحب الرجال الأثرياء وممتلكاتهم من الملابس وأغطية الفراش المكسوة بالساتان، ونساءهم الجميلات ومجوهراتهم، إلى حافة النهر، حيث حملتهم السفن بعيدًا إلى أماكن أخرى. وذهب البعض إلى تلك البناية الأخرى، حيث تأتي وتذهب القطارات. لم يكن وانج لونج يخرج إلى الشوارع أبدًا خلال النهار، لكنّ ابنه عادا وأعينهما متّسعة وتلتمع، وهما يصيحان:

- رأينا رجلًا صفته كذا وكذا: رجلًا سمينًا بالغ الضخامة مثل إلِه في معبدٍ، وجسده مغطّى بأقدامٍ عديدة من الحرير الأصفر، وعلى إبهامه

خاتمٌ ذهبيٌّ كبيرٌ مرصَّعٌ بحجرٍ أخضرٍ مثل قطعةٍ من الزجاج، وجسده
كلُّه يلتصق من الزيت والأكل!

وكان أكبرهما يصيح:

- ورأينا العديد والعديد من الصناديق. وعندما سألتُ ما بها، قال
أحدهم: بداخلها الذهب والفضة، لكنَّ الأثرياء لا يمكنهم حمل كل ما
يملكونه معهم. ويومًا ما، سيكون كلُّ هذا ملكنا. الآن، ما الذي يعنيه
بهذا، يا أبي؟

وفتح الصبي عينيه بفضولٍ تجاه والده.

لكن عندما أجاب وانج لونج بخشونة:

- كيف لي أن أعرف ما يقصده أحد سكان المدينة العاطلين؟

صاح الصبي بلهفة:

- أوه، أتمنّى لو كان بوسعنا الذهاب الآن والحصول عليه، إذا كان
لنا. أريد أن أتذوق كعكة. لم أتذوق قط كعكة حلوة مرشوشًا فوقها
حبوب السمسم.

عندها، انتبه العجوز من سرحانه، وقال كمن يدندن لنفسه:

- عندما كنّا نحظى بحصادٍ جيّد، كنّا نتناول مثل هذا الكعك في
احتفال الخريف. بعد درس السمسم، وقبل بيعه، كنّا نحفظ بالقليل منه
لصنع مثل هذا الكعك.

وتذكّر وانج لونج الكعكات التي صنعتها أولان ذات مرّة في عيد
رأس السنة الجديدة، كعكاتٍ من دقيق الأرز وشحم الخنزير والسكر،
فسال لعابه، وآلمه قلبه شوقًا لِمَا قد مضى.

تمتم قائلًا:

- لو أننا فقط عُذنا إلى أرضنا.

ثم بدا له فجأة أنه لا يمكنه أن يستلقي يومًا واحدًا آخر في هذا الكوخ البائس، الذي لم يكن مَتَسَعًا بما فيه الكفاية ليمدَّ طوله خلف كومة القش، ولا يمكنه أن يكدَّ خلال ساعات ليلة أخرى وجسده منحني تحت حبلٍ يجرحه، وهو يسحب الحمولة عبر أحجار الطريق. بات يعرف كلَّ حجرٍ الآن كعدوٍّ منفصلٍ، وعرف كلَّ ثغرة يمكنه من خلالها تفادي حجرٍ، وبهذا يوفر من جهده. كانت هناك أوقات في الليالي المظلمة، عندما كان المطر ينهمر، والشوارع رطبة ومبلّلة أكثر من المعتاد، ينصبُّ فيها كلُّ الحقد الكامن في قلبه ضد هذه الأحجار تحت قدميه، تلك الأحجار التي بدت وكأنّها تلتصق، وتتشبَّث بعجلات حمولته اللاإنسانية.

صاح فجأة:

- آه، الأرض الجميلة!

وشرع يبكي حتّى شعر الأطفال بالخوف، ونظر العجوز لابنه في ذعرٍ، وتقلّصت ملامحه أسفل لحيته المتناثرة، كما يتقلّص وجه الطفل عندما يرى أمه تبكي.

مرّة أخرى، قالت أولان بصوتها الواضح الخالي من الانفعال:

- سوف نشهد أمرًا بعد قليلٍ. هناك أحاديثٌ تدور في كلِّ مكانٍ

الآن.

سمع وانج لونج مرور الأقدام ساعةً بعد أخرى من مكانه حيث رقد مختبئاً: أقدام الجنود الذين يسرون إلى المعركة. أحياناً كان يرفع الحصيرة الفاصلة بينه وبينهم بدرجة بسيطة، ملصقاً عينيه بالشق ليرى هذه الأقدام وهي تمرُّ، أحذية جلدية، وسيقانٌ مُغطاةً بالقماش، تسير واحدة تلوَ الأخرى، زوجٌ وراء زوجٍ، عشرات تلوَ عشراتٍ، وآلاف تلوَ آلاف. في الليل، عندما كان يسحب حمولته، شاهد وجوههم تلمع بجواره، وقد ظهرتْ لوهلة وسط الظلام بسبب الشعلة المضئية أمامهم. لم يجرؤ على السؤال حول أي شيء بشأنهم، بل سحب حمولته بعزمٍ، وتناول صحن الأرز على عجلٍ، وقضى النهار نائمًا بشكلٍ متقطعٍ خلف كومة القش في الكوخ. لم يتبادل أحدٌ الحديث مع أي شخصٍ آخر في تلك الأيام. اهتزَّت المدينة من الخوف، وأنجز كلُّ رجلٍ ما عليه القيام به بسرعة، ثم عاد إلى منزله، وأغلق الباب.

لم تعد هناك أحداثٌ خاملة حول الأكواخ عند الغسق. وفي الأسواق، باتت الأكشاك التي كان بها طعامٌ خالية. جمعت متاجر الحرير راياتها الزاهية، وأغلقت واجهات متاجرها الكبيرة بالأواح خشبية سميكة متلاصقة بعضها ببعضٍ بقوة، بحيث بدا لمن يمرُّ عبر المدينة ظهراً وكأنَّ سكَّانها قد خلدوا إلى النوم.

انتشر الهمس في كلِّ مكانٍ أنَّ العدو اقترب، وأحسَّ كلُّ من كانوا يملكون شيئاً بالخوف. لكن وانج لونج لم يكن خائفاً، وكذلك سكَّان الأكواخ لم يكونوا خائفين. حيث إنَّهم أولاً لم يكونوا يعرفون من هو هذا العدو، كما لم يكن لديهم شيءٌ يخسرونه، حيث إنَّ حياتهم لم تكن

خسارة كبيرة. لو اقترب العدو، فليدعوه يقترب إذن، باعتبار أنه لا يمكن أن يصير حالهم أسوأ مما هو عليه الآن. لكن كل رجل مضى في طريقه، ولم يتبادل أحد الحديث مع آخر علانية.

بعد ذلك، قال مديرو مخازن البضائع للعمّال، الذين يسحبون الصناديق ذهابًا وإيابًا من حافة النهر، إنه لا داعي لقدمهم بعد الآن، لأنه لم يعد هناك من يبيع ويشترى هذه الأيام في المتاجر. لذا بقي وانج لونج عاطلاً في كوخه ليلاً ونهارًا. كان سعيدًا في بادئ الأمر، حيث ظن أن جسده لن ينال أبدًا ما يكفيه من الراحة، ونام بعمق كرجل ميت. لكنه لم يكن يجني المال إذا لم يعمل، وفي غضون أيام قليلة، أنفقوا آخر بنس إضافي لديهم، وتساءل بيأس مرة أخرى عما يمكن أن يفعله. وكأن الشر الواقع عليهم لم يكن كافيًا، فقد أغلقت مطابخ الفقراء أيضًا أبوابها، وذهب الذين كانوا يتكفلون بالفقراء هكذا إلى منازلهم وأغلقوا الأبواب. ولم يعد هناك طعام ولا عمل، ولا مارة في الشوارع يمكن التسوّل منهم. حينها أخذ وانج لونج طفله بين ذراعيه، وجلس معها في الكوخ ونظر إليها، وقال بهدوء:

- أيتها البلهاء الصغيرة، هل ترغبين في الذهاب إلى منزل كبير، حيث يوجد طعام وشراب، وحيث يمكن أن تكون لديك سترة كاملة تكسو جسدك؟

ابتسمت عندها، وهي لا تفهم شيئًا مما قاله، ورفعت يدها الصغيرة لتلمس بتعجب عينيه المحدثتين بها. ولم يستطع تحمّل ذلك، فصاح قائلاً للمرأة:

- أخبريني، هل تعرضت للضرب في ذلك المنزل الكبير؟

أجابته بثباتٍ وحزنٍ:

- كنت أتعرض للضرب كلَّ يومٍ.

وصاح مرةً أخرى:

- لكن هل كان ذلك بمجرد حزامٍ من القماش، أو كان بالخيزران

أو حبلٍ؟.

أجابته بنفس الطريقة الجامدة:

- كنت أضرب بسيرٍ جلديٍّ معلقٍ على حائط المطبخ، كان مقودًا

لأحد البغال.

كان يعرف جيدًا أنها تفهم ما يفكر فيه، لكنّه طرح أمله الأخير،

وقال:

- طفلتنا هذه فتاةٌ صغيرة جميلة، حتّى الآن. أخبريني، هل كانت

الجواري الجميلات أيضًا يتعرّضن للضرب؟

وأجابت بلا مبالاة، وكأنّ الأمر لا يعنيه بأي شكلٍ من الأشكال:

- أجل، يتعرّضن للضرب، أو يُحملن إلى فراش رجلٍ، تبعًا

لهواهم. وليس لفراش رجلٍ واحدٍ فقط، لكن لأيٍّ ممن قد يرغبون فيها

في تلك الليلة، وكان الأسياد الشباب يتجادلون ويقايض بعضهم بعضًا

مقابل هذه الجارية أو تلك، ويقولون: «لو كان دورك الليلة، فدوري أنا

غدًا، إذن». وعندما كانوا جميعًا يملّون من إحدى الجواري، كان الخدم

من الذكور يتجادلون ويقايضون بعضهم على ما تخلى عنه الأسياد

الشباب. وكلُّ ذلك قبل أن تشبَّ الجارية من مرحلة الطفولة، في حال ما إذا كانت جميلة.

تأوّه عندها وانج لونج، وضَمَّ الطفلة إليه، وقال لها بهدوءٍ مرارًا وتكرارًا:

- أوه، أيتها البلهاء الصغيرة. أوه، أيتها البلهاء المسكينة الصغيرة. لكنه كان يصرخ بداخله، كما يصرخ رجلٌ عندما يُعلَق وسط طوفانٍ مندفعٍ، ولا يستطيع التوقُّف عن التفكير:
- لا توجد وسيلة أخرى. لا توجد وسيلة أخرى.

ثم فجأة، وبينما هو جالسٌ هناك، أتى صوتٌ وكأنَّ السماء انشُرخت، وألقى كلُّ منهم بنفسه على الأرض دون تفكيرٍ، وأخفوا وجوههم، حيث بدا كأنَّ الزئير البشع سيلحق بهم جميعًا ويسحقهم. وأخفى وانج لونج وجه الطفلة بيديه، وهو يجهل أيَّ رعبٍ قد يظهر لهم وسط هذا الضجيج المخيف.

وصرخ العجوز في أذن وانج لونج:
- لم أسمع مثل هذا من قبل قطُّ، طوال سنوات حياتي.
وصرخ الصبيّان من الخوف.
لكن عندما حلَّ الصمتُ فجأة، مثلما كان قد اختفى فجأة، رفعت أولان رأسها، وقالت:

- الآن حدث ما سبق وأن سمعت عنه. اقتحم العدو بوابات المدينة. وقبل أن يتمكّن أحدٌ من الرد عليها، ارتفعت صرخة في المدينة،

صياح أصوات بشرية متصاعدة، خافتة في بادئ الأمر، كما قد يسمع المرء ريح العاصفة وهي تقترب، ثم تعالى عواءً عميقاً، وازداد ارتفاعاً أكثر وأكثر، وهو يملأ الشوارع.

جلس وانج لونج منتصباً على الأرض في كوخه، وتسَلَّل إلى جسده خوفٌ غريبٌ، حتَّى شعر به وسط جذور شعره. انتصب الجميع جالسين، وحدّقوا جميعاً بعضهم إلى بعضٍ دون أن يعرفوا ما الذي ينتظرونه. لكن لم يكن هناك سوى ضوضاءٍ البشر المحتشدين، وكلُّ رجلٍ يعوي.

ثم سمعوا من فوق الجدار، ومن مكانٍ لا يبعد عنهم كثيراً، صرير مفصّلاتِ بابٍ ضخّمٍ، يئنُّ وهو ينفتح على مضضٍ. وفجأةً، دفع الرجل الذي تبادل الحديث مع وانج لونج مرّةً عند الغسق وهو يدخن غليوناً قصيراً من الخيزران، دفع رأسه من فتحة الكوخ وصاح، قائلاً:

- هل ما زلتَ جالساً هنا؟ لقد حان الوقت. انفتحتُ أمامنا أبواب الرجل الثري!

اختفتُ أولان، وكأنّما بفعل سحرٍ ما، زاحفة تحت ذراع الرجل، وهو يتحدّث.

عند ذلك، نهض وانج لونج ببطءٍ وهو شبه مذهولٍ، ووضع الطفلة أرضاً وخرج. وهناك أمام البوابات الحديدية الضخمة لمنزل الرجل الثري، تدافع حشدٌ صاخِبٌ من الناس البسطاء، مُصدرين معاً ذلك العواء العميق كعواء النمر الذي سمعه، وهو يتضخّم متصاعداً من الشوارع. وكان يعرف أنّه أمام بوابات جميع الأثرياء، تدافع مثل هذا

الحشد من الرجال والنساء الذين تَضَوَّرُوا جوعًا وُسْجِنُوا، وصاروا في الوقت الحالي أحرارًا ليفعلوا ما يحلو لهم. كانت البوابات الضخمة موارِبَ، واندفع الناس للأمام متزاحمين بشدَّة، لدرجة أنَّ الأقدام كان بعضها فوق بعضٍ، والأجساد متلاحمة بشدَّة، بحيث تحرَّك الحشد بأكمله ككتلة واحدة. علق وانج لونج وسط الآخرين القادمين من الخلف، وأجبروه على الالتحام بالحشد، فاندفع قُدِّمًا معهم سواء شاء أم أبى، على الرغم من أنَّه هو نفسه لم يكن يعرف ما الذي يريده، لأنَّه كان مشدوِّهاً للغاية ممَّا حدث.

هكذا اندفع عبر عتبة البوابات الضخمة، وقدماه تلامسان الأرض بصعوبة وسط تدافع الناس، واستمرَّ عواء الحشد في كل مكانٍ، كالزئير المتواصل للوحوش الغاضبة.

دُفِعَ عبر ساحة تِلَوِّ الأخرى، حتَّى أقصى الساحات الداخليَّة. ولم يرَ أحدًا من الرجال والنساء الذين كانوا يسكنون المنزل. بدا الأمر وكأنَّ القصر مهجورٌ منذ زمنٍ طويلٍ، لولا أنَّ الزنابق أينعتُ مبكرًا بين صخور الحدائق، والورود الذهبية لأشجار الربيع المبكرة أزهرت على الأغصان العارية. وداخل الحجرات، كان هناك طعامٌ على منضدة، والنيران مشتعلة في المطبخ. كان هذا الحشد يعرف بلاط الأثرياء، فقد تجاوزوا الساحات الأمامية التي يعيش فيها الخدم والجواري وحيث تقع المطابخ، إلى الساحات الداخلية حيث كان السادة والسيدات يضعون أسرَّتَهم الأنيقة، وحيث توجد صناديقهم المطليَّة بالورنيش الأسود والأحمر والذهبي، وصناديق ملابسهم الحريرية، وحيث توجد

الطاولات والكراسي المزخرفة، وعلى الجدران اللوائف المرسومة. انقضَّ الحشد على هذه الكنوز، وهم يجذبون وينتزعون من بعضهم ما ظهر في كلِّ صندوقٍ أو خزانة فُتحت حديثاً. وهكذا انتقلتِ الملابس والمفروشات والستائر من يدٍ ليد، وكلُّ يدٍ تنتزع ما تمسك به الأخرى، دون أن يتوقف أحدٌ ليرى ما بحوزته.

وحده وانج لونج لم يأخذ شيئاً وسط كل هذه الفوضى. لم يسبق له من قبل طوال حياته أن أخذ ما هو ملكٌ لغيره، ولم يتمكن من فعل ذلك في الحال. لذا وقف في البداية في منتصف الحشد، وهم يسحبونه في هذا الاتجاه وذاك، ثم عاد إلى رشده إلى حدٍّ ما، ودفع نفسه بمثابرة نحو الحافة، ووجد نفسه أخيراً على هامش الحشد. وقف هناك منجرفاً معهم بدرجة طفيفة، كما هو حال الدوامات الصغيرة على حافة تيارٍ في بركة، لكنَّه كان لا يزال قادراً على رؤية مكانه.

كان في الجزء الخلفي من أقصى ساحة داخلية حيث تسكن نساء الأثرياء، وكانت البوابة الخلفية مواربة، تلك البوابة التي احتفظ بها الأثرياء طوال قرونٍ من أجل هربهم في مثل هذه الأوقات. لذا كان يُطلق عليها بوابة الأمان. لا بد وأنَّهم جميعاً هربوا من هذه البوابة اليوم، وكانوا مختبئين هنا وهناك في الشوارع، وهم يستمعون للعواء في ساحاتهم. لكنَّ رجلاً واحداً، ربما بسبب حجمه أو بسبب نعاسه الثقيل بفعل السكر، كان قد فشل في الهرب. عثر وانج لونج على هذا الرجل فجأة في غرفة داخلية خالية، كان الغوغاء قد دخلوها وخرجوا منها ثانية، بحيث إنَّ الرجل الذي اختبأ في مكانٍ سري، ولم يُعثر عليه

تسلّل خارجًا الآن كي يهرب، وهو يظنُّ أنّه بمفرده. وهكذا عثر عليه وانج لونج، الذي كان ينحرف بعيدًا عن الآخرين على الدوام، حتّى صار وحده هو الآخر.

كان رجلًا ضخماً وسمينًا، ليس عجوزًا ولا شابًا، وكان يرقد عاريًا في فراشه، مع امرأة جميلة بلا شكّ، حيث ظهر جسده العاري من خلال الرداء المصنوع من الساتان البنفسجي الذي أحاط به نفسه. فاضت ثنيات جسده الصفراء الضخمة على صدره وعلى بطنه، ووسط جبال وجنتيه، كانت عيناه صغيرتين وغائرتين كعيني خنزير. عندما رأى وانج لونج، ارتجف بأكمله، وصرخ كأنّ سكينًا أغمد بجسده، حتّى تعجّب وانج لونج وهو بلا سلاح، وكان يمكنه أن يضحك على المشهد. لكنّ الرجل السمين سقط على ركبتيه، وطرق بلاط الأرض برأسه، صائحًا: - أنقذ حياتي! أنقذ حياتي! لا تقتلني. لديّ أموال لك. أموال كثيرة.

كانت كلمة «المال» هي ما جلب صفاءً فائقًا لذهن وانج لونج فجأة. المال! أجل، كان بحاجة إلى ذلك! ومرةً أخرى، أتاه الأمر بوضوح، كصوتٍ يتحدّث: «المال! ستُنقذ الطفلة. الأرض!».

صاح فجأة بصوتٍ قاسٍ، لم يكن هو حتّى يعرف أنّه موجودٌ في صدره:

- فلتعطني المال، إذن!

نهض الرجل السمين جالسًا على ركبتيه، وهو يبكي ويتلعثم، ويتحسّس جيب رداءه. أخرج يديه الصفراوين وهما تقطران دهبًا، وفرد

وانج لونج طرف معطفه وتلقاه فيه. ومرة أخرى، صاح بذلك الصوت الغريب الذي بدا كصوت رجلٍ آخر:

- أعطني المزيد!

مرة أخرى، خرجت يد الرجل والذهب يتساقط منها، ونشج قائلاً:

- لم يبق شيء الآن، ولم يعد لديّ سوى حياتي البائسة.

وشرع يبكي، ودموعه تسيل كالزيت على خديه المتهدّلين.

نظر له وانج لونج وهو يرتجف ويبكي، واحتقره فجأة كما لم يحتقر شيئاً في حياته من قبل.

صاح فيه والاحتقار يتصاعد بداخله:

- اغرب عن وجهي، لئلا أقتلك كدودة سميكة!

قال وانج لونج هذا على الرغم من أنّه كان رجلاً رقيق القلب بدرجة تمنعه من قتل ثورٍ. فتجاوز الرجل راکضاً ككلبٍ خسيسٍ حتّى اختفى.

عندها، صار وانج لونج بمفرده مع الذهب. لم يتوقّف حتّى يحصيه، لكنّه دفعه داخل صدره، وخرج من بوابة الأمان المفتوحة، وعبر الشوارع الخلفية الضيقة إلى كوخه. ضمّ إلى صدره الذهب الذي كان لا يزال دافئاً من جسد الرجل الآخر، وقال لنفسه مراراً وتكراراً:

- سنعود إلى الأرض. غداً سنعود إلى الأرض!



لم تكد تمرُّ عدّة أيامٍ حتّى بدا لوانج لونج أنّه لم يفارق أرضه أبداً، كما لم يفارقها في قلبه على الإطلاق بالفعل. اشترى بذورًا جيّدة من الجنوب بثلاثة قطع من الذهب، حبوبًا كاملة من القمح والأرز والذرة، وبسبب التهوُّر البالغ الناتج عن الثراء، اشترى بذورًا لم يزرع مثلكها من قبل، الكرفس واللوتس لبرّكته، وفجلاً أحمر ضخماً يُطهى مع لحم الخنزير كطبقٍ في الولايم، وفاصوليا حمراء صغيرة عطّرة.

ومقابل خمس قطع من الذهب، اشترى ثورًا من مُزارعٍ يحرق الحقل، كل هذا قبل أن يصل إلى أرضه. شاهد الرجل وهو يحرق فتوقّف، وتوقّفوا جميعاً، العجوز والأطفال والمرأة، على الرغم من تلهّفهم للوصول إلى المنزل والأرض، ونظروا إلى الثور. أُعجب وانج لونج بعنقه القوي، ولاحظ على الفور كتفه وهو يسحب النّير الخشبيّ بقوة، فصاح قائلاً:

- هذا الثور بلا قيمة! مقابل كم من الفضة أو الذهب ستبيعه، حيث إنّني لا أمتلك أيّ حيوانٍ، وأواجه صعوبة بسبب ذلك، وعلى استعدادٍ لآخذ أيّ شيءٍ؟

أجابه المزارع:

- أنا أفْضَلُ أن أبيع زوجتي، عن أن أبيع هذا الثَّور الذي لا يتجاوز عمره ثلاث سنواتٍ، ولا يزال في أوج قوته.

واستمرَّ في العمل، ولم يتوقَّف من أجل وانج لونج.

ثم بدا لوانج لونج كما لو أنَّه يجب أن يحصل على هذا الثَّور بالتحديد، من بين كل الثيران الموجودة في العالم. وقال لأولان ولوالده:

- كيف حاله بالنسبة لثَّورٍ؟

حدَّق العجوز بالثور، وقال:

- يبدو أنَّه حيوانٌ مخصيٌّ جيِّداً.

وقالت أولان:

- عمره أكبر ممَّا ذكر بسنَّة.

لكن وانج لونج لم يجبههم بشيءٍ، لأنَّه عقد العزم على هذا الثَّور بسبب حرارته القويَّة للتربة، وبسبب شعره الأصفر الناعم، وعينيَّه الواسعتين الداكنتين. يمكنه حراثة حقوله وزراعتها بهذا الثَّور، وبوسعه طحن الحبوب لو ربط هذا الثَّور إلى رحاه.

ذهب إلى المزارع، وقال له:

- سأعطيك ما يكفي لشراء ثَّورٍ آخر ويفيض، لكنني سأحصل على هذا الثَّور.

في النهاية، بعد التشاؤن والجِدال ومقاطعة الحديث، وافق المزارع على بيعه مقابل ما يزيد على قيمته بمعدل مرَّة ونصف في تلك الأرجاء.

لكن الذَّهَبُ فجأةً لم يعدَ يمثلُ شيئاً لوانج لونج عندما نظر إلى هذا الثَّور، وناولهُ ليد المزارع، وشاهده بينما هو يحرّر الحيوان من النِّير، ثم قاده وانج لونج بعيداً بحبلٍ يمرُّ من خلال أنفه، وقلبه يتحرَّق سعادةً لِمَا صار بحيازته.

عندما وصلوا إلى المنزل، وجدوا الباب قد انْتزِعَ، واختفى القشُّ من السقف، كما اختفت معاولهم ومجارفهم التي تركوها بالداخل. لذا لم يتبقَّ سوى العوارض الخشبيّة العارية والجدران الطينيّة. وحتىّ الجدران الطينية تهدّمت بفعل الثلوج المتأخّرة وأمطار الشتاء وأوائل الربيع. لكن بعد الشُّعور بالدهشة في بادئ الأمر، بدا كلُّ هذا وكأنّه لا يهمُّ على الإطلاق بالنسبة لوانج لونج. ذهب إلى المدينة، واشترى محرّثاً جديداً جيّداً من الخشب الصُّلب، ومجرفتين ومعوّلين، وحصيراً لتغطية السقف حتّى يتمكّنوا من الحصول على القشِّ مرّة أخرى من الحصاد.

ثم وقف في المساء عند باب منزله، ونظر عبر الأرض، أرضه، وهي ممتدّة وتربتها مفكّكة ومنتعشة بعد تجمّدها شتاءً، وجاهزة للزراعة. كان الربيع في أوجه، وارتفع نقيق الضفادع الناعس في البركة الضحلة. تمايل الخيزران الكائن عند ركن المنزل ببطءٍ تحت نسيم الليل الهادئ، ورأى على نحوٍ خافتٍ خلال الشفق أطراف الأشجار الواقعة عند حدود الحقل القريب. كانت أشجار خوخ، أزهرت براعم ورديةً بالغة الرقّة، وأشجار صفصافٍ نبتت منها أوراقٌ خضراء غضة. وتساعد من الأرض الساكنة المنتظرة ضبابٌ خافتٌ، فضيٌّ مثل ضوء القمر، وتشبّث بجذوع الأشجار.

في البداية ولفترة طويلة، بدا لوانج لونج أنه لا يرغب في رؤية أي إنسان، بل يريد فقط أن يكون بمفرده على أرضه. لم يذهب إلى أي من منازل القرية، وعندما أتى من نجا منهم بعد مجاعة الشتاء لرؤيته، كان فظاً معهم.

صرخ فيهم قائلاً:

- مَنْ منكم انتزع بابي؟ وَمَنْ منكم لديه مجرأتي ومعولي؟ وَمَنْ منكم أحرق سقفي في فرنه؟

هزوا رؤوسهم، والفضيلة تملؤهم، وقال أحدهم:

- كان عمُّك هو من فعل.

وقال آخر:

- لا، فمع وجود قطاع الطرق واللصوص الذين يجوبون البلاد في هذه الأوقات الخبيثة من المجاعة والحرب، كيف يمكن أن يُقال إن هذا أو ذاك سرق أي شيء؟ الجوع يجعل أي إنسان لصاً.

عندها أتى جاره تشينج زاحفاً من منزله ليرى وانج لونج، وقال:

- خلال فصل الشتاء، عاشت جماعة من اللصوص في منزلك، وسطوا على القرية والمدينة بقدر استطاعتهم. ويقال إنَّ عمُّك يعرف عنهم أكثر ممَّا ينبغي لرجلٍ شريف. لكن مَنْ عساه يعرف ما هي الحقيقة في هذه الأيام؟ لن أجرؤ على اتِّهام أي رجلٍ.

لم يكن هذا الرجل في الواقع سوى مجرد ظلٍّ، حيث التصق جلده بعظامه، وبات شعره خفيفاً ورمادياً، على الرغم من أنه لم يبلغ الخامسة والأربعين من العمر بعد.

حدّق به وانج لونج لفترةٍ، ثم قال فجأةً بإشفاقٍ:

- لقد أصابك أسوأ ممّا أصابنا. ما الذي كنتَ تتقوّت به؟

وتنهّد الرجل هامسًا:

- ما الذي لم آكله؟ أكلنا الفضلات من الشوارع مثل الكلاب، عندما كنّا نتسوّل في المدينة. وأكلنا كلابًا ميتة. وصنعتُ زوجتي ذات مرّةٍ قبل وفاتها بعض الحساء من لحمٍ لم أجرؤ على السؤال عن ماهيته، لكنّني كنتُ أعلم أنّها تفتقر الشجاعة اللازمة للقتل، ولو حدث وتناولنا طعامًا، كان ذلك شيئًا عثرْتُ عليه. ثم ماتتُ، حيث كانت أقلّ تحمُّلاً مني، وبعد وفاتها أعطيتُ الفتاة لأحد الجنود، لأنّني لم أتمكّن من رؤيتها تتصوّر جوعًا، وتموت هي الأخرى.

توقّف صامتًا، ثم قال بعد فترة:

- لو كان لديّ القليل من البذور، لزرعتُ مرّةً أخرى. لكن ليس لديّ أيُّ بذور.

قال وانج لونج بخشونةٍ:

- تعال هنا!

وسحبه من يده إلى داخل المنزل، وأمر الرجل أن يرفع طرف سترته البالية، وسكب فيها وانج لونج من مخزون البذور التي جلبها من الجنوب. أعطاه قمحًا وأرزًا وبذور كرنبٍ، وقال:

- سأتي غدًا لحرّاة أرضك بثوري القوي.

عندها شرع تشينج يبكي فجأة، وفرك وانج لونج عينيه، وصاح قائلاً، وكأنه غاضبٌ:

- هل تظنُّ أنني نسيْتُ أنَّك أعطيتني تلك الحفنة من الفاصوليا؟
لكن تشينج لم يتمكَّن من أن يجيبه بشيءٍ، بل سار مبتعداً فقط، وهو يبكي ويبكي بلا توقُّفٍ.

كان من دواعي سرور وانج لونج أنه وجد أنَّ عمَّه لم يعد في القرية، ولم يكن أحدٌ يعرف مكانه على وجه اليقين. قال البعض إنه ذهب إلى مدينةٍ ما، وقال البعض الآخر إنه في منطقةٍ بعيدةٍ مع زوجته وابنه. لكن لم يبقَ أحدٌ في منزله بالقرية. سمع وانج لونج بغضبٍ شديدٍ أنَّ الفتيات تمَّ بيعهنَّ؛ الأجلُّ أولاً مقابل السعر الذي تمكَّنوا من الحصول عليه، لكن حتَّى الأخيرة التي كانت مشوَّهة من آثار الجُدري بيعت مقابل حفنة من البنسات لجنديٍّ عابر في طريقه إلى أرض المعركة.

ثم عمل وانج لونج في الأرض بعزمٍ، وكان يَضُنُّ على نفسه حتَّى بالساعات التي يجب أن يقضيها في المنزل من أجل الطعام والنوم. بل كان يحب أن يأخذ لفافة خبزهِ والثوم إلى الحقل، ويقف هناك وهو يأكل ويخطُّ ويفكِّر:

- هنا سأزرع البازلاء ذات الأعين السوداء، وهنا أحواضُ الأرز الغصّ.

ولو اعتراه التعب بشدَّة خلال النهار، كان يتمدّد في أحد الأخاديد وينام، ودفع أرضه الطيِّبة يحيط بجسده.

ولم تكن أولان حاملةً في المنزل. ثَبَّتَ الحَصِيرَ بيديها إلى عوارض السقف بقوةٍ، وجلبتِ الطين من الحقول ومزجته بالماء، وأصلحتُ جدران المنزل، وقامت ببناء الفرن مرّةً أخرى، وملأتِ الحفر التي صنعها المطر في الأرض.

ثم ذهبتُ للمدينة ذات يومٍ مع وانج لونج، واشترتِا معًا أُسْرَةً، وطاولةً، وستة مقاعد، وقِدْرًا حديديةً ضخمةً. ثم اشترتِا من أجل متعتهم إبريق شايٍّ من الخزف الأحمر، رُسمَت عليه بالحبر زهرةٌ سوداء، وستة أطباق تتماشى معه. أخيرًا، ذهبا إلى متجر البخور واشترتِا إلهاً للثروة مصنوعًا من الورق كي يعلّقه على الجدار فوق الطاولة بالغرفة الوسطى، واشترتِا شمعدانين من القصدير، وجرةً بخورٍ من القصدير، وشمعتين حمراوين لإشعالهما أمام الإله، شموعٍ حمراء سميكة مصنوعة من دهن البقر، وبها قصبَةٌ رفيعةٌ من المنتصف كفتيلٍ.

ثم فكّر وانج لونج في الإلهين الصغيرين المتواجدين بمعبد الأرض، وفي طريقه إلى المنزل، ذهب وألقى نظرةً عليهما. كان منظرهما بائسًا، وقد غسل المطر ملامح وجهيهما، وطين جسديهما العاريين يبرز من ملبسهما الورقيّة المُمزّقة. لم يعرفهما أحدٌ أيَّ اهتمامٍ خلال هذه السنة الرهيبة، ونظر إليهما وانج لونج بتجهمٍ، وقال بصوتٍ مرتفعٍ وهو يشعر بالرضى، كما قد يحدث المرءُ طفلًا مُعاقبًا:

– هذا هو حال الآلهة الذين يسيئون إلى البشر!

مع ذلك، عندما عاد المنزل إلى طبيعته مرّةً أخرى، والشمعدانات المصنوعة من القصدير تلمع والشموع مشتعلة بها بلونها الأحمر

اللامع، وإبريق الشاي والصحون على الطاولة، والأسرة في أماكنها وفوقها بعض الأغذية مرة أخرى، وقد ألصق ورقٌ جديدٌ فوق الفتحة في الغرفة التي ينام بها، وتمّ تركيب بابٍ جديدٍ على مفصلات الخشبية، شعر وانج لونج بالخوف من سعادته. تضخّم جسد أولان بطفلها القادم، وأطفاله يتقافزون على عتبة داره كجِراء بُنية اللون، وجلس والده العجوز مستندًا إلى الجدار الجنوبي وهو ينعس ويتسم خلال نومه. ونبت الأرز الغض في حقوله أخضر كالشمس، وأكثر جمالًا، ورفعت الفاصوليا الصغيرة رؤوسها المُغطاة من التربة. وتبقى من الذهب ما يكفي لإطعامهم حتّى موعد الحصاد، إذا اقتصدوا في طعامهم. بينما هو ينظر إلى السماء الزرقاء فوقه، والسحب البيضاء التي تمرّ عبرها، ويشعر بتوازن الشمس والمطر على حقوله المحروثة وعلى جسده، غمغم وانج لونج على مضضٍ:

- يجب أن أغرس بعض البخور أمام هذين الاثنين في المعبد الصغير. فهما في النهاية يتحكّمان في الأرض.



عندما كان وانج لونج مستلقيًا مع زوجته ذات يومٍ، شعر بكتلةٍ
صُلْبَةٍ بحجم قبضة رجلٍ بين ثدييها، فقال لها:

- ما هذا الذي لديكِ على جسدكِ الآن؟

وضع يده عليها، ووجد حزمةً ملفوفةً بالقماش. كانت صُلْبَةً، لكنّها
تحرّكت عندما لمسها. تراجعتُ بعنفٍ في البداية، ثم استسلمتُ عندما
أمسك بها ليتزعا منها، وقالت:

- حسنًا، انظر إليها إدنّ، إذا كنت ترغب في ذلك.

وأمسكت الخيط الذي يربط الحزمة إلى عنقها، فقطعتُه وناولته إياه.
كانت ملفوفة في خرقةٍ، فمزّقتها. ثم سقطتُ فجأةً في يده كومةً من
الجواهر، وتأمّلها وانج لونج بذهولٍ. كانت مجموعة من الجواهر لم
يحلم أحدٌ من قبل باجتماعها معًا: جواهر حمراء مثل قلب البطيخ من
الداخل، وذهبيّة كالقمح، وخضراء كأوراق الشجر في الربيع، وصافية
كالماء الذي يسيل من الأرض. لم يعرف وانج لونج أسماءها، حيث
لم يسبق وأن سمع الأسماء ورأى المجوهرات معًا في حياته من قبل.
لكن بينما هو ممسكٌ بها في كفّه، في راحة يده البُنْيَةِ الجافّة، أدرك من

لمعانها وتألقها في الغرفة نصف المعتمة أنه يقبض على ثروة. أمسكها
بلا حراك، مخموراً باللون والشكل، فاقدًا القدرة على الحديث، وحدق
هو والمرأة معاً إلى ما يمسك به.

أخيراً، همس لها منبهراً:

- أين... أين...

وبادلتها الهمس بهدوءٍ مشابه:

- في منزل الرجل الثري. لا بُدَّ وأنه كان كنزاً مُفضَّلاً. رأيتُ طوبةً
مخلخلةً في الجدار، وتسَلَّلتُ إليها بلا مبالاةٍ كي لا يراني أيُّ شخصٍ
آخر ويطلبُ بنصيبه. سحبتُ الطوبة بعيداً ولمحتُ البريق، ووضعتهم
في كُمِّي.

همس ثانية، والإعجاب يملؤه:

- كيف عرفتِ؟

وأجابتُ بابتسامةٍ على شفيتها لم تنعكس في عينيها أبداً:

- هل تعتقد أنني لم أعش في منزلٍ رجلٍ ثريٍّ؟ الأثرياء دوماً
خائفون. رأيتُ اللصوص ذات مرَّةٍ في أحد الأعوام السيئة يندفعون عبر
بوابات المنزل الكبير، وركضت الجواري والمحظيات، وحتى السيدة
العجوز نفسها ركضت هنا وهناك، وكان لدى كلِّ منهنَّ كنزٌ دفعته في
مكانٍ سريٍّ خطَّطت له من قبل. لذا عرفتُ ما تعنيه طوبة مخلخلة.

وحلَّ عليهما الصمتُ مرَّةً أخرى، وهما يتحدثان إلى الأحجار
بتعجُّبٍ. ثم بعد فترةٍ طويلةٍ، سحب وانج لونج أنفاسه، وقال بحزم:

- لا يمكن أن يحتفظ المرء بكنزٍ مثل هذا الآن. لا بُدَّ أن يُباع ويُستثمر في شيءٍ آمنٍ، في الأرض، فلا شيء آخر آمنٌ. إذا عَلِمَ أيُّ شخصٍ بهذا الأمر، ستكون أموالنا في اليوم التالي، وسيحمل لُصُّ المجوهرات. يجب أن نشترى بها الأرض في يومنا هذا، وإلا لن أنام الليل.

لَفَّ الأحجار في الخرقَة مرّة ثانية بينما هو يتحدّث، وربطها معًا بالخيط بقوة، وفتح سترته، ودسّها في صدره، ثم رأى وجه المرأة بطريق المصادفة. كانت تجلس القرفصاء عند طرف الفراش، وارتسم على وجهها الجامد الذي لا يفصح عن شيءٍ أبدًا شوقٌ خافتٌ، وقد انفرجت شفتاها، ومال وجهها للأمام.

سأل متعجبًا منها:

- حسنًا، وماذا الآن؟

سألته بهمسٍ أجش:

- هل ستبيعهم كلهم؟

أجاب بدهشة:

- ولمَ لا؟ لِمَ سنحتفظ بمجوهراتٍ كهذه في منزلٍ من الطين؟

قالت بحزنٍ بائسٍ، كمن لا يتوقّع شيئًا:

- أتمنّى لو استطعتُ الاحتفاظِ باثنين لنفسِي.

لدرجة أنّه تأثّر كما قد يتأثّر المرءُ بشوقِ أطفاله للعبة ما، أو لبعض الحلوى.

صاح متعجبًا:

- حسنًا، إذن!

واصلت قائلة بخنوع:

- لو كان بوسعي الاحتفاظ باثنتين، اثنتين صغيرتين فقط. ولو حتى
لؤلؤتين بيضاوين صغيرتين.

كرّر، وهو فاغرٌ فمه:

- لؤلؤ!

قالت:

- سأحتفظ بهما، لن أرتديهما. سأحتفظ بهما فقط.

ثم خَفَضَتْ نظرتها، وشرعتْ تفتل جزءًا من غطاء الفراش حيث
يوجد خيطٌ مفكوكٌ، وانتظرتُ بصبرٍ كمن لا يكاد يتوقّع جوابًا.

وللحظة، نظر وانج لونج دون أن يفهم، داخل قلب هذه المخلوقة
البليدة والمخلصة، والتي كدّت طوال حياتها في عملٍ لم تُفَرْ منه بأيّ
مكافأةٍ، والتي شاهدت الأخرى في المنزل الكبير ترتدين مجوهراتٍ
لم تمسك بها في يدها أبدًا ولو لمرةً واحدة.

أضافت قائلة، وكأنما تفكر وحدها:

- يمكنني الإمساك بها في يدي أحيانًا.

فشعر بالتأثر من شيءٍ لم يفهمه، وأخرج الجواهر من صدره وحلّها
وسلّمها إياها في صمتٍ. وبحثتُ هي بين الألوان المتلائة، ويدها البنية
الجافة تقلّب الأحجار برقةٍ وبطءٍ، حتى عثرتُ على لؤلؤتين بيضاوين
ناعمتين. أخذتهما وربطت البقية مرةً أخرى، وأعادتها إليه. ثم تناولتِ

اللؤلؤ، ومزقت ركن سترتها ولقتهما به، وخبأتها بين ثدييها، وشعرت بالراحة.

لكنّ وانج لونج راقبها مندهشاً، دون أن يفهم تمامًا، بحيث صار بعدها خلال ذلك اليوم وفي الأيام الأخرى يتوقّف محدّقاً بها، ويقول لنفسه:

– حسنًا إذن، إنّ امرأتي هذه لا تزال لديها هاتان اللؤلؤتان بين ثدييها، على ما أعتقد.

لكنّه لم يرها تخرجهما أبدًا أو تتأملهما، ولم يتحدثا عنهما أبدًا. أمّا بالنسبة لباقي المجوهرات، فقد انشغل بالتفكير في هذه الطريقة وتلك، وقرّر أخيرًا أن يتوجّه إلى البيت الكبير ليرى ما إذا كانت هناك المزيد من الأراضي التي يمكن شراؤها.

ذهب إلى المنزل الكبير الآن، ولم يعد في هذه الأيام أيّ حارسٍ يقف عند البوابة، يبرم شعرات شامته الطويلة، مزدريًا أولئك الذين لا يمكنهم تجاوزه ودخول منزل هوانج. بدلًا من ذلك، كانت البوابات الضخمة مغلقة، ودقّها وانج لونج بكلتا قبضتيه، ولم يأت أحدٌ.

نظر الرجال العابرون في الطريق، وصاحوا قائلين له:

– أجل، يمكنك أن تدقّ الباب الآن، وتستمرّ في دقّه. إذا كان السيد العجوز مستيقظًا، فربما يأتي، وإذا كانت هناك كلبة ضالة من الجوّاري موجودة في الجوّار، فقد تفتح إذا رغبت في ذلك.

لكنّه سمع أخيراً خطواتٍ بطيئةً قادمة عبر المدخل، خطواتٍ مُتمهّلة شاردة كانت تتوقّف وتسير في نوباتٍ، ثم سمع القضيب الحديدي الذي يُغلق الباب وهو يُسحب ببطءٍ، وأصدرتِ البوابة صريراً، وهمس صوتٍ أجشّ:

- مَنْ بالباب؟

فأجاب وانج لونج بصوتٍ مرتفعٍ، بالرغم من اندهاشه:

- إنّه أنا، وانج لونج!

ثم قال الصوت بغیظٍ:

- ومن هو الملعون وانج لونج؟

وأدرك وانج لونج من طبيعة السباب أنّه السيد العجوز بنفسه، لأنّه كان يسبّ كمن اعتاد وجود الخدم والجواري.

لذا أجاب وانج لونج بتواضعٍ أكثر من ذي قبل:

- يا سيدي ومولاي، لقد جئتُ من أجل صفقةٍ صغيرةٍ، لا كي أزعج معاليك، بل لأتحدّث قليلاً بخصوص العمل مع الوكيل الذي يخدم سيادتكم.

فأجاب السيد العجوز دون أن يفتح بدرجة أكبر شقّ البوابة الذي مدّ منه شفّتيه:

- عليه اللعنة، لقد تركني ذلك الكلب منذ أشهرٍ عديدة، وهو ليس موجوداً هنا.

لم يعرف وانج لونج ما يفعله بعد هذا الرّدّ. كان من المستحيل

الحديث عن شراء الأرض مع السيد العجوز مباشرة، دون وسيطٍ. ومع ذلك كانت المجوهرات مُعلّقة في صدره، حارّة كاللهب، وأراد التخلّص منها، وأكثر من ذلك، كان يريد الأرض. بالبذور التي لديه، كان بوسعه زراعة أرضٍ إضافيّة تعادل تلك التي لديه بالفعل، وكان يريد الأرض الطيّبة المملوكة لمنزل هوانج.

قال متردّدًا:

- لقد جئتُ بخصوص بعض المال.

دفع السيد العجوز البوابات في الحال. قال بصوتٍ أكثر ارتفاعًا ممّا تحدّث به من قبل:

- لا يوجد مالٌ في هذا المنزل. ذلك الوكيل اللص السارق - فلتحلّ اللعنة على أمه وأم أمه - أخذ كلّ ما كان لديّ. لا يمكن سداد أيّ ديونٍ.

قال وانج لونج بعُجالة:

- لا، لا. لقد جئتُ للدفع، لا لتحصيل الديون.

عندها، علتُ صرخةٌ حادّة من صوتٍ لم يكن وانج لونج قد سمّعه بعد، ودفعتُ امرأة وجهها فجأة من البوابة.

قالت بحدّة:

- هذا شيءٌ لم أسمعهُ منذ فترةٍ طويلة.

ورأى وانج لونج وجهًا جميلًا وماكرًا ومتورّدًا يطالعه.

قالت بخفّة:

- ادخل.

وفتحت البوابات باتساعٍ يكفي لدخوله، ثم وقفت خلفه بينما هو مندهشٌ داخل الساحة، وأغلقتهما بإحكامٍ مرّةً أخرى.

وقف السيد العجوز وهو يسعل ويحدّق به، وقد أحاط جسده رداءً من الساتان الرماديّ القذر، تدلّى من حافته فراءٌ رثٌّ. كان بوسع أيّ شخصٍ أن يتوقّع أنّه كان رداءً فاخرًا فيما مضى، حيث كان الساتان لا يزال ثقیلاً وناعمًا، على الرغم من البقع واللطخات التي غطّته، وكان مجمّعًا كما لو أنّه استُخدم كرداءٍ للنوم. حدّق وانج لونج إلى السيد العجوز وهو يشعر بالفضول، إلّا أنّه كان خائفًا نوعًا ما، حيث إنّهُ ظلّ طوال عمره يخشى الناس في المنزل الكبير إلى حدٍّ ما، وبدا من المستحيل أنّ السيد العجوز الذي سمع عنه الكثير هو هذا الشخص العجوز، الذي لم يكن مخيفًا أكثر من والده العجوز. بل في الواقع أقلّ منه، حيث كان والده شيخًا نظيفًا ومبتسمًا، بينما السيد العجوز الذي كان سمينًا من قبل صار نحيلًا الآن، وقد ترهّلت ثنيات جلده، ولم يكن مغتسلًا ولا حليقًا، وبدت يده صفراء مرتعشة، وهو يمرّرها على ذقنه ويجذب شفّتيه العجوزين المتهدّلتين.

كانت المرأة نظيفة بما فيه الكفاية. بدا وجهها قاسيًا وحادًا وجميلًا على نحوٍ يشبه الصقور، بأنفها المعقوف وعينيها الحادّتين السوداوين، وبشرتها الشاحبة المشدودة فوق عظامها، ووجنتيها وشفّتيها الحمراوين القاسيتين. كان شعرها الأسود كالمرآة من فرط لمعانه الأسود الناعم، لكن من خلال حديثها، كان بوسع المرء أن يدرك أنّها ليست من أسرة

السيد، بل جارية حادّة الصوت سليطة اللسان. وبخلاف هذين الاثنين، المرأة والسيد العجوز، لم يكن شخصٌ آخر في الساحة، حيث كان النساء والرجال والأطفال يركضون من قبل جيئة وذهابًا من أجل أعمالهم المتعلقة بالعناية بالمنزل الكبير.

قالت المرأة بحدّة:

- الآن، بخصوص المال...

لكن وانج لونج تردّد. لم يكن بوسعها الحديث أمام السيد العجوز، ولاحظت المرأة ذلك كما كانت تلاحظ كلّ شيءٍ بأسرع ممّا يمكن أن يعبر عنه الحديث. وقالت للعجوز بحدّة:

- فلتذهب الآن!

ومشى السيد العجوز في صمتٍ متناقلاً، دون النطق بكلمةٍ، وهو يسعل في أثناء سيره وحذاؤه المخملي القديم يضرب كعبيه. أمّا بالنسبة لوانج لونج، فلم يدر ما الذي يقوله أو يفعله وقد صار بمفرده مع هذه المرأة. كان مذهولاً من الصمت السائد في كلّ مكانٍ. أطلّ نحو الساحة التالية، ولم يكن أيُّ شخصٍ آخر هناك أيضًا. ورأى في أرجاء الساحة أكوامًا من القمامة والقاذورات، وقشًا متناثرًا وفروعًا من شجر الخيزران وإبر صنوبر جافّة وسيقان زهورٍ ميتة، وكأنّه قد مرّ وقتٌ طويلٌ دون أن يمسك أيُّ شخصٍ بالمكنسة لتنظيفها.

قالت المرأة بحدّة زائدة:

- حسنًا إذن، أيّها الأحمق!

وقفز وانج لونج عند سماع صوتها، حيث كانت حدّته غير متوقعة.

- ما هو شأنك؟ إذا كان بحوزتك مال، دعني أراه.

قال وانج لونج بحذر:

- لا، لم أقل إنّ بحوزتي مالاً. بل لديّ عملٌ لأنجزه.

أجابته المرأة:

- العمل يعني المال؛ إمّا مالٌ يدخل، وإمّا مالٌ يخرج. ولا يوجد مالٌ ليخرج من هذا المنزل.

احتجّ وانج لونج بهدوءٍ:

- حسناً، لكن لا يمكنني الحديث مع امرأة.

لم يستطع أن يفهم شيئاً من الموقف الذي وجد نفسه فيه، وكان لا يزال يحدّق بما حوله.

ردّت المرأة بغضبٍ:

- حسناً، ولمَ لا؟

ثم صرخت فيه فجأة:

- ألم تسمع، أيّها الأحمق، أنّه لا يوجد أحدٌ هنا؟

حدّق بها وانج لونج بضعفٍ، دون تصديقٍ، وصرخت فيه المرأة

ثانية:

- أنا والسيد العجوز، لا يوجد أحدٌ آخر!

سأل وانج لونج، وهو يشعر بالذعر لدرجة أعاقته من أن يرتّب

كلماته بوضوح:

- أين إذن؟

أجابت المرأة:

- حسنًا، ماتت السيدة العجوز. ألم تسمع في المدينة كيف اقتحم اللصوص المنزل، وكيف حملوا ما يريدون من العبيد ومن البضائع؟ وعلّقوا السيد العجوز من إبهاميه، وأوسعوه ضربًا. وقيدوا السيدة العجوز في كرسيٍّ وكَمَموها، وهرب الجميع. لكنني بقيتُ. اختبأتُ داخل جرةٍ نصف ملاءى بالمياه، أسفل غطاءٍ خشبيٍّ. وعندما خرجتُ كانوا قد ذهبوا، وجلستِ السيدة العجوز ميتة في مقعدها، ليس بسبب أيِّ شيءٍ فعلوه بها، بل بفعل الخوف. كان جسدها كالقصبه التالفة من الأفيون الذي دخّنته، ولم تتحمّل الخوف.

شهق وانج لونج قائلاً:

- والخدم، والجواري؟ وحارس البوابة؟

أجابت بلا مبالاة:

- أوه، هؤلاء. كانوا قد رحلوا منذ زمنٍ طويلٍ، كلٌّ من كانت أقدامه تستطيع حمله بعيدًا. حيث لم يعد يوجد أيُّ طعامٍ ولا مالٍ بحلول منتصف الشتاء.

انخفض صوتها لدرجة الهمس:

- في الواقع، كان العديد من الخدم الذكور بين اللصوص. رأيتُ حارسَ البوابة الكلب هذا بنفسه. كان يقود الطريق. على الرغم من أنه أدار وجهه جانبًا في حضرة السيد العجوز، فإنني ما زلتُ أعرف تلك

الشعرات الثلاث الطويلة بشامته. وكان هناك آخرون. وإلا كيف يمكن لأي شخص سوى أولئك المطلعين على المنزل الكبير أن يعرفوا مكان إخفاء المجوهرات، والمخازن السرية للكنوز التي لم تكن للبيع؟ لن أستبعد أمر الوكيل العجوز نفسه، على الرغم من أنه سيعتبر ذلك خطأً لكرامته، إذا ما ظهر علناً في الأمر، حيث إنه يمتُّ بصلّة قرابة بعيدة للأسرة نوعاً ما.

صمتت المرأة، وبدا صمتُ الساحات ثقيلاً كما يمكن أن يكون الصمت بعد زوال الحياة. ثم قالت:

- لكن كل هذا لم يكن شيئاً مفاجئاً. كان سقوط هذا المنزل متوقعاً طوال حياة السيد العجوز، ووالده. توقّف الأسياد في الجيل الأخير عن متابعة الأرض، وأخذوا الأموال التي أعطاهم الوكلاء، وأنفقوها بإهمالٍ كما لو كانت ماءً. وفي هذه الأجيال تلاشت منهم قوّة الأرض، كما بدأت الأرض تزول شيئاً فشيئاً هي الأخرى.

سأل وانج لونج، وهو لا يزال يحدّق حوله، شاعراً أنه من المستحيل بالنسبة له تصديق هذه الأشياء:

- أين الأسياد الشباب؟

قالت المرأة بلا مبالاة:

- هنا وهناك. من حسن الحظ أنّ الفتاتين تزوّجتا قبل حدوث كلّ ذلك. عندما سمع أكبر الأسياد الشباب بما حدث لوالده ووالدته، أرسل رسولاً ليجلب السيد العجوز، والده، لكنني أقنعتُ العجوز ألا يذهب.

قلتُ له: «ومن سيقى في الساحات، فالأمر لا يليق بي لأنني مجرد امرأة».

زَمَّتْ شفثيها الحمراءوين الرفيعتين متصنَّعة النزاهة وهي تنطق بهذه الكلمات، وخفضت نظرة عينيها الجريئتين، ثم تابعت قائلة، بعد أن توقَّفت قليلاً:

- إلى جانب ذلك، فقد كنتُ جاريةً مخلصمة لسيدي طوال هذه السنوات العديدة، وليس لديّ سكنٌ آخر.

تأملها وانج لونج من كُثْبٍ، ثم استدار سريعاً. بدأ يدرك ماهيتها؛ امرأة تشبَّت برجلٍ عجوزٍ على مشارف الموت طمعاً في آخر ما قد تحصل عليه منه. قال باحتقار:

- بما أنّك مجرد جارية، كيف أستطيع إتمام العمل معكِ؟
عندئذٍ صاحت به:

- سيفعل أيّ شيءٍ أقوله له.

تفكَّر وانج لونج في جوابها هذا. حسناً، كانت هناك الأرض. سيشتريها الآخرون من خلال هذه المرأة لو لم يفعل هو. سألها على مضضٍ:

- ما مساحة الأرض المتبقية؟

رأتُ على الفور ما ينتويه، وقالت على عجلٍ:

- إذا كنت قد أتيتَ لشراء الأرض، فهناك أرضٌ لتشتريها. لديه مائة

فدانٍ ناحية الغرب، ومائتا فدانٍ في الجنوب يرفض بيعها. إنَّها ليست قطعةً واحدةً، لكنَّ القطع كبيرةٌ، ويمكن بيعها حتَّى آخر فدانٍ.

ذكرتُ هذا بسهولةٍ، وأدرك وانج لونج أنَّها تعرف كلَّ ما تبقى بحوزة العجوز، حتَّى آخر قدمٍ من الأرض. لكنَّه ظلَّ غيرَ مصدِّقٍ، وغيرَ راغبٍ في التعامل معها.

احتجَّ قائلاً:

- من غير المحتمل أن يتمكَّن السيد العجوز من بيع أرض أسرته بأكملها دون موافقة أبنائه.

لكنَّ المرأة تلقَّت كلماته بلهفةٍ:

- بالنسبة لذلك، فقد قال له أبنائُه أن يبيع ما بوسعه. تقع الأرض في مكانٍ لا يريد أيُّ من الأبناء العيش به، والبلدة ملاءى باللصوص في أيام المجاعة هذه. وقد قالوا جميعاً: «لا يمكننا العيش في مثل هذا المكان. فلنبيعها، ونقسِّم المال».

سأل وانج لونج، وهو لا يزال غيرَ مصدِّقٍ:

- لكن في يد مَنْ سأضع المال؟

أجابت المرأة بنعومةٍ:

- في يد السيد العجوز، ومن غيره؟

لكنَّ وانج لونج كان يعرف أنَّ يد السيد العجوز تنفتح في يدها.

لذا رفض تبادلَّ المزيد من الحديث معها، بل ابتعد قائلاً:

- يوم آخر، يوم آخر.

وتوجّه إلى البوابة، فتبعته وهي تصرخ وراءه في الطريق:

- في مثل هذا الوقت غداً، هذا الوقت، أو بعد ظهر اليوم، كلُّ الأوقات متشابهة!

سار عبر الطريق دون أن يجيئها، شاعرًا بالحيرة الشديدة، وبحاجة إلى التفكير فيما سمعه. ذهب إلى صالة الشاي الصغيرة، وطلب الشاي من الخادم. وعندما وضعه الصبيُّ أمامه بسرعة، والتقط البنس الذي دفعه مقابلهُ بإيماءةٍ وقحةٍ، شرع وانج لونج يتأمل. وكلّما فكّر في الأمر، بدا أكثر فظاعة، لكون الأسرة الكبيرة والثريّة التي ظلّت طوال حياته وحياة والده وجده تتمتع بالقوة والمجد في المدينة، قد سقطت الآن وتشتّت. فكّر بأسفٍ:

- هذا لأنّهم غادروا الأرض.

وفكّر في ولديه هو، اللذين كانا ينموان مثل سيقان الخيزران الصغيرة في الربيع، وقرّر أنّه في هذا اليوم بالتحديد سيجعلهما يتوقّفان عن اللعب في الشمس، وسيكلّفهما بمهام في الحقل، حيث سيتشرّبان في وقتٍ مبكرٍ في عظامهما ودمائهما ملمس التربة تحت أقدامهما، والشعور بصلاية المعول بين أيديهما.

لكن طوال هذا الوقت كانت تلك الجواهر حارّة وثقيلة وهي ملتصقة بجسده، وظلّ خائفًا باستمرارٍ. بدا وكأنّ بريقها قد يسطع من خلال ثيابه الرثة، حتّى يصيح أحدهم:

- ها هو رجلٌ فقيرٌ، يحمل ثروةً إمبراطوراً!

لن يتمكن من الشعور بالراحة حتّى يحولّها إلى أرضٍ. لذا راقب حتّى توقّف صاحب المتجر عن العمل للحظة، وناداه قائلاً له:

- تعال واشرب وعاءً من الشاي على نفقتي، واحك لي أخبار المدينة، حيث قضيتُ هذا الشتاء بعيداً.

كان صاحب المتجر دوماً على استعدادٍ لمثل هذا الحديث، خاصّةً إذا كان سيشرب الشاي على نفقة غيره، وجلس إلى طاولة وانج لونج بسرورٍ. كان رجلاً ضئيلاً بوجهٍ يشبه ابن عرسٍ، وعينه اليسرى مائلة ومُصابةً بالحول. كانت ملابسه قاسية وسوداء في مقدمة سترته وسرواله بفعل الدهون، حيث إنّه بجانب الشاي، كان يبيع أيضاً الطعام الذي يطهوه بنفسه، وكان يحب أن يقول: «هناك مثُلٌ: الطاهي الماهر لا تكون لديه أبداً سترة نظيفة». لذا اعتبر نفسه قدراً للسبب وجيهٍ وبدافعٍ من الضرورة. جلس وقال على الفور:

- حسناً، بعيداً عن كون الناس تضرّوا جوعاً، حيث لا تُعدُّ هذه أخباراً، كان أعظم خبرٍ هو سرقة منزل هوانج.

كان هذا بالتحديد هو ما يأمل وانج لونج في سماعه، واستمرّ الرجل في إخباره عن الأمر باستمتاعٍ، وهو يصف كيف صرخت الجوّاري القليلات المتبقيات، وكيف أُختطفن، وكيف تمّ اغتصاب من بقيت من المحظيّات، وطردهنّ، وخُطف بعضهن، حتّى لم يعد أحدٌ يهتمّ بالعيش في ذلك المنزل على الإطلاق. أنهى الرجل حديثه قائلاً:

- لا أحد سوى السيد العجوز، الذي صار بصورة كلية الآن تحت
إمرة جارية تُدعى كوكو، والتي ظلّت لسنواتٍ طويلة في غرفة السيد
العجوز بسبب براعتها، في حين أنّ أخرياتٍ كنّ يأتين ويرحeln.

سأل وانج لونج، وهو يُنصت باهتمام:

- هل هذه المرأة هي المتحكّمة إذن؟

أجاب الرجل:

- في الوقت الحالي، بوسعها فعل أيّ شيءٍ. لذا فهي تقبض بيدها
على كلّ شيءٍ يمكنها أن تقبض عليه الآن، وتبتلع كل ما يمكن ابتلاعه.
يومًا ما بالطبع، سيعود الأسياد الشباب عندما ينتهون من تسوية أمورهم
في المناطق الأخرى، وحينها لن تتمكّن من خداعهم بحديثها عن كونها
خادمة مخلصّة تستحق المكافأة، وستضطرّ إلى الرحيل. لكنّها الآن
لديها ما يكفيها، حتى لو عاشت لتبلغ مائة عام.

سأل وانج لونج أخيرًا، وهو يرتجف لهفة:

- والأرض؟

سأل الرجل دونما اهتمام:

- الأرض؟

لم تكن الأرض تعني أيّ شيءٍ بالنسبة لمالك المتجر هذا.

سأل وانج لونج بفراغ صبر:

- هل هي للبيع؟

أجاب الرجل بلا مبالاة:

- أوه، الأرض!

أتى زبونٌ، فنهض قائماً، وقال وهو يذهب:

- سمعتُ أنها معروضة للبيع، باستثناء القطعة التي دُفنت فيها
الأسرة طوال هذه الأجيال الستة.

ثم انصرف لحال سبيله.

حينها نهض وانج لونج أيضاً بعد أن سمع ما أتى لسماعه. خرج
واقترب مرةً أخرى من البوابات الكبيرة، وجاءت المرأة لتفتح له، فوقف
دون أن يدخل، وقال لها:

- أخبريني هذا أولاً، هل سيختم السيد العجوز صكوك البيع بختمه
الشخصي؟

أجابت المرأة بحماسةٍ، وعيناها مثبتتان على عينيه:

- سيفعل! سيفعل! أقسم بحياتي!

ثم قال لها وانج لونج بوضوح:

- هل ستبيعون الأرض مقابل الذهب، أم الفضة، أم المجوهرات؟
التمعتُ عيناها، وهي تتحدّث وقالت:

- سأبيعها مقابل المجوهرات!



صار وانج لونج الآن يمتلك أرضًا أكبر من أن يتمكن رجلٌ لديه ثورٌ واحدٌ من حراثتها وحصادها، ومحصولًا أكبر من أن يستطيع رجلٌ واحدٌ جمعه. لذا بنى غرفة صغيرة أخرى بمنزله، واشترى حمامًا، وقال لجاره تشينج:

- بعني قطعة الأرض الصغيرة التي لديك، واترك منزلك المليء بالوحدة، وتعال إلى منزلي، وساعدني في أرضي.
وفعل تشينج ذلك بسعادة.

أمطرت السماء في موسمها، ونما الأرز الغصّ، وعندما تمّ قطع القمح وحصاده في حزمٍ ثقيلةٍ، زرع رجلان الأرز الغصّ في الحقول التي غمرتها المياه. زرع وانج لونج في هذا العام أرزًا أكثر ممّا زرعه على الإطلاق من قبل، حيث أتت الأمطار بوفرة من المياه، بحيث صارت الأراضي التي كانت جافة من قبل صالحة للأرز في هذا العام. وعندما أتى موعد الحصاد، لم يتمكن هو وتشينج وحدهما من حصاده، نظرًا لكونه كبيرًا للغاية، واستأجر وانج لونج رجلين آخرين يعيشان في القرية كعاملين، فقاموا بحصاده.

كما تذكّر أيضًا الأسياد الشباب العاطلين من المنزل الكبير الذي سقط، أثناء عمله في الأرض التي اشتراها من منزل هوانج. وأمر ولديه بحدة كلّ صباح أن يأتيا معه إلى الحقول، وكلفهما بالمهام التي يمكن لأيديهما الصغيرة إنجازها، مثل قيادة الثور والحمار. وإذا لم يتمكّنا من إنجاز أيّ عملٍ شاقٍ، جعلهما يختبران -على الأقل- حرارة الشمس على جسديهما، ومشقة السير جيئة وذهابًا بطول الأخاديد.

لكنّه لم يسمح لأولان بالعمل في الحقول، حيث لم يعد رجلًا فقيرًا، بل رجلٌ بوسعه أن يستأجر من يقوم بعمله إذا رغب في ذلك، باعتبار أنّ الأرض لم يسبق وأن جادت بمثل هذه المحاصيل كما فعلت هذا العام. اضطرّ إلى بناء غرفةٍ أخرى في منزله لتخزين المحاصيل، وإلاّ لن يتمكّنوا من التحرك داخل المنزل. واشترى ثلاثة خنازيرٍ، وقطيعًا من الدواجن كي تتغذى على الحبوب المنسكبة من الحصاد.

انشغلت أولان بالعمل في المنزل، وصنعت ملابس جديدةً لكلّ فردٍ، وأحذيةً جديدةً، وصنعت أغطيّةً من القماش المُزَيّن بالزهور، محشوةً بقطنٍ جديدٍ دافئٍ لكلّ فراشٍ. وعندما انتهت من كلّ شيءٍ، بات لديهم وفرّةٌ من الملابس والأغطيّة كما لم يكونوا من قبل. ثم رقدت في فراشها وولدت ثانية، ولم تسمح لأحدٍ أن يكون معها. على الرغم من أنّها كانت تستطيع الاستعانة بخدمات أيّ شخصٍ تختاره، فإنّها أرادت أن تكون بمفردها.

عانت من مخاضٍ طويلٍ هذه المرّة، وعندما عاد وانج لونج إلى المنزل في المساء، وجد والده واقفًا عند الباب، وهو يضحك ويقول:

- بيضة ذات صفارٍ مزدوجٍ هذه المرأة!

وعندما ذهب وانج لونج إلى الغرفة الداخلية، كانت أولان على الفراش مع طفلين حديثي الولادة، ولد وفتاة متشابهين كحبتين من الأرز. ضحك بصخبٍ على ما فعلته، ثم فكّر في شيءٍ مرحٍ ليقوله.

- لهذا إذن حملتِ جوهرتين في صدرك!

وضحك مرةً أخرى على ما فكّر في قوله، وعندما رأت أولان كم كان مرحًا، ابتسمت ابتسامتها المتأنيّة الموحجة.

لم يكن لدى وانج لونج في هذا الوقت أيُّ نوعٍ من الأحزان، سوى حزنه لأنَّ أكبر بناته لم تكن تتكلَّم، ولا تفعل تلك الأشياء الملائمة لسنّها، بل كانت فقط تبتسم ابتسامتها الطفولية عندما تلتقي نظرتها بنظرة والدها. سواء كان السبب هو السنة الأولى البائسة من حياتها، أو الجوع، أو أيًّا ما كان، فقد مرَّ شهرٌ بعد شهرٍ ووانج لونج ينتظر أن تأتي الكلمات الأولى من بين شفّتيها، وحتى اسمه الذي يناديه به الأطفال، «دا-دا». لكن لم يصدر عنها أيُّ صوتٍ، بل فقط ابتسامتها العذبة الفارغة. وعندما نظر إليها، تأوّه قائلاً:

- البلهاء الصغيرة، مسكيتي البلهاء الصغيرة.

وحدّث نفسه قائلاً:

- لو كنتُ قد بعْتُ هذه الفأرة المسكينة، ووجدوها على هذه

الحال، لكانوا قتلوها!

وكأنّما ليعوّض الطفلة، أو لاها اهتمامًا كبيرًا، واصطحبها معه إلى الحقل في بعض الأحيان، حيث كانت تتبعه بصمتٍ، وتبتسم عندما يلحظها هناك.

في هذه المنطقة من البلاد حيث عاش وانج لونج طوال حياته، وحيث عاش والده ووالد والده على الأرض، كانت تحدث مجاعاتٍ مرّةً واحدة كلّ خمس سنواتٍ أو نحو ذلك، أو لو كانت الآلهة رفيقة بهم، مرّةً كلّ سبع أو ثماني أو حتّى عشر سنواتٍ. كان هذا بسبب هطول الأمطار بغزارةٍ شديدةٍ، أو عدم هطولها على الإطلاق، أو لأنّ النهر الواقع في الشمال، بسبب الأمطار وثلوج الشتاء في الجبال البعيدة، كان يفيض في الحقول فوق السدود التي بناها الرجال منذ قرون لاحتوائه.

مرّةً تلو أخرى، فرّ الناس من الأرض، ثم عادوا إليها. لكنّ وانج لونج شرع يبني لنفسه الآن ثروة تؤمّنه، بحيث لا يضطرّ إلى ترك أرضه مرّةً أخرى أبدًا خلال السنوات السيئة القادمة، بل سيحيا على ثمار السنوات الطيبة، ويستمر هكذا حتّى يأتي عامٌ آخر. ربّ وضعه، ومدّت له الآلهة يدّ العون، ولمدة سبع سنواتٍ، كان هناك حصادٌ، وفي كلّ عامٍ كان وانج لونج ورجاله يدرسون من الحبوب أكثر بكثيرٍ ممّا يمكن أكله. استأجر المزيد من العمّال لحقوله في كلّ عامٍ، حتّى صار لديه ستّة رجالٍ، وبنى منزلًا جديدًا خلف منزله القديم: غرفة كبيرة خلف ساحة، وغرفتين صغيرتين على كلّ جانبٍ من جانبي الساحة بجوار الغرفة الكبيرة. غطّى سقف المنزل بالقرميد، لكن الجدران كانت لا

تزال مبنية من الطين الصُّلب المدكوك من الحقول، لكنّه طلاها بالجير، وكانت بيضاء ونظيفة. انتقل هو وأسرته إلى هذه الغرف، وعاش العمّال وعلى رأسهم تشينج في المنزل القديم في الأمام.

كان وانج لونج حينها قد اختبر تشينج تمامًا، ووجد الرجل أمينًا ومخلصًا، فجعله وكيله المشرف على العمّال، وعلى الأرض، ودفع له جيّدًا، قطعتين فضيّتين كلّ شهرٍ، بخلاف طعامه. لكن مع كلّ محاولات وانج لونج لحث تشينج على أن يتناول الطعام ويأكل جيّدًا، إلّا أنّ وزن الرجل لم يزد رغم ذلك، وبقي على الدوام رجلًا ضئيلاً وهزيلًا ونحيفًا، بالغ الجديّة. مع ذلك، كان يكدُّ في العمل بسرورٍ، وهو يعرج في صمتٍ من الفجر وحتى حلول الظلام، ويتحدّث بصوته الضعيف إذا كان لديه ما يُقال، لكنّه كان يشعر بسعادة أكبر ويفضّل الأمر أكثر لو لم تكن هناك حاجة إلى الحديث، وكان بوسعه التزام الصمت. ساعة بعد ساعة، كان يرفع معوله ويهوي به، وعند الفجر والغروب كان يحمل دلاء الماء أو السماد للحقول ليضعها على صفوف الخضراوات.

ومع ذلك كان وانج لونج يعرف أنّه في حال ما إذا استغرق أحد العمّال في النوم لفترة طويلة كلّ يومٍ تحت نخيل التمر، أو تناول أكثر من حصّته من جبن حليب فول الصويا من الصحن المُشترك، أو لو طلب أيُّ منهم من زوجته أو أطفاله الحضور سرًّا في وقت الحصاد واختطاف حفّاتٍ من الحبوب التي يتم درسها في الخارج، فإنّ تشينج سوف يهمس لوانج لونج في نهاية العام، عندما يتناول السيد ورجاله الغداء معًا بعد الحصاد:

- لا تطلب من هذا، ولا من ذاك العودة مرّة أخرى في العام المقبل.
وبدا أنّ حفنة البازلّاء والبذور التي تبادلها هذان الرجلان جعلتهما شقيقين، لكن وانج لونج الذي كان الأصغر، اتّخذ مكانة الشقيق الأكبر، ولم ينس تشينج تمامًا على الإطلاق أنّه كان يعمل ويعيش في منزل مملوكٍ لشخصٍ لآخر.

عند نهاية العام الخامس، صار وانج لونج قليلًا ما يعمل في حقوله بنفسه، حيث ازدادت مساحة أرضه بدرجة اضطرّ معها إلى قضاء وقته كلّه في تجارة وتسويق محاصيله، وإدارة عمّاله. أعاقه بشدّة جهله بالسجّلات التجاريّة، وبمعرفة معنى الأحرف المكتوبة بالحبر على الورق بفرشاة من وبرّ الجمل. علاوة على ذلك، كان يشعر بالخزي في أثناء وجوده في أحد المتاجر حيث تُباع الحبوب وتُشترى، عند كتابة عقدٍ مقابل كذا أو كذا من القمح أو الأرز، حين كان يضطرُّ إلى أن يقول بخنوعٍ للتجار المتغطّرين في المدينة:

- هلا قرأته لي يا سيدي، فأنا جاهلٌ للغاية.

كما كان يشعر بالعار عند اضطراره إلى كتابة اسمه على أحد العقود، حين يقوم آخر، حتى لو كان مجرد كاتبٍ تافهٍ، برفع حاجبه في ازدراءٍ، قبل أن يغمس فرشاته في الحبر، ويكتب أحرف اسم وانج لونج على عَجَلٍ. وكان أكبر عارٍ هو عندما يصيح الرجل متندّرًا:

- هل هو حرف لونج التيني، أم حرف لونج الأصمّ، أم ماذا؟

وكان وانج لونج يضطرُّ إلى أن يجيب بتواضعٍ، قائلاً:

- فلتكتبه كما تشاء، فأنا أكثر جهلاً من أن أعرف اسمي.

في يومٍ من تلك الأيام في وقت الحصاد، بعد أن سَمِعَ صيحات الضحك التي تعالت من الكتبة في متجر الحبوب، وهم عاطلون عن العمل في ساعة الظهيرة والكلُّ يستمع لأيِّ شيءٍ يدور، وجميعهم فتية، بالكاد أكبر من أبنائه، عاد إلى منزله عن طريق أرضه وهو يخاطب نفسه، قائلاً:

- لا أحد من أولئك الحمقى من أهل المدينة يمتلك قدمًا من الأرض، ومع ذلك يشعر كلُّ منهم أنه يمكنه أن يضحك عليَّ مقهقها كالإوزة لأنني لا أفهم معنى ضربات الفرشاة على الورق.

بعدها، عندما تلاشى سخطه، قال لنفسه:

- صحيحٌ أنه من العار ألا أستطيع القراءة والكتابة. سوف أُخرج ابني الأكبر من الحقول، وسوف يذهب إلى المدرسة في المدينة ويتعلَّم. وعندما أذهب إلى أسواق الحبوب، سيقراً ويكتب لي، حتّى أضع حدًا لهذا الضحك الصاخب ضدي، رغم أنني رجلٌ صاحبٌ أرضٍ.

بدأت له فكرة جيّدة، وفي ذلك اليوم نفسه نادى ابنه الأكبر، الذي صار فتى طويلَ القامة يبلغ الثانية عشرة من العمر الآن، ويشبه والدته بعظام وجهه العريض ويديه وقدميه الكبيرتين، لكنّه يتمتّع بعيون والده الحادة. وعندما وقف الصبيُّ أمامه قال وانج لونج:

- لا تذهب إلى الحقول من هذا اليوم فصاعدًا، فأنا بحاجة إلى متعلّم في الأسرة، كي يقرأ العقود ويكتب اسمي، حتّى لا أشعر بالعار في المدينة.

فتضرَّج وجه الصبيِّ بالحُمرَّة الداكنة والتمعت عيناه. قال:

- يا أبي، لقد تمنيتُ طوال العامين الماضيين أن أفعل هذا، لكنني لم أجروُ على طلب ذلك.

ثم جاء الصبيُّ الأصغر يبكي ويتذمَّر عندما سمع بالأمر، وكان ذلك شيئاً اعتاد على فعله، حيث كان ثثاراً وصاحباً منذ اللحظة التي تعلَّم فيها الحديث، ودوماً على استعدادٍ للصياح بأنّ نصيبه أقلُّ من نصيب الآخرين. وتذمَّر الآن قائلاً لوالده:

- حسناً، لن أعمل في الحقول أنا الآخر، فليس من العدل أن يجلس شقيقي مرتاحاً على مقعدٍ ليتعلَّم شيئاً ما، بينما أعمل أنا مثل الحمار، في حين أنّي ابنك مثله تماماً!

لم يكن وانج لونج يستطيع تحمُّل ضجيجه، وكان يعطيه أيَّ شيءٍ لو صاح بصوتٍ مرتفعٍ بما يكفي مطالباً به. لذا قال على عَجَلٍ:

- حسناً، فليذهب كلاكما. ولو أخذت السماء أحدكما بدافعٍ من شرّها، فسيكون هناك الآخر ولديه المعرفة اللازمة لتولّي العمل من أجلي.

ثم أرسل والدته أبنائه إلى المدينة لتشتري القماش لصُنع رداءٍ طويلٍ لكلِّ صبيٍّ. وذهب بنفسه إلى متجرٍ للورق والحبر، واشترى أوراقاً وفُرشاً، وعلبتين من الحبر، على الرغم من أنّه كان جاهلاً بمثل هذه الأشياء، وحيث إنّه كان يخجل من التصريح بذلك، فقد تشكَّك في كلّ شيءٍ أحضره الرجل ليريه إياه. لكن أخيراً، تمّ إعداد كلّ شيءٍ، واتُّخذت

الترتيبات اللازمة لإرسال الصبيين إلى مدرسة صغيرة بالقرب من بوابة المدينة، يشرف عليها رجلٌ عجوزٌ، كان قد تقدّم خلال السنوات الماضية للاختبارات الحكومية ورسب. لذا وضع في الغرفة الوسطى بمنزله مقاعد وطاولات، ومقابل مبلغٍ صغيرٍ يحصل عليه كلّ يومٍ من أيام الأعياد خلال السنة، كان يعلم الأولاد الكلاسيكيات، ويضربهم بمروحته الكبيرة المطوّية لو تكاسلوا أو لم يتمكّنوا من أن يعيدوا له ما في الصفحات التي انكفأوا عليها من الفجر حتّى غروب الشمس.

كان التلاميذ ينعمون بالراحة فقط خلال الأيام الدافئة في الربيع والصيف، حيث كان العجوز ينعس وينام بعد أن يتناول الطعام في الظهيرة، فتمتلئ الغرفة الصغيرة المُعتمة بصوت غطيّطه. كان الفتية يتهايمسون حينها، ويلعبون ويرسمون الصور البذيئة ليعرضوها على بعضهم، ويضحكون لرؤية ذبابة تطير حول فكّ العجوز المفتوح المتدلّي، ويتراهنون حول ما إذا كانت الذبابة ستدخل فمه المفتوح أم لا. لكن عندما كان المُعلّم العجوز يفتح عينيه فجأة - ولم تكن هناك طريقة لمعرفة متى سيفتحمها بسرعة وسريّة، كما لو أنّه لم ينم - كان يراهم قبل أن يدركوا الأمر، ثم يضربهم بمروحته وهو يسحق هذه الجمجمة وتلك. وعند سماع طرقعات مروحته القويّة وصيحات التلاميذ، كان الجيران يقولون:

- إنّهُ معلّمٌ عجوزٌ فاضلٌ، على كلّ حالٍ.

ولذا اختار وانج لونج هذه المدرسة كي يذهب أبناؤه إليها للتعلّم.

في اليوم الأول عندما اصطحبهما هناك، سار أمامهما، فليس من اللائق أن يمشي الأب والابن جنبًا إلى جنبٍ. وحمل منديلًا أزرق مليئًا بالبيض الطازج، وأعطى هذا البيض للمعلّم العجوز عندما وصل. انبهر وانج لونج بالنظارات النحاسية للمعلم العجوز، وبردائه الأسود الطويل الفضفاض، ومروحته الضخمة التي كان يحملها حتّى في الشتاء. وانحنى وانج لونج أمامه، وقال:

- سيدي، هما ولداي عديما الجدوى. لا يمكن إدخال أيّ شيءٍ في أدمغتهما النحاسية الغليظة إلّا عن طريق ضربهما. لذا إذا كنت تريد إرضائي، اضربهما حتّى تحملهما على التعلّم.

ووقف الصبيان يحدّقان إلى الأولاد الآخرين الجالسين على المقاعد، وحدّق الباقون بهما.

لكن بينما هو عائذٌ إلى المنزل مرّةً أخرى بمفرده، بعد أن ترك الولدين، كان قلب وانج لونج يتفجّر فخرًا، وبدا له أنّه من بين جميع الأولاد في الغرفة، لم يكن هناك من يعادل ولديه طولًا أو قوة، أو يضاهاهما وجهيهما البنيّين المشرقين. عندما التقى بجارٍ قادمٍ من القرية بينما هو يمرُّ عبر بوابة المدينة، أجاب استفسار الرجل قائلاً:

- أنا عائذٌ اليوم من مدرسة أبنائي.

ولدهشة الرجل، أجاب بلا مبالاةٍ ظاهرة:

- لم أعد بحاجة إليهما في الحقول الآن، لذا فمن المحبذ أن يتعلّما بعض الحروف.

لكنه قال لنفسه في أثناء سيره:

- لن أندesh على الإطلاق لو صار الأكبر واليًا بعد أن ينال كل هذا التعليم!

ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، لم يعد يُطلق على الصبيين مسمّى الأكبر والأصغر، لكن المعلم العجوز منحهما أسماء مدرسيّة. بعد أن تحقّق العجوز من مهنة والدهما، اختار اسمين للولدين: الأكبر نونج أن، والأصغر نونج وين، وكانت الكلمة الأولى من كل اسم تدلّ على الشخص الذي اكتسب ثروته من الأرض.



وهكذا بنى وانج لونج ثروة أسرته. وبحلول العام السابع، فاض النهر العظيم في الشمال بالمياه بسبب الأمطار الغزيرة والثلوج في الشمال الغربي حيث كان منبعه، واندفع متجاوزاً حدوده، وأتى جارفاً ليغمر كلّ الأراضي في تلك المنطقة. لكن وانج لونج لم يكن خائفاً. لم يشعر بالخوف على الرغم من أنّ خمسي أرضه صار مثل بحيرة بعمق كتفي رجلٍ وأكثر.

ارتفع منسوب المياه طوال أواخر الربيع وأوائل الصيف، حتّى امتدّت أخيراً مثل بحرٍ عظيمٍ، رائعٍ وساكنٍ، يعكس السحب والقمر وأشجار الصفصاف والخيزران التي انتصبّت وجذوعها مغمورة بالمياه. تناثرت هنا وهناك المنازل الطينية التي هجرها سكانها، حتّى شرعت تتهاوى وتعود تدريجياً إلى الماء والأرض بعد بضعة أيام. وكان هذا حال جميع المنازل التي لم تُبنى على تلالٍ مثل منزل وانج لونج، وارتفعت هذه التلال كالجزر. وانتقل الرجال من وإلى المدينة عن طريق القوارب والأطواف وتضوّر البعض جوعاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

لكنّ وانج لونج لم يكن خائفًا. كانت أسواق الحبوب مَدِينَة له بالمال، كما كانت مخازنه لا تزال ممتلئة بحصاد العامين الماضيين، ومنازله مرتفعة بحيث كانت المياه بعيدةً للغاية، ولم يكن لديه شيءٌ ليخشاه.

لكن نظرًا لأنّه لم يكن من الممكن زراعة جزءٍ كبيرٍ من الأرض، فقد صار خاملاً أكثر ممّا كان في أيّ وقتٍ في حياته من قبل. دفعه الخمول وامتلاء معدته بالطعام الجيّد لأن يشعر بنفاد الصبر، بعد أن نام بقدر استطاعته، وفعل كلّ ما يمكنه القيام به. إلى جانب ذلك، فهناك العمّال الذين كان يستأجرهم لمدة عامٍ في كلّ مرّة، وكانت حماقة منه أن يعمل في وجود من يتناولون أرزه بينما هم نصف عاطلين، ينتظرون يومًا بعد آخر حتّى تنحسر المياه. لذا بعد أن أمرهم بإصلاح قشّ سقف المنزل القديم، وتولّى أمر تثبيت القرميد حيث كانت المياه تتسرّب من خلال السقف الجديد، وأمرهم بإصلاح المعاول والمجارف والمحاريث، وإطعام الماشية، وشراء البط لرعايته في الماء، وجَدْل الجبال من خيوط القنب - كل تلك الأشياء التي كان يقوم بها بنفسه في الأيام الخوالي عندما كان يُفْلِح أرضه بمفرده - كانت يدها خاويتين، ولم يدر ما الذي يفعله بنفسه.

لا يمكن لرجلٍ أن يجلس طوال اليوم محدّقًا ببحيرة المياه التي تغمر حقوله، ولا يمكنه أن يأكل أكثر ممّا تستطيع معدته أن تحمله في المرّة الواحدة، وكان هناك حدٌّ للنوم الذي يمكن لوانج لونج أن ينامه. كان المنزل صامتًا، وهو يتجوّل فيه بفراغٍ صبرٍ. أكثر صمتًا ممّا يتحمّله

طبعه المُفَعَم بالحيوية. كان العجوز قد صار بالغ الضعف الآن، نصف أعمى، ويكاد يكون أصمَّ تمامًا. لم يكن هناك داعٍ للحديث معه، سوى لسؤاله عمّا إذا كان يشعر بالدفع والشبع، أو إذا كان يرغب في شرب الشاي. وشعر وانج لونج بالضيق لأنَّ العجوز لم يكن يستطيع رؤية مدى ثراء ابنه، وكان يغمغم دومًا إذا وُجدت أوراق الشاي في وعائه:

- القليل من الماء يكفي، فالشاي مثل الفضة.

لكن لم تكن هناك جدوى من إخبار العجوز بأيِّ شيءٍ، حيث كان ينسى على الفور، ويعيش في عالمه الخاص، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يحلم أنَّه عاد شابًا مرَّةً أخرى، ولم يكن يرى سوى القليل ممَّا يدور أمامه الآن.

لم يكن لدى الرجل العجوز والفتاة الكبرى، التي لم تكن تتحدَّث على الإطلاق، بل تجلس بجوار جدِّها ساعة بعد ساعة، وهي تفتل قطعة من القماش وتطويها وتعيد طيَّها وهي تبسّم لها، لم يكن لدى هذين الاثنين ما يقولانه لرجلٍ ثريٍّ مفعمٍ بالحيوية. بعد أن يصبَّ وانج لونج وعاءً من الشاي للعجوز، ويمرُّ يده على وجنة الفتاة ليتلقَّى ابتسامتها العذبة الفارغة، التي كانت تختفي بسرعة محزنة من وجهها، مخلفة وراءها العينين الباهتتين المعتمتين، لم يكن هناك شيءٌ آخر. دومًا ما كان يبتعد عنها وقد حلَّ عليه السكون للحظة، وكانت تلك هي علامة الحزن الذي خلفته ابنته عليه، وكان ينظر نحو طفليه الأصغر سنًّا، الصبي والفتاة اللذين حملتهما أولان معًا، واللذين كانا يركضان بمرح الآن عند عتبة المنزل.

لكن لا يمكن لرجلٍ أن يكتفي بحماقة الأطفال الصغار، وبعد فترة وجيزةٍ من الضحك والمداعبة، كانا ينصرفان لألعابهما الخاصة، ويبقى وانج لونج بمفرده والضجر يملؤه. حينها كان ينظر إلى أولان، زوجته، كما ينظر الرجل إلى امرأةٍ يعرف جسدها جيّدًا حدّ الشبع، وعاشت بجانبه من كتبٍ حتّى لم يعد هناك شيءٌ لا يعرفه عنها، ولا يوجد جديدٌ قد يتوقّعه أو يأمل فيه منها.

وبدا لوانج لونج أنّه ينظر إلى أولان لأوّل مرّة في حياته، ولاحظ للمرّة الأولى أنّها امرأةٌ لا يمكن لرجلٍ أن يصفها بشيءٍ خلاف ما كانت عليه بالفعل: مخلوقٌ عاديٌّ ومملٌّ، تسير متناقلة في صمتٍ، دون أن تهتمّ كيف تظهر أمام الآخرين. رأى لأوّل مرّة أنّ شعرها كان مُهوّشًا وبُنيًا وغير مدهونٍ بالزيت، وأنّ وجهها كبيرٌ ومسطّحٌ وخشِن البشرة، وملامحها كبيرة جدًّا في المجمال، دون أيّ نوعٍ من الجمال أو الإشراق. كان حاجباها مشعّنين وخفيّين للغاية، وكانت شفتاها عريضتين جدًّا، ويدها وقدماهما كبيرة وعريضة. نظر إليها هكذا بعيونٍ غريبة، وصاح فيها قائلاً:

- أيُّ شخصٍ ينظر إليك الآن سيقول إنّكِ زوجة رجلٍ بسيطٍ، ولستِ زوجة أبداً لرجلٍ لديه أرضٌ، ويستأجر رجالاً لحراثتها!

كانت تلك هي المرّة الأولى على الإطلاق التي يتحدّث فيها عن كيف تبدو له، وأجابته بنظرة بطيئة مؤلمة. جلست على مقعدٍ وهي تُدخل إبرة طويلة وتُخرجها من نعلٍ حذاءٍ، وتوقّفت وأمسكت الإبرة في وضع الاستعداد، فagre فمها حتّى ظهرت أسنانها السوداء. ثمّ وكأنّما

فهت أخيراً أنّه نظر إليها كما ينظر الرجل إلى المرأة، تسلّت حُمرّة
داكنة إلى وجتيها المرتفعتين، وتمتمت قائلة:

- منذ ولادة هذين الأخيرين معاً، لم أعد على ما يرام. هناك حريقٌ
في أحشائي.

وفهم أنّها ظنّت بسبب بساطتها أنّه يتّهمها لأنّها لم تحبل منذ أكثر
من سبع سنوات. وأجاب بخشونة أكثر ممّا كان ينتوي:

- أعني، ألا يمكنك أن تشتري بعض الزيت لشعرك كما تفعل
النساء الأخريات، وتصنعي لنفسك سترة جديدة من القماش الأسود؟
وذلك الحذاء الذي ترتدينه، غير ملائمٍ لزوجّة مالك أرضٍ، كما صرّت
أنت الآن.

لكنّها لم تُجب بشيءٍ، بل نظرت له فقط بخنوعٍ دون أن تدري
ما الذي اقترفته، وأخفت قدميها واحدة فوق الأخرى، أسفل المقعد
الذي جلست عليه. ثم على الرغم من أنّه أحسّ في قلبه بالخجل من
توبيخه لهذه المخلوقة التي تبعته طوال هذه السنوات بإخلاصٍ مثل
الكلب، ورغم أنّه تذكّر أنّه عندما كان فقيراً ويعمل بنفسه في الحقول،
تركت فراشها حتّى بعد أن وضعت طفلها، وجاءت لتساعده في حصاد
الحقول، رغم ذلك لم يتمكّن من وقف الضيق المتصاعد في صدره،
واستمرّ بلا رحمةٍ رغماً عنه:

- لقد عملتُ بجِدٍّ، وصرّتُ ثريّاً، ولا أريد زوجتي أن تبدو كفلاّحة
إلى هذا الحدّ. وقدماك هاتان...

توقّف عن الحديث. بدت له بشعة تمامًا، لكن أبشع شيءٍ على الإطلاق كان قدميها الكبيرتين في الحذاء القطني الفضفاض، ونظر نحوهما بغضبٍ حتّى دفعتهما لمسافة أبعد أسفل المقعد. قالت أخيرًا بصوتٍ هامسٍ:

- لم تقيّدكما والدتي، حيث تمّ بيعي في سنٍ مبكرةٍ للغاية. لكنني سأقيّد قدمي الفتاة... سأقيّد قدمي الفتاة الصغرى.

لكنّه رحل سريعًا لأنّه شعر بالخجل من غضبه تجاهها، وبالحنق لأنّها لم تبادله الغضب هي الأخرى، بل أحسّت بالخوف فقط. لبس رداءه الأسود الجديد، وقال بغيطٍ:

- حسنًا، سأذهب إلى صالة الشاي، وأرى ما إذا كان هناك شيءٌ جديدٌ يمكنني سماعه. لا يوجد شيءٌ في منزلي سوى حمقى وشخصٍ خرفٍ وطفلين.

ازداد استياؤه بينما هو يسير في طريقه إلى المدينة لأنّه تذكّر فجأةً أنّه لم يكن ليتمكّن من شراء أراضيّه الجديدة هذه كلها في حياته بأكملها لو لم تكن أولان قد أخذت حفنة الجواهر من منزل الرجل الثري، ولو لم تكن قد أعطته إياها عندما أمرها بذلك. لكنّه ازداد غضبًا عندما تذكّر ذلك، وقال وكأنّما يجيب قلبه متمردًا:

- حسنًا، لكنّها لم تكن تعرف ما الذي تفعله. حيث استولت عليها للمتعة، كما قد يستولي الطفل على حفنة من الحلوى الحمراء والخضراء، وكانت ستخفيها في صدرها إلى الأبد لو لم أكتشف أنا الأمر.

ثم تساءل عمّا إذا كانت لا تزال تخفي اللؤلؤتين بين ثدييهما. لكن في حين كان الأمر من قبل غريباً بالنسبة له، ويُعد شيئاً يتأمله أحياناً ويتخيله في عقله، فقد صار يفكر فيه الآن بازديادٍ، حيث بات ثدياها مترهلين ومتدليين مع كثرة الأطفال، ولم يعد بهما جمالاً، وكانت اللالئ بينهما محض حماقة وإهدار.

كان من الممكن ألا يمثل كل ذلك أي شيء، لو كان وانج لونج لا يزال رجلاً فقيراً، أو لو لم تغمر المياه حقوله. لكن كان لديه مالٌ. كانت هناك فُضّة مخبأة في جدران منزله، وكان جوالاً من الفُضّة مدفوناً أسفل بلاطة في الأرض في منزله الجديد، كما كانت هناك فُضّة ملفوفة بقطعة من القماش داخل الصندوق في غرفته التي ينام فيها مع زوجته، وفُضّة تَمّت خياطتها في الحَصيرة الموجودة أسفل فراشهما، وامتلاء حزامه بالفُضّة، ولم يكن يعاني من أي عجزٍ في الأموال. فلم تعد الآن تتسرّب منه وكأنّها دماء الحياة النازفة من جرح، بل رقدت في حزامه حارقة أصابعه كلّما تحسّسها، وتتوق لأن يتمّ إنفاقها على هذا الشيء أو ذاك. وبدأ يستهتر بالأمر، ويفكر فيما يمكنه أن يفعله للاستمتاع برجولته.

لم تعد الأمور تبدو جيّدة بالنسبة له كما كانت في السابق. صارت صالة الشاي التي اعتاد دخولها من قبل بخجلٍ وهو يشعر أنّه مجرد ريفيٍّ بسيطٍ، تبدو له قدرة وحقيرة الآن. في الأيام الخوالي، لم يكن أحدٌ يعرفه هناك، وكان صبية صالة الشاي يعاملونه بوقاحة. لكنّ الناس باتوا يركز بعضهم بعضاً الآن عند دخوله، وكان بوسعه سماع رجلٍ يهمس لآخر:

- ها هو ذلك الرجل وانج لونج من القرية، الذي اشترى الأرض من منزل هوانج في ذلك الشتاء الذي مات فيه السيد العجوز، عندما وقعت المجاعة الكبرى. لقد صار ثرياً الآن.

وعندما سمع وانج لونج هذا جلس بلا مبالاة ظاهرة، لكن قلبه امتلأ فخراً بما وصل إليه. لكن في هذا اليوم الذي عاتب فيه زوجته، لم يفلح حتى الاحترام الذي حظي به في إرضائه، وجلس يشرب شايه في كآبة، شاعراً أنّ لا شيء في حياته على ما يرام كما كان يعتقد. ثم فكّر فجأة قائلاً لنفسه:

- لم عليّ الآن أن أتناول الشاي في هذا المحل المملوك لمراوغ أحول العينين، والذي يكسب أقل ممّا يجنيه العمّال في أرضي، بينما أنا أمتلك الأرض وابنائي متعلّمان؟

ثم قام مسرعاً وألقى ماله على الطاولة، وخرج قبل أن يتمكن أي شخص من الحديث إليه. تجوّل في شوارع المدينة دون أن يعرف إلى أين يريد الذهاب. مرّ بجوار كشك حكاوتي، وجلس لفترة قصيرة على طرف مقعدٍ مزدحم، واستمع لحكاية الرجل عن الأيام الخوالي في الممالك الثلاث، عندما كان المحاربون شجعاناً وماكرين. لكنّه كان لا يزال يشعر بضيق الصدر، ولم يستطع الوقوع تحت سحر الرجل مثلما فعل الآخرون، وأضجره صوت الناقوس النحاسي الصغير الذي ظلّ الرجل يدقّه، فوقف مرّة أخرى ومضى.

كانت هناك صالة شاي كبيرة في المدينة افتتحها حديثاً رجلٌ من الجنوب، يفهم مثل هذا النوع من العمل، وكان وانج لونج قد مرّ

أمام ذلك المكان من قبل، وامتلاً رعباً من التفكير في كمّ المال الذي يُنفَق هناك على القمار واللعب والنساء الفاسدات. لكنّه توجّه إلى هذا المكان الآن، مدفوعاً بضيقه الناتج عن الخمول، ورغبته في الهرب من تأنيب ضميره عندما تذكّر أنّه كان غير عادلٍ مع زوجته. دفعه الضجر إلى أن يرى أو يسمع شيئاً جديداً. وهكذا عبّر عتبة صالة الشاي الجديدة، إلى غرفة واسعة متألّثة مليئة بالطاولات، ومفتوحة على باقي الشارع. ودخل والجرأة بادية في سلوكه، وهو يحاول أن يكون أكثر جرأة، لأنّ قلبه كان متردّداً، وتذكّر أنّه خلال السنوات القليلة الماضية فقط لم يكن أكثر من مجرد رجلٍ فقيرٍ، لم يكن يملك في أيّ وقتٍ من الأوقات أكثر من قطعة أو قطعتين من الفضة، وأنّه كان رجلاً عمِلَ حتّى في جرّ عربة ريكشا في شوارع مدينة في الجنوب.

في البداية لم يتحدّث على الإطلاق في صالة الشاي الكبيرة تلك، بل اشترى شايه في هدوءٍ وشربه وهو ينظر حوله بتعجّبٍ. كان هذا المحل عبارة عن قاعة كبيرة لها سقفٌ مُدَهَّبٌ، وعلى الجدران لفائفٌ معلّقة من الحرير الأبيض، مرسومٌ عليها نساء. نظر وانج لونج إلى هؤلاء النساء سرّاً من كُتُبٍ، وبدا له وكأنّهنّ نساءً من الأحلام، فلم يسبق وأن رأى على الأرض مثيلاً لهنّ. نظر إليهنّ في اليوم الأوّل، وشرب شايه بسرعة ثم انصرف.

لكن يوماً بعد يومٍ، بينما ظلّت المياه تغمر أرضه، كان يذهب إلى صالة الشاي هذه ويشترى الشاي ويجلس وحده وهو يشربه ويحدّق بصور النساء الجميلات. وكان يجلس لفترة أطول كلّ يومٍ، حيث

لم يكن هناك شيءٌ يفعلُه في أرضه أو في منزله. كان من الممكن أن يستمرَّ هكذا لأيامٍ لا حصر لها، فعلى الرغم من فضته المخبأة في عدة أماكن، إلا أنه كان لا يزال رجلاً ريفيَّ المظهر، والوحيد في صالة الشاي الثرية تلك الذي يلبس القطن بدلاً من الحرير، ولديه جديلةٌ من الشعر تتدلى أسفل ظهره على نحوٍ مخالفٍ لأسلوب أيِّ رجلٍ في المدينة. لكن في مساء أحد الأيام، بينما هو جالسٌ يشرب ويحدِّق بما حوله من طاولة بالقرب من مؤخرة القاعة، نزل شخصٌ ما من سلَّم ضيقٍ ملتصقٍ بالجدار البعيد، ويؤدي إلى الطابق العلوي.

كانت صالة الشاي هذه هي المبنى الوحيد في المدينة بأكملها الذي به طابقٌ علويٌّ، باستثناء المعبد الغربي الذي كان يقف بارتفاع خمسة طوابق خارج البوابة الغربية. لكنَّ المعبد كان ضيقاً، ويزداد ضيقاً باتجاه القمة، في حين أنَّ الطابق الثاني من صالة الشاي كان مربعاً مثل ذلك الجزء من المبنى الواقف على الأرض. وفي الليل، كان غناء النساء المرتفع، والضحك المرح يطفو خارجاً من النوافذ العلوية، إلى جانب صوت العود العذب الذي تعزفه أيدي الفتيات برقة. كان بوسع المرء سماع الموسيقى وهي تنساب في الشوارع، خاصةً بعد منتصف الليل، على الرغم من أنَّ جلبةً وضجيجاً الكثير من الرجال الذين يتناولون الشاي، والنقرات الحادة للنرد المصنوع من العظم، وقطع الماجونج كتمتْ صوتَ كلِّ شيءٍ آخر في المكان الذي كان يجلس فيه وانج لونج. هكذا لم يسمع وانج لونج خلفه في هذه الليلة وقع خطوات امرأةٍ وهي تصدر صريراً على السلَّم الضيق، لذا جفل بعنفٍ عندما

لمس أحدهم كتفه، وهو لا يتوقع أن يعرفه أيُّ شخصٍ هناك. عندما نظر للأعلى، رأى وجه امرأةٍ نحيفًا وجميلًا، وجه كوكو، المرأة التي سكب في يديها الجواهر يوم أن اشترى الأرض، والتي ثبتت يدها يد السيد العجوز المرتجفة، وساعدته على وضع ختمه على صكِّ البيع. ضحكَتْ عندما رآته، وكان ضحكها نوعًا من الهمس الحاذِّ. قالت:

- حسنًا، إنَّه وانج لونج المزارع!

وأطالت نطق كلمة «مزارع» بخبث.

- من كان يتخيَّل رؤيتك هنا!

بدا لوانج لونج حينها أنَّ عليه أن يُثبت لهذه المرأة بأيِّ ثمنٍ أنه أكثر من مجرد رجلٍ قرويٍّ، وضحك قائلاً بصوتٍ مرتفع:

- ألا تصلح أموالِي للإنفاق مثل أيِّ رجلٍ آخر؟ ولا ينقصني المال هذه الأيام. لقد صادفني حُسن الطالع.

حينها توقَّفت كوكو، وعيناها ضيقتان ولامعتان مثل الأفعى، وصوتها ناعمٌ كالزيت المتدفِّق من إناءٍ.

- ومن لم يسمع بذلك؟ وكيف يمكن للرجل أن ينفق المال الذي لديه والفائض عن معيشته، بطريقة أفضل من إنفاقه في مكانٍ مثل هذا، حيث يحصل الرجال الأثرياء على بهجتهم، ويتجمَّع السادة الأنيقون ليسعدوا بالولائم والمُتْع؟ لا يوجد نبئٌ مثل نبئنا. هل تذوقته، يا وانج لونج؟

أجاب وانج لونج، وهو يشعر بالخجل نوعًا ما:

- لقد شربتُ الشاي فقط حتّى الآن، لم أمس النبيذ أو النرد.

صاحت بعد قوله هذا، ضاحكة بصوتٍ مرتفعٍ:

- شاي! لكن يوجد لدينا نبيذٌ عظامِ النمر، ونبيذ الفجر، ونبيذ الأرز المعطر، فلمَ تحتاج إلى تناول الشاي؟

وقالت بهدوءٍ ومكرٍ، بينما حنى وانج لونج رأسه:

- وأعتقد أنّك لم تنظر إلى أيّ شيءٍ آخر، أليس كذلك؟ لا أيدي صغيرة جميلة، ولا وجنات عذبة الرائحة؟

حنى وانج لونج رأسه بدرجةٍ أشدّ، واندفعتِ الدماء الحمراء إلى وجهه، وشعر وكأنّ كلّ من حوله ينظرون له باستهزاءٍ، ويستمعون إلى صوت المرأة. لكن عندما تجرّأ ليلقي نظرة حوله وعيناه لا تزالان موجهتين للأسفل، رأى أنّه لم يكن أيُّ شخصٍ متنبّهاً إليه، وانفجرت طقطقة النرد من جديدٍ، وهكذا قال بارتباكٍ:

- لا، لا، لم أفعل. شاي فقط.

ثم ضحكت المرأة ثانية، وأشارت إلى اللوائف الحريرية المرسومة، وقالت:

- ها هي صورهنّ. اختر من ترغب في رؤيتها منهنّ، وضع الفضّة في يدي، وسوف أضعها أمامك.

قال وانج لونج متعجبًا:

- هؤلاء! لقد ظننتها صورًا لنساءٍ من الأحلام، لربّات في جبل كوين لوين، مثل اللاتي يتحدّث عنهنّ رواة الحكايات!

أجابته كوكو ساخرة منه بدعابة:

- إنهنّ نساءً من الأحلام بالفعل، لكنّها أحلامٌ يمكن للقليل من الفضّة أن تحوّلها إلى حقيقة.

ومضتْ في طريقها، وهي تومئ وتغمز للخدم الواقفين حولها، وتشير إلى وانج لونج وكأنّها تقول:

- ها هو قرويُّ أحمق!

لكنّ وانج لونج جلس محدّقًا بالصّور باهتمامٍ جديدٍ. أعلى هذا السُّلم الضيقِ إذنْ، في الغُرفِ الكائنّة فوقه، كانت هؤلاء النسوة بلحمهنّ ودمهنّ، والرجال يصعدون إليهنّ. رجالٌ غيره بالطبع، لكنّهم رجالٌ! حسنًا، لو لم يكن هو الرجل الذي هو عليه الآن، رجلًا عاملاً صالحًا، ورجلًا لديه زوجة وأبناء، ولو كان سيّتظاهر بذلك كطفل يتظاهر بفعل شيءٍ ما، أي صورة إذنْ سيّتظاهر باختيارها؟ تأمل كلّ وجهٍ مرسومٍ من كُتبٍ وبدقّة، وكأنّ كلا منهن حقيقيّ. قبل هذا، كنّ جميعًا كأنهنّ على نفس القدر من الجمال، لكن كان ذلك عندما لم يكن هناك مجالٌ للاختيار. لكن بدا من الواضح الآن أنّ بعضهنّ أجمل من غيرهن، ومن بين عشرين أو أكثر، اختار أجمل ثلاثة، ومن بين الثلاثة اختار مرّةً أخرى. اختار امرأةً فائقة الجمال، ضئيلة ونحيلة، جسدها خفيفٌ كالخيزران، ووجهها صغيرٌ مدبّبٌ مثل قطعة صغيرة، وتمسك في إحدى يديها بساق زهرة لوتس، ويدها رقيقة مثل محلاق نبات سرخس مفروّد. حدّق بها، وبينما هو يحدّق، انسكبت في عروقه حرارة مثل النبيذ. قال فجأةً بصوتٍ مرتفعٍ:

- إنها مثل زهرةٍ على شجرة سفرجل.

ثم أحسّ بالاضطراب والخبجل عندما سمع صوته، وقام على عَجَلٍ
بعد أن وضع ماله، وخرج إلى الظلام الذي حلَّ، وتوجَّه إلى منزله.
لكنَّ ضوء القمر تعلَّق فوق الحقول والمياه، كشبكة من الضباب
الفضِّي، وتدفَّقتِ الدماء سرًّا في جسده، حارّة وسريعة.



لو كانت المياه قد انحسرت عن أرض وانج لونج في هذا الوقت،
مُخَلِّفَةً إياها مُبَلَّلَةً، ويتصاعد منها البخار تحت أشعة الشمس، بحيث
تحتاج في غضون بضعة أيام من حرارة الصيف إلى الحرارة وتفتت
التربة وبذر البذور، ربما لم يكن وانج لونج ليذهب مرةً أخرى أبداً إلى
صالة الشاي الكبيرة. أو لو كان أحد الأطفال قد سقط فريسة للمرض،
أو وصل العجوز فجأة لنهاية أيامه، لربّما انشغل وانج لونج حينها في
ذلك الأمر الجديد، ونسي الوجه المدبّب المرسوم على اللقافة، وجسد
المرأة النحيل مثل الخيزران.

لكنّ المياه ظلّت هادئةً ولم تتحرّك، باستثناء نسيم الصيف الخفيف
الذي كان يهبُّ عند الغروب. وكان الرجل العجوز ينعس، بينما يتوجّه
الصبيان إلى المدرسة عند الفجر، ويغيبان حتّى المساء. وفي منزله،
كان وانج لونج عصبيّاً، وتجنّب عيني أولان التي نظرت إليه ببؤسٍ وهو
يروح ويعيء هنا وهناك، ويُلقِي بنفسه على المقعد ثم ينهض دون أن
يتناول الشاي الذي صبّته، ودون أن يدخّن الغليون الذي أشعله.

وفي نهاية يومٍ طويلٍ، أطول من أيِّ يومٍ آخر، في الشهر السابع، عندما أطل الشفق المقام، مغممًا وعدبًا بعدوبة أنفاس البحيرة، وقف وانج لونج عند باب منزله، ثم استدار فجأة دون كلمة واحدة، ودخل غرفته وارتدى سترته الجديدة المصنوعة من القماش الأسود اللامع، التي صنعتها أولان لأيام الأعياد. ودون أن يتبادل كلمة مع أحدٍ، سار في الممرَّات الضيقة على طول حافة المياه، وعبر الحقول، حتَّى وصل إلى ظلام بوابة المدينة، وسار من خلالها وعبر الطرقات حتَّى وصل إلى صالة الشاي الجديدة.

كانت كلُّ الأنوار مضاءة هناك، بمصابيح زيتية ساطعة تُشترى من مدن الساحل الأجنبية، وجلس الرجال تحت الأضواء وهم يتناولون الشراب ويتبادلون الحديث، وأرديتهم مفتوحة أمام برودة المساء. وفي كلِّ مكانٍ كانت المراوح تتحرَّك جيئةً وذهابًا، والضحك يتدفَّق إلى الشارع مثل الموسيقى. كلُّ البهجة التي لم يحظَ بها وانج لونج قطُّ من عمله في الأرض كانت حبيسة هنا في جدران هذا المنزل، حيث كان الرجال يلتقون للعب، وليس للعمل أبدًا.

تردَّد وانج لونج عند العتبة، ووقف في الضوء الساطع المتدفِّق من الأبواب المفتوحة. وكان من الممكن أن يقف هناك ثم ينصرف، حيث كان لا يزال خائفًا ومتردِّدًا في قلبه، على الرغم من أنَّ دمه كان يتدفَّق في جسده على نحوٍ يمكنه أن يتسبَّب في انفجار عروقه. لكن خرجت من بين الظلال إلى حافة الضوء امرأةٌ كانت مستندة بخمولٍ عند مدخل الباب، وكانت هذه المرأة هي كوكو. تقدَّمت للأمام عندما لمحت هيئة

الرجل، حيث كان عملها هو جلب الزبائن لنساء المنزل. لكن عندما رأت من يكون، هزّت كتفيها، وقالت:

- آه، إنه المزارع فحسب!

شعر وانج لونج بالغضب من اللامبالاة الحادة في صوتها، ومنحه غضبه المفاجئ الشجاعة التي كان يفتقر إليها، فقال:

- حسنًا، ألا يمكنني دخول المنزل، والقيام بما يفعله الرجال الآخرون؟

وهزّت كتفيها مرّة أخرى وضحكت، قائلة:

- إذا كانت لديك الفضة التي يمتلكها الرجال الآخرون، فيمكنك ساعتها أن تفعل مثلهم.

وأراد أن يريها أنّه سيّد ثريٌّ بما يكفي حتّى يفعل ما يشاء، فمدّ يده في حزامه وأخرجها وهي مليئة بالفضّة وقال لها:

- هل هذا يكفي، أم لا؟

حدّثت إلى حفنة الفضة، وقالت دون مزيد من التأخير:

- تعال، وقل أيّ واحدةٍ منهنّ ترغب فيها.

ودون أن يدرك وانج لونج ما قاله، تمتم:

- حسنًا، لا أعرف ما إذا كنت أرغب في أيّ شيء.

ثم غلبته رغبته وهمس قائلاً:

- تلك الصغيرة، ذات الذقن المُدبَّب والوجه الصغير الضئيل، وجهُ
كزهرة السفرجل بلونه الأبيض والوردي، وتمسك بيدها برعم لوتس.
أومأت المرأة برأسها بسهولة، وأشارت إليه وهي تشقُّ طريقها بين
الطاوولات المزدحمة، وتبعها وانج لونج على مبعده. تهيأ له في بادئ
الأمر أن كلَّ رجلٍ رفع رأسه ليراقبه، لكن عندما تجرَّأ وألقى نظرة،
لاحظ أنه لم يكن هناك مَنْ يلقي إليه بالاً، باستثناء شخصٍ أو شخصين
صاحا قائلين:

- هل تأخر الوقت بما فيه الكفاية إذن، كي نذهب إلى النساء؟
ونادى آخر:

- ها هو رجلٌ مفعمٌ بالحيوية، يريد أن يبدأ مبكراً!
لكنهما حينها كانا يصعدان السُّلم الضيق المستقيم، وفعل وانج
لونج هذا بصعوبة، حيث كانت المرَّة الأولى على الإطلاق التي يصعد
فيها سُلماً داخل منزلٍ. ومع ذلك، عندما وصلا إلى القمة، كان الأمر
شبيهاً بالطابق الأرضي من المنزل، إلَّا أنه بدا على ارتفاعٍ عالٍ عندما
مرَّ بجوار النافذة ونظر إلى السماء. قادت المرأة الطريق عبر ممرٍّ ضيقٍ
مُظلمٍ، وصاحت في طريقها:

- ها هو أوَّل رجلٍ لهذه الليلة!

انفتحت الأبواب بطول الردهة فجأة، وأطلَّت رؤوس الفتيات هنا
وهناك في بقعٍ من الضوء، كما تتفجَّر الزهور من براعمها في الشمس.
لكنَّ كوكو صاحت بقسوة:

- لا، ليس أنتِ، وليس أنتِ. لم يطلب أحدٌ أيًا منكن! أتى هذا من أجل الضئيلة ذات الوجه الوردى القادمة من سوشو، من أجل لوتس!
سرت موجةً من الأصوات عبر الردهة، غير واضحة وساخرة.
وصاحت فتاة متوردة مثل الرمان، وقالت بصوتٍ مرتفع:
- يمكن أن تنال لوتس هذا الرجل، فرائحته تشبه رائحة الحقول
والثوم!

سمع وانج لونج هذا، وبالرغم من أنه ترفع عن الإجابة، إلا أن كلماتها أصابته كطعنة خنجرٍ، لأنه كان يخشى أن يظهره يبدو كمزارع بالفعل. لكنه تقدّم بصلابة، عندما تذكر الفضة الوفيرة في حزامه. أخيرًا، طرقت المرأة بابًا مغلقًا بعنفٍ براحة يدها، ودخلت دون انتظارٍ، وكانت هناك فتاة نحيلة جالسة على فراشٍ مُغطى بلحافٍ أحمر منقوشٍ بالزهور.
لو كان أحدهم قد أخبره أن هناك أيادي صغيرة كهذه، لِمَا صدقه.
أيادي صغيرة للغاية، وعظامًا دقيقة جدًا، وأصابع مستدقة بأظافر طويلة، مصبوغة بلون براعم اللوتس، وردية وداكنة. ولو كان أحدهم قد أخبره بوجود أقدامٍ مثل هذه، أقدامٍ صغيرة مدسوسة في حذاءٍ من الساتان الوردى لا يزيد طوله على الإصبع الأوسط بيد رجلٍ، وتأرجح على نحوٍ طفوليٍّ من حافة الفراش، لو كان أحدهم قد أخبره بكل هذا، لِمَا صدقه.

جلس متصليًا بجوارها على الفراش، محدقًا بها. رأى أنها كانت تشبه الصورة، وكان سيتعرّف عليها لو قابلها بعد أن شاهد الصورة.
لكن ما هو أهمُّ من كل ذلك، كانت يدها مثل اليد المرسومة، ملتفة

وناعمة وبيضاء كالحليب. وضعتُ يديها ملتفتين بعضهما فوق بعضٍ في حجر رداثها المصنوع من الحرير الوردى، ولم يكن ليحلم أنه من الممكن لمسهما.

نظر إليها كما نظر إلى الصورة، ورأى قامتها رشيقة كالخيزران في سترتها العلوية القصيرة الضيقة، ورأى الوجه الصغير المُدبَّب بجماله المصبوغ فوق الياقة المرتفعة المُبطَّنة بالفراء الأبيض، ورأى العينين المستديرتين اللتين بشكل المشمش، بحيث فهم أخيراً الآن ما كان يقصده رواة الحكايات عندما كانوا يتغنَّون بالجماليات القدامى اللاتي لهن عيونٌ كالشمش. وبالنسبة له لم تكن من لحمٍ ودمٍ، بل كانت صورة مرسومة لامرأة.

ثم رفعت يدها الصغيرة المُلتَفَّة تلك، ووضعتها على كتفه، ومررتها ببطءٍ بطول ذراعه؛ ببطءٍ شديدٍ. وعلى الرغم من أنه لم يسبق وأن أحسَّ من قبل بشيءٍ بمثل هذه الخِفَّة، وبمثل نعومة تلك اللمسة، وعلى الرغم من أنه لو لم يكن قد رآها، لم يكن ليعرف أنها حدثت، لكنه نظر ورأى اليد الصغيرة وهي تتحرَّك عبر ذراعه، وبدا الأمر وكأنَّ ناراً تبعتها، واشتعلت من خلال كُفِّه وفي لحم ذراعه. راقب اليد حتَّى وصلت إلى طرف كُفِّه، ثم سقطت بعد لحظة تردُّدٍ مدروسٍ على معصمه العاري، ثم في جوف كُفِّه الداكنة القاسية. وبدأ يرتجف، وهو لا يدري كيف يستقبلها.

ثم سمع ضحكاً خفيفاً وسريعاً، كرنين جرسٍ فضيٍّ على قمة هيكلٍ يهتزُّ في مهبِّ الريح. وقال صوتٌ خافتٌ كخفوت الضحك:

- أوه، كم أنت جاهلٌ، أيُّها الرجل الضخم. هل سنجلس هنا طوال الليل بينما أنت تحدِّق بي؟

حينها، أمسك يديها بين كلتا يديه بحرصٍ، لأنَّها كانت مثل ورقة شجرٍ جافَّة وهشَّة وحارَّة. وقال لها متضرعًا وهو لا يدري ما الذي يقوله:

- أنا لا أعرف أيَّ شيءٍ، علميني!

لذا فقد علَّمته.

صار وانج لونج مصابًا بأشدِّ مرضٍ يمكن أن يُصاب به رجلٌ. كان قد عانى من الكدِّ تحت الشمس، وعانى تحت الريح الجليدية الجافَّة في الصحراء المريرة، كما عانى من التضرُّور جوعًا عندما لم تطرح الحقول، وعانى من اليأس وهو يكدُّ بلا أملٍ في شوارع مدينة جنوبية. لكنَّه لم يعانِ تحت أيٍّ من كلِّ هذا، كما عانى الآن تحت يد هذه الفتاة الضئيلة. ذهب إلى صالة الشاي كلَّ يومٍ، وانتظر كلَّ مساءٍ حتَّى تستقبله، وكان يدخل إليها كلَّ ليلة. كان يذهب إليها، وفي كلِّ ليلة كان يصير مرَّةً أخرى القروي الذي لا يعرف شيئًا، ويرتجف عند الباب، ويجلس بجوارها متصلبًا، منتظرًا إشارتها الضاحكة. ثم تملؤه الحمى، ويفيض بداخله جوعٌ مرضيٌّ، ويتبعها بخنوعٍ، وهي تتكشف شيئًا فشيئًا، حتَّى لحظة الذروة عندما تصبح كزهرة ناضجة للقطاف، وتسمح له أن يقبض عليها تمامًا.

ومع ذلك، لم يتمكَّن أبدًا من احتوائها كلية، وهذا هو ما أبقاها محمومًا وظامئًا، حتَّى إذا منحته ما أراده منها. عندما أتت أولان إلى

منزله، كان ذلك صحيحاً لجسده، واشتهاها بقوة كما يشتهي الحيوان رفيقته، وكان ينالها ويشعر بالرضى، ثم ينساها ويباشر عمله قانعاً. لكن لم يكن مثل هذا الشعور بالرضى الآن في حبه لهذه الفتاة، ولم تكن صحبة بالنسبة له. في الليل عندما كانت تنال كفايتها منه، كانت تدفعه خارج بابها مشاكسة، ويدها الصغيرتان قويتان فجأة على أكتافه، وفضته مدسوسة في صدرها، فكان ينصرف جائعاً كما أتى. كان الأمر وكأن رجلاً يموت من العطش، يشرب من ماء البحر المالح، الذي على الرغم من أنه ماء، إلا أنه يتسبب في جفاف دمائه بفعل العطش، والمزيد من العطش حتى يموت في النهاية، وقد جُنّ جنونه من الشراب. كان يدخل إليها، وينال مراده منها مراراً وتكراراً، ويخرج دون أن يشعر بالرضى.

هكذا أحب وانج لونج هذه الفتاة طوال ذلك الصيف الحار. لم يكن يعرف شيئاً عنها، من أين أتت، أو من تكون. لم يكن يتحدث تقريباً وهما معاً، وكان يستمع بالكاد إلى حديثها المستمر، الخفيف الذي يتخلله الضحك كالأطفال. كان يراقب فقط وجهها ويديها، وأوضاع جسدها، والمعاني الكامنة في عينيها الواسعتين العذبتين، منتظراً إياها. لم يرتو منها أبداً، وكان يعود إلى منزله عند الفجر، مذهولاً وغير راضٍ. كانت الأيام بلا نهاية. لم يعد ينام على فراشه، متعللاً بحرارة الغرفة. فرش حصيراً تحت أعواد الخيزران ونام هناك نوماً متقطعاً، وهو يرقد متيقظاً ومحملاً في ظلال أوراق الخيزران، وصدره يفيض بوجع مرضٍ عذبٍ لم يستطع أن يفهمه.

وإذا تحدّث معه أحدهم، سواء زوجته أو الأطفال، أو إذا أتاه تشينج قائلاً:

- سوف تنحسر المياه قريباً، أيُّ بذورٍ علينا إعدادها؟
كان يصيح قائلاً:

- لِمَ تزعجونني؟
وطوال هذا الوقت، كان قلبه يوشك أن ينفجر لأنّه لم يتمكّن من الارتواء من هذه الفتاة.

وهكذا بمرور الأيام، كان يعيش فقط حتّى يمرّ النهار، ويحلّ المساء. لم يكن ينظر إلى الوجوه المتجهّمة لأولان والأطفال، الذين يهدأون خلال لعبهم فجأة عند اقترابه، ولا حتّى إلى والده العجوز الذي حدّق به وسأله:

- ما هذا المرض الذي ملأك بغضبٍ شريرٍ، وجعل بشرتك صفراء كالطين؟

وبانتهاء النهار وحلول الليل، كانت تلك الفتاة لوتس تفعل به ما يحلو لها. ضحكت على جديلة شعره، على الرغم من أنّه كان يقضي جزءاً من كلّ يوم وهو يضرّها ويمشّطها. قالت:

- ليس لدى الرجال في الجنوب ذبولُ القرد هذه!
فذهب دون أن ينبس ببنت شفة، وقصّها، على الرغم من أنّ أحداً لم ينجح في إقناعه بذلك من قبل سواء من خلال الضحك أو السخرية.
عندما رأت أولان ما فعله، انفجرت قائلة في رعبٍ:

- لقد قطعتَ حياتك!

لكنّه صرخ فيها، قائلاً:

- وهل سأظلُّ أبدًا كأحمق قديم الطراز إلى الأبد؟ كلُّ الشباب في المدينة يقصّون شعرهم.

إلاّ أنّه كان خائفًا في قرارة نفسه ممّا فعله، ومع ذلك كان سيقطع حياته ذاتها لو أمرته الفتاة لوتس بهذا، لأنّها كانت تتمتع بكلِّ جمالٍ حَطَرَ في ذهنه على الإطلاق أن يشتهيّه في امرأة.

كان نادرًا ما يغسل جسده البني القوي، معتبرًا عرق كدّه الطاهر اغتسالًا كافيًا في الأوقات العادية. لكنّه شرع يتفحّص جسده الآن، وكأنّه جسد رجلٍ آخر، ويغتسل كلّ يومٍ، حتّى قالت زوجته منزعة:

- ستموت من كلّ هذا الاغتسال!

اشترى صابونة طيّبة الرائحة من المتجر، حمراء ومعطرة جُلبت من بلاد أجنبية، وفرك بها جسده. ولم يكن ليأكل ساقًا من الثوم مقابل أيّ ثمنٍ، على الرغم من أنّه كان شيئًا يحبّه من قبل، حتّى لا تفوح منه رائحة كريهة أمامها.

ولم يتمكّن أحدٌ في منزله من تفسير كلّ هذه الأشياء.

كما اشترى أيضًا أقمشة جديدة لثيابه. وعلى الرغم من أنّ أولان كانت دومًا تقصّ ملابسه، وتجعلها طويلة وواسعة على سبيل الاحتياط، وتخيّطها بقوة لزيادة متانتها، إلاّ أنّه صار يستهزئ بقصّها وحياتها. أخذ الأقمشة إلى خياطٍ في المدينة، وصنع ملابسه كما كان الرجال في

المدينة يرتدون ملابسهم: رداء من الحرير الرمادي الفاتح يلائم قياس جسده مع قليلٍ من الاتساع فقط، وفوق هذا سترةٌ من الساتان الأسود بلا أكمام. واشترى أول حذاءٍ يمتلكه في حياته لم تصنعه امرأة. كان حذاءً من المخمل الأسود، مثل الذي كان السيد العجوز يرتديه، ويسير وهو يخبط كعبيه.

لكنّه خجل من ارتداء هذه الملابس الفاخرة فجأةً أمام أولان والأطفال. أبقاها مطويةً داخل ورقٍ بنيٍّ مُزَيَّت، وتركها بحوزة كاتبٍ في صالة الشاي صار يعرفه. ومقابل مبلغٍ من المال، كان الكاتب يسمح له بولوج غرفة داخلية سرّاً، وارتدائها قبل أن يصعد إلى الأعلى. وخلاف هذا، اشترى لإصبعه خاتماً من الفضة المطلية بالذهب. وعندما نمت شعره حيث كان يحلقه أعلى جبينه، لمّعه بزيّ عطريٍّ أجنبيٍّ، من زجاجة صغيرة دفع مقابلها قطعة كاملة من الفضة.

لكن أولان نظرت إليه بدهشة، ولم تعرف ما الذي تستنتجه من كلّ هذا. وفي أحد الأيام بعد أن حدّقت به لفترة طويلة، وهم يتناولون الأرز عند الظهيرة، قالت ببطء:

- هناك شيءٌ ما فيك يذكّرني بأحد الأسياد في المنزل الكبير.

ضحك وانج لونج بصوتٍ مرتفع، وقال:

- هل يجب أن أبدو كفلاحٍ على الدوام، في حين أنّنا نمتلك ما يكفي ويفيض؟

لكنّه شعر بسرورٍ بالغٍ في قلبه، وكان ألطف معها في ذلك اليوم

أكثر كثيرًا ممّا كان خلال أيامٍ عديدة مضت.

صارَتْ الأموال الآن، الفضة الطيبة، تتسرّب من بين يديه. فلم يكن هناك فقط الثمن الذي يجب أن يدفعه مقابل الساعات التي يقضيها مع الفتاة، لكن كانت هناك أيضًا رغباتها التي تطلبها بدلالٍ. كانت تتنهد وتغمغم، وكأنّ قلبها يكاد ينفطر رغبة.

– آه، يا لهفتهاء، آه، يا للأسف!

وعندما همس، بعد أن تعلّم الحديث أخيرًا في حضورها:

– ماذا الآن، يا قلبي الصغير؟

أجابته:

– لا يمكنني أن أهنأ بك اليوم، لأن اليشم الأسود، تلك الموجودة في الغرفة المقابلة لي عبر الردهة، لديها عشيقٌ أعطها دبوسًا من الذهب لشعرها، في حين أنّني ليس لديّ سوى هذا الخاتم الفضي القديم، الذي أمتلكه منذ زمنٍ طويلٍ.

وهكذا لم يستطع إلّا أن يهمس لها، وهو يزيح جانبًا خصلة شعرها السوداء الناعمة كي يستمتع برؤية أذنّها الصغيرة ذات الشحمة الطويلة:

– سأشتري أنا كذلك دبوسًا ذهبيًا لشعر جوهرتي.

كانت قد علّمته كل أسماء التذليل هذه، كما يُعلّم المرء طفلًا كلماتٍ جديدة. علّمته أن يناديه بها، ولم يشبع قلبه من ترديدها بما فيه الكفاية، حتى وهو يتلعثم خلال نطقها، بعد أن ظلّ كلامه طوال حياته قاصرًا على الزراعة والمحاصيل، والشمس والمطر.

وهكذا خرجت الفضة من الجدار ومن الجوال، وفي حين كان يمكن لأولان في الأيام الخوالي أن تقول له بسهولة:

- لماذا تأخذ الفضة من الجدار؟

إلا أنها لم تقل شيئاً الآن، بل اكتفت بمراقبته ببؤسٍ شديدٍ، وهي تعلم جيداً أنه يعيش حياة من نوعٍ ما بعيداً عنها، وبعيداً حتى عن الأرض، إلا أنها لم تعرف طبيعة هذه الحياة. لكنّها باتت تخشاه منذ ذلك اليوم الذي رأى فيه بوضوحٍ أنها لا تتمتع بجمال الشعر أو الملامح، وعندما لاحظ أنّ قدميها كبيرتان. صارت تخشى سؤاله عن أي شيءٍ، بسبب غضبه الذي كان متحفظاً لها على الدوام الآن.

ذات يومٍ، عبّر وانج لونج الحقول وعاد إلى منزله، واقترب منها بينما هي تغسل الملابس في البركة. وقف هناك صامتاً بعض الوقت، ثم قال لها بخشونة، وكان قاسياً لأنّه أحسّ بالخجل، ورفض الاعتراف بذلك الخزي في قلبه:

- أين تلك اللآلئ التي لديك؟

أجابت بخوفٍ، وهي ترفع نظرها عن حافة البركة وعن الملابس التي كانت تضربها على سطح حجرٍ أملس:

- اللآلئ؟ إنها بحوزتي.

وتتمم وهو لا ينظر إليها، بل إلى يديها المبللتين المجمعنتين:

- لا جدوى من الاحتفاظ بالآلئ دون هدفٍ.

فقالت ببطءٍ:

- ظننتُ أنني قد أضعها في أقراطٍ في يومٍ ما.

وخشيت سخريته، فأضافت قائمة:

- يمكنني الاحتفاظ بها للفتاة الصغرى حين تتزوَّج.

فأجاب بصوتٍ مرتفع، وقد قسى قلبه:

- ولمَ ترتدي تلك الفتاة اللاّلى في حين أن بشرتها سوداء كالطين؟
اللاّلى للنساء ذوات البشرة الفاتحة!

ثم صاح فجأة بعد لحظة صمتٍ:

- أعطني إياهما، أنا بحاجة إليهما!

فمدّت يدها المبلّلة المُجعّدة ببطءٍ إلى صدرها، وأخرجت لفافة صغيرة وناولته إياها، وشاهدته وهو يفكّها. رقدت اللاّلى في يده، وعكست ضوء الشمس برقة تامة، فضحك.

لكنّ أولان عادت لضرب ملابسه، وعندما انزلقتِ الدموع ببطءٍ وبثقلٍ من عينيها، لم تمد يدها لمسحها، بل ضربت الملابس المفروشة فوق الحجر بعصاها الخشبية بثباتٍ أكبر.



كان من الممكن أن يستمرّ الوضع هكذا إلى الأبد، حتّى تُنفَق الفضة كلها، لولا أن عاد ذلك الشخص، عمّ وانج لونج، فجأة دون تفسير لأيّ كان أو ما قد فعله. وقف بالباب وكأنّما سقط من غيمة، وأزرار ملابسه الرثة مفكوكة وحزامه مربوطٌ بشكلٍ فضفاضٍ كسابق عهده، ووجهه كما كان على الدوام، إلّا أنّه تجعّد وبات قاسياً بفعل الشمس والريح. وجّه لهم جميعاً ابتسامة عريضة، بينما هم جالسون إلى المائدة يتناولون وجبتهم الصباحية المبكّرة، وجلس وانج لونج فاغراً فمه، حيث كان قد نسي أنّ عمّه على قيد الحياة، وكان الأمر أشبه بعودة رجلٍ ميتٍ لزيارته. رمش والده العجوز محدّقاً إليه، ولم يتعرّف على الزائر حتّى نادى قائلاً:

- حسناً، شقيقي الأكبر، وابنه، وأطفاله، وزوجة شقيقي.

حينها نهض وانج لونج وهو يشعر بالفرح في قلبه، لكن من الظاهر بدا التهذيب على ملامحه وصوته.

- حسناً يا عمّي، هل تناولت الطعام؟

أجاب عمّه بسلاسة:

- لا، لكنني سأكل معكم.

ثم جلس وتناول طبقاً وأعواد طعام، وأخذ ما يريده دون ترددٍ من الأرز والسمك المُجفَّف المُملَّح والجزر والفاصوليا الجافَّة التي كانت على المائدة. أكل وكأثما كان جائعاً بشدَّة، ولم يتحدث أحدٌ حتَّى التهم بصوتٍ مرتفعٍ ثلاثة أطباق من عصيدة الأرز الخفيفة، وطحن سريعاً بين أسنانه أشواك السمك وحبوب الفاصوليا. وعندما انتهى من تناول الطعام، قال ببساطة، وكأنَّ ذلك من حقِّه:

- سوف أنام الآن، حيث لم أنم طوال هذه الليالي الثلاث السابقة. وعندما ذهب وانج لونج وهو في حالة ذهولٍ، ولا يدري ما يمكنه فعله خلاف ذلك، وقاده إلى فراش والده، رفع عمُّه اللحاف وتحسَّس القماش الجيِّد والقطن الجديد النظيف، وتأمل هيكل الفراش الخشبي والطاولة الجيِّدة والمقعد الخشبي الضخم الذي اشتراه وانج لونج لغرفة والده، وقال:

- حسناً، سمعتُ أنَّك ثريٌّ، لكنني لم أكن أعرف أنَّك ثريٌّ لهذا الحدِّ.

وألقى نفسه على الفراش، ساحباً اللحاف حتَّى كتفيه، على الرغم من أنَّ الجو كان صيفياً دافئاً، واستخدم كلَّ شيءٍ وكأنَّه ملكٌ له، واستغرق في النوم دون مزيدٍ من الحديث.

عاد وانج لونج إلى الغرفة الوسطى شاعراً بالذعر الشديد، حيث كان يعرف جيِّداً أنَّه لن يكون من الممكن طرد عمِّه مرَّةً أخرى، بعد أن عرف أنَّ وانج لونج يمتلك ما يكفي لإطعامه. فكَّر وانج لونج في هذا وفي زوجة عمِّه بخوفٍ بالغٍ، لأنَّه أدرك أنَّهما سيأتيان إلى منزله، ولن يتمكَّن أحدٌ من منعهما.

وحدث ما كان يخشاه. تمطى عمه في الفراش أخيراً بعد انقضاء الظهيرة، وتثاءب بصوتٍ مرتفعٍ ثلاث مراتٍ وخرج من الغرفة، وهو يضمُّ ملابسه على جسده قائلاً لوانج لونج:

- سأجلب زوجتي وابني الآن. نحن ثلاثة أفواه، وفي منزلك الكبير هذا لن نفتقد أبداً ما سنأكله أو ما سنرتديه من رخيص الملابس.

لم يستطع وانج لونج أن يفعل شيئاً سوى الردّ بنظراتٍ متجهمة، حيث كان من العار بالنسبة للرجل طرد شقيق والده وابنه من المنزل في حين أنه يمتلك ما يكفي ويفيض. وكان وانج لونج يعلم أنه لو فعل ذلك، فسوف يجلب له الأمر العار في القرية، حيث أصبح محترماً الآن بسبب ثرائه؛ لذا لم يجرؤ على قول شيء. لكنه أمر جميع العمال بالانتقال معاً إلى المنزل القديم، حتى تصير الغرف المجاورة للبوابة شاغرة. وانتقل عمه لتلك الغرف في المساء، جالباً معه زوجته وابنه. اشتاط وانج لونج غضباً، ومما زاد من غضبه أنه كان مضطراً إلى دفن كل ذلك في قلبه، وأن يجيب أقاربه بابتسامة ويرحب بهم. هذا على الرغم من أنه أحس أنه سينفجر غضباً عندما رأى وجه زوجة عمه السمين الناعم، وعندما رأى وجه ابن عمه المتكاسل الوقح منع نفسه بالكاد من أن يمدّ يده ويصفعه. ولم يذهب إلى المدينة لثلاثة أيامٍ بسبب غضبه.

بعد أن اعتاد الجميع ما حدث، قالت له أولان:

- كُفَّ عن الغضب، إنه شيءٌ علينا تحمُّله.

ورأى وانج لونج أن عمه وزوجته وابنه سيلتزمون الأدب بما يكفي من أجل طعامهم ومأواهم، فعادت أفكاره بشدة أكثر من أي وقتٍ مضى

إلى تلك الفتاة لوتس، وغمغم قائلاً لنفسه:

- عندما يمتلئ منزل الرجل بالكلاب البريّة، عليه أن يبحث عن السكينة في مكانٍ آخر.

وعاد ليحترق بكلّ الحمى والألم القديم، ولم يرتو أبداً من حبه.
لكن ما عجزت أولان عن رؤيته بسبب سذاجتها، والعجز بسبب تقدّمه في العمر، وتشينج بسبب صداقته، رأتَه زوجة عمّ وانج لونج على الفور، وصاحت والضحك منعكس في عينيها:

- إنّ وانج لونج يسعى لقطف زهرة في مكانٍ آخر الآن.
وعندما نظرت إليها أولان بتواضعٍ دون أن تفهم، ضحكت وقالت ثانية:

- يجب دوماً شق البطيخة، قبل أن تتمكّني من رؤية البذور، أليس كذلك؟ حسناً، إذن، من الواضح أن رجلك مجنونٌ بحبِّ امرأةٍ أخرى!
سمع وانج لونج زوجة عمّه تقول هذا في الساحة خارج نافذته، حيث كان يغفو في غرفته مرهقاً في وقتٍ باكِرٍ من صباح أحد الأيام، وقد أنهكه حبه. سرعان ما استيقظ، وواصل الاستماع، مدعوراً من حدة عيني هذه المرأة. استمرت ثرثرة الصوت الغليظ، منسكباً كالزيت من الحلق السمين.

- حسناً، لقد رأيت الكثير من الرجال. وعندما يسوّي أحدهم شعره ويشترى الملابس الجديدة، وتصير أحذيته من المخمل فجأة، فمن المؤكد أنّ هناك امرأة جديدة.

صدر صوتٌ منكسرٌ عن أولان، ولم يتمكّن من سماع ما قالته، لكن زوجة عمّه قالت مرّة أخرى:

- ولا تعتقدي أنّها الحمقاء المسكينة أنّ امرأة واحدة تكفي أيّ رجلٍ. ولو كانت امرأة مُرهقة تعمل بجِدٍّ، أنهكتُ جسدها في العمل من أجله، فسيكون ذلك أقل من احتياجاته. سرعان ما يهرب بخياله إلى مكانٍ آخر، وأنت أنّها الحمقاء المسكينة لم تكوني لائقة قطّ لخيال أيّ رجلٍ، ولستِ أفضل من الثور سوى بقليلٍ، لإنجاز العمل. ليس من حقك التذمّر عندما يتوفّر لديه المال ليشتري لنفسه امرأة أخرى كي يجلبها إلى منزله. فكلّ الرجال هكذا، حتى زوجي الكسول أيضًا، لولا أنّ البائس المسكين لم يمتلك في حياته من الفضّة ما يكفي لإطعام نفسه حتى.

قالت هذا وأكثر، لكنّ وانج لونج لم يسمع ما هو أكثر من ذلك على فراشه، حيث توقّف ليفكّر فيما قالته. أدرك فجأة الآن كيف يمكنه أن يُشبع جوعه ويروي ظمأه لهذه الفتاة التي أحبها. سيشتريها ويجلبها إلى منزله، وسيجعلها ملكه حتى لا يتمكّن أيّ رجلٍ آخر من الدخول إليها، وحتى يستطيع هو أن يشبع ويرتوي. نهض على الفور من فراشه وخرج وأشار سرًّا إلى زوجة عمّه، وقال عندما تبعته خارج البوابة، أسفل نخلة التمر حيث لا يمكن أن يسمع أحدٌ ما يقوله:

- لقد أنصتُ وسمعتُ ما قلّته في الساحة، وأنت محقّة. أنا بحاجة إلى أكثر من تلك المرأة، ولم لا، حيث إنّني أملك أرضًا تكفي لإطعامنا جميعًا؟

أجابت بحماسة بصوتٍ مرتفع:

- ولمَ لا، حقًا؟ هكذا فعل كلُّ الرجال الذين نالوا حظَّهم من الشراء.
وحده الرجل الفقير فقط هو من يضطرُّ إلى الشُّرب من كأسٍ واحدٍ.
تحدَّثْتُ على هذا النحو، وهي تعرف ما الذي سيقوله بعدها.
وواصل هو الحديث كما خطَّطت:

- لكن مَنْ سيتفاوض في الأمر نيابة عني، ويقوم بدور الوسيط؟ لا
يمكن أن يذهب رجلٌ إلى امرأةٍ ويقول لها «تعالِي إلى منزلي».
أجابه على الفور:

- اترك هذه المسألة بين يدي. أخبرني فقط أيَّ امرأةٍ هي، وسأرتَّب
الأمر.

حينها أجاب وانج لونج بترددٍ وخجلٍ، حيث لم ينطق اسمها
بصوتٍ مرتفعٍ أمام أحدٍ من قبل:
- إنَّها تلك المرأة المدعوة لوتس.

بدا له أنَّ الجميع لا بُدَّ وأن يكونوا يعرفون لوتس وسمعوا عنها،
ناسيًا كيف أنَّه لم يكن يعرف أين تسكن قبل شهرين قصيرين مضيا
فقط. لذا شعر بنفاد الصبر عندما واصلتُ زوجة عمِّه السؤال:

- وأين تسكن؟

أجاب بحدَّة:

- أين ستسكن سوى في صالة الشاي الكبيرة، في الشارع الرئيس
بالمدينة؟

- ذلك المُسمَّى بيت الزهور؟

ردَّ وانج لونج:

- وأين سواه؟

تفكرت لبعض الوقت، وهي تداعب شفتها السفلى المزمومة
بإصبعها، وقالت أخيرًا:

- لا أعرف أحدًا هناك. يجب أن أعثر على طريقة. من المُشرف
على هذه المرأة؟

عندما أخبرها أنها كوكو، التي كانت جارية في المنزل الكبير،
ضحكت وقالت:

- أوه، تلك المرأة؟ أهذا هو ما فعلته بعد أن مات السيد العجوز في
فراشها ذات ليلة؟ حسنًا، هذا متوقع منها.

ثم ضحكت مقهقهة مرّة أخرى:

- هه هه هه

وقالت بسهولة:

- تلك المرأة! لكنّه أمرٌ يسيرٌ للغاية. كلُّ شيءٍ واضحٍ. تلك المرأة!
منذ البداية، كانت تلك المرأة على استعدادٍ لفعل أيّ شيءٍ، حتى لو
طُلب منها إنشاء جبل، لو استشعرتُ في راحتها ما يكفي من الفضة.

عندما سمع وانج لونج ذلك، أحسَّ في حلقه بالجفاف والظمأ
فجأة، وصدر صوته هامسًا:

- الفضة، إذن! الفضة والذهب! أيُّ شيءٍ حتى ثمن أرضي نفسها!
ثم بدافع من حمى غريبة ومناقضة لحمى الحب، رفض وانج لونج
الذهاب إلى صالة الشاي مرّة أخرى حتى يتمّ الانتهاء من ترتيب الأمر.
قال لنفسه:

- إذا رفضت المجيء إلى منزلي لتكون لي وحدي، فلن أقربها ثانية
حتى لو قطعْتُ حلقي.

لكن عندما فكّر في عبارة «إذا رفضت المجيء»، توقفت دقائق قلبه
خوفًا، حتّى ظلّ يركض إلى زوجة عمّه قائلاً:

- لن يكون نقص المال سببًا في إغلاق الباب.
وكرّر قائلاً:

- هل أخبرت كوكو أنّ لديّ تحت تصرّفني الذهب والفضّة؟
وقال:

- أخبريها أنّها لن تقوم بأيّ نوعٍ من العمل في منزلي، بل سترتدي
فقط الملابس الحريرية، وتأكل زعائف القرش إذا شاءت ذلك كلّ يوم.
حتى نفد صبر المرأة السمينة أخيرًا، وصرخت فيه، وهي تدير
عينها في هذا الاتجاه وذاك:

- كفى، كفى! هل أنا حمقاء، أم هل هذه هي المرّة الأولى التي أدبّر
فيها أمر رجلٍ وامرأة؟ دعني وشأني، وسأنجز الأمر. لقد قلتُ كلّ شيءٍ
مراتٍ عديدة.

ثم لم يعد هناك ما يفعله، سوى قضم أظافره، والنظر إلى المنزل فجأة كما قد تنظر إليه لوتس. أمر أولان بالإسراع في إنجاز هذا وذاك، من الكنس والغسيل، وتحريك الطاولات والمقاعد، حتى ازدادت المرأة المسكينة رعباً ممّا باتت تعرف جيّداً الآن أنّه قادمٌ في طريقه إليها، على الرغم من أنّه لم يقل شيئاً.

لم يعد وانج لونج الآن يطيق النوم مع أولان. قال لنفسه إنّهُ مع وجود امرأتين في المنزل، يجب أن تكون هناك غرفٌ أخرى وساحة أخرى، ويجب أن يكون هناك مكانٌ يمكنه الذهاب إليه مع محبوبته لينفردا فيه. لذا بينما هو ينتظر أن تنتهي زوجة عمّه من ترتيب الأمر، نادى عمّاله وأمرهم بإنشاء ساحة أخرى للمنزل، وراء الغرفة الوسطى، وحول الساحة ثلاث غرفٍ، واحدة كبيرة، وغرفتين صغيرتين على كل جانبٍ. حدّق به العمّال، لكنّهم لم يجرؤوا أن يجيبوه بكلمة، ورفض هو إخبارهم أيّ شيءٍ. لكنّه أشرف عليهم بنفسه، كي لا يضطّرّ حتى إلى الحديث مع تشينج عمّا يقوم به. حفر الرجال الطين من الحقول، وشيّدوا الجدران ودكّوها، وأرسل وانج لونج إلى المدينة واشترى القرميد للسقف.

عندما تمّ الانتهاء من الغرف، وتمّت تسوية الأرض ودكّها لإنشاء الأرضية، أمر بشراء الطوب، ووضعها الرجال على نحوٍ متلاصقٍ، ولحموه بالجير. فصارت هناك أرضٌ جيّدة من الطوب في الغرف الثلاث المخصّصة للوتس. واشترى وانج لونج قماشاً أحمر لتعليقه على الأبواب كستائر، واشترى طاولة جديدة وكرسيين مزخرفين

ليضعهما على جانبي الطاولة، ولفاتين مرسومتين لتلالٍ مُصَوَّرة ومياه، ليعلِّقهما على الجدار خلف الطاولة. واشترى صحنًا مستديرًا له غطاءً، مطليًا باللورنيش الأحمر، ووضع فيه كعك السمسم والحلوى المصنوعة من شحم الخنزير، ووضع الصندوق على الطاولة. ثم اشترى فراشًا مزخرفًا عريضًا وعميقًا، كبيرًا في حدِّ ذاته بما يكفي لملء غرفة صغيرة. واشترى ستائر منقوشة بالزهور ليعلِّقها حوله. لكنّه أحسَّ بالخجل من أن يطلب مساعدة أولان في أيِّ شيءٍ من ذلك، لذا جاءت زوجة عمّه في المساء، وعلّقت ستائر الفراش، وأنجزت الأشياء التي لا يتقن الرجال القيام بها.

ثم انتهى كلُّ شيءٍ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله، وانقضى شهرٌ كاملٌ، ولم يتمّ الأمر بعد. لذا أمضى وانج لونج الوقت وحده في الساحة الجديدة الصغيرة التي بناها من أجل لوتس، وفكّر في إنشاء بركة صغيرة في منتصف الساحة. استدعى عاملًا، فحفر الرجل بركة مساحتها ثلاثة أقدامٍ مربعة، وأحاطها بالقرميد. وذهب وانج لونج إلى المدينة، واشترى لها خمس سمكاتٍ ذهبية. لم يستطع بعدها التفكير في شيءٍ آخر ليقوم به، وانتظر مرّةً أخرى بنفاد صبرٍ وهو محمومٌ.

طوال هذا الوقت، لم يقل شيئًا لأيِّ شخصٍ، سوى توبيخ الأطفال إذا كانت أنوفهم غير نظيفة، أو الصراخ في أولان لأنها لم تمسّط شعرها لثلاثة أيامٍ أو أكثر، حتى انفجرت دموع أولان أخيرًا في صباح أحد الأيام، وبكت بصوتٍ مرتفعٍ، كما لم يرها تبكي من قبل، حتى عندما كانوا يتصوّرون جوًّا، أو في أيِّ وقتٍ آخر. لذا قال بقسوة:

- ماذا الآن، يا امرأة؟ ألا يمكنني أن أقول مشطي ذيل حصانك،
دون كل هذه المشاكل بخصوص الأمر؟

لكنها لم تجبه بشيء، سوى أن أعادت مرّة نلّو الأخرى، وهي تنوح:
- لقد أنجبتُ لك الأبناء... لقد أنجبتُ لك الأبناء...

صمت وهو يشعر بالاضطراب، وهمهم لنفسه، حيث أحسّ
بالخزي أمامها، لذا تركها وشأنها. كان من الصحيح أمام القانون أنّه
لا توجد لديه شكوى من زوجته، حيث أنجبت له ثلاثة أبناءٍ أصحاء،
وكانوا على قيد الحياة، ولم يكن لديه أيّ عذرٍ سوى رغباته.

هكذا استمرّ الحال حتى أتت زوجة عمّه ذات يوم، وقالت:

- لقد انتهى الأمر. المرأة التي تعمل كمشرقة لدى صاحب صالة
الشاي ستنفذ الأمر مقابل مئة قطعةٍ من الفضة في يدها، دفعة واحدة.
وستأتي الفتاة مقابل أقراطٍ من اليشم، وخاتمٍ من اليشم، وخاتمٍ من
الذهب، وطقمين من الملابس المصنوعة من الساتان، وطقمين من
الملابس المصنوعة من الحرير، واثنى عشر زوجاً من الأحذية، ولحافين
من الحرير لفراشها.

من بين كل هذا، لم يسمع وانج لونج سوى هذا الجزء فقط: «لقد
انتهى الأمر»، وصاح قائلاً:
- أتمّيه، أتمّيه.

وركض إلى الغرفة الداخلية، وأخرج الفضة وصبّها في يديها.
لكنه فعل ذلك في الخفاء، حيث لم يرغب أن يرى أحد الحصاد الجيد

لسنواتٍ عديدة وهو يضيع على هذا النحو. وقال لزوجته عمّه:

- وخذي لنفسكٍ عشر قطعٍ كاملة من الفضة.

تظاهرتُ بالرفض، وهي تسحب جسدها السمين، وتدير رأسها في هذا الجانب وذاك، وتصيح بهمسٍ مرتفع:

- لا، لن أفعل. نحن أسرةٌ واحدة، وأنتَ ابني، وأنا والدتك، وأنا أفعل هذا من أجلك، وليس من أجل الفضة.

لكنّ وانج لونج رأى يدها ممدودة وهي ترفض، وصبّ فيها الفضة الطيبة، واعتبرها أنفقتُ فيما يُستحق.

ثم اشترى لحم الخنزير ولحم البقر وسمك الماندارين، وأُفرع الخيزران الغضة، والكستناء. واشترى مجموعة من أعشاش الطيور المُجفّفة من الجنوب لصُنع الحساء، واشترى زعانف القرش المجفّفة، كما اشترى كلّ أنواع الطعام الشهي التي يعرفها، ثم انتظر، لو كان من الممكن إطلاق مسمّى الانتظار على تلك اللهفة القليقة المتّقدة بداخله.

جاءت لمنزله في يومٍ حارٍّ، مشرقٍ ومتألّئٍ من الشهر الثامن، الذي هو في نهايات الصيف. رآها وانج لونج قادمة من على مسافة بعيدة. ركبَتْ في محفّة مُغلّقة من الخيزران المحمول على أكتاف الرجال، وراقب المحفّة وهي تتحرّك في هذا الاتجاه وذاك، على الممرّات الضيقة المحيطة بالحقول، وتبعّتها كوكو. وللحظة ملأه الخوف، وفكر قائلاً لنفسه:

- ما هذا الذي ساويه في منزلي؟

ثم توجّه مُسرِعًا إلى الغرفة التي نام فيها مع زوجته طوال سنواتٍ عديدة، وهو يعرف بالكاد ما يفعله، وأغلق الباب. وانتظر هناك في ظلام الغرفة مرتبكًا، حتّى سَمِعَ زوجة عمّه تناديه بصوتٍ مرتفعٍ كي يخرج، لأنّ أحدهم كان عند البوابة.

عندها خرج متمهّلًا، وهو يشعر بالحرج كأنّه لم ير الفتاة أبدًا من قبل، وقد حنى رأسه على ملابسه الفاخرة، وعيناه تنظران هنا وهناك، لكنّه لم يوجههما أمامه أبدًا. إلّا أنّ كوكو نادته بمرح:

- حسنًا، لم أكن أعرف أنّنا سنتفق على صفقة هكذا!

ثم توجّهت إلى المَحَفّة التي أنزلها الرجال، ورفعت الستار وطقطقت بلسانها، وقالت:

- تعالي يا زهرة اللوتس، ها هو منزلك، وها هو سيدك.

وأحسّ وانج لونج بالعذاب لأنّه رأى على وجوه حمّالي المَحَفّة ضحكاتٍ عريضة، وفكّر قائلاً لنفسه:

- هؤلاء متسكّعون من شوارع المدينة، ولا قيمة لهم.

وانتابه الغضب لأنّه شعر بوجهه حارًّا مضرّجًا بالحُمرة، لذا رفض الحديث بصوتٍ مرتفعٍ على الإطلاق.

ثم رُفِع الستار، وقبل أن يدرك ما الذي يفعله، نظر بالداخل ورأى الفتاة لوتس جالسة في تجويف الكرسي المعتم، بوجهٍ مصبوغٍ وهادئةٍ مثل الزنبق. نسي كلّ شيءٍ، حتّى غضبه حيال الرجال الضاحكين القادمين من المدينة، كلّ شيءٍ سوى أنّه اشترى هذا المرأة لتصير ملكًا

له، وأنّها جاءت إلى منزله لتبقى للأبد. وقف جامدًا ومرتعداً، يراقبها وهي تنهض، رشيقة كريح مرّت فوق زهرة. وبينما هو يراقبها عاجزاً عن إبعاد عينيه عنها، أمسكتُ بيد كوكو وخرجتُ، ورأسها محنيّة وجفناها مسدلان، وهي تسير متأرجحة ومتمايلة على قدميها الصغيرتين، ومستندة إلى كوكو. لم تتحدّث معه عندما مرّت بجواره، بل همستُ لكوكو فقط بصوتٍ منخفضٍ:

– أين مسكني؟

ثم تقدّمتُ زوجة عمّه من جانبها الآخر، وقادت الاثنتان الفتاة إلى الساحة وإلى الغرف الجديدة التي أنشأها وانج لونج من أجلها. ولم يكن هناك أحدٌ في منزل وانج لونج ليراها وهي تمرُّ، حيث كان قد أرسل العمّال وتشينج ليعملوا في أحد الحقول البعيدة في ذلك اليوم، وذهبتُ أولان لمكانٍ ما لا يعرفه وأخذتُ معها الصغيرين، وكان الأولاد في المدرسة، والعجوز نائمًا بجوار الجدار، ولم يسمع أو يرى شيئاً. أمّا البلهاء المسكينة، فلم تكن ترى أحدًا ممن يجيء أو يذهب، ولم تكن تعرف أيّ وجوه سوى والدها ووالدتها. لكن عندما دخلتُ لوتس، أغلقتُ كوكو الستائر خلفها.

ثم بعد فترة، خرجتُ زوجة عمّ وانج لونج ضاحكة بخبثٍ بعض الشيء، ونفّضتُ يديها معاً وكأنّها تخلّصهما من شيءٍ علق بهما.

قالت، وهي لا تزال تضحك:

– تلك المرأة يفوح منها رائحة الأصباغ والعطر. رائحتها تشبه رائحة بغية عادية.

ثم قالت بخبثٍ أشدَّ:

- إنَّها ليست صغيرة جدًّا كما يبدو عليها، يا بن أخي! سأجرؤ على قول هذا: لو لم تكن على مشارف سنٍّ لن يلبث بعده الرجال أن يتوقَّفوا عن النظر إليها، فأشك ما إذا كان اليشم في أذنيها والذهب في أصابعها، وحتى الحرير والساتان يكفون لإغرائها بالذهاب إلى منزل مزارعٍ، حتَّى لو كان مزارعًا ميسور الحال.

ثم رأت الغضب على ملامح وانج لونج لحديثها هذا البالغ الصراحة، فأضافت على عَجَلٍ:

- لكنَّها جميلة، ولم أر أخرى أكثر جمالًا، وسيكون الأمر حلًّا مثل الأرز الدبق في وليمة، بعد السنوات التي أمضيتها مع الجارية ذات العظام الغليظة من منزل هوانج.

لكن وانج لونج لم يجبها بشيءٍ، بل ظلَّ يتحرَّك هنا وهناك داخل المنزل، وهو يصيح السمع عاجزًا عن البقاء ساكنًا. أخيرًا، تجرَّأ على رفع الستار الأحمر، ودخل إلى الساحة التي أنشأها اللوتس، ثم إلى الغرفة المعتمة التي كانت بها، وظلَّ بجانبها طوال اليوم حتَّى حلول الليل.

لم تقترب أولان من المنزل طوال هذا الوقت. كانت قد تناولت معولًا من على الجدار عند الفجر، ونادت الطفلين، وأخذت القليل من الطعام البارد ملفوفًا في ورقة من الكرنب، ولم تعد. لكن عندما حلَّ الليل، دخلت صامتة وهي مُلطَّخة بالطين ومُكفَّهة من التعب، والطفلان صامتان خلفها، ولم تقل شيئًا لأحدٍ. بل توجَّهت إلى المطبخ

وأعدت الطعام، ووضعت على الطاولة كما كانت تفعل دومًا، ونادت العجوز ووضعت أعواد الطعام في يديه، وأطعمت البلهاء المسكينة، ثم أكلت قليلًا مع الطفلين. وعندما ناموا، وظلَّ وانج لونج جالسًا إلى الطاولة حاليًا، اغتسلت واستعدت للنوم، ثم دخلت أخيرًا إلى غرفتها المعتادة، ونامت بمفردها على فراشها.

أخذ وانج لونج ينهل من حبه ليلاً ونهارًا. يومًا بعد يوم، توجه إلى الغرفة حيث كانت لوتس مستلقية بكسل على فراشها، وجلس بجوارها وراقب كل ما تفعله. لم تخرج أبدًا في حرارة الأيام الأولى من الخريف، بل كانت تستلقي بينما كوكو تغسل جسدها الرقيق بماء فاتر، وتدلكه بالزيت والعطر، وتدهن شعرها بالزيت. حيث قالت لوتس بعناد إن كوكو يجب أن تبقى معها كخادمة لها، ودفعت لها بإسرافٍ شديد، حتى صارت المرأة على استعداد لخدمة واحدة بدلًا من عشرين. وسكنت هي ولوتس، سيدتها، بعيدًا عن الآخرين، في الساحة الجديدة التي أنشأها وانج لونج.

كانت الفتاة ترقد طوال اليوم في غرفتها الباردة الممتعة، تأكل الحلوى والفواكه، ولا ترتدي شيئًا سوى ملابس خفيفة من الحرير الصيفي الأخضر: سترة صغيرة ضيقة مقصوفة حتى خصرها، وسروال واسع تحتها. وهكذا كان وانج لونج يجدها عندما كان يأتي لينهل من حبه.

ثم كانت ترسله بعيدًا عند الغروب بمشاكسة لطيفة. وكانت كوكو تحمّمها وتعطرها ثانية، وتلبسها ملابس نظيفة، من الحرير الأبيض

الملامس لجسدها، ومن الحرير الذي بلون الخوخ من الخارج، حيث كانت تلك هي الملابس الحريرية التي أعطاه لها وانج لونج. ووضعت كوكو على قدميها أحذية صغيرة مطرزة، ثم كانت الفتاة تسير بعدها إلى الساحة وتتأمل البركة الصغيرة بأسمائها الذهبية الخمس، ووقف وانج لونج محدقًا ومتعجبًا مما يمتلكه. تمايلت على قدميها الصغيرتين، وبالنسبة لوانج لونج، لم يكن هناك شيء في العالم يضاهي جمال قدميها الصغيرتين المستدقتين، وبديها الملتفة الواهنة.

ونهل من حبه، وارتوى وحده حتى شبع، وأحس بالرضى.



لم يكن من الممكن أن يتوقع أحد أن مجيء هذه المدعوة لوتس وخادمتها كوكو إلى منزل وانج لونج يمكنه أن يتحقق دون حدوث ضجة أو خلافٍ من نوعٍ ما، حيث إن وجود أكثر من امرأة تحت سقفٍ واحدٍ أمرٌ يتعذر معه تحقيق السلام. لكنَّ وانج لونج لم يتوقع ذلك. وعلى الرغم من أنه أدرك من ملامح أولان المتجهمة ومن حدة كوكو أن هناك خطباً ما، فإنه لم يلتفت إلى الأمر، ولم يهتم بأي شخصٍ ما دام هو مشتغلاً بالرغبة.

وبالرغم من ذلك، مع انقلاب النهار إلى الليل، وتحول الليل إلى الفجر، رأى وانج لونج أن الشمس لا تزال تشرق في الصباح، وأن هذه المرأة لوتس لا تزال موجودة، والقمر يرتفع في موسمه، وهي لا تزال هناك لتقبض عليها يده متى شاء ذلك، فارتوى ظمأ حبه إلى حد ما، ورأى أشياء لم يكن يراها من قبل.

أدرك مثلاً أن المشاكل نشأت على الفور بين أولان وكوكو. تسبب هذا في إثارة دهشته، حيث كان مستعداً لأن تشعر أولان بالكراهية حيال لوتس، بعد أن سمع كثيراً عن مثل هذه الأشياء، وكيف أن بعض النساء يشنقن أنفسهن بحبلٍ من عوارض السقف عندما يجلب الرجل

امرأة ثانية إلى المنزل، بينما تلجأ أخريات إلى تعنيف الرجل ويخططن لجعل حياته لا تُطاق بسبب ما فعله، وأحسّ بالراحة أن أولان امرأة ذات طبعٍ صامتٍ، حيث إنَّها على الأقل لم تفكّر في اللجوء إلى الحديث لمواجهته. لكنّه لم يتوقع أنّه في حين التزمت الصمت حيال لوتس، فإنّ غضبها سيجد متنفّساً ضد كوكو.

لم يفكّر وانج لونج سوى في لوتس عندما ترجّته قائلة:

- دعني أحظى بهذه المرأة كخادمة لي، حيث إنني وحيدة تمامًا في الدنيا. فقد تُوفي والدي ووالدتي قبل أن أتمكّن من الحديث، وباعني عمّي ما أن ظهر جمالي لأحيا مثل تلك الحياة التي عشتها، ولم يكن لي أحدٌ على الإطلاق.

قالت هذا بدموعها، التي كانت دوماً وفيرة وجاهزة وتلتمع في أركان عينيها الجميلتين، ولم يكن وانج لونج يستطيع أن يرفض لها طلباً عندما تنظر له على هذا النحو. إلى جانب هذا، كان من الصحيح أن الفتاة لم يكن لديها من يخدمها، ومن الصحيح أنّها ستكون وحدها في هذا المنزل، فقد كان من الواضح بما فيه الكفاية، ومن المتوقع أن أولان لن تخدم المرأة الثانية، ولن تبادلها الحديث، أو تعير انتباهاً لوجودها في المنزل على الإطلاق. لم يكن هناك إذن سوى عمّ لوتس، ولم يكن وانج لونج ليطبق وجوده بالقرب من لوتس ليتطفّل كي تتبادل معه الحديث، لذا كانت كوكو خياراً جيّداً مثلها مثل أيّ خادمة أخرى، ولم يكن يعرف أيّ امرأة أخرى بوسعها الحضور.

لكن بدا أن أولان كانت يتتابها غضبٌ عميقٌ وتجهّم عندما ترى

كوكو، بطريقة لم يرها وانج لونج من قبل، ولم يعرف أنّها بمقدورها. كانت كوكو على استعداد كافٍ لعقد صداقة معها، حيث كان وانج لونج هو من يدفع أجرها، على الرغم من أنّها لم تنسَ أنّها كانت في جناح السيد العجوز في المنزل الكبير، وأولان جارية في المطبخ وواحدة من كثيراتٍ. مع ذلك فقد نادَتْ أولان بودّ كافٍ عندما رأتها لأول مرّة:

- حسنًا يا صديقتي القديمة، ها نحن في منزلٍ معًا مرّةً أخرى، وأنتِ السيّدة والزوجة الأولى -أي بمثابة والدتي- لكُم تغيّرت الأحوال!

لكن أولان حدّقت بها، وعندما أدركتَ مَنْ هي ومن تكون، لم تُحبّها بشيءٍ، لكنّها أنزلتْ جرّة المياه التي كانت تحملها، وذهبتْ إلى الغرفة الوسطى، حيث كان وانج لونج يجلس بين أوقات زيارته لمحبيبته، وقالت له مباشرة:

- ما الذي تفعله هذه الجارية في منزلنا؟

تلقّت وانج لونج يمنة ويسرة. كان يودُّ التحدّث بصوتٍ جافٍّ كسيدٍ للمنزل، وأن يقول:

- حسنًا، إنّه منزلي، ويمكن أن يدخله أيُّ شخصٍ أسمع له بالدخول. وسوف تدخله هي، فَمَنْ أَنْتِ حتى تسألِي هذا السؤال؟

لكنّه لم يتمكّن من ذلك بسبب شعورٍ بالخزي كان يملؤه عند وجود أولان أمامه، وجعله هذا يشعر بالغضب. لأنّه عندما فكّر في الأمر بالعقل، وجد أنّه لا يوجد ما يدعو للخزي، فهو لم يفعل أكثر ممّا قد يفعله أيُّ رجلٍ لديه فضّة تزيد على حاجته.

مع ذلك، لم يتمكن من الحديث، بل تلفّت يمنة ويسرة فقط متظاهراً
بأنه أضاع غليونه في ملابسه، وتحسّس حزامه. لكنّ أولان وقفت هناك
بثباتٍ على قدميها الكبيرتين وانتظرت، وعندما لم يقل شيئاً سألته نفس
الكلمات مرّة أخرى بوضوح:

- ما الذي تفعله هذه الجارية في منزلنا؟

وعندما رأى وانج لونج أنها مصمّمة على الحصول على جواب،
قال بصوتٍ ضعيفٍ:

- لِمَ يهملكِ هذا الأمر؟

قالت أولان:

- لقد تحمّلت نظراتها المتغطرسة طوال صباي في المنزل الكبير،
وهي تركض إلى المطبخ عشرين مرّة في اليوم صائحة: هيا أعدّي الشاي
للسيد، هيا أعدّي الطعام للسيد! ودوماً ما كانت تشكو أنّ هذا ساخنٌ
بدرجة زائدة على الحدّ، أو ذاك باردٌ بدرجة أكبر من الحدّ، وأنّ هذا
مطهوٌّ بطريقة سيئة، وأنني قبيحةٌ جدّاً وبطيئةٌ للغاية، وهذا زائدٌ وذاك
ناقصٌ...

لكنّ وانج لونج لم يجبّها على الرغم من ذلك، حيث لم يكن يعرف
ماذا يقول.

ثم انتظرت أولان، وعندما لم يتحدّث امتلأت عيناها ببطءٍ بدموعٍ
حارةٍ شحيحة، ورمشت لتبقي الدموع حبيسة في عينيها. أخيراً، تناولت
طرف مئزرها الأزرق ومسحت عينيها، وقالت:

- إنه وضع مريض في منزلي، وليس لدي أم في أي مكان حتى أعود إلى منزلها.

وعندما ظلّ وانج لونج صامتاً ولم يُجِبْها بشيءٍ على الإطلاق، بل جلس وأشعل غليونونه وهو مستمرّ في صمته، نظرتُ إليه بحزنٍ على نحوٍ مثيرٍ للشفقة بعينيها الغريبتين الصامتتين اللتين كانتا مثل عيني حيوانٍ أعجم، ومضتُ وهي تسير ببطءٍ، وتحسّس الباب بسبب دموعها التي أعمتها.

راقبها وانج لونج وهي تمضي، وسرّ لأنّه صار بمفرده. لكنّه كان لا يزال يشعر بالخزي، وبالغضب لأنّه يحسّ بذلك الخزي، وحدث نفسه متممًا الكلمات باضطرابٍ وبصوتٍ مرتفع، وكأنّه يتجادل مع شخصٍ ما:

- حسنًا، الرجال الآخرون يفعلون الشيء نفسه، وقد كنتُ طيبًا معها، في حين أنّ هناك رجالاً أسوأ مني.
وقال أخيرًا، إنّ أولان عليها تحمّل الوضع.

لكنّ أولان لم تنته من الأمر، ومضتُ في طريقها بهدوءٍ. سخّنتُ الماء في الصباح، وقَدَّمته للعجوز، وقَدَّمْتُ الشاي لوانج لونج في الأوقات التي لم يكن متواجدًا خلالها في الساحة الوسطى. لكن عندما ذهبْتُ كوكو لتجلب الماء الساخن لسيدتها، وجدتُ القدر خاليًا، ولم تفلح كلّ استفساراتها الصاخبة في إثارة أيّ ردٍّ من أولان. لم يكن هناك مفرٌّ من أن تغلي كوكو الماء لسيدتها بنفسها إذا أرادت الحصول عليه.

لكن بعد هذا أتى موعد تقليب عصيدة الصباح، ولم يعد هناك مكانٌ كافٍ في القدر للمزيد من الماء، واستمرَّت أولان في طهوها بثباتٍ دون أن تردَّ بشيءٍ على صيحات كوكو العالية.

- وهل ستبقى سيدتي الرقيقة راقدة في فراشها وهي ظمأى وتلهث من أجل رشفة ماءٍ في الصباح؟

لكن أولان رفضت الاستماع إليها، واكتفتُ بدفع المزيد من العشب والقش في أعماق الفرن، وهي توزعه بعناية واقتصادٍ كما كانت تفعل في الأيام الخوالي، عندما كانت ورقة الشجر الواحدة ثمينة للغاية بسبب النار التي ستشعلها أسفل الطعام. ثم ذهبتُ كوكو تشكو لوانج لونج بصوتٍ مرتفعٍ، وانتابه الغضب لأنَّ حبة تشوبه مثل هذه الأشياء، فذهب إلى أولان ووبَّخها صائحًا فيها:

- ألا يمكنكِ إضافة ملء مغرفة من المياه إلى القدر في الصباح؟

لكنَّها أجابت، وملامحها متجهمة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى:

- أنا لستُ جاريةً للجواري في هذا المنزل على الأقل.

فانتابه الغضب بدرجة تفوق تحمُّله، وقبض على كتف أولان، وهزَّها بشدَّة، قائلاً:

- لا تكوني حمقاء بدرجة أشدَّ من حماقتك بالفعل. إنَّها ليست للخادمة، بل لسيدتها.

تحمَّلتُ عنفه، ونظرتُ إليه، قائلة ببساطة:

- وقد أعطيتَ لؤلؤتاي لتلك الأخرى.

فسقطت يده وعجز عن الكلام، وتبَخَّر غضبه. رحل والخزي يغلبه،
وقال لكوكو:

- سنبنى موقدًا آخر، وسأنشئ مطبخًا آخر. فالزوجة الأولى لا
تعرف شيئًا عن الأطباق الشهية التي تحتاجها الأخرى لجسدها الشبيه
بالزهور، والتي سوف تستمتعين بها أنتِ أيضًا. سوف تطهين به ما
تتمينه.

لذا أمر العمال ببناء غرفة صغيرة وبداخلها موقدٌ من الطين،
واشترى قدرًا جيدة. وكانت كوكو مسرورة لأنّه قال: «سوف تطهين
به ما تتمينه».

لأما بالنسبة لوانج لونج، فقد أخبر نفسه أنّ أموره استقرت أخيرًا،
وأنّ السلام حلّ بين نسائه، وصار بوسعه الاستمتاع بحبّه. وبدا له من
جديد أنّه لا يمكنه أن يملّ أبدًا من لوتس والطريقة التي تمدّها بها شفتيها،
وجفناها منسدلان مثل بتلات الزنبق على عينيها الكبيرتين، ولا من
الطريقة التي يلتصق بها الضحك في عينيها عندما تنظر إليه.

لكن بعد كلّ هذا، صار أمر هذا المطبخ الجديد بمثابة شوكة في
جسده. حيث كانت كوكو تذهب إلى المدينة كلّ يومٍ وتشتري هذا
وذاك من الأطعمة باهظة الثمن، المجلوبة من مدن الجنوب. كانت هناك
أطعمة لم يسمع بها حتى من قبل: الليتشي، والتمر المُجفّف بالعسل،
وكعكٌ غريبٌ من دقيق الأرز والمكسّرات والسكر الأحمر، وسمكٌ ذو
قرونٍ من البحر، والكثير من الأشياء الأخرى. تكلف كلّ هذا مبلغًا من

المال أكثر ممّا أراد دفعه، ومع ذلك كان متأكدًا أنّها لم تتكلّف بقدر ما أخبرته كوكو. لكنّه كان يخشى أن يقول: «أنتِ تأكلين من لحمي»، مخافة أن تستاء وتغضب منه، ممّا سيغضب لوتس. لذا لم يكن بوسعه فعل شيء سوى الاستمرار في مدّ يده إلى حزامه رغمًا عنه. ظلّ هذا الأمر يمثل شوكة بالنسبة له يومًا بعد يومٍ، ولأنّه لم يجد من يشكو له، ظلّ وخز الشوكة يشتدّ باستمرارٍ، حتى برد بعضًا من نار حبه لـلـوتس.

وكانت هناك أيضًا شوكة صغيرة أخرى انبثقت من تلك الأولى، متمثّلة في زوجة عمّه التي كانت تحبّ الطعام اللذيذ، وكثيرًا ما كانت تتوجّه إلى الساحة الداخليّة في أوقات الطعام. اعتادت التردّد هناك، ولم يكن وانج لونج مسرورًا أنّ لوتس اختارت هذه المرأة من بين الموجودين في منزله كي تتخذها صديقة لها. كانت النساء الثلاث يأكلن جيّدًا في الساحات الداخليّة، ويثرثن باستمرارٍ، ويتهامسن ويتضحكن. وكان هناك شيءٌ ما أحبّته لوتس في زوجة عمّه، وكانت النسوة الثلاث سعيداتٍ معًا، ولم يُعجب هذا وانج لونج.

مع ذلك لم يكن هناك شيءٌ بوسعه القيام به، فعندما قال بلطفٍ وهو يحاول إقناعها:

- يا لوتس، يا زهرتي، لا تهدري عذوبتكِ على عجوزٍ شمطاء سمينّة مثل تلك المرأة. فأنا بحاجة إليها لقلبي أنا، وهي مخلوقٌ مخادعٌ غير جديرٍ بالثقة، ولا يعجبني وجودها بالقرب منك من الفجر حتى الغروب.

عبست لوتس، وأجابته بحدّة وهي تزمُ شفيتها، وتبعد رأسها عنه:

- ليس لديّ أحدٌ الآن سواكَ أنتَ، ولا يوجد لديّ أيُّ أصدقاء.
وقد اعتدتُ الوجود في منزلٍ يسوده المرح، ولا يوجد في منزلٍ سوى
زوجة أولى تكرهني، وأبنائك هؤلاء الذين هم مصدر إزعاجٍ بالنسبة
لي، وليس لي أحدٌ على الإطلاق.

ثم استخدمتُ أسلحتي ضده، ولم تسمح له بدخول غرفتها في
تلك الليلة، وتذمّرتُ قائلة:

- أنتَ لا تحبني، فلو كنتَ تحبني لتمنيتَ أن أصبح سعيدة.
حينها أحسّ وانج لونج بالمهانة وانتابه القلق، فخضع لها واعتذر،
قائلاً:

- ليكن ما تريدين، إلى الأبد.

عندئذٍ صفحتُ عنه تمامًا، وصار يخشى توبيخها بأيّ شكلٍ من
الأشكال على ما كانت تريد القيام به. وعندما كان يأتي إلى لوتس بعد
ذلك، وهي تتبادل الحديث أو تتناول الشاي أو تأكل بعض الحلوى مع
زوجة عمّه، كانت تأمره بالانتظار وتعامله بإهمالٍ، فكان يمضي بعيداً
وهو غاضبٌ لأنّها لا تريده أن يدخل في أثناء وجود تلك المرأة الأخرى
هناك، وهذا حبه لها بعض الشيء، على الرغم من أنّه هو نفسه لم يدرك
ذلك.

إلى جانب ذلك، انتابه الغضب لأنّ زوجة عمّه كانت تتناول
الأطعمة الباهظة الثمن التي اضطرّ إلى شرائها للوتس، وأصبحت أكثر
سمنة وبشرتها دهنية أكثر ممّا كانت عليه من قبل. لكنّه لم يستطع أن

ينبس بنت شفة، حيث كانت زوجة عمّه ذكيّة ومهذّبة معه، وتتملّقه بالكلمات الطيّبة، وتنهض عندما يدخل الغرفة.

وهكذا لم يعد حبّه للوتس كاملاً ومثاليّاً كما كان من قبل، ويحتل عقله وجسده تماماً. صار يتخلّله نوبات غضبٍ صغيرة، زاد من حدّتها أنّه اضطرّ إلى تحمّلها لأنّه لم يعد حتى بوسعه الذهاب إلى أولان للحديث بحرية، وقد تباعدت حياتهما.

مثل حقلٍ من الأشواك، ينبت من جذرٍ واحدٍ ويتشجر هنا وهناك، كان هناك المزيد ممّا يتسبّب في الإزعاج لوانج لونج. في أحد الأيام، استيقظ والده فجأة من نومه في الشمس، وقد يقول المرء إنّّه لم يعد يرى شيئاً في أيّ وقتٍ من الأوقات، حيث صار ينعس كثيراً نظراً لتقدّمه في السن، وترنّج متكلّناً على عصاه ذات رأس الثنين التي اشتراها له وانج لونج في عيد مولده السبعين، واتّجه إلى المدخل حيث كانت هناك ستارة مُعلّقة بين الغرفة الرئيسة والساحة التي تسير فيها لوتس. لم يسبق وأن لاحظ العجوز الباب من قبل، كما لم يلاحظ إنشاء الساحة، وبدأ أنّه لم يكن يعرف ما إذا انضمّ آخرون إلى المنزل أم لا. فلم يقلّ له وانج لونج أبداً: «لديّ امرأة أخرى»، حيث كان العجوز أصمّ بدرجة لا تمكّنه من تمييز أيّ شيءٍ من الصوت إذا كان يخبره بشيءٍ جديدٍ لم يفكر هو فيه.

لكن في هذا اليوم، رأى ذلك الباب بلا سببٍ، فتوجّه إليه وجذب الستارة، وحدث أنّها كانت ساعة المساء، حينما كان وانج لونج يسير مع لوتس في الساحة، وكانا يقفان أمام البركة لتأمّل الأسماك، إلّا أنّ

وانج لونج كان يتأمل لوتس. عندما رأى العجوز ابنه واقفاً بجوار فتاة رشيقة ووجهها مرسوم بالأصباغ، صاح بصوته الحاد الأجش:

- هناك عاهرة في المنزل!

ورفض التزام الصمت على الرغم من أنّ وانج لونج خشي أن يتتاب لوتس الغضب- حيث كان بوسع هذه المخلوقة الضئيلة أن تصيح وتصرخ وتضرب كفيها معاً إذا أحسّت بأيّ غضبٍ على الإطلاق- فتقدّم من العجوز، وقاده بعيداً إلى الساحة الخارجية وهدّاه، قائلاً:

- فليهدأ قلبك الآن، يا أبي. إنّها ليست عاهرة، بل امرأة ثانية في المنزل.

إلا أنّ العجوز رفض التزام الصمت، ولم يعرف أحدٌ إذا كان قد سمع ما قيل له أم لا، لكنّه استمرّ في الصياح مراراً وتكراراً:

- هناك عاهرة هنا!

ثم قال فجأة وهو يرى وانج لونج بالقرب منه:

- كانت لديّ امرأة واحدة، ولأبي امرأة واحدة، وقمنا بزراعة الأرض.

ثم صاح مرّة أخرى بعد فترة:

- أقول إنّها عاهرة!

وهكذا استيقظ العجوز من نومه المُسنّ المتقطع، وغمره نوعٌ من الكراهية الخبيثة حيال لوتس. كان يذهب إلى مدخل ساحتها، ويصيح فجأة في الهواء: «عاهرة»!

أو كان يسحب ستارة ساحتها جانبًا، ثم يصق بغضبٍ على البلاط.
وكان يبحث عن الأحجار الصغيرة ويقذفها بذراعه الهزيل داخل البركة
الصغيرة لإخافة الأسماك. وعبر عن غضبه بطرقٍ لئيمة مثل طفلٍ مزعج.
تسبَّب هذا أيضًا في إثارة الاضطراب في منزل وانج لونج. حيث
كان يخجل من توبيخ والده، ومع ذلك كان يخشى غضب لوتس، حيث
اكتشف أنَّ لديها مزاجًا حادًا للغاية وكانت تفقد أعصابها بسهولة. وقد
أرهقه قلقه هذا في محاولاته لمنع والده من إغضابها، وصار ذلك شيئًا
إضافيًا يجعل حبه عبئًا عليه.

سمع ذات يوم صرخة آتية من الساحات الداخلية، فركض داخلًا
وقد سمع صوت لوتس، ووجد أنَّ الطفلين الأصغر سنًا، الصبي والفتاة
التوأمين، قادا بينهما ابنته الكبرى، البلهاء المسكينة، إلى الساحة
الداخلية. كان الأطفال الأربعة الآخرون يشعرون بالفضول على الدوام
حيال هذه السيدة التي تعيش في الساحة الداخلية. لكنَّ الصبيين الأكبر
كانا واعيين ويشعران بالخجل، ويعرفان جيدًا سبب وجودها وعلاقة
والدهما بها، على الرغم من أنَّهما لم يتحدثا عنها أبدًا ما لم يكن ذلك
سرًّا مع بعضهما. لكنَّ الاثنين الأصغر سنًا لم يشبعا أبدًا من اختلاس
النظرات والتعجب واستنشاق العطر الذي كانت تتعطر به، وغمس
أصابعهما في أوعية الطعام التي كانت كوكو تحملها بعيدًا من غرفتها
بعد أن تتناول الطعام.

اشتكت لوتس كثيرًا لوانج لونج من أنَّ أطفاله يسببون لها الإزعاج،
وتمنَّت لو كانت هناك طريقة لحبسهم بالخارج بعيدًا عنها كي لا تضطرَّ

إلى تحمّل إزعاجهم. لكنّه لم يكن على استعداد للقيام بذلك، وأجابها مازحًا:

- حسنًا، إنَّهم يحبُّون النظر إلى وجهٍ جميلٍ بنفسِ القدرِ مثل والدهم.

ولم يفعل شيئًا سوى أنّه نهاهم عن دخول ساحتها، ولم يكونوا يفعلون ذلك وهم تحت أنظاره. لكن عندما لم يكن يراهم، كانوا يركضون داخلين وخارجين سرًّا. لكن الابنة الكبرى لم تكن تعي شيئًا بخصوص أيِّ أمرٍ، بل كانت تجلس في الشمس فحسب، وهي مستندة إلى الجدار في الساحة الخارجية، تبسم وتعبث بقطعة من القماش المبروم.

لكن في هذا اليوم، كان الصبيان الأكبر متغييبين في المدرسة، فتشكّلت لدى الطفلين الأصغر فكرة مفادها أنّ البلهاء أيضًا يجب أن ترى السيدة الموجودة في الساحة الداخليّة. لذا أخذوا يديها وسحبوها إلى الساحة حيث وقفت أمام لوتس التي لم ترها من قبل، وجلست محدّقة بها. عندما رأت البلهاء الحرير اللامع للسترة التي ارتدتها لوتس، واليشم المتألّئ في أذنيها، انتابها سعادة غريبة لذلك المشهد، ومدّت يديها لتمسك بالألوان الزاهية، وضحكت بصوتٍ مرتفعٍ، ضحكة كانت مجرد صوتٍ بلا معنى. أحسّت لوتس بالخوف وصرخت، حتّى أتى وانج لونج راکضًا، وارتجفت لوتس من الغضب، وتقافزت على قدميها الصغيرتين، وهزّت إصبعها في وجه الفتاة المسكينة الضاحكة، وصاحت قائلة:

- لن أبقى في هذا المنزل لو اقتربتُ مني تلك المخلوقة. لم يخبرني أحدٌ أنني مضطرةٌ إلى تحمُّل المعاتيه الملعين، ولو كنتُ أعرفُ لَمَا أتيت. أطفالك القذرين هؤلاء!

ودفعتِ الصبي الصغير الذي كان يقف بالقرب منها فاعراً فمه، وممسكاً بيد شقيقته التوأم.

حينها اشتاط وانج لونج غضباً من أجل أطفاله الأحباء، وقال بخشونة:

- لن أستمع لأيِّ شخصٍ يسبُّ أطفالِي. لا، لن أسمح لأحدٍ بهذا على الإطلاق، ولا حتى تجاه البلهاء المسكينة. ولن أسمح لكِ بهذا، أنتِ يا من لا تحمِلين في رحمكِ ابناً لأيِّ رجلٍ.

وجمع الطفلين معاً، وقال لهما:

- اخرجي الآن، يا ابني ويا ابنتي، ولا تعودا مرّةً أخرى إلى ساحة هذه المرأة، فهي لا تحبكما. وإذا لم تكن تحبكما، فهي لا تحب والدكما أيضاً.

وقال للفتاة الكبرى برقةٍ بالغة:

- وأنتِ يا حمقائي المسكينة، ارجعي إلى مكانكِ تحت الشمس. فابتسمتُ، وأخذ يدها وقادها بعيداً.

كان ما أغضبه أكثر من أيِّ شيءٍ هو أنّ لوتس تجرّأت على أن تسبَّ طفلته هذه، وتطليق عليها لقب معتوهة. وامتلاً قلبه بعبء ألمٍ جديدٍ من أجل هذه الفتاة، حتّى إنّه لم يقرب من لوتس ليومٍ أو يومين، بل ظلَّ

يلعب مع الأطفال، وذهب إلى المدينة، واشترى حلقة من حلوى الشعير
لحمقائه المسكينة، ووجد عزاءً في سعادتها الطفولية بالحلوى الرطبة
اللزجة.

وعندما ذهب إلى لوتس مرةً أخرى، لم يذكر أيّ منهما شيئاً
بخصوص غيابه ليومين. إلّا أنّها بذلت جهداً خاصاً لإرضائه، حيث
كانت زوجة عمّه موجودة هناك تشرب الشاي عندما أتى، واعتذرت
لوتس قائلة:

— ها هو سيدي قد أتى الآن من أجلي، ويجب أن أطيعه، فهذا من
دواعي سروري.

ووقفتُ حتى رحلتِ المرأة.

ثم ذهبتُ إلى وانج لونج، وأخذتُ يده وقربتُها من وجهها وتودّدت
إليه. وعلى الرغم من أنّه أحسّ بحبّها مرةً أخرى، إلّا أنّ حبه هذا لم يكن
خالصاً كما كان من قبل، ولم يعدّ حبّها بلا حدودٍ بعد ذلك أبداً كما كان
في سابق عهده.

ثم حلَّ يومٌ انقضى فيه الصيف، وصارت السماء في الصباح الباكر
صافية وباردة وزرقاء مثل مياه البحر، وهبّت ريحٌ خريفيةٌ نقيّة بقوة عبر
الأرض، وتيقّظ وانج لونج كما لو كان نائماً. ذهب إلى باب منزله، ونظر
عبر حقوله. رأى أنّ المياه انحسرت، وامتدّت الأرض ملتمة تحت
الريح الباردة الجافّة، وتحت الشمس المتوهجة.

ثم صاح صوتٌ بداخله: صرخ بداخله صوتٌ أعمق من الحب،
مناديًا إياه إلى أرضه. وسمعه أعلى ممّا سمع باقي الأصوات في حياته،
فانتزع الرداء الطويل الذي كان يلبسه، وخلع حذاءه المخملي وجواربه
البيضاء، وشمّر سرواله حتّى ركبتيه، ووقف قويًّا تغمره الحماسة،
وصاح قائلاً:

- أين المعول، وأين المحراث؟ وأين الحبوب من أجل زراعة
القمح؟ تعال يا تشينج يا صديقي. تعال، ونادِ الرجال، سوف أخرج إلى
الأرض!



كما شُفي من مرض قلبه عندما عاد من المدينة الجنوبيّة، وشعر بالراحة من المرارة التي تحمّلها هناك، شُفي وانج لونج الآن مرّة أخرى من مرض حبّه من خلال أرض حقوله الطيّبة الداكنة، وأحسّ بالتربة النديّة تحت قدميه، وشمّ رائحة الأرض تتصاعد من الأخاديد المحروثة للقمح. وجّه عمّاله وأنجزوا عمل يوم شاقّ، وهم يحرثون هنا وهناك. وقف وانج لونج خلف الثيران أولاً، وفرقع بالسوط فوق ظهورها، وشاهد أعماق الأرض وهي تتقلّب بينما المحراث يشقّ التربة. ثم نادى تشينج وناولوه الحبال، وأمسك هو بمعولٍ، وفتّت الطين إلى تربة دقيقة ناعمة مثل السكر الأسود، وظلّت داكنة بفعل رطوبة الأرض. فعل هذا من أجل السعادة الخالصة، وليس بدافع من أيّ ضرورة. وعندما اعتراه التعب، تمدّد على أرضه، وخلد إلى النوم، وتسَلَّلت صحة الأرض إلى جسده؛ وشُفي من مرضه.

عندما حلّ الليل، وغابت الشمس دون أيّ سحابة تُخفّف من وهجها، دخل منزله وجسده متألّمٌ ومُنْهَكٌ ومنتَصِرٌ، وسحب جانباً الستارة المؤدّية إلى الساحة الداخليّة، وكانت لوتس تسير هناك بملابسها

الحريرية. عندما رأيته، صرخت من الطين الذي يلوّث ثيابه، وارتجفت عندما اقترب منها.

لكنّه ضحك، وقبض على يديها الصغيرتين الملتفتين بيديه المتسخة، وضحك مرّة أخرى، وقال:

- ها أنتِ ترين الآن أنّ سيدكِ ما هو إلا مزارعٌ، وأنتِ زوجة مزارعٍ!
حينها صاحت بحدّة:

- أنا لستُ زوجة مزارعٍ، فلتكن أنتِ كما تحبّ!

فضحك مرّة ثانية، وابتعد عنها بسهولة.

تناول وجبة الأرز المسائيّة وهو مُلطّخٌ بالطين كما هو، واغتسل على مضضٍ قبل النوم فقط. وضحك ثانية وهو يتحمّم، فلم يكن يغتسل الآن من أجل أيّ امرأة. وضحك لأنّه صار حرّاً.

ثم بدا لوانج لونج كما لو كان متغيّباً لفترة طويلة، وصارت هناك فجأة الكثير من الأشياء التي عليه إنجازها. كانت الأرض بحاجة إلى الحراثة والزراعة، وعمل فيها يوماً بعد يوم، وتحول شحوب بشرته الذي خلّفه الصيف الذي أمضاه في الحبّ، ليصير بنيّاً داكناً تحت الشمس. أمّا يداه اللتان تقشّرت أجزاءهما الخشنة بفعل كسل الحبّ، فقد أصبحتا قاسيتين مرّة أخرى حيث يضغط عليهما المعول، وحيث تركتُ مقابض المحراث أثراً.

عندما عاد في فترة الظهيرة وفي المساء، أكل جيّداً من الطعام الذي أعدّته له أولان، تناول أرزاً طيباً، وكرنباً، وجبن حليب الصويا، وثوماً

طيباً ملفوفاً في خبز القمح. وعندما أمسكتُ لوتس أنفها الصغير بيدها عند قدومه، وصاحتُ بسبب رائحته الكريهة، ضحك ولم يكثرث للأمر، وأطلق أنفاسه القوية تجاهها. كان عليها تحمُّل الوضع قدر استطاعتها، حيث كان سيتناول ما يحبه من طعام. والآن وقد صار يتمتّع بصحة وافرة مرّة أخرى، وتحرّر من مرض حبه، بات بوسعه الذهاب إليها والانتهاء منها ليلتفت بعد ذلك إلى أشياء أخرى.

هكذا اتخذت هاتان المرأتان مكانهما في منزله. كانت لوتس من أجل تسليته ومتعته، ولإشباع رغبته في الجمال والرقّة ولبهجة الجنس الخالصة معها. أمّا أولان فكانت المرأة التي تقوم بعبء العمل، والتي حملت أبنائه، والتي ترعى بيته وتطعمه هو ووالده وأطفاله. وكان من دواعي فخر وانج لونج في القرية أنّ الرجال يتحدّثون بحسدٍ عن المرأة الكائنة في ساحته الداخليّة. بدا الأمر وكأنّ الرجال يتحدّثون عن جوهرة نادرة أو لعبة نفيسة لا فائدة منها، سوى أنّها كانت دليلاً وعلامة على أنّ الرجل تجاوز اضطرابه إلى الاهتمام بطعامه وملبسه فقط، وصار بوسعه إنفاق ماله على المتعة لو أراد ذلك.

كان عمّه في مقدّمة رجال القرية المعجبين بثرائه، حيث صار عمّه في هذه الأيام مثل الكلب الذي يتزلف ويرغب في نيل الرضى. قال:

-ها هو ابن أخي، الذي يحتفظ من أجل متعته بامرأة لم نر لها نحن الرجال البسطاء مثيلاً.

وقال في مناسبة أخرى:

- وهو يذهب إلى امرأته تلك، التي ترتدي ثيابًا من الحرير والساتان مثل سيدة في بيتٍ كبيرٍ. لم أرَ ذلك بنفسِي، لكنَّ زوجتي حكَّت لي.
وقال أيضًا:

- ابن أخي، ابن شقيقي، يؤسِّس بيتًا كبيرًا، وسيصبح أبناؤه أبناء رجلٍ ثريٍّ، ولن يحتاجوا إلى العمل طوال حياتهم.

حينها نظر رجال القرية إلى وانج لونج باحترامٍ متزايدٍ، ولم يعودوا يتحدثون إليه كواحدٍ منهم، بل كما لو كان يسكن في بيتٍ كبيرٍ، وجاؤوا ليقترضوا منه المال مقابل الفائدة، ولطلبوا منه النصيحة فيما يتعلَّق بزواج أبنائهم وبناتهم. وإذا نشأ أيُّ نزاعٍ بين اثنين حول حدود حقٍّ من الحقوق، كان يُطلَب من وانج لونج تسوية النزاع، ويُقبل قراره مهما كان.

وفي حين كان وانج لونج منشغلًا بحبِّه في السابق، فقد ارتوى منه الآن، وانشغل بالعديد من الأشياء الأخرى. هطلت الأمطار في موسمها، ونبت القمح ونما، وتحوَّل الفصل إلى الشتاء، وأخذ وانج لونج محصوله إلى الأسواق، حيث كان يخزِّن حبوبه حتَّى يرتفع السعر، وأخذ معه ابنه الأكبر هذه المرَّة.

هناك نوعٌ من الفخر يشعر به الرجل عندما يرى ابنه الأكبر وهو يقرأ بصوتٍ مرتفعٍ الحروف المخطوطة على الورق، ويضع الحبر والفرشاة على الصفحة ليكتب ما يمكن أن يقرأه الآخرون، وكان وانج لونج يشعر بذلك الاعتزاز الآن. وقف بتباهٍ ورأى هذا يحدث، ولم يضحك عندما صاح الكتبة الذين احتقروه من قبل، وقالوا الآن:

- هذا الصبي يخطُ حروفاً جميلة ، يا له من بارع!

لا، لم يكن وانج لونج ليتظاهر بأنه شيءٌ خارجٌ عن المألوف، كونه لديه ابنٌ كهذا. على الرغم من أنه عندما قال الصبي بحدة وهو يقرأ: «هذا الحرف له جذر الخشب، بينما يجب أن يكون له جذر الماء»، كاد قلب وانج لونج ينفجر زهواً، حتّى اضطرَّ إلى أن يتنحّى جانباً، ويسعل ويبصق على الأرض إنقاذاً لوضعه. وعندما سرّت همهمات الدهشة بين الكتبة لحكمة ابنه، صاح فحسب، قائلاً:

- فلتعدّلها إذن! لن نضع اسمنا على شيءٍ مكتوبٍ على نحوٍ غير صحيح.

ووقف بفخرٍ، وراقب ابنه وهو يتناول الفرشاة ويغيّر العلامة الخاطئة.

عندما انتهى الأمر، وكتب ابنه اسم والده على عقد بيع الحبوب وعلى إيصال استلام الأموال، سار الاثنان معاً إلى المنزل، الأب وابنه. وحَدَّث الأب نفسه قائلاً إنّ ابنه صار رجلاً، وهو ابنه الأكبر، وعليه أن يفعل ما هو في صالحه، وأن يتأكّد من اختيار زوجة وخطبتها له، حتّى لا يضطرّ ابنه إلى أن يفعل كما فعل هو، ويذهب إلى أحد المنازل الكبيرة متسوّلاً، ليأخذ ما تبقى هناك ممّا لم يكن يرغب فيه أيُّ شخصٍ آخر. حيث كان ابنه ابناً لرجلٍ ثريٍّ، يمتلك أرضاً خاصّة به.

وهكذا شرع وانج لونج يبحث عن فتاة تصلح لأن تكون زوجة لابنه، ولم تكن تلك مهمّة يسيرة. فلم يكن يريد مجرد أنثى عادية بسيطة.

تحدّث مع تشينج في الأمر ذات ليلة، بعد أن اجتمع الاثنان بمفردهما في الغرفة الوسطى لإحصاء ما يجب شراؤه للزراعة في الربيع، وما كانا يمتلكانه من بذورهما الخاصّة. لم يكن يتحدّث كمن يتوقّع عوناً كبيراً، حيث كان يعلم أنّ تشينج بسيطٌ للغاية. لكنّه كان يدرك مع ذلك أنّ الرجل مخلصٌ، كما يكون الكلب الطيّب مخلصاً لسيّده، وكان من المريح الحديث عمّا يدور بخلدّه مع شخصٍ مثل هذا.

جلس وانج لونج إلى الطاولة وهو يتحدّث، بينما وقف تشينج بخنوعٍ، رافضاً إلحاح وانج لونج عليه بالجلوس، فقد كان يرى أنّه لا يصحّ الجلوس في حضور وانج لونج بعدما صار ثرياً وكأنّه ندّ له.

أنصتَ باهتمامٍ لا يتزعزع، بينما وانج لونج يتحدّث عن ابنه، وعن تلك التي يبحث عنها. وعندما انتهى وانج لونج، تنهّد تشينج، وقال بصوته المتردّد الذي كان يزيد بالكاد على همسة:

- لو كانت ابنتي المسكينة موجودة وبصحة جيّدة، لكنت منحتك إياها دون أيّ مقابل، ومعها امتناني أيضاً. لكنني لا أعرف أين هي. ربما تكون ماتت وأنا لا أعلم.

شكره وانج لونج، لكنّه امتنع عن نطق ما كان يدور في قلبه. وهو أنّ ابنه يجب أن ينال من هي أعلى مكانة بكثيرٍ من ابنة شخصٍ مثل تشينج. فعلى الرغم من كونه رجلاً طيباً، فإنّه كان مجرد مزارعٍ عاديٍّ يعمل في أرض شخصٍ آخر.

لذا لم يأخذ وانج لونج بمشورة شخصٍ آخر، وظلّ يستمع

فحسب هنا وهناك في المقاهي عندما يثور الحديث عن الفتيات، أو الرجال الأثرياء في المدينة ممن لديهم بناتٌ للزواج. لكنّه لم يخبر زوجة عمّه بشيءٍ، وأخفى مقصده عنها. كانت ملائمة بما فيه الكفاية عندما كان بحاجة إلى امرأة من صالة الشاي لنفسه. كانت مناسبة لترتيب أمرٍ كهذا. أمّا بالنسبة لابنه، فلم يكن ليستعين بمن هي على شاكلة زوجة عمّه، والتي لم يكن بوسعها معرفة أي فتيات يعدهن هو ملائمتٌ لابنه.

مرّ العام، ونزلت ثلوجٌ عميقة وحلّ الشتاء القارس، وجاء عيد رأس السنة فأكلوا وشربوا. وجاء الرجال لزيارة وانج لونج، ليس فقط من القرية، بل من المدينة أيضًا، ليتمنّوا له حسن الطالع. وقالوا:

- حسنًا، ليس هناك طالعٌ سعيدٌ يمكننا تمنيه لك، أكثر ممّا لديك بالفعل. ففي منزلك أبناءٌ ونساءٌ، ولديك مالٌ وأرضٌ.

كان وانج لونج يرتدي ملابسه الحريرية، وأبناؤه يلبسون أردية جيّدة على كلا جانبيه، وعلى الطاولة كعكاتٌ حلوة وبذور البطيخ والمكسّرات، وقد ألصق على أبوابه وفي كلّ مكانٍ لافتاتٍ ورقية حمراء من أجل العام الجديد والثراء المقبل، وكان يعلم أنّه يتمتّع بحُسن الطالع.

لكنّ العام تحوّل إلى فصل الربيع، ونبتت أشجار الصفصاف بلونٍ أخضر فاتحٍ، ونمت براعم أشجار الخوخ بلونٍ وردي، ولم يكن وانج لونج قد عثر بعد على تلك التي يبحث عنها من أجل ابنه.

جاءت أيام الربيع طويلة ودافئة، ومعطّرة بروائح أزهار البرقوق والكرز، ونَمَت أوراق أشجار الصفصاف بالكامل وتفتّحت، وصارت الأشجار خضراء والأرض نديّة يتصاعد منها البخار، وحُبلى بالحصاد، وتغيّر ابن وانج لونج الأكبر فجأة، ولم يعد طفلاً. صار نَزَقًا وحاد الطباع، ورفض تناول هذا النوع أو ذاك من الطعام، وسئم من دراسته. انتاب وانج لونج الخوف، ولم يتمكّن من فهم الأمر، وتحدّث عن اللجوء إلى طبيبٍ. لم يكن من الممكن توبيخ الفتى على الإطلاق. فلو حدّثه والده بأيّ شيءٍ يتعدّى مجرد محاولة الإقناع قائلاً: «فلتأكل من هذا اللحم والأرز الطيب»، كان الفتى يصبح عنيداً وتلفّه الكآبة. ولو أظهر وانج لونج أيّ غضبٍ على الإطلاق، كان يتفجر في البكاء ويغادر الغرفة.

غمرت الدهشة وانج لونج، ولم يفهم شيئاً من كلّ ذلك، لذا تبع الفتى، وقال بلطفٍ قدر استطاعته:

- أنا والدك، فلتخبرني بما في قلبك.

لكنّ الفتى لم يفعل شيئاً سوى أنّه بكى، وهزّ رأسه بعنفٍ.

علاوة على ذلك، صار يكره معلّمه العجوز، وبات يرفض القيام من فراشه في الصباح للذهاب إلى المدرسة، ما لم يصرخ به وانج لونج أو يضربه. كان يذهب حينها متجهّم الوجه، وفي بعض الأحيان كان يقضي أياماً كاملة متسكّعاً في شوارع المدينة، ولم يكن وانج لونج يكتشف الأمر إلّا في الليل عندما كان الفتى الأصغر يقول بحقدٍ:

- لم يكن أخي الأكبر في المدرسة اليوم.

كان وانج لونج يشعر بالغضب حيال ابنه الأكبر، ويصبح به قائلاً:

- هل أنفق الفضة الطيبة دون مقابل؟

وفي غضبه هذا، انقضَّ على الصبي بعود خيزران وأوسع ضربه، حتى سمعته أولان، والدة الصبي، واندفعت من المطبخ، وحالت بينهما بحيث انهالت عليها الضربات على الرغم من محاولة وانج لونج الالتفاف من هذه الناحية أو تلك كي يتمكّن من الوصول للصبي. والشيء الغريب هو أنّه في حين كان من الممكن أن ينفجر الصبي في البكاء بسبب توبيخ عارضٍ، إلّا أنّه تحمّل هذا الضرب بالخيزران دون صوتٍ، ووجهه ساكنٌ وشاحبٌ كالتمثال. ولم يفهم وانج لونج شيئاً من كلّ ذلك رغم انشغاله بالتفكير في الأمر ليلاً ونهاراً.

هكذا فكّر في الأمر في إحدى الأمسيات بعد أن انتهى من تناول طعام ليلته، لأنّه ضرب ابنه الأكبر في ذلك اليوم لتغيّبه عن المدرسة. وبينما هو منشغلٌ بالتفكير، ولجّت أولان الغرفة. دخلت بهدوءٍ، ووقفت أمام وانج لونج، ورأى أنّ لديها ما ترغب في قوله. لذا قال:

- تحدّثني. ما الأمر، يا أمّ ابني؟

قالت:

- لا جدوى من أن تضرب الصبي كما تفعل. لقد رأيت هذا الأمر يصيب الأسياذ الصغار في ساحات البيت الكبير، وكانت تحلّ عليهم الكآبة. وعندما كان يحدث ذلك، كان السيد العجوز يعثر لهم على جوارٍ، إذا لم يكونوا قد عثروا لأنفسهم بعد، وكان الأمر يمرّ بسهولة.

أجابها وانج لونج مجادلًا:

- ليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك. عندما كنتُ صبيًا، لم أعانِ من مثل تلك الكآبة وذلك البكاء والانفعال. ولم تكن لديَّ جوارٍ أيضًا.

انتظرتُ أولان، ثم أجابتُ ببطءٍ:

- لم أرَ ذلك بالفعل سوى مع الأسياد الصغار. لقد كنتُ أنتِ تعمل في الأرض. لكنّه هو مثل سيدٍ صغيرٍ، وهو عاطلٌ في المنزل.

اندهش وانج لونج بعد أن تفكّر لفترة، حيث رأى حقيقة ما قالتها. من الصحيح أنّه عندما كان هو صبيًا، لم يكن هناك وقتٌ للكآبة، حيث كان يتعيّن عليه الاستيقاظ عند الفجر كي يصحب الثور ويعمل بالمحراث والمعول. وفي وقت الحصاد كان يجب عليه العمل حتّى ينكسر ظهره، وبوسعه البكاء لو شاء، فلم يكن هناك من يسمعه. ولم يكن يستطيع الهرب كما هرب ابنه من المدرسة، فلو فعل ذلك لم يكن ليجد ما يأكله عند عودته، لذا كان مضطرًا إلى العمل. تذكّر كلّ هذا، وقال لنفسه:

- لكنّ ابني ليس كذلك. فهو أكثر رقةً ممّا كنتُ أنا، ووالده ثريٌّ، بينما كان والدي فقيرًا. ولا حاجة إلى عمله، فلديّ عمّالٌ في حقولي. وإلى جانب ذلك، لا يمكن أن يأخذ المرء متعلّمًا مثل ابني ويجعله يعمل على المحراث.

وأحسّ سرًّا بالزهو، لأنّ لديه ابنًا كهذا. لذا قال لأولان:

- حسنًا، إذا كان مثل سيد شاب، فهذه مسألة أخرى. لكن لا
يمكنني شراء جارية له. سوف أخطب له، وسنزوجه في سن مبكر. هذا
هو ما يجب القيام به.
ثم نهض، وتوجه إلى الساحة الداخلية.



عندما لاحظتُ لوتس انشغال وانج لونج في حضورها، وتفكيره في أشياء أخرى غير جمالها، قطبتُ، وقالت:

- لو كنتُ أعلم أنه في غضون عامٍ قصيرٍ سيصير بوسعك النظر إليّ دون أن تراني، لكنت بقيتُ في صالة الشاي.

ثم أدارتُ رأسها بينما هي تتحدّث، وألقتُ إليه نظرةً جانبيةً بطرف عينيها، حتّى ضحك وأمسك بيدها ووضعها على وجهه، وتشمّم عطرها، وقال:

- حسنًا، لا يمكن أن يبقى الرجل منشغلًا على الدوام بالتفكير في الجوهرة التي تزيّن معطفه، لكنّه لن يتحمّل الأمر إذا ضاعت منه. أنا منشغلٌ هذه الأيام بالتفكير في ابني الأكبر، وكيف أنّ دماءه تفور بالرغبة، ويجب أن يتزوَّج. ولا أعرف كيف أعثر على تلك التي يمكنه الزواج منها. لا أريده أن يتزوَّج أيّا من بنات مزارعي القرية، وهذا لا يليق على أيّ حالٍ، حيث إنّنا نشترك في حمل اسم وانج. مع ذلك، فلا أعرف أحدًا في المدينة بدرجة تكفي لأن أقول له: «هذا ابني، وتلك ابنتك». كما أكره الذهاب إلى خاطبة محترفة لئلا تكون قد عقدتُ صفقة ما مع رجلٍ لديه ابنة مشوّهة أو حمقاء.

منذ أن كبر الابن الأكبر وصار طويلاً ورشيقاً ومفعماً بالشباب والرجولة، أصبحت لوتس تنظر إليه برضى، وانشغلت بما قاله لها وانج لونج، وأجابته متفكرة:

- كان هناك رجلٌ يأتي لزيارتي في صالة الشاي الكبيرة، وكثيراً ما كان يتحدث عن ابنته، لأنه ذكر أنّها كانت مثلي، ضئيلة الحجم ورقيقة، وكانت ابنته الوحيدة. وقال: «أحبك بقلقٍ غريب، كما لو كنتِ ابنتي. وهذا يزعجني، فهو مخالفٌ للقانون». ولهذا السبب، رغم أنّه كان يفضّلني أنا أكثر من أيّ واحدة أخرى، كان يذهب لفتاة ضخمة ذات بشرة مائلة إلى الحمرة اسمها زهر الرمان.

سألها وانج لونج:

- أيّ نوع من الرجال هو؟

- كان رجلاً طيباً، كريم اليد، ولم يكن يقطع وعوداً دون أن يدفع ما وعد به. كنّا جميعاً نتمنى له الخير، فلم يكن بخيلاً. وإذا كانت الفتاة مُرهقة في بعض الأحيان، لم يكن يصرخ كما يفعل البعض، قائلاً إنّهُ تعرّض للغش. لكنّه كان يقول بلطفٍ دوماً كما قد يقول أحد الأمراء: «حسنًا، ها هي الفضة، وارتاحي يا صغيرتي، حتّى يزهر الحبُّ مرّةً أخرى». كان يحادثنا بشكلٍ جميلٍ للغاية.

وسرحت لوتس حتّى قال وانج لونج على عجلٍ ليوقظها، حيث لم يكن يحب أن تفكر في حياتها القديمة:

- ما هو مجال عمله إذن، ولديه كل هذه الفضة؟

فأجابته:

- لا أعرف، لكنني أعتقد أنه كان يدير أحد أسواق الحبوب. سوف
أسأل كوكو، التي تعرف كل شيء عن الرجال وعن ثرواتهم.
ثم صفقتُ بيديها، وجاءت كوكو مهرولة من المطبخ، وقد احمرَّت
وجنتاها العاليتان وأنفها من أثر النار، فسألتها لوتس:

- من كان ذلك الرجل الكبير الطيب ضخم الجثة، الذي كان يأتي
لزيارتي، ثم ذهب إلى زهر الرمان لأنني كنتُ أشبه ابنته الصغيرة بدرجة
تسببت له في الشعور بالانزعاج، على الرغم من أنه ظلَّ يفضِّلني أنا على
الدوام؟

أجابت كوكو على الفور:

- آه، كان ذلك ليو، تاجر الحبوب. آه، كان رجلاً طيباً! كان يضع
الفضة في كفي كلما رأيته.

سأل وانج لونج:

- أين يقع سوقه؟

لكنه لم يبدِ اهتماماً شديداً، لأنه اعتبره مجرد حديث نساء، ولن
يؤدي إلى شيء في الغالب.

قالت كوكو:

- في شارع الجسر الحجري.

وقبل أن تنتهي من نطق كلماتها، ضرب وانج لونج كفيه معاً
بابتهاج، وقال:

- حسنًا إذن، هذا هو المكان الذي أبيع فيه حبوبي، وهو أمرٌ مُشجّع، وبالتأكيد يمكن إتمام الأمر.

وركّز باهتمامٍ لأوّل مرّة، لأنّه بدا له أنّه من حُسن الطالع تزويج ابنه من ابنة الرجل الذي يشتري حبوبه.

عند وجود شيء يتوجّب القيام به، كانت كوكو تشمّ رائحة المال في الأمر كما يشمّ الجرد رائحة الشحم، لذا مسحتُ يديها بمئزرها، وقالت على عجلٍ:

- أنا مستعدّة لخدمة السيّد.

بدا وانج لونج مرتابًا ومتشكّكًا وهو يطالع وجهها الماكر، لكن لوتس قالت بمرحٍ:

- هذا صحيحٌ. سوف تذهب كوكو وتسأل هذا الرجل، ليو. فهو يعرفها جيّدًا، ويمكن إتمام الأمر، حيث إنّ كوكو ذكيّة بما يكفي. وستحصل على أجر الخاطبة إذا أتمّتم الموضوع على نحوٍ مُرضٍ.

قالت كوكو بحماسة:

- سأفعل ذلك!

وضحكتُ وهي تفكّر في أجرها من الفضة الثمينة في كفّها، وحلّت مئزرها عن وسطها، وقالت بعجلٍ:

- سأذهب الآن في الحال، حيث إنّ اللحم جاهزٌ للطهو، والخضراوات مغسولة.

لكنَّ وانج لونج لم يفكر في الأمر بشكلٍ كافٍ، ولم يكن ليبتَّ فيه
بمثل هذه السرعة، لذا صاح قائلاً:

- لا، أنا لم أقرر شيئاً. يجب أن أفكّر في الأمر لبضعة أيام،
وسأخبركما برأيي.

كان صبر النساء نافداً، كوكو لأنّها تريد الفضّة، ولوتس لأنّه كان
أمراً جديداً بالنسبة لها، ولأنّها سوف تسمع شيئاً جديداً يسليها. لكن
وانج لونج خرج، وهو يقول:

- لا، إنه ابني، وسوف أترث.

وهكذا ربّما كان سيطول به الانتظار وهو يفكّر في هذا الأمر وذاك،
لولا أنّه في وقتٍ مبكرٍ من صباح أحد الأيام عاد الفتى، ابنه الأكبر،
إلى المنزل فجراً ووجهه حارّ وأحمر من شُرْب النبيذ، وكانت أنفاسه
كريهة الرائحة وخطاه متعثّرة. سمعه وانج لونج وهو يتعثّر في الساحة،
وهرول ليرى من يكون، وكان الفتى مريضاً وتقياً أمامه، حيث لم يعتد
أكثر من النبيذ غير القوي الشاحب اللون الذي كانوا يصنعونه من أرزهم
المُتخمّر. سقط واستلقى على الأرض وسط قيئه مثل الكلب.

شعر وانج لونج بالخوف، ونادى أولان. رفع الفتى معاً وغسله
ووضعه على الفراش في غرفتها. وقبل أن تنتهي من أمره، كان الفتى
مستغرقاً في نومٍ عميقٍ كالأموات، ولم يستطع الرد على شيءٍ من أسئلة
والده التي كان يلقيها عليه.

ثم توجّه وانج لونج إلى الغرفة التي كان الصبيان ينامان فيها معاً،

وكان الأصغر يتشاءب ويتمطى ويربط كتبه بقطعة مربّعة من القماش ليحملها إلى المدرسة، وقال له وانج لونج:

- ألم يكن شقيقك الأكبر في الفراش بجوارك الليلة الماضية؟

أجاب الصبي على مضضٍ:

- لا.

بدا في نظرته بعض الخوف، ولاحظ وانج لونج ذلك فصاح بقسوة:

- أين ذهب؟

وعندما امتنع الصبي عن الإجابة، قبض على عنقه، وهزّه صائحًا:

- فلتخبرني كلّ شيء الآن، أيّها الكلب الصغير!

حينها خاف الصبي، وانفجر في البكاء والنشيج، وقال بين شهقاته:

- قال شقيقي الأكبر إنّ عليّ ألا أخبرك، وقال إنّّه سوف يقرصني

ويكويني بإبرة ساخنة إذا فعلتُ. وإذا التزمْتُ الصمت، سوف يمنحني بنسًا.

لم يتمالك وانج لونج نفسه من الغضب عندئذٍ، وصرخ قائلاً:

- تخبرني بماذا، يا من تستحق الموت؟

تلفّت الصبي حوله، وقال بيأسٍ عندما رأى أنّ والده سوف يخنقه

إذا لم يجبه:

- لقد تغيبَ لثلاثة أيامٍ في المجمل، لكنني لا أعرف ما الذي يفعله،

سوى أنّه يذهب مع ابن عمّك ذاك، أقصد ابن عمّا.

فَكَ وَانِج لُونِج يده عن عنق الصبي وألقاه جانباً، وتوجّه إلى غرف عمّه حيث وجد ابن عمّه ووجهه حارّاً وأحمر من أثر النبذ مثل ابنه تماماً، إلّا أنّ خطواته كانت أكثر ثباتاً، حيث كان الشاب أكبر سنّاً، ومعتاداً على أفعال الرجال.

صرخ به وانج لونج:

- إلى أين أخذت ابني؟

سخر الشاب من وانج لونج وقال:

- آه، لا يحتاج ابن عمّي إلى من يقوده. فبوسعه الذهاب بمفرده.

لكنّ وانج لونج كرّر السؤال، وقال لنفسه هذه المرّة إنّهُ سيقتل ابن عمّه الآن، بوجهه الوقح الشقيّ هذا، وصرخ بصوتٍ رهيبٍ:

- أين كان ابني هذه الليلة؟

خاف الشاب من نبرة صوته، وأجاب مُتجهّماً على مضضٍ، وهو يخفض عينيه الوقحتين:

- كان في منزل العاهرة التي تعيش في الساحة التي كانت جزءاً من المنزل الكبير فيما مضى.

تأوّه وانج لونج بشدّة عندما سمع هذا، حيث كانت العاهرة معروفة للعديد من الرجال، ولم يكن يذهب إليها سوى الفقراء والبسطاء من الرجال، حيث إنّها لم تعد صغيرة في السن، وكانت على استعدادٍ لتقديم الكثير مقابل أقلّ القليل. دون أن ينتظر حتّى يتناول الطعام، خرج من بوابته وعبر حقوله، ولأوّل مرّة لم ير شيئاً ممّا كان ينبت في أرضه، ولم

يلحظ المحاصيل الواعدة، بسبب المشاكل التي جلبها له ابنه. سار وهو منشغلٌ بأفكاره الداخليّة، وعَبَرَ بوابة السور المحيط بالمدينة، وتوجّه إلى المنزل الذي كان كبيرًا.

كانت البوابات الثقيلة مفتوحة على آخرها الآن، ولم يعد أحدٌ يغلقها على مَفَصَّلاتها الحديدية السميكة، حيث صار من الممكن في هذه الأيام أن يدخل أو يخرج أيُّ شخصٍ يرغب في ذلك. دخل، وكانت الساحات والحجرات مليئة بعامة الناس ممن استأجروا الغرف، وبداخل كلّ غرفة أسرة من الناس البسطاء. كان المكان قذرًا، وقد قُطِعَت أشجار الصنوبر القديمة، وما تبقى منها يشارف الموت. كما كانت البرك في الساحات مختنّقة بالقمامة.

لكنّه لم يرَ شيئًا من ذلك. وقف في ساحة المنزل الأوّل، ونادى قائلاً:

- أين المرأة التي اسمها يانج، والتي تعمل كعاهرة؟

كانت هناك امرأة جالسة على مقعدٍ له ثلاث أرجل، تُخَيِّط نعل حذاء. رفعت رأسها وأومأت نحو بابٍ جانبيٍّ يفتح على الساحة، ثم عادت إلى الخياطة مرّةً أخرى، وكأنّ الرجال سألوها هذا السؤال كثيرًا من قبل.

ذهب وانج لونج إلى الباب وطرقه، وأجابه صوتٌ بنبرة عصبية:

- اذهب الآن، لقد أنهيتُ عملي لهذه الليلة، ويجب أن أنام لأنني أعمل طوال الليل.

لكنّه طرق ثانية، وصاح الصوت:

- مَنْ هناك؟

لم يردّ، بل طرق مرّة أخرى، لأنّه كان سيدخل بصرف النظر عن أيّ شيءٍ. أخيراً، سمع شخصاً يجرجر قدميه، وفتحت امرأة الباب. لم تكن صغيرة في السن، ووجهها منهكٌ وبشرتها مترهلة، ولها شفتان غليظتان، وعلى جبينها طلاءٌ أبيض خشنٌ، وطلاءٌ أحمر لم تغسله من فمها ووجنتيها. نظرت له، وقالت بحدّة:

- لا يمكنني العمل قبل حلول الليل، ويمكنك المجيء مبكراً إذا أردتَ عند حلول الليل. لكن يجب أن أنام الآن.

لكن وانج لونج قاطع حديثها بخشونة، حيث كان منظرها مقرّراً بالنسبة له، ولم يتحمّل فكرة وجود ابنه هنا. لذا قال:

- إنّه ليس لي أنا. لا حاجة لي بأمثالك. بل هو من أجل ابني.
أحسّ فجأة بغصّة في حلقه، وهو يرغب في البكاء على ابنه.
سألته المرأة:

- حسناً، وماذا عن ابنك؟

أجابها وانج لونج بصوتٍ مرتجفٍ:

- كان هنا الليلة الماضية.

أجابت المرأة:

- كان أبناء العديد من الرجال هنا بالأمس. لا أعرف من منهم ابنك.

أجابها وانج لونج متوسلاً:

- فكري وحاولي أن تتذكّري، هو فتى صغيرٌ نحيلٌ، طويل القامة بالنسبة لسنّه، لكنّه لم يبلغ مبلغ الرجال بعد. ولم أكن أحلم أنّه يجرؤ على تجربة علاقة مع امرأة.

تذكّرت، فأجابته:

- هل كان هناك اثنان، أحدهما شابٌ له أنفٌ ذو طرفٍ مرتفع للأعلى نحو السماء، وفي عينيه نظرة تنم عن أنّه خبيرٌ بكلّ شيءٍ، وقبّعته مائلة على إحدى أذنيه؟ والآخر كما تقول، فتى طويل القامة، يتوق لأن يصبح رجلاً!

قال وانج لونج:

- أجل، أجل، هذا هو. هذا ابني.

قالت المرأة:

- وما بال ابنك؟

حينها قال وانج لونج بجديّة:

- هذا هو الأمر: لو جاء ثانية، أبعديه، وقولي إنك تريدين الرجال فقط. أو قولي ما تشائين. لكن في كلّ مرّة تبعدينه فيها، سأعطيك في كفك ضعف أجرِك من الفضة.

حينها ضحكت المرأة بلا مبالاة، وقالت، وقد تحسّن مزاجها فجأة:

- ومن عساه لا يوافق على هذا، على أن يتلقّى أجرًا مقابل ألا يعمل؟ لذا فأنا أيضًا أوافق. من الصحيح أنّي أريد الرجال، وأن الفتية الصغار لا

يمثلون أيّ متعة. وأومأت برأسها إلى وانج لونج وهي تتحدث، ونظرت له بشيق. اشمأز من وجهها الخشن، وقال على عجل:
- فليكن إذن.

استدار بسرعة، وسار عائداً إلى المنزل. وبصق بشكلٍ متكررٍ خلال سيره ليتخلص من اشمئزازه من ذكرى المرأة.
لذا قال يومها لكوكو:

- ليكن كما قلت. اذهبي إلى تاجر الحبوب ورّبي الأمر. لتكن الدوطة جيّدة، لكن ليست كبيرة جداً، إذا كانت الفتاة ملائمة، وإذا كان من الممكن تسوية الأمر.

عندما قال هذا لكوكو، عاد إلى الغرفة وجلس بجوار ابنه النائمتائاً، حيث رأى كم كان الفتى جميلاً وصغيراً وهو راقدٌ هناك، ورأى وجهه الهادئ وهو نائمٌ، وشبابه الناعم. وعندما فكّر في المرأة المنهكة بوجهها المصبوغ وشفتيها الغليظتين، امتلأ قلبه بالاشمئزاز والغضب، وجلس هناك وهو يهتمهم لنفسه.

وبينما هو جالسٌ، دخلت أولان ووقفت تنظر إلى الصبي، ورأت العرق الصافي على جلده، فأحضرت خلاً وماءً دافئاً وغسلت عرقه برفقٍ، كما كانوا يغسلون الأسياد الشباب في المنزل الكبير عندما كانوا يفرطون في الشراب. وعندما شاهد الوجه الطفولي الرقيق، والنوم المخمور الذي لم يفلح حتى الغسيل في إيقاظه منه، قام وانج لونج، وتوجّه بغضبٍ إلى غرفة عمّه. ونسي أنّه شقيق والده، ولم يتذكّر سوى أنّ هذا الرجل هو

والد الشاب العاطل الوقح الذي أفسد ابنه الجميل، ودخل صائحًا:

- لقد أويْتُ عُشًّا من الحَيَّاتِ النَّاكِرَةِ للجميل، وها هي قد لدغتني!
كان عمُّه جالسًا متَّكِنًا إلى مائدة، يتناول إفطاره. فلم يكن يستيقظ
أبدًا قبل منتصف النهار، حيث لم يكن لديه عملٌ ليقوم به. رفع رأسه
عندما سمع هذه الكلمات، وقال بكسلٍ:

- وكيف ذلك؟

عندها أخبره وانج لونج بما حدث وهو يكاد يختنق، لكنَّ عمَّه
ضحك فحسب، وقال:

- حسنًا، هل يمكنكُ منع الصبي من أن يصير رجلًا؟ وهل تستطيع
إبعاد كلبٍ صغيرٍ عن كلبه ضالة؟

عندما سمع وانج لونج ضحكه هذا تذكَّر في لحظة واحدة كل ما
تحمَّله بسبب عمِّه: كيف حاول عمُّه إجباره على بيع أرضه في السابق،
وكيف كان هؤلاء الثلاثة يعيشون هنا، يأكلون ويشربون وهم عاطلون
عن العمل، وكيف أنَّ زوجة عمِّه تأكل من الأطعمة باهظة الثمن التي
تشتريها كوكو من أجل لوتس، وها هو الآن ابن عمِّه أفسد ولده الجميل،
فعضَّ لسانه بين أسنانه، وقال:

- فلتخرج من منزلي، أنتَ وأسرتك. ولن يكون هناك المزيد من
الأرز لأيٍّ منكم بعد هذه الساعة. وأنا أفضل أن أحرق هذا المنزل بدلًا
من أن أويكم بداخله، يا من لا تتمتعون بأيِّ نوعٍ من الامتنان على الرغم
من أنَّكم عاطلون عن العمل!

لكنَّ عمَّه بقي جالسًا، واستمرَّ في تناول الطعام، من هذا الصحن ومن ذاك، ووانج لونج واقفٌ يكاد يتفجَّر غيظًا. وعندما رأى أن عمَّه لا يكثرُ به، تقدَّم للأمام وذراعه مرفوعٌ للأعلى. حينها استدار عمُّه، وقال:

– فلتطردني إذا كنتَ تجرؤُ على ذلك.

وعندما تلعثم وanj لونج، وتوعَّد دون أن يفهم:

– حسنًا، ماذا... حسنًا، ما الذي...

فتح عمُّه سترته، وأظهر له ما كان بداخل بطانتها.

عندئذٍ وقف وanj لونج ساكنًا ومتصلبًا، حيث رأى لحية مستعارة من الشعر الأحمر، وقطعة من القماش الأحمر. حدَّق وanj لونج بهذه الأشياء، وتسرَّب منه الغضب كالماء، وارتجف لأنَّه لم تعد لديه أيُّ قوة متبقية.

كانت هذه الأشياء، اللحية الحمراء وقطعة القماش الحمراء، علامة ورمزًا لعصابة من اللصوص الذين كانوا يعيشون وينهبون في جهة الشمال الغربي، وقد أحرقوا الكثير من المنازل، وخطفوا العديد من النساء، وأوثقوا المزارعين الطيبين بالحبال عند عتبات منازلهم، وكان الرجال يجدونهم هناك في اليوم التالي وقد فقدوا عقولهم إذا ظلُّوا على قيد الحياة، أو محترقين مثل اللحم المشوي إذا كانوا أمواتًا. حدَّق وanj لونج به، وعيناه تكاد تخرج من رأسه، واستدار ورحل دون أن ينطق بكلمة. وبينما هو يبتعد، سمع ضحكة عمَّه الخافتة وهو ينحني مرَّة أخرى فوق طبق أرزه.

وجد وanj لونج نفسه في مأزقٍ لم يحلم به أبدًا من قبل. ظلَّ

عمّه يروح ويجيء كما كان من قبل، وهو مبتسمٌ بعض الشيء تحت شعرات لحيته الرمادية الخفيفة المتناثرة، وملابسه ملفوفة حول جسده، وحزامه مربوطٌ بلا مبالاة كعهده دومًا. وكان وانج لونج يتصبّب عرقًا باردًا عندما يراه، لكنّه لم يجرؤ على التحدّث سوى بكلماتٍ لطيفة، خوفًا ممّا قد يفعله عمّه به. كان من الصحيح أنّه طوال السنوات التي تمتّع فيها بالرخاء، وخاصّة خلال السنوات التي لم يكن فيها حصادًا، أو مجرد حصادٍ ضئيلٍ، وفي حين كان رجالٌ آخرون يتصوّرون جوّعًا هم وأطفالهم، لم يأت قطّاع طرقٍ أبدًا إلى بيته وأراضيه، على الرغم من أنّ الخوف انتابه مراتٍ عديدة، وكان يغلق الأبواب بقوة خلال الليل. وكان يرتدي ملابس خشنة، حتّى خلال الصيف الذي أحسّ فيه بالحبّ، كما كان يتجنّب الظهور بمظهرٍ ثريّ. وعندما كان يسمع بين سكان القرية حكاياتٍ عن السرقة، كان يعود إلى منزله، ويعاني من نومٍ متقطعٍ ويصيح السمع للأصوات أثناء الليل.

لكنّ اللصوص لم يأتوا إلى منزله أبدًا، وأصبح مهملًا وجريئًا، وظنّ أنّه محميٌّ من قبل السماء، وأنّ قدره أن يكون رجلًا حسن الطالع، وتغافل عن كلّ شيءٍ، حتّى بخور الآلهة، حيث كانوا كرماء معه بما يكفي دونه، ولم يفكر في شيءٍ سوى في شؤونه الخاصّة وفي أرضه. ورأى فجأة الآن لم كان آمنًا، ولم سيظلّ في أمانٍ ما دام يطعم الثلاثة الذين في منزل عمّه. كان يتصبّب عرقًا شديد البرودة عندما يفكر في هذا الأمر، ولم يجرؤ على إخبار أحدٍ بما يخفيه عمّه في صدره.

لكنّه لم يحدث عمّه مرّة أخرى بخصوص مغادرة المنزل، وتملّق زوجة عمّه بقدر استطاعته قائلاً:

- تناولني ما تشائين من الطعام في الساحات الداخلية، وهاك قدرًا من الفضة لتنفقها.

وقال لابن عمّه على الرغم من أنّه كان يشعر بغُصّة في حلقه:

- هاك بعض الفضة، فالشباب يميلون إلى العبث.

لكنّ وانج لونج راقب ابنه، ولم يسمح له بمغادرة الساحة بعد غروب الشمس، على الرغم من أنّ الصبي انتابه الغضب، واندفع يضرب الأطفال الصغار لأشياء سوى بسبب تعكّر مزاجه هو. هكذا كان وانج لونج محاطًا بمشاكله.

في البداية، لم يستطع وانج لونج العمل بسبب الانشغال بالتفكير في كلّ المشاكل التي وقعت له، وفكّر في هذه المشكلة وتلك، وقال لنفسه:

- يمكنني أن أطرّد عمّي، وبوسعي الانتقال للعيش داخل سور المدينة، حيث يغلقون البوابات الضخمة كلّ ليلة في وجه اللصوص.

لكنّه تذكّر أنّه يجب عليه أن يأتي كلّ يوم للعمل في حقوله، ومن عساه يستطيع توقّع ما يمكن أن يحدث له وهو يعمل بلا حماية، حتّى لو كان ذلك في أرضه؟ بالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن أن يعيش المرء حبيسًا في مدينة، وفي منزل في المدينة، حيث إنّهُ سيموت لو انقطع عن أرضه. وبالتأكيد سوف يأتي عامٌ سيئٌ، ولن تتمكّن المدينة نفسها من الصمود في وجه اللصوص، كما حدث في الماضي عندما سقط المنزل الكبير.

وكان يمكنه الذهاب إلى المدينة، والتوجه إلى المحكمة حيث يوجد القاضي، ويقول له:

- عمّي واحدٌ من أصحاب اللّحي الحمراء.

لكن من سيصدّقه إذا فعل ذلك، ومن سيصدّق رجلاً يقول مثل ذلك الشيء عن شقيق والده؟ كان من الأرجح أنّه سيتعرّض للضرب بسبب عقوقه، بدلاً من أن يُعاقب عمّه. وفي النهاية سيظلّ خائفاً على حياته، حيث إنّ اللصوص سوف يقتلونه من أجل الانتقام لو سمعوا بالأمر.

ثم كما لو أنّ هذا لم يكن كافياً، عادت كوكو من عند تاجر الحبوب. وعلى الرغم من أنّ أمر الخطبة سار على نحو جيّد، فإنّ التاجر ليو لم يرغب في حدوث أيّ شيء الآن، سوى تبادل أوراق الخطوبة، فالفتاة صغيرة جدّاً على الزواج، ولم تتجاوز الرابعة عشرة من العمر، وكان لا بُدّ من الانتظار لثلاث سنواتٍ أخرى. أحسّ وانج لونج بالفرح عندما فكّر في ثلاث سنواتٍ إضافية من غضب هذا الفتى وكسله وعينيه الشاردتين، حيث لم يُعدّ يذهب إلى المدرسة الآن سوى يومين من بين كلّ عشرة. وصاح وانج لونج في أولان تلك الليلة، وهو يتناول طعامه:

- حسناً، دعينا نخطب لأولئك الأطفال الآخرين بمجرد أن نتمكّن من ذلك، وكلّما عجّلنا بالأمر كان ذلك أفضل. ودعينا نزوّجهم ما أن يبدأوا في إظهار الرغبة. فلا يمكنني تحمّل كلّ هذا مرّةً أخرى ثلاث مراتٍ!

وفي صباح اليوم التالي، لم يكن قد نام خلال الليل إلا قليلاً، وخلع ثيابه الطويلة، وركل حذاءه عن قدميه، كما كانت عادته عندما تصير شؤون بيته ثقيلة بالنسبة له، وأخذ معوله وتوجّه إلى حقوله. عبّر من الساحة الخارجية حيث كانت ابنته الكبرى جالسة مبتسمة، تلفّ قطعة من القماش بين أصابعها وتسوّيها ثانية. تمتم قائلاً:

- حسناً، إن حمقائي المسكينة تلك تجلب لي شعوراً بالراحة أكبر من كلّ الباقيين مجتمعين.

وخرج إلى أرضه يوماً بعد يومٍ، لأيامٍ عديدة.

ثم قامت الأرض الطيبة بعملها الشافي مرّة أخرى، وأشرق عليه الشمس وسفّته، ولفّته الريح الصيفية الدافئة بالسكينة. وكما لو أنّ الطبيعة أرادت أن يُشفى من تفكيره الذي لا ينقطع في مشاكلة، ارتفعت من الجنوب في أحد الأيام سحابة صغيرة. في البداية، ظلّت مُعلّقة في الأفق صغيرة وناعمة مثل الضباب، لكنّها لم تتحرّك هنا وهناك مثل السحب التي تطيّرها الريح، بل ظلّت ثابتة حتى انتشرت مثل المروحة في الهواء.

شاهدها رجال القرية وتحدّثوا عنها، وخيّم عليهم الخوف، حيث كانوا يخشون أنّ الجراد آتٍ من الجنوب ليلتهم ما زرعوه في حقولهم. وقف وانج لونج أيضاً وهو يتأمل، وحدّقوا بها، حتّى حملت الريح أخيراً شيئاً إلى أقدامهم، وانحنى أحدهم على عجلٍ والتقطه. كانت جرادة ميتة، أخفّ وزناً من أولئك الأحياء وراءها.

نسي وانج لونج حينها كلّ ما أزعجه. النساء والأبناء وعمّه، نسيهم جميعًا، واندفع بين سكان القرية الخائفين، وصاح بهم قائلاً:

— سنحارب الآن من أجل أرضنا الطيّبة، هؤلاء الأعداء من السماء!

لكن كان هناك من هزّوا رؤوسهم بياسٍ منذ البداية، وقالوا:

— لا، فلا فائدة من أيّ شيءٍ. لقد قدّرتُ لنا السماء أن نتصوّر جوعًا

هذا العام. فلمْ نُهدِر طاقتنا في الصراع ضدها، ما دمنا سنتصوّر جوعًا في النهاية؟

وذهبتِ النساء باكياتٍ إلى المدينة لشراء البخور كي يضعنه أمام آلهة الأرض في الهيكل الصغير، بينما توجّه البعض إلى المعبد الكبير في المدينة، حيث كانت آلهة السماء. وهكذا تضرّعوا لآلهة الأرض والسماء. إلّا أنّ الجراد ظلّ ينتشر في السماء وفوق الأرض.

ثم دعا وانج لونج عمّاله، ووقف تشينج إلى جواره صامتًا وعلى أهبة الاستعداد، كما كان هناك آخرون من المزارعين الأصغر سنًا، وأضرّموا بأيديهم النيران في بعض الحقول، وأحرقوا القمح الجيّد الذي أوشك على النضج وشارف الحصاد. وحفروا خنادق واسعة وملأوها بالمياه من الآبار، وعملوا دون أن يخلدوا إلى النوم. جلبتُ لهم أولان الطعام، كما جلبتِ النساء الطعام لرجالهن، وأكل الرجال وهم واقفون في الحقول، وازدردوا الطعام مثل البهائم، وهم يعملون ليلاً ونهارًا.

ثم اسودَّت السماء، وامتلاً الجو بالهدير العميق الخافت لأجنحة كثيرة تضرب بعضها بعضاً، وهبط الجراد على الأرض، فكان يطير فوق هذه الحقول ويتركها على حالها، ويحطُّ على تلك فيلتهمها حتى تصبح جرداء كما لو كانت بفصل الشتاء. وتنهد الرجال وقالوا:

- هذه هي مشيئة السماء.

لكنَّ وانج لونج اشتاط غضباً، وضرب الجراد ودهسه، وضربه عمَّاله بآلات درس القمح، وسقط الجراد في النيران التي أُضرمَتْ، وطفاميتاً على سطح المياه في الخنادق التي حُفرت، ومات ملايين منه. ورغم ذلك لم تكن تلك الملايين تمثِّل شيئاً بالنسبة لما تبقى منه حيّاً.

على الرغم من هذا، حصل وانج لونج على مكافأته مقابل كلِّ قتاله ذاك: تمَّ إنقاذ أفضل حقوله، وعندما تحرَّكت السحابة في طريقها، وصار بوسعهم أن يرتاحوا، كان لا يزال هناك قمحٌ يمكنه حصاده، وبقيت أحواض أرزه الغضِّ، وأحسَّ بالرضى. بعد ذلك، أكل الكثير من الناس أجساد الجراد المشويّة، لكنَّ وانج لونج رفض أن يأكلها، حيث كانت بالنسبة له شيئاً قذراً بسبب ما فعلته بأرضه. لكنّه لم يقل شيئاً عندما قامت أولان بقليلها في الزيت، وعندما سحقها العمَّال بين أسنانهم، وعندما فصل الأطفال أجسادها من بعضها برفقٍ وتدوّقوها، وهم يشعرون بالخوف من أعينها الكبيرة. أمّا عن نفسه، فلم يأكل شيئاً.

مع ذلك، فقد أفاده الجراد، حيث لم يفكّر في شيءٍ طوال سبعة أيامٍ سوى أرضه، وشُفي من متاعبه ومخاوفه، وقال لنفسه بهدوءٍ:

- حسناً، كلُّ رجلٍ لديه مشاكله، وعليّ تدبُّر أموري حتّى أتعاش

مع مشاكلي بقدر استطاعتي. وعمِّي أكبر سنًّا مني، وسوف يموت في
النهاية. ويجب أن تمرَّ السنوات الثلاث بأيِّ شكلٍ من الأشكال مع ابني،
لذا فلن أقتل نفسي.

وحصد قمحه، وهطلت الأمطار، وزُرع الأرز الأخضر الغصّ في
الحقول التي غمرتها المياه، وحلَّ الصيف مرَّة أخرى.



في أحد الأيام، بعد أن حدّث وانج لونج نفسه قائلاً إنّ السلام حلّ على منزله، أتاه ابنه الأكبر بينما هو عائِد من أرضه ساعة الظهيرة، وقال الصبي:

- يا أبي، إذا كنتُ سأصبح عالمًا، فلا يوجد المزيد لدى ذلك العجوز في المدينة ممّا يمكن أن يُعلّمني إياه.

كان وانج لونج قد اغترف إناءً من الماء المغلي من القدر في المطبخ، وغمس فيها منشفة واعتصرها، ثم أمسكها إلى وجهه والبخار يتصاعد منها، وقال:

- حسنًا، وماذا إذن الآن؟

تردّد الصبي، ثم واصل قائلاً:

- إذا كان لي أن أصبح عالمًا، فأنا أريد الذهاب إلى المدينة في الجنوب، وأن أدخل مدرسة كبيرة حيث يمكنني تعلّم ما أحتاج إلى تعلّمه.

فرك وانج لونج المنشفة حول عينيه وأذنيه، وبينما يتصاعد البخار من وجهه بأكمله، أجاب ابنه بحدة، حيث كان يعاني من الألم في جسده من أثر العمل في الحقول:

- حسنًا، ما هذا الهراء؟ قراري هو إنه لا يمكنك الذهاب، ولا تثير ضجري بتكرار مطلبك، حيث إنني قلتُ إنه لا يمكنك الذهاب. لديك ما يكفي من التعليم لهذه المنطقة من البلاد.

ثم غمس المنشفة مرّة أخرى واعتصرها.

لكنّ الشاب وقف هناك محدّدًا بوالده بكرهية، وتمتم شيئًا ما، فغضب وانج لونج لأنّه لم يتمكّن من سماعه، وصاح في ابنه قائلاً:

- ارفع صوتك، وأفصح عمّا تريد قوله!

ثار الفتى من نبرة صوت والده، وقال:

- حسنًا، سأفعل، وسوف أتوجّه إلى الجنوب، ولن أبقى في هذا المنزل السخيف، وأخضع للمراقبة مثل الأطفال، وفي هذه البلدة الصغيرة التي ليست أفضل حالًا من قرية! سأخرج وأتعلم شيئًا ما، وأرى مناطق جديدة.

نظر وانج لونج إلى ابنه، ثم نظر إلى نفسه. وقف ابنه هناك مرتديًا ثوبًا طويلًا شاحب اللون من الكتّان الرمادي المائل إلى الفضي، خفيفًا وباردًا ليلائم حرارة الصيف، وظهرت على شفته الشعيرات السوداء الأولى الدالة على رجولته، وكانت بشرته ذهبية ناعمة، ويداه تحت أكمامه الطويلة ناعمة ورقيقة مثل يدي امرأة. ثم نظر وانج لونج إلى نفسه، وكان

غليظًا ومُلَطَّخًا بالطين، ولا يرتدي سوى سروالٍ من القطن الأزرق، معقودٍ حول ركبتيه، وكان خصره والجزء العلوي من جسده عاريين. كان من الممكن أن يخطئ المرء ويظنّه خادم ابنه، وليس والده. جعلته هذه الفكرة يستهزئ بمظهر الشاب الطويل الأنيق، وصرخ بوحشية وغضبٍ: - فلتذهب الآن إلى الحقول، وافرك نفسك ببعض الأرض الطيبة، لئلا يعتقد الرجال أنّك امرأة، واعمل بعض الشيء مقابل الأرز الذي تتناوله!

ونسي وانج لونج أنّه كان فخورًا بكتابة ابنه وبذكائه في فهم الكتب، واندفع خارجًا، وسار ضاربًا الأرض بقدميه العاريتين وهو يبصق على الأرض بخشونة، لأنّ رقة ابنه أغضبتة في تلك اللحظة. ووقف الصبي ناظرًا إليه بكراهية، لكنّ وانج لونج لم يستدر للخلف كي يرى ما فعله الصبي.

مع ذلك، عندما ذهب وانج لونج في تلك الليلة إلى الساحة الداخلية، وجلس إلى جانب لوتس بينما هي مستلقية على الحصيرة فوق فراشها، وكوكو تعمل على تهويتها بالمروحة، قالت له لوتس بتكاسلٍ وكأنّما الأمر لا أهمية له، بل مجرد حديثٍ للتسلية:

- ابنك الكبير ذاك مُتلهّفٌ ويريد الرحيل.

عندئذٍ، تذكّر وانج لونج غضبه حيال ابنه، وقال بحدّة:

- حسنًا، وما شأنك أنتِ بالأمر؟ لن أسمح له بالدخول إلى هذه الغرف في سنّه هذا.

لكنّ لوتس ردّت على عجلٍ:

- لا، لا، إنّ كوكو هي التي تقول هذا.

وأجابت كوكو بسرعة:

- بوسع أيّ شخصٍ رؤية الأمر. وهو فتى جميلٌ حقًا، وأكبر سنًا من أن يظلّ بلا عملٍ، ويعاني من شوقه ذاك.

تجاهل وانج لونج هذا، ولم يفكّر سوى في غضبه تجاه ابنه، وقال:
- لا، لن يذهب. لن أنفق أموالِي بحماقة.

ورفض مواصلة الحديث عن الأمر، ورأت لوتس أنّه عنيدٌ بدافع من الغضب، فأرسلت كوكو بعيدًا، وتحملت وجوده هناك بمفردها.

بعدها لم يُثر الأمر لعدّة أيامٍ، وبدأ الصبي راضيًا فجأة مرّة أخرى، لكنّه رفض مواصلة الذهاب إلى المدرسة، وسمح له وانج لونج بذلك، حيث شارف الصبي الثامنة عشرة من العمر تقريبًا، وكان ذا عظامٍ غليظة مثل والدته. جلس يقرأ في غرفته الخاصّة عندما عاد والده إلى المنزل، فأحسّ وانج لونج بالرضى، وفكّر قائلاً لنفسه:

- كانت نزوة من نزوات شبابه، وهو لا يدري ما الذي يريده. ولم يبقَ سوى ثلاث سنواتٍ فحسب، أو ربّما تجعلها القليل من الفضة الإضافية سنتين، أو حتّى سنة واحدة، إذا كانت الفضة كافية. في يومٍ من هذه الأيام، عند انتهاء موسم الحصاد وبعد زراعة القمح الشتوي وعزق الأرض من أجل الفاصوليا، سوف أنظر في المسألة.

ثم نسي وانح لونيح أمر ابنه، حيث كانت المحاصيل، باستثناء ما التهمته الجراد، جيّدة بما فيه الكفاية. وكان قد استعاد الآن من الأرباح ما يغطي نفقاته على تلك المرأة لوتس. صار ذهبه وفضّته ثمينين بالنسبة له مرّة أخرى، وفي بعض الأحيان كان يتعجّب لنفسه سرّاً أنّه أنفق بهذا السخاء على امرأة.

مع ذلك كانت هناك أوقاتٌ تثيره فيها بلطفٍ، وإن لم يكن بنفس القوة كما كانت في البداية، وشعر بالفخر لامتلاكه لها. لكنّه رأى جيّداً أنّ ما قالته زوجة عمّه كان صحيحاً، وأنّها لم تكن صغيرة جداً في السن على الرغم من ضآلة قامتها، كما أنّها لم تحمل له طفلاً أبداً. لكنّه لم يكثرث لشيءٍ من هذا، حيث كان لديه أبناءٌ وبناتٌ، وكان على استعدادٍ كافٍ للاحتفاظ بها لِمَا تمنحه إياه من المتعة.

أمّا بالنسبة للوتس، فقد ازدادتُ جمالاً مع تقدّمها في السن. حيث إنّّه لو كان من الممكن اعتبار أنّ لديها عيباً ما في السابق، فهو نحافتها البالغة كالطيور، مما جعل خطوط وجهها الصغير المستدق حادّة جداً، وجعل صدغيها يبدوان غائرين للغاية. لكن الآن مع الطعام الذي كانت كوكو تطهوه لها، ومع فراغها في حياتها برفقة رجلٍ واحدٍ فقط، صار جسدها ناعماً وبضاً، وامتلاً وجهها وبات ناعماً عند صدغيها، ومع عينيها الواسعتين وفمها الصغير بدت أكثر من أيّ وقتٍ مضى مثل قطّ صغيرٍ ممتلئ الجسم. كانت تنام وتتناول الطعام، واكتسى جسدها باللحم البضّ الناعم. ومع أنّها لم تعد برعم اللوتس، إلّا أنّها لم تتعدّ مرحلة الزهرة كاملة التفتّح بعد. وإذا لم تكن صغيرة في السن، فلم تبدُ

كبيرة، وكان كلُّ من الشباب والشيخوخة على مبعدة متساوية منها.

بعد أن عادتْ حياته هادئةً مرَّةً أخرى، والصبي قانعٌ بحاله، كان من الممكن أن يشعر وانج لونج بالرضى، سوى أنَّه في إحدى الليالي عندما كان الوقت متأخرًا وهو جالسٌ بمفرده يحسب على أصابعه ما يمكنه بيعه من الذرة وما يمكنه بيعه من الأرز، وَلَجَتْ أولان الغرفة بهدوءٍ. كانت قد أصبحت نحيلاً وهزيلةً بمرور السنوات، وعظام وجهها بارزة كالصخور وعيناها غائرتان. وحينما كان يسألها أحدهم عن حالها، لم تكن تُجِبْ بأكثر من:

- هناك نارٌ متقددة في أحشائي.

ظَلَّتْ بطنها متضخمةً كأنَّها حُبلى طوال ثلاث سنواتٍ، لكنَّها لم تلد قط. لكنَّها كانت تستيقظ فجرًا وتؤدي مهامها، وكان وانج لونج يراها فقط كما يرى الطاولة أو الكرسي أو شجرة في الساحة. بل لم ينظر إليها باهتمامٍ حتى كما قد يفعل لو رأى أحدَ ثيرانه منكسًا رأسه، أو خنزيرًا يرفض تناول الطعام. كانت تؤدي عملها وحدها، ولم تتبادل الحديث مع زوجة عمِّ وانج لونج بأكثر ممَّا كانت تستدعي الحاجة، ولم تحدث كوكو أبدًا. لم يسبق وأن دخلتْ أولان الساحات الداخلية، وفي الأوقات النادرة التي كانت تخرج فيها لوتس لتمشي قليلًا في مكانٍ آخر غير ساحتها، كانت أولان تدخل غرفتها، وتجلس هناك حتى يخبرها أحدهم: «لقد رحلتُ». ولم تكن تقول شيئًا، لكنَّها كانت تشغل بالطهي والغسيل عند البركة حتى خلال الشتاء عندما يتجمد الماء وتضطرُّ إلى كسر الجليد. لكنَّ وانج لونج لم يفكِّر أبدًا في أن يقول:

- حسنًا، لمَ لا تستأجرين خادمة أو تشتريين جارية بالفضة الفائضة على الحاجة لديّ؟

لم يخطر بباله أنّ هناك حاجة إلى ذلك، على الرغم من أنّه كان يستأجر عمالًا لحقله، وللمساعدة في رعاية الثيران والحمير والخنازير التي كان يمتلكها. وفي الصيف عند فيضان النهر كان يستأجر بصفة مؤقتة رجالًا لرعاية البط والإوز الذي يربيه في الماء.

لذا عندما جلس بمفرده هذا المساء والشموع الحمراء فقط مضاءة في الشمعدان المصنوع من الصفيح، وقفت أمامه وتلفتت يُمَنّة ويُسرة، وقالت أخيرًا:

- لديّ ما أريد قوله.

حدّق إليها بدهشة، وأجاب:

- حسنًا، قل لي ما لديك.

حدّق بها وبوجهها الغائر الذي غمرته الظلال، وفكّر مرّة أخرى أنّها تفتقر إلى الجمال، وكيف أنّه لم يشتهها طوال سنواتٍ عديدة.

ثم قالت بهمسٍ أجش:

- يذهب الابن الأكبر إلى الساحات الداخلية بدرجة أكثر ممّا يجب. يتوجّه هناك عندما تتغيّب أنت.

لم يتمكّن وانج لونج في البداية من فهم ما قالته وهي تهمس على هذا النحو، فمال إلى الأمام فاغراءً فمه، وقال:

- ماذا يا امرأة؟

أشارت إلى غرفة ابنها في صمتٍ، وزمّت شفيتها الغليظتين الجافّتين، وأومأت نحو باب الساحة الداخليّة. لكنّ وانج لونج حدّق بها غاضبًا وهو غير مصدّق.

قال أخيرًا:

- أنتِ تحلمين!

عندها هزّت رأسها، والحديث يتعثّر على شفيتها من صعوبته. ثم واصلت قائلة:

- حسنًا يا سيدي، فلتعُدّ إلى المنزل على نحوٍ غير متوقّع.

وأكملت الحديث بعد فترة من الصمت:

- من الأفضل إبعاده، حتّى لو كان ذلك إلى الجنوب.

ثم توجّهت إلى الطاولة، وتناولت وعاء الشاي الخاص به وتحسّسته، وسكبت الشاي البارد على الأرض الحجرية، وملأت الوعاء ثانية من البراد الساخن، وذهبت في صمتٍ كما أتت، وتركته جالسًا هناك فاغرًا فمه.

قال لنفسه: «حسنًا، هذه المرأة تشعر بالغيرة». وأنّه لن يُزعج نفسه بهذا الشأن، وابنه راضٍ ويمضي وقته في القراءة كلّ يومٍ في غرفته، وقام ضاحكًا، وأبعد الأمر عن ذهنه ساخرًا من تفاهة أفكار النساء.

لكن عندما ذهب ليستلقي بجوار لوتس تلك الليلة، وعندما استدار نحوها على الفراش تذرّمت ودفعته بحدّة، وهي تقول:

- الجو حارٌّ، ورائحتك كريهة. أتمنى لو أنّك اغتسلتَ قبل أن تأتي لتستلقي إلى جوارِي.

ثم جلستُ، ودفعتُ شعرها عن وجهها بعصبيةٍ، وهزّت كتفيها عندما حاول أن يضمّها إليه، ورفضت الاستجابة لملاطفته. ثم تمدّد في سكونٍ، وتذكّر أنّها استسلمتْ له على مضضٍ طوال هذه الليالي الماضية، وظنّ أنّ السبب هو نزوة من نزواتها، وأنّ الجو الحار الساكن في أواخر الصيف هو ما يزعجها. أمّا الآن، فقد برزت كلمات أولان بحدّة، فنهض بخشونة، وقال:

- حسنًا، نامي وحدكِ إذن. ولتقطعي عنقي لو ألقيتُ لك بالاً!

اندفع خارجًا من الغرفة، ودخل إلى الغرفة الوسطى من منزله، وضم كرسيين معًا، وتمدّد فوقهما. لكنّه لم يتمكّن من النوم، فنهض وخرج من بوابته، ومشى بين الخيزران المجاور لجدار المنزل، وأحسّ هناك بنسيم الليل البارد على جسده الحار، وبه برودة الخريف القادم.

ثم تذكّر هذا، أنّ لوتس كانت تعرف بأمر رغبة ابنه في الرحيل، وكيف بلغها هذا؟ وتذكّر أنّ ابنه مؤخرًا لم يعد يذكر شيئًا عن الرحيل، بل بدا قانعًا، وما السبب في رضاه هذا؟ وقال وانج لونج لنفسه بشراصة:
- سوف أتحقّق من ذلك الأمر بنفسِي.

وشاهد الفجر وهو يبرز متورّدًا بين الضباب على أرضه.

وبعد أن طلع الفجر، وأظهرت الشمس حافتها الذهبية فوق طرف الحقول، دخل وتناول الطعام، ثم خرج للإشراف على رجاله كما كانت

عادته في أوقات الحصاد والغرس، وتوجّه إلى هذه الناحية وتلك في أرضه، وأخيرًا صاح بصوتٍ مرتفعٍ حتّى يتمكّن أيُّ شخصٍ في منزله من سماعه:

- سأذهب الآن إلى قطعة الأرض المجاورة للخندق المائي في المدينة. ولن أعود في وقتٍ مبكرٍ.
وتوجّه صوب المدينة.

لكن بعد أن قطع نصفَ الطريق، ووصل إلى المعبد الصغير، جلس على جانب الطريق فوق تلٍّ من العشب كان قبرًا قديمًا، وقد بات منسيًا الآن. قَطَعَ بعض العشب، ولفّه بين أصابعه وهو يتأمّل. كان الإلهان الصغيران في مواجهته، ولاحظ كيف كانا يحدّقان به، وكيف كان يخشاهما في الماضي. إلّا أنّه صار لا يُلقِي لهما بالآ الآن، بعد أن صار ثريًا، ولم يعد في حاجة إلى الآلهة، حتّى لم يعد يراهما إلّا نادرًا. لكن في باطن عقله ظلّ يعيد التفكير مرارًا وتكرارًا:

- هل يجب أن أعود؟

ثم تذكّر فجأة الليلة الماضية عندما دفعته لوتس بعيدًا، وانتابه الغضب بسبب كلّ ما فعله من أجلها، وقال لنفسه:

- حسنًا، أعلم أنّها لم تكن لتستطيع البقاء لسنواتٍ عديدةٍ أخرى في صالة الشاي تلك، بينما تأكل أطيب الطعام، وتلبس فاخر الثياب في منزلي.

وقام بدافع من غضبه، وسار عائداً إلى منزله من طريق آخر، ودخل منزله سرّاً، ووقف عند الستارة المعلقة في الباب المؤدي إلى الساحة الداخلية. وقف مُنصِتاً، وسمع همهمة صوت رجل، وكان صوت ابنه.

كان الغضب الذي ملأ قلب وانج لونج يختلف عن أيّ غضب عرفه طوال حياته في السابق، على الرغم من أنّه مع ازدهار أحواله، وبعد أن صار الرجال يصفونه بالثراء، كان قد فقد خجله السابق كقرويٍّ بسيطٍ، وصار يُظهر نوبات غضبٍ بسيطة، متعددة ومفاجئة، وأصبح يتفاخر حتّى وهو في المدينة. لكنّ هذا الغضب الآن كان غضب رجلٍ حيال رجلٍ آخر يسرق منه المرأة التي يحبّها، وعندما تذكّر وانج لونج أنّ هذا الرجل هو ابنه، أحسّ بالغثيان حتّى كاد يتقيأ.

حينها جزّ على أسنانه، وخرج وتخيّر عوداً رفيعاً ومرناً من الخيزران، وخلع أغصانه فيما عدا مجموعة من الأغصان الصغيرة في قمته، رفيعة وصلبة كالحبال، وخلع أوراقها. ثم دخل بهدوءٍ وسحب الستارة جانباً فجأة، وكان ابنه هناك واقفاً في الساحة، ينظر إلى لوتس التي كانت جالسة على مقعدٍ صغيرٍ عند حافة البركة. وكانت لوتس مرتدية سترتها الحريرية التي بلون الخوخ، وهي ثيابٌ لم يرها تلبس مثلها أبداً في ضوء النهار.

تبادل الاثنان الحديث، وضحكت المرأة بخفّة، ونظرت إلى الشاب من ركن عينيها مميلة رأسها جانباً، ولم يسمعا وانج لونج. وقف محدّقاً بهما، مباعداً بين شفثيه ومكشّراً عن أسنانه، وقد أحكم قبضته على

عود الخيزران. ومع ذلك لم يسمعه الاثنان، ولم يكونا ليسمعه لولا أن خرجت تلك المرأة كوكو ورأته وصرخت، وشاهدها حينها.

عندئذ وثب وانج لونج إلى الأمام وانقضَّ على ابنه وضربه. وعلى الرغم من أنَّ الصبي كان أطول قامته منه، إلاَّ أنَّه كان أقوى بفعل عمله في الحقول، وبسبب قوة جسده الناضج، فضرب الصبي حتَّى سال منه الدم. وحينما صرخت لوتس وجذبت ذراعه، أبعداها عنه. وعندما كرَّرت فعلها وارتفع عويلها، ضربها هي الأخرى، واستمرَّ في ضربها حتَّى لاذت بالفرار. وضرب الشاب حتى انحنى منكمشًا على الأرض، وغطَّى وجهه الجريح بكفِّيه.

بعدها توقَّف وانج لونج، وارتفع صفير أنفاسه من بين شفثيه المنفرجتين، وتصبَّب العرق على جسده حتَّى بلَّله تمامًا، وأحسَّ بالضعف وكأنَّما بفعل المرض. ألقي بعود الخيزران وهمس لاهثًا مخاطبًا الصبي:

- فلتذهب إلى غرفتك الآن، وإياك أن تجرؤ على الخروج منها حتَّى أتخلَّص منك، وإلاَّ قتلتك!

ونفض الصبي دون النطق بكلمة واحدة، وذهب.

جلس وانج لونج على المقعد الذي كانت لوتس تشغله، ووضع رأسه بين كفِّيه وأغلق عينيه، وخرجت أنفاسه في لهاثٍ شديد. لم يقترب منه أحدٌ، وجلس بمفرده هكذا حتَّى هداً وزال غضبه.

ثم نهض منهاً وتوجّه إلى الغرفة، حيث رقدت لوتس في فراشها
تبكي بصوتٍ مرتفعٍ. اقترب منها وقلّبها، وظلّت ممدّدة تنظر إليه وهي
تبكي، وعلى وجهها الأثر المتورّم الأرجواني اللون الذي خلفه سوطه.
قال لها بحزنٍ شديدٍ:

- أيجب إذن أن تظليّ عاهرةً إلى الأبد، وتسعي بعهركِ خلف
أبنائي!

بكت حينها بصوتٍ أعلى، واحتجّت قائلة:

- لا، لم أفعل. كان الصبي يشعر بالوحدة، لذلك أتى. وبوسعك
سؤال كوكو ما إذا كان قد اقترب من فراشي أبداً أكثر مما رأيته أنت في
الساحة!

ثم نظرت إليه بخوفٍ وبؤسٍ، وتناولت يده، ووضعتها على أثر
ضربته على وجهها، وهي تنسج.

- انظر ما فعلته بزهرة اللوتس الخاصّة بك! أنتَ الرجل الوحيد في
العالم بالنسبة لي. وابنك لا يعدو لي سوى كونه مجرد ابنك. وما شأنِي
أنا به؟

نظرت إليه وعيناها الجميلتان تسبحان في دموعها الصافية، وتأوّه
لأنّ جمال هذه المرأة كان أكثر ممّا يتمنّى، ولم يتمكّن من مقاومتها.
وبدا له فجأة أنّه لن يتحمّل معرفة ما وقع بين هذين الاثنين، وتمنّى ألا
يعرف أبداً، وكان من الأفضل له ألا يعرف. لذا تأوّه مرّة أخرى وخرج.
مرّ أمام غرفة ابنه، ونادى دون أن يدخل:

- حسنًا، اجمع أغراضك في الصندوق الآن، واذهب غداً إلى الجنوب، وافعل ما تشاء هناك، ولا تعد إلى المنزل حتى أرسل في طلبك.

ثم واصل طريقه، وكانت أولان جالسة هناك تخبّط شيئاً ما من ملابسه، ولم تقل شيئاً عندما مرّ بجوارها. ولو كانت قد سمعت الضرب والصراخ، فلم يبدر منها ما يدُلُّ على ذلك. واصل طريقه، وخرج إلى حقوله في شمس الظهيرة المرتفعة، وأحسَّ بالإرهاك كأنّه كدَّ في العمل ليومٍ كاملٍ.



برحيل الابن الأكبر، شعر وانج لونج أنّ المنزل تطهّر من عبءٍ ثَقِيلٍ من الاضطرابات، فغمره الشعور بالارتياح. قال لنفسه إنّ رحيل الشاب أمرٌ جيّدٌ، وبوسعه الآن متابعة باقي أطفاله، والتعرّف عليهم. حيث إنّهُ مع كلّ مشاكله، وانشغاله بالأرض التي يجب زراعتها وحصادها في موسمها مهما وقع من أمورٍ أخرى، لم يكن يعرف إلا القليل عن باقي أبنائه بعد ابنه الأكبر. علاوة على ذلك، قرّر إخراج الصبي الثاني من المدرسة في وقتٍ مبكرٍ، وتدريبه على إحدى المهن، بدلًا من انتظار فوضى الشباب حتّى تلحقه وتجعله مصدرًا للإزعاج في المنزل كما حدث مع الأكبر سنًّا.

كان ابن وانج لونج الثاني مختلفًا عن الأكبر بقدر ما يمكن أن يختلف شقيقان في المنزل نفسه. في حين كان الأكبر طويل القامة، ضخم العظام، وله وجهٌ متورّدٌ مثل الرجال في الشمال ومثل والدته، كان الثاني قصيرًا وضئيلًا، أصفر البشرة، وكان فيه شيءٌ ما يذكر وانج لونج بوالده، حيث إنّ عينيه كانتا ماكرتين وحادّتين، وبه روح دعاية، ولديه نزعةٌ خبيثةٌ إذا استدعى الأمر ذلك. وقال وانج لونج:

- حسنًا، سيكون هذا الصبي تاجرًا جيّدًا. سأخرجه من المدرسة، وأرى ما إذا كان بوسعهِ التدرّب في سوق الحبوب. سيكون من الملائم وجود ابنٍ لي هناك، حيث أبيع محاصيلي. يمكنه مراقبة الموازين، وجعلها تميل لصالحى بعض الشيء.

لذا قال لكوكو ذات يوم:

- اذهبي الآن، وأبلغى والد خطيبة ابني الأكبر أنّ لديّ ما أخبره به. ويجب على أيّ حال أن نتشارك في شرب كأسٍ من النبيذ معًا، حيث إنّ دمي ودمه سوف ينسكب في وعاءٍ واحدٍ.

ذهبتُ كوكو، ثم عادتُ قائلة:

- سوف يلتقيك حينما تشاء. وإذا استطعتَ الذهاب لشرب النبيذ ظهر اليوم، فسيكون هذا ملائمًا. وإذا كنتَ تريد، فيمكنه هو الحضور هنا بدلًا من ذلك.

لكنّ وانج لونج لم يرغب في حضور تاجر المدينة إلى منزله، حيث كان يخشى اضطرابه إلى تجهيز هذا وذاك، لذا اغتسل وارتدى سترته الحريرية، وانطلق سائرًا عبر الحقول. ذهب أولاً إلى شارع الجسور كما أخبرته كوكو، وتوقّف هناك أمام بوابة تحمل اسم ليو. لم يتمكّن من قراءة الكلمة بنفسه، لكنّه خَمّن البوابة، بابان إلى يمين الجسر، وسأل أحد المارة وكان الاسم بالفعل هو اسم ليو. كانت بوابة فخمة مبنية من الخشب، وطرقها وانج لونج بكفّ يده.

انفتح الباب على الفور، ووقفتُ خادمة هناك تمسح يديها المبللتين

في مئزرها، وهي تسأله عمّن يكون، وعندما أجاب باسمه حدّثت به، وقادته إلى الساحة الأولى حيث كان الرجال يقيمون، وأدخلته غرفة، وطلبت منه الجلوس، وحدّثت إليه مرّة أخرى؛ حيث كانت تعرف أنّه والد خطيب ابنة رب المنزل. ثم ذهبت لتنادي سيّدها.

تأمّل وانج لونج المكان حوله بعناية، ونهض وتحسّس قماش الستائر في مدخل الباب، وتفحص خشب الطاولة البسيطة، وأحسّ بالسرور، حيث كان هناك ما يدلّ على العيش الكريم، دون ثراءٍ مفرطٍ. لم يكن يريد زوجة ابنٍ بالغة الثراء، حتّى لا تكون متكبرة وغير مطيعة، وتبكي مطالبة بهذا الصنف وذاك من الطعام والملابس، وتصرف قلب ابنه عن أبويه. بعدها جلس وانج لونج منتظرًا.

علا فجأة وقع خطواتٍ ثقيلة، ودخل رجلٌ بدينٌ كبيرٌ في السن، فنهض وانج لونج وانحنى، وتبادلا الانحناء وهما يتأمّلان بعضهما خلسة، أعجب كلُّ منهما بالآخر، وتبادلا الاحترام، فكلُّ منهما رجلٌ ذو مكانة وثراءٍ. ثم جلسا وشربا من النبيذ الحار الذي صبّته لهما الخادمة، وتحدّثا على مهلٍ عن هذه الأمور وتلك، وعن المحاصيل والأسعار، وعن ثمن الأرز هذا العام إذا أصبح المحصول وفيرًا. وأخيرًا، قال وانج لونج:

- حسنًا، لقد جيئت من أجل غرضٍ ما، وإذا لم تكن ترغب في ذلك فلتحدّث عن أشياءٍ أخرى. لكن إذا كنت بحاجةٍ إلى خادمٍ في سوقك الكبير، فهناك ابني الثاني، وهو حادّ الذكاء. لكن إذا لم تكن بحاجةٍ إليه، دعنا نتحدّث عن أشياءٍ أخرى.

قال التاجر بلطفٍ شديدٍ:

- لديّ حاجةٌ بالفعل إلى شابٍّ حادِّ الذكاء، إذا كان يستطيع القراءة والكتابة.

فأجابه وانج لونج بفخرٍ:

- ابناي كلاهما عالمان خيران. ويمكنهما تمييز ما إذا كان الحرف مكتوبًا بطريقة خاطئة، ومعرفة متى يجب استخدام الجذر الخشبي أو المائي.

قال ليو:

- هذا جيّدٌ. دعه يأتي عندما يشاء. سيكون أجره في البداية هو طعامه فقط، حتّى يتعلّم العمل. وبعد عامٍ، إذا أثبتَ جدارته، سوف يحصل على قطعة من الفضة عند نهاية كل شهرٍ، وبعد انقضاء ثلاث سنواتٍ، ستصبح ثلاث قطعٍ من الفضة. بعد ذلك لا يعود متدربًا، لكن يمكنه الترقّي في العمل قدر استطاعته. وإلى جانب أجره، فهناك أي عمولاتٍ قد يتمكّن من الحصول عليها من هذا المشتري أو ذاك البائع، ولا أتدخل في ذلك لو تمكّن من الحصول عليها. ولأنّ أسرتنا متحدثتان بالمصاهرة، فلن أطلب منك رسوم ضمانٍ لحضوره.

حينها نهض وانج لونج مسرورًا، وضحك قائلاً:

- الآن وقد بتنا أصدقاء، أليس لديك ابنٌ ملائمٌ لابنتي الثانية؟

عندئذٍ أطلق التاجر ضحكة مدوية، حيث كان سمينًا موفور الصحة،

وقال:

- لديّ ابنٌ ثانٍ في العاشرة من العمر لم أخطب له بعد. كم يبلغ عمر الفتاة؟

ضحك وانج لونج ثانية، وأجاب:

- سوف تتمّ العاشرة من العمر في عيد مولدها القادم، وهي زهرة جميلة.

ثم تشارك الرجلان في الضحك، وقال التاجر:

- هل نرتبط بحبلٍ مزدوجٍ إذن؟

ولم يقلْ وانج لونج المزيد بعد ذلك، فلم يكن من الممكن مناقشة الأمر وجهًا لوجهٍ أبعد من هذا. لكن بعد أن انحنى وانصرف وهو يشعر بالسرور، قال لنفسه:

- من الممكن إتمام الأمر.

ونظر لابنته الصغرى عندما عاد إلى منزله، وكانت طفلة جميلة. كانت والدتها قد ربطتْ قدميها جيّدًا، بحيث صارتْ تتحرّك بخطواتٍ صغيرة رشيقة.

لكن عندما تأمّلها وانج لونج من كثبٍ، لاحظ آثار الدموع على وجنتيها. وكان وجهها شاحبًا وجادًا بالنسبة لعمرها. أمسك يدها الصغيرة وقربها منه، وقال:

- لماذا بكيتِ؟

حنتْ رأسها، وعبثتْ بزر معطفها، وقالت مغممة بخجل:

- لأنّ أُمّي تربط قطعة من القماش حول قدمي بقوة أكثر كلّ يوم،

ولا أستطيع النوم في الليل.

تعجّب قائلاً:

- لكنّني لم أسمعك تبكين.

قالت ببساطة:

- لا. قالت أُمِّي إِنَّ عَلَيَّ أَلَا أَبْكِي بصوتٍ مرتفعٍ، لأنّك حنونٌ للغاية، وأضعف من أن تتحمّل الألم، وقد تأمرها بأن تتركني كما أنا. وحينها لن يحبّني زوجي، كما لا تحبّها أنت.

قالت الطفلة هذا ببساطة، كمن يروي حكاية. وأحسّ وانج لونج بطعنة عند سماعه ذلك، وبأنّ أولان أخبرت الطفلة أنّه لا يحبّها، هي من كانت أمّ طفلته. فقال على عجلٍ:

- حسنًا، لقد سمعتُ اليوم عن زوجٍ جميلٍ لك، وسوف نرى ما إذا كان بوسع كوكو ترتيب الأمر.

حينها ابتسمت الطفلة، وحنّت رأسها، وقد أصبحت فتاة فجأة ولم تعد مجرد طفلة. وقال وانج لونج لكوكو في نفس ذلك المساء عندما كان في ساحتها الداخليّة:

- فلتذهبي، وتري ما إذا كان من الممكن إتمام الأمر.

لكنّه نام بقلقٍ بجوار لوتس في تلك الليلة، واستيقظ وانشغل بالتفكير في حياته، وكيف كانت أولان أوّل امرأة عرفها، وكيف ظلّت خادمة مطيعة إلى جواره. وفكّر فيما قالته الطفلة وغمره الحزن، لأنّها على الرغم من بلادتها، تمكّنت أولان من رؤية الحقيقة بداخله.

في الأيام التالية بعد هذا، أرسل ابنه الثاني إلى المدينة، ووقع أوراق خطبة ابنته الثانية، وتمّ الاتفاق على الدوطة وهدايا الملابس والمجوهرات ليوم زفافها. عندها استراح وانج لونج وحدّث نفسه قائلاً:

- حسناً، لقد أمنتُ مستقبل جميع أبنائي الآن. أمّا حمقائي المسكينة، فلا تستطيع القيام بشيء سوى الجلوس تحت الشمس وهي تعبث بقطعة من القماش، وبالنسبة للصبي الأصغر، فسوف أبقيه كي يعمل في الأرض، ولن أرسله إلى المدرسة. حيث إنّ هناك اثنين يستطيعان القراءة، وهذا كافٍ.

كان يشعر بالاعتزاز لأنّ لديه ثلاثة أبناء، أحدهما عالمٌ، والثاني تاجرٌ، والثالثهما مزارعٌ. أحسّ بالرضى حينها، وتوقّف عن الانشغال بالتفكير في أبنائه. لكن سواء كان يرغب في ذلك أم لا، انشغل باله بالتفكير في المرأة التي حملتهم من أجله.

لأوّل مرّة طوال السنوات التي قضاها برفقتها، بدأ وانج لونج يفكر في أولان. حتّى في الأيام الأولى لمجيئها إلى منزله، لم يفكر فيها لذاتها، ولم يفكر في أبعد من كونها أنثى، وأوّل امرأة يعرفها. وبدا له أنّه ظلّ منشغلاً بهذا الأمر أو ذاك دون أن يَسْنَحَ له أيّ وقت فراغ، والآن فقط بعد أن استقرّت أمور أبنائه، وحظيتْ حقوله بالعناية اللازمة، وصارت ساكنة مع حلول الشتاء، وبعد أن انتظمتْ حياته مع لوتس، وأصبحت خاضعة له منذ أن ضربها، بدا له أنّه صار لديه الوقت الآن للتفكير فيما يشاء، وانشغل بأولان.

نظر إليها هذا المرّة ليس لكونها أنثى، وليس لأنّها كانت قبيحة ونحيفة وبشرتها صفراء. بل نظر إليها بنوعٍ من الندم الغريب، ولاحظ أنّها صارت نحيلة، وأنّ بشرتها ذابلة وصفراء. لطالما كانت امرأة سمراء، وبشرتها متورّدة وبنيّة حينما كانت تعمل في الحقول. ومع ذلك، فهي لم تعدّ تذهب إلى الحقول منذ سنواتٍ طويلةٍ، سوى في أوقات الحصاد ربّما، حتّى انقطعت عن الذهاب نهائيّاً منذ عامين أو أكثر. حيث لم يكن يحبُّ أن تذهب، لئلا يقول الرجال:

- هل ما زالت زوجتك تعمل في الأرض بينما أنت تتمتّع بالشراء؟ وعلى الرغم من ذلك، لم يفكّر في سبب رغبتها بالبقاء في المنزل في نهاية المطاف، ولم أخذت حركتها تزداد بطئاً أكثر وأكثر. وعندما فكّر في الأمر الآن، تذكّر أنّه كان يسمعها أحياناً وهي تتأوّه في الصباح عند قيامها من فراشها، وعندما تنحني لتملأ الفرن بالوقود. ولم تكن تتوقّف فجأةً إلّا عندما يسأل:

- حسناً، ما الأمر؟

امتلاً بالندم الآن وهو ينظر إليها، وإلى الورم الغريب الذي كان يجسدها، على الرغم من أنّه لم يعرف سبب ندمه، وجادل نفسه قائلاً:

- حسناً، ليس لي ذنبٌ في أنّي لم أحبّها كما يحبُّ المرء محظيته، حيث إنّ الرجال لا يفعلون ذلك.

وقال معزّياً نفسه:

- لم أضربها، ومنحتها الفضة عندما طلبتها مني.

لكنّه على الرغم من ذلك لم يتمكّن من نسيان ما قالته له الطفلة، ووخزه الأمر على الرغم من أنّه لم يدرك السبب، حيث إنّهُ كلّما جادل نفسه في الموضوع، دومًا ما كان يجد نفسه زوجًا طيبًا لها، وأفضل من كثيرين غيره.

ونظرًا لأنّه لم يستطع التخلّص من شعوره بالانزعاج حيالها، فقد ظلّ يتأمّلها وهي تجلب له الطعام، أو وهي تتحرّك في أرجاء المكان. وعندما انحنت لتكنس الأرض الحجريّة في أحد الأيام بعد أن انتهيا من تناول الطعام، رأى وجهها يشحب من أثر ألم باطنيٍّ من نوع ما، وانفجرت شفتاها وهي تلهث بهدوءٍ، ووضعت يدها على بطنها على الرغم من أنّها ظلّت في وضع الانحناء كما لو كانت تريد أن تكنس الأرض. سألها بحدّة:

- ما الأمر؟

لكنّها أدارت وجهها، وأجابت بخنوع:

- إنّهُ مجرد ذلك الألم القديم في أحشائي.

ثم حدّق بها، وقال للفتاة الصغرى:

- تناولي المكنسة واكنسي، إذ إنّ أملك مريضة.

وقال لأولان بلطفٍ أكبر ممّا خاطبها به منذ سنواتٍ طويلة:

- ادخلي واستلقي على فراشك، وسوف آمر الفتاة أن تأتيك بماءٍ

ساخن. لا تنهضي من الفراش.

أطاعته على مهلٍ ودون جوابٍ. دخلت غرفتها، وسمعتها تجر جر

أقدامها في الداخل، حتّى استلقتُ أخيراً وهي تتنُّ بهدوءٍ. جلس يستمع لهذا الأنين حتّى لم يعد قادراً على تحمُّله، فنهض وتوجّه إلى المدينة، وسأل عن مكان متجر الطبيب.

وجد متجرّاً أوصاه به كاتبٌ في سوق الحبوب، حيث يعمل ابنه الثاني الآن، فدخله. جلس الطبيب دون عملٍ أمام إبريقٍ من الشاي. كان رجلاً عجوزاً له لحية رماديّة طويلة، وأعلى أنفه نظاراتٌ نحاسيّة كبيرة مثل عيني البومة. وكان يرتدي ثوباً رمادياً متسخاً تغطي أكمامه الطويلة كفّيه تماماً. عندما أخبره وانج لونج عن أعراض زوجته، زمّ شفّتيه، وفتح درجاً في الطاولة التي كان يجلس إليها، وأخرج حزمة ملفوفة بقطعة من القماش الأسود، وقال:

- سأتي الآن.

عندما وصلا إلى سرير أولان، كانت قد استسلمت لنوم خفيفٍ، والعرق يندي شفّتها العليا وجبينها، وهزّ الطبيب رأسه عندما رآها. مدّ يده الجافّة والصفراء مثل يد قردٍ، وتحسّس نبضها. وبعد أن أمسكها لفترة طويلة، هزّ رأسه مرّة أخرى بجديّة، وقال:

- الطحال متضخّمٌ، والكبد مُعْتَلَّةٌ. وهناك حجرٌ بحجم رأس رجلٍ في الرحم، والمعدة مهترئة. أمّا القلب فهو يدقُّ بالكاد، ولا شك أنّ به ديداناً.

عندما سمع هذه الكلمات، كاد قلب وانج لونج نفسه أن يتوقّف، وانتابه الخوف. فصرخ بغضبٍ:

- حسنًا، فلتعطيها دواءً. ألا يمكنك القيام بذلك؟

فتحت أولان عينيها بينما هو يتحدث، ونظرت إليهما دون أن تفهم،
والنعاس يغلبها من أثر الألم. تحدث الطبيب العجوز ثانية، وقال:

- إنها حالة صعبة. إذا لم تطلب ضمانًا للشفاء، سوف أطلب عشر
قطع من الفضة كأجرٍ، وسأعطيك وصفة أعشاب وقلب نمرٍ مجفف
بدخله سن كلب. اغل كل هذا معًا، ودعها تشرب الحساء. لكن إذا
كنت ترغب في ضمان الشفاء الكامل، سوف أطلب حينها خمسمائة
قطعة من الفضة.

عندما سمعت أولان كلماته، وهو يقول «خمسمائة قطعة من
الفضة»، أفأقت فجأة من نعاسها وقالت بوهن:

- لا، فإن حياتي لا تساوي هذا القدر. من الممكن شراء قطعة
أرض جيدة بمثل هذا المبلغ.

حين سمعها وانج لونج تقول هذا، عاد كلُّ ندمه القديم ليعذِّبه،
وأجابها بشراسة:

- لن أقبل حدوث وفاة في منزلي بينما بوسعي دفع الفضة.

عندما سمعه الطبيب يقول «بوسعي دفع الفضة»، التمت عيناه
بحشع، لكنّه كان يعرف العقوبة التي يفرضها عليه القانون إذا لم يف
بوعده وماتت المرأة. لذا قال بندم:

- لا، عندما طالعت لون بياض عينيها؛ وجدت أنني كنتُ مخطئًا.

يجب أن أحصل على خمسة آلاف قطعة من الفضة؛ إذا كنت سأقدم ضماناً بتعافيتها الكامل.

عندئذٍ نظر وانج لونج إلى الطبيب في صمتٍ وحزنٍ، وقد فهم الأمر. لم يكن يملك هذا القدر من الفضة إلا إذا باع أرضه، لكنه كان يعلم أنه حتى إذا باع أرضه فلن يجدي الأمر. كانت هذه ببساطة هي الطريقة التي يقول بها الطبيب: «سوف تموت المرأة».

لذا خرج بصحبة الطبيب، ودفع له عشر قطعٍ من الفضة، وبعد رحيله دخل وانج لونج إلى المطبخ المعتم حيث قضت أولان معظم حياتها، وحيث لن يراه أحدٌ الآن في غيابها، وأدار وجهه نحو الجدار المكسو بالسواد، وأجهش بالبكاء.



لكنّ الحياة لم تنطفئ في جسد أولان بصورة مفاجئة. كانت قد تجاوزت منتصف عمرها بالكاد، ولم تنسل الحياة من جسدها بسهولة. لذا، ظلّت راقدة تحتضر في فراشها لعدّة أشهرٍ. بقيت على سريرها تصارع الموت طوال أشهر الشتاء الطويلة، وعرف وانج لونج وأطفاله لأوّل مرّة ما الذي كانت تمثّله بالنسبة للمنزل، وكيف وفّرت الراحة لهم جميعاً دون أن يدركوا ذلك.

بدا الآن أنّه لا يوجد من يعرف كيفية حرق العشب وإبقائه مشتعلاً في الفرن، ولم يكن هناك من يستطيع قلب السمكة في القدر دون تفتيتها أو حرق أحد جانبيها حتّى يسودّ من قبل أن ينضج الجانب الآخر، ولم يكن هناك من يعلم ما إذا كان زيت السمسم أو زيت فول الصويا هو الملائم لقلي هذا النوع من الخضراوات أو ذاك. ظلّت القاذورات المتخلّفة عن الفتات وبقايا الطعام متساقطة أسفل الطاولة، ولم يكن أحدٌ يكنسها حتّى ينفد صبر وانج لونج بسبب الرائحة المتصاعدة منها، فينادي الكلب من الساحة ليلعقها، أو يصيح في الفتاة الصغرى كي تجمعها وتلقيها في الخارج.

قام الصبي الأصغر بهذا العمل أو ذاك حتّى يؤدي دور والدته في خدمة جدّه العجوز، الذي صار عاجزاً الآن مثل طفلٍ صغيرٍ. ولم يستطع وانج لونج أن يجعل العجوز يفهم ما حدث لأولان، فلم تعدّ تأتيه بالشاي والماء الساخن، أو تساعد على الاستلقاء والوقوف. وانتابه الغضب لأنّه كان يناديها فلا تحضر، وألقى وعاء شايه على الأرض مثل طفلٍ عنيدٍ. في النهاية، قاده وانج لونج إلى غرفة أولان، وأراه الفراش الذي ترقد فيه، وحدّق العجوز بعينيه الغائمتين شبه الكفيفتين، وتمتم وبكى لأنّه رأى على نحوٍ خافتٍ أنّ هناك شيئاً على غير ما يرام.

كانت البلهاء المسكينة وحدها هي من لا تعرف شيئاً، وكانت تبسم فحسب، وتفتل قصاصة من القماش وهي تبسم. مع ذلك، كان يجب أن يتذكّرها أحدهم كي يجلبها للداخل حتّى تنام ليلاً، وحتّى يطعموها، وكي يجلسوها في الشمس نهاراً، ويقودوها إلى الداخل إذا هطلت الأمطار. كان يجب أن يتذكّر أحدهم كلّ ذلك. لكن حتّى وانج لونج نفسه نسي، وتركوها ذات مرّة في الخارج طوال ليلة بأكملها، وفي الصباح التالي كانت البائسة المسكينة ترتجف، وتبكي في ساعات الفجر الأولى. انتاب وانج لونج الغضب، ولعن ابنه وابنته لأنّهما نسيا البلهاء المسكينة التي كانت شقيقتهم. ثم رأى أنّهما كانا مجرد طفلين، يحاولان أن يأخذا محلّ والدتهما، ولا يستطيعان ذلك، فمالك غضبه، وبعد ذلك صار يهتّم بالبلهاء المسكينة بنفسه ليلاً ونهاراً. إذا هطلت الأمطار أو تساقطت الثلوج، أو إذا هبّت ريحٌ قارسة، كان يقودها إلى الداخل، ويتركها تجلس بين الرماد الدافئ المتساقط من موقد المطبخ.

طوال أشهر الشتاء المُظلمة عندما كانت أولان تحتضر، لم يهتم وانج لونج بالأرض. سَلَّم إلى تشينج إدارة الرجال ومهام الشتاء، وعمل تشينج بأمانة، وكان يأتي ليلاً ونهاراً إلى باب الغرفة التي ترقد فيها أولان، ويسأل عن حالها مرتين يومياً بصوته الهامس الهادئ. في النهاية، لم يُعُدْ وانج لونج قادراً على تحمُّل الأمر، لأنَّه لم يكن يستطيع أن يقول كلَّ يومٍ وليلة ما هو أكثر من: «شربت اليوم قليلاً من حساء الطيور»، أو «أكلت اليوم بعضاً من عصيدة الأرز الخفيفة»، لذا أمر تشينج بالتوقُّف عن السؤال، والاكتفاء بأداء عمله بشكلٍ جيِّدٍ، وسيكون ذلك كافياً.

كان وانج لونج يجلس كثيراً إلى جانب فراش أولان طوال الشتاء البارد المُظلم، وفي حال ما إذا شعرت بالبرد، كان يشعل قِدرًا من الفحم، ويضعها بجوار سريرها لتنعّم بالدفء. وكانت تغمغم بصوتٍ خافتٍ في كلِّ مرَّة:

- حسنًا، إنَّ هذا باهظ التكلفة.

في النهاية، عندما قالت هذا في أحد الأيام، لم يتحمَّل الأمر، وانفجر قائلاً:

- لا يمكنني تحمُّل هذا! أنا على استعدادٍ لبيع كلِّ أرضي لو كان ذلك سيشفيك.

ابتسمت لقوله هذا، ولهتت قائلة في همسٍ:

- لا، لن... أدعك. حيث يجب أن أموت... في وقتٍ ما على أيِّ حالٍ. لكنَّ الأرض باقية بعد رحيلي.

لكنه رفض الحديث عن موتها، ونهض خارجاً عندما أثارَت الموضوع.

مع ذلك، لأنَّه كان يعلم أنَّها يجب أن تموت، وأنَّ هذا واجبه، فقد ذهب إلى المدينة في أحد الأيام، وتوجَّه إلى متجر صانع النعوش، وتأمل كلَّ نعشٍ جاهز للشراء، واختار نعشاً أسود جيِّداً مصنوعاً من الخشب الثقيل الصُّلب. انتظره النجار حتَّى يختار، ثم قال بمكرٍ:

- إذا أخذتَ اثنين، سيقُلَّ السعر بالنسبة للاثنين بمقدار الثلث. فلم لا تشتري لنفسك واحداً، حتَّى تضمن وجوده؟
أجابه وانج لونج:

- لا، يمكن أن يفعل أبنائي ذلك من أجلي.
ثم فكَّر في والده هو، وكيف أنَّه لم يكن لديه نعشٌ للعجوز بعد، فصدمته الفكرة، وقال مرَّةً أخرى:

- لكنَّ والدي عجوزٌ، وسوف يموت في يومٍ ما قريباً، إذ إنَّ ساقيه تحمِلانه بصعوبة، وهو أصمُّ ونصف أعمى. لذا سوف آخذ الاثنين.

ووعده الرجل بطلاء النعشين مرَّةً أخرى بلون أسود جيِّد، وبارسألهما إلى منزل وانج لونج. لذا أخبر وانج لونج أولان بما فعله، وأحسَّت بالسرور لأنَّه قام بذلك من أجلها، وأعدَّ العُدَّة لموتها على نحو جيِّد.

وهكذا جلس إلى جوارها لساعاتٍ طويلة من النهار، ولم يتبادلا الحديث كثيراً، حيث كانت ضعيفة، وإلى جانب ذلك فلم يعتادا تبادل

الحديث من قبل قطُّ. كثيرًا ما كانت تنسى أين هي، بينما هو جالسٌ هناك في سكونٍ وصمتٍ. وكانت أحيانًا تهمهم متحدثًا عن طفولتها، وللمرّة الأولى رأى وانج لونج ما بداخل قلبها، على الرغم من أنّ ذلك كان - حتى في هذه الظروف - من خلال عباراتٍ مقتضبة كهذه:

- سوف أجلب اللحوم حتى الباب فقط... أعرف جيدًا أنّي قبيحة، ولا يمكنني الظهور أمام السيد المبجل...

وفي مرّة أخرى، قالت لاهثة:

- لا تضربني... لن أكل من هذا الطبق مرّة أخرى أبدًا.

وظلّت تقول مرارًا وتكرارًا:

- أبي... أبي... أبي... أبي...

وتعيد وتزيد:

- حسنًا، أعرف أنّي قبيحة، ولا يمكن أن يحبني أحد...

عندما قالت هذا، لم يتحمّل وانج لونج الأمر، فتناول كفها ليهدها، وكانت يدها ضخمة وقاسية، ومتصلبة كما لو كانت ميتة بالفعل. وتعجّب واستاء من نفسه أكثر من أيّ شيء آخر، لأنّ ما قالته كان صحيحًا. وحتى عندما تناول يدها وهو يرغب بصدق أن تستشعر حرمانه تجاهها، أحسّ بالخزي لأنّه لم يشعر بأيّ حنانٍ، ولا بذوبان قلبه الذي كانت لو تس قادرة على انتزاعه منه بمجرد زَمّ شفّتها. عندما أمسك بهذه اليد المتصلبة المحتضرة، لم يشعر نحوها بالحبّ، وحتى شفّته حيالها شابها النفور منها.

وبسبب ذلك، كان أكثر لطفًا معها، واشترى لها أنواعًا خاصّة من الطعام والحساء الشهى المطهو بالسمك الأبيض وقلب الكرنب الغضّ. علاوة على هذا، لم يستطع أن يستمدّ المتعة من لوتس، لأنّه عندما كان يذهب إليها ليشتّت ذهنه بعيدًا عن يأسه النابع من عذاب الاحتضار الطويل هذا، لم يكن يتمكّن من نسيان أولان. وحتى خلال عناقه للوتس، كان يرخي ذراعيه عنها بسبب أولان.

مرّت أوقاتٌ كانت تستفيق خلالها أولان، وتدرّك ما يدور حولها. وفي إحدى المرّات، طلبت رؤية كوكو. وعندما نادى وانج لونج المرأة بدهشة شديدة، رفعت أولان نفسها مستندة على ذراعها وهي ترتجف، قالت بوضوحٍ كافٍ:

- حسنًا، ربما تكونين قد عشت في بلاط السيد العجوز، وكنت تُعدّين جميلة، لكنني كنتُ زوجة لرجلٍ، وأنجبتُ له الأبناء، وأنتِ لا تزالين جارية.

عندما أرادت كوكو الرّدّ عليها بغضبٍ، توّسل إليها وانج لونج وهو يقودها إلى الخارج، قائلاً:

- تلك المرأة لا تعي ما الذي تعنيه الكلمات الآن.

عندما عاد إلى الغرفة، كانت أولان لا تزال تسند رأسها على ذراعيها، وقالت له:

- بعد أن أموت، لا أريد أن تدخل تلك المرأة ولا سيدتها إلى حجرتي، ولا أن تلمسوا أشياءي. وإذا فعلتا، فسوف أرسل روعي إلى هذا العالم لتلعنهما.

ثم نامت نومها المتقطع، وسقطت رأسها على الوسادة.

لكنّها تحسّنت فجأة قبل يومٍ واحدٍ من حلول العام الجديد، كما ترتجف الشمعة المشتعلة بسطوعٍ عندما تشارف نهايتها. عادت إلى طبيعتها التي افتقدتها، وجلست في الفراش، ومشطت شعرها بنفسها، وطلبت أن تشرب الشاي. وعندما جاء وانج لونج قالت:

- ها هو العام الجديد سوف يحلّ، ولا يوجد لدينا أيّ كعكٍ أو لحوم جاهزة، لذا فكّرتُ في شيءٍ ما. لا أريد تلك الجارية في مطبخي، لكن أريدك أن ترسل في طلب زوجة ابني، المخطوبة لابننا البكر. لم أرها بعد، لكن عندما تأتي سأخبرها بما يجب عليها أن تفعله.

كان وانج لونج مسرورًا لأنّها استعادت قوتها، على الرغم من أنّه لم يكن يهتم بأيّ احتفالاتٍ في هذا العام. وأرسل كوكو كي تناشد تاجر الحبوب ليو، نظرًا لطبيعة الوضع. وبعد فترة، صار ليو على استعدادٍ للموافقة بعد أن سمع أنّ أولان ربما لا تعيش لِمَا بعد فصل الشتاء. وفي النهاية، كانت الفتاة في السادسة عشرة، وأكبر من بعض اللواتي كنّ ينتقلن إلى بيوت أزواجهن.

لكن بسبب أولان، لم تُقم أيّ احتفالاتٍ. جاءت العروس بهدوءٍ محمولة على محفّة، أتت مع والدتها وخادمة عجوز. وعادت والدتها عندما سلّمت العروس لأولان، لكنّ الخادمة بقيت لخدمة العروس.

نُقِلَ الطفلان من الغرفة التي كانا ينامان بها، ومُنِحَت الحجرة لزوجة الابن الجديدة، وتمّ ترتيب كلّ شيءٍ كما ينبغي. لم يتبادل وانج لونج الحديث مع العروس، حيث لم يكن ذلك لائقًا، لكنّه حنى رأسه

بشدة عندما انحنت له، وكان مسرورًا بها لأنها كانت تعرف واجبها، وتحركت في المنزل بهدوءٍ وقد غصت بصرها. علاوة على ذلك، كانت فتاة حسنة المظهر، جميلة بما يكفي، لكن ليس بدرجة زائدة تدفعها للاختيال بذاتها. كان سلوكها حذرًا وسليمًا، وولجت غرفة أولان وقامت برعايتها. وقد خفف هذا من ألم وانج لونج حيال زوجته، نظرًا لوجود امرأة إلى جوار فراشها الآن، وأحست أولان برضى بالغٍ.

استمرَّ شعور أولان بالرضى لثلاثة أيامٍ وأكثر، ثم فكرت في أمرٍ آخر، وقالت لوانج لونج عندما جاء في الصباح ليطمئن كيف كان حالها خلال الليل:

- أريد شيئًا آخر قبل أن أموت.

أجاب بغضبٍ:

- لا يمكنك أن ترضيني وأنت تتحدثين عن الموت!

حينها ابتسمت بتمهلٍ، نفس الابتسامة البطيئة التي كانت تنتهي قبل أن تصل إلى عينيها، وأجابته:

- يجب أن أموت، فأنا أشعر بالموت منتظرًا في أحشائي. لكنني لن أموت قبل عودة ابني البكر، وقبل زفافه إلى هذه الفتاة الطيبة التي هي زوجة ابني. وهي تخدمني جيدًا، وتمسك حوض الماء الساخن بثباتٍ، وتعرف متى تمسح وجهي عندما أتعرق من الألم. والآن، أريد أن يعود ابني البكر إلى المنزل، لأنني يجب أن أموت، وأريده أن يتزوج عروسه أولاً، كي أستطيع الموت مطمئنة، وأنا أعلم أن حفيدك سيرى النور، وأن العجوز سوف يرى حفيد ابنه.

كان هذا القدر من الكلمات يُعدُّ كبيرًا بالنسبة لها في أيِّ وقتٍ، حتَّى وهي تتمنَّع بالصحة، وقالتها بقوة أكبر ممَّا قالت أيَّ شيءٍ آخر طوال أشهرٍ عديدة. وشعر وانج لونج بالسعادة للحياة البادية في صوتها، وبقوة عزمها هذه، ولم يعارضها، على الرغم من أنَّه كان يتمنَّى أن يسنح له المزيد من الوقت للإعداد لزفافٍ ضخْمٍ لابنه البكر. لذا اكتفى بأن قال لها بحماسة:

- حسنًا، سنفعل هذا. سوف أرسل رجلًا صوب الجنوب اليوم، وسوف يبحث عن ابني ويعود به إلى المنزل ليتزوَّج. بعد ذلك يجب أن تعديني أنَّك سوف تستجمعين قواكِ ثانية، وتخلِّين عن فكرة الموت هذه، وتستعيدين صحتكِ. لأنَّ المنزل أشبه بكهفٍ للوحوش دونك.

قال هذا لإرضائها، فشعرت بالسرور، على الرغم من أنَّها لم تتحدَّث مرَّةً أخرى. بل استلقت، وأغمضت عينيها وهي مبتسمة بعض الشيء.

لذا أرسل وانج لونج الرجل، وقال له:

- فلتخبر سيدك الشاب أنَّ والدته تحتضر، وأنَّ روحها لا يمكنها أن تنعم بالراحة حتَّى تراه، وتطمئن لزواجه. وإذا كان يُكُنُّ التقدير لي ولوالدته ولمنزله، فعليه أن يعود قبل أن يستنشق نفسًا آخر، لأنَّه في اليوم الثالث بعد يومنا هذا، سوف أعدُّ الولائم، وأدعو الضيوف لزفافه.

وفعل وانج لونج ما قاله. أمر كوكو بإعداد وليمة بأفضل ما في استطاعتها، وكان عليها أن تستدعي الطُّهاة من المتجر في المدينة لمساعدتها. سكب الفضة بين كفيها، وقال:

- فلتفعلي كما كانوا يفعلون في المنزل الكبير في مثل هذه المناسبة. وهناك المزيد من الفضة.

ثم ذهب إلى القرية، ودعا الضيوف، رجالاً ونساءً، وكلّ من كان يعرفه. وتوجّه إلى المدينة ودعا الذين كان يعرفهم في صالات الشاي وأسواق الحبوب، وكلّ من كان يعرفه. وقال لعمّه:

- ادعُ من تشاء إلى زفاف ابني، من أصدقائك، أو من أصدقاء ابنك. قال هذا لأنّه ظلّ يتذكّر دومًا من يكون عمّه، وكان وانج لونج مهذبًا مع عمّه، وعامله كضيف شرفٍ، كما فعل منذ تلك الساعة التي اكتشف فيها حقيقته.

في الليلة السابقة لزفافه، عاد ابن وانج لونج الأكبر إلى المنزل، ودخل الغرفة بخطواتٍ واسعة. ونسي وانج لونج كلّ الإزعاج الذي سبّبه له الشاب بعد أن عاد إلى المنزل، حيث انقضى عامان أو أكثر منذ أن رأى ابنه هذا. وها هو لم يعدّ صبيًا، بل رجلًا طويل القامة حسن المظهر، له جسدٌ ضخمٌ مربعٌ، ووجنتان عاليتان متورّدتان، وشعرٌ أسودٌ قصيرٌ، لامعٌ ومدهونٌ بالزيت. وكان يرتدي ثوبًا طويلًا من الساتان الأحمر الداكن، مثل تلك الملابس التي يجدها المرء في متاجر الجنوب، وسترة مخملية سوداء قصيرة دون أكمام. وكاد قلب وانج لونج ينفجر فخرًا عند رؤيته لابنه، ونسي كلّ شيءٍ سوى ابنه الصالح هذا، وقاده إلى والدته.

ثم جلس الشاب بجوار فراش والدته، والتمعت عيناه بالدموع لرؤيتها على هذا النحو، لكنّه لم يقل شيئًا سوى عباراتٍ مبهجة، مثل:

- أنت تبدين أفضل مما قالوا بمقدار مرتين، وبينك وبين الموت سنواتٌ عديدة.

لكن أولان قالت ببساطة:

- سوف أشهد زفافك، وبعد ذلك يجب أن أموت.

لم يكن من الممكن بالطبع أن يرى الشاب العروس، فأخذتها لوتس إلى الساحة الداخلية لإعدادها للزفاف. ولم يكن هناك من يمكنهن القيام بهذه المهمة أفضل من لوتس وكوكو وزوجة عمّ وانج لونج. أخذ هؤلاء الثلاثة الفتاة صبيحة زفافها، حمّمنها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وربطن قدميها مرّة أخرى بقماشٍ أبيض جديدٍ تحت جواربها الجديدة، ودلّكت لوتس جسدها ببعضٍ من زيت اللوز العطري الخاص بها. ثم ألبسها الثياب التي جلبتها من منزلها: الحرير الأبيض المنقوش بالزهور على جسدها البكر البضّ، يلي ذلك سترة خفيفة من أجود أنواع صوف الغنم، ثم ثياب العرس المصنوعة من الساتان الأحمر. وفركن جبهتها بالكلس، وبخيطٍ معقودٍ بمهارة، نزعن الشعر الدال على عذريتها، وهو الخصلة التي تعلو جبينها، وجعلن جبهتها عالية وناعمة، بما يتلاءم مع وضعها الجديد. ثم طليّنها بالبودرة وبالصبغة الحمراء، واستخدمن فرشاة لإطالة حاجبيها على شكل خطين دقيقين. ثم وضعن على رأسها تاج العروس والطرحة المزيّنة بالخرز، وألبسن قدميها الصغيرتين حذاءً مطرزاً، وصبغن أطراف أناملها وعطرن كفيها، وهكذا أعددنهن للزواج. خضعت الفتاة لكل شيء، لكنها أظهرت التردّد والخجل كما هو صحيحٌ وملائمٌ بالنسبة لوضعها.

ثم انتظر وانج لونج وعمّه ووالده والضيوف في الغرفة الوسطى، وجاءت الفتاة مستندة على جارتها وعلى زوجة عمّ وانج لونج، ودخلت بتواضع، ورأسها محنيّ كما هو مفترَض، وسارت كما لو أنّها غير راغبة في الزواج، وتحتاج من يعينها على الأمر. أظهر هذا تواضعها البالغ، وسرّ وانج لونج، وقال لنفسه إنّ هذه فتاة صالحة.

بعد هذا، أتى ابن وانج لونج الأكبر كما كان من قبل، وهو يلبس رداءه الأحمر وسترته السوداء، وكان شعره ناعماً ووجهه حليقاً منذ فترة قصيرة. وجاء شقيقاه خلفه، وعندما رآهم وانج لونج، كاد ينفجر تيهًا بموكب أبنائه ذوي الطلعة البهيّة، الذين كانوا سيواصلون حياة سلالة من بعده. لم يكن العجوز قد فهم ما يدور على الإطلاق، ولم يسمع سوى شذراتٍ ممّا صاحوا له به، لكنّه فهم الآن فجأة، وقهقه بصوتٍ أجشّ، وقال مرارًا وتكرارًا بصوته العجوز الهادئ:

- هناك زفافٌ، والزواج يعني أطفالاً مرّة أخرى، وأحفادًا!

وضحك بشدّة، لدرجة أنّ جميع الضيوف ضحكوا لرؤية حواره. وفكّر وانج لونج قائلاً لنفسه إنّهُ لو قامت أولان من فراشها، لكان يومًا سعيدًا.

طوال هذا الوقت، كان وانج لونج ينظر إلى ابنه في الخفاء بحدّة ليرى ما إذا اختلس نظرة إلى العروس. وقد استرق الشاب نظرة في الخفاء بالفعل من زاوية عينه، لكن ذلك كان كافيًا، حيث شعر بالسرور، وظهر المرح في سلوكه. وقال وانج لونج لنفسه بفخر:

- حسنًا، لقد اخترتُ له عروسًا تعجبه.

ثم انحنى الشاب والفتاة معاً للعجوز ولوانج لونج، وبعد ذلك دخلا الغرفة التي كانت ترقد بها أولان. كانت قد طلبت أن يلبسوها سترتها السوداء الجميلة، ونهضت جالسة عندما دخلا وقد التهبت بقعتان حمراوان كالنار على وجهها، أساء وانج لونج تفسيرهما بوصفهما دليلاً على الصحة، لذا قال بصوتٍ مرتفعٍ:

- سوف تُشفى عمّا قريب!

تقدّم منها الشابان وانحنيا لها، وربتت على الفراش، وقالت:

- اجلسا هنا واشربا النبيذ، وتناولوا أرز زفافكما، حيث أريد رؤية كلّ شيء، وسيكون هذا هو فراش الزوجية لكما، لأنني لن أعود بحاجة إليه قريباً، وسوف أحمل بعيداً.

لم يجبها أحدٌ عندما تحدّثت على هذا النحو، لكنّ الاثنين جلسا جنباً إلى جنبٍ في صمتٍ، وهما يشعران بالخجل من بعضهما. ودخلت زوجة عمّ وانج لونج المدينة وقد انتفخت لشعورها بالأهمية، حاملة وعائين من النبيذ الساخن. شرب الاثنان كلّ على حدة، ثم مزجا نبيذ الوعائين وشربا ثانية، للدلالة على أنّهما صارا واحداً الآن. وأكلا الأرز وخلطاه، ودلّ هذا على أنّ حياتهما باتت مشتركة، وهكذا تزوّجا. ثم انحنيا مرّة أخرى لأولان ووانج لونج، وخرجا وانحنيا معاً للضيوف المجتمعين.

ثم بدأت الوليمة، وامتلأت الحجرات والساحات بالطاولات وروائح الطهي وأصوات الضحك، حيث قدّم الضيوف من جميع الأنحاء: أولئك الذين دعاهم وانج لونج، ومعهم الكثير ممّن لم يسبق

وأن رآهم وانج لونج من قبل، لأنه كان من المعروف أنه رجلٌ ثريٌّ، ولن يفتقد أحدُ الطعام أو يحصيه في منزله في مثل هذه المناسبة. كانت كوكو قد جلبت الطُّهاة من المدينة لإعداد الوليمة، حيث كان هناك العديد من الأطباق الشهية التي لا يمكن إعدادها في مطبخ مزارع. وجاء طُّهاة المدينة حاملين سِلَالاً ضخمة من أنواع الطعام الجاهزة، والتي بحاجة إلى التسخين فقط. وأضافوا على أنفسهم أهمية بالغة، ولَوَّحوا بمآزرهم القذرة، وهم يتحرَّكون بنشاطٍ هنا وهناك في حماسة. وأكل الجميع المزيد والمزيد، وشربوا أقصى ما في وسعهم شربه، وعمَّت البهجة بين الجميع.

أرادت أولان أن تُبقي كلَّ الأبواب والستائر مفتوحة، كي تتمكن من سماع الضجيج والضحك وشمَّ رائحة الطعام. وقالت مراراً وتكراراً لوانج لونج الذي أتى كثيراً للاطمئنان عليها:

- هل تناول الجميع النبيذ؟ وهل طبق الأرز الحلو في منتصف مائدة الوليمة ساخنٌ للغاية؟ وهل وضعوا فيه المقدار الكامل من شحم الخنزير والسكر والفواكه الثمانية؟

عندما أكد لها أن كلَّ شيءٍ كما تتمنى، شعرت بالرضى، ووقدت وهي مصخية السمع.

ثم انتهى كلُّ شيءٍ، ورحل الضيوف وحلَّ الليل. ومع حلول الصمت على المنزل، وانحسار البهجة، فقدت أولان قوتها، وأحسَّت بالتعب والدوار، ودَعَت الاثنين اللذين تزوجا للتو، وقالت:

- أشعر بالرضى الآن، ويمكن لهذا الشيء بداخلي أن يفعل بي ما يريد. يا بني، فلترع والدك وجدك. ويا ابنتي، عليك برعاية زوجك ووالد زوجك وجدّه، والبلهاء المسكينة الجالسة في الساحة. ولستِ مُلزمة بأيّ واجبٍ حيال أيّ شخصٍ آخر.

قالت عبارتها الأخيرة هذه وهي تعني لوتس، التي لم تبادلها الحديث قط. بعد ذلك بدت وكأنّها تنام نومًا متقطعًا، على الرغم من أنّهم انتظروا منها مواصلة الحديث، حتى استيقظت مرةً أخرى لتتكلّم. لكن عندما نطقت، بدت وكأنّها لا تدرك وجودهما، ولا حتّى مكان وجودها. حيث غمغمت قائلة، وهي تدير رأسها في هذا الجانب وذاك، بينما عيناها مغمضتان:

- حسنًا، حتى إذا كنتُ قبيحة، إلّا أنّي أنجبتُ ابنًا. وعلى الرغم من أنّي لا أزيد على كوني مجرد جارية، إلّا أنّ هناك ابنًا في بيتي.

وقالت فجأةً مرةً أخرى:

- كيف يمكن لتلك الأخرى أن تطعمه وترعاه كما أفعل أنا؟ لن ينجب الجَمالُ الأبناء للرجال!

ونسيت الجميع ورقدت وهي تهمهم. ثم أشار لهم وانج لونج بالانصراف، وجلس هو إلى جانبها، وتأملها بينما هي تنام وتستيقظ. وكره نفسه لأنّه حتّى أثناء رقودها وهي تحتضر، لاحظ كم بدت شفتاها الداكتان متّسعة وشنيعة وهي منفرجة عن أسنانها. وبينما هو يتأملها، انفتحت عيناها عن آخرهما، وبدا وكأنّ هناك غشاوة غريبة تعلوهما، حيث حدّقت به مباشرة، ثم حدّقت ثانية باستغراب وثبتت عينيها عليه،

وكأنها تتساءل من يكون. وسقطت رأسها فجأة عن الوسادة المستديرة التي كانت مستلقية عليها، وارتجفت وماتت.

بمجرد وفاتها، بدا لوانج لونج أنه لا يستطيع تحمّل الاقتراب من أولان، ونادى زوجة عمّه كي تغسل الجسد قبل دفنه. وعند الانتهاء من الأمر، رفض الدخول مرّة أخرى. إلا أنه سمح لزوجة عمّه وابنه الأكبر وزوجة ابنه برفع الجثة من الفراش، ووضعها في النعش الكبير الذي اشتراه. وحتى يواسي نفسه، انشغل بالذهاب إلى المدينة ليجلب رجلاً كي يختموا النعش تبعاً للعرف، ووجد ضارب رمل، وطلب منه تحديد يوم حُسن الطالع لإتمام الدفن. وجد يوماً مناسباً بعد ثلاثة أشهر، وكان ذلك هو أوّل يوم ملائمٍ تمكّن ضارب الرمل من العثور عليه. لذا دفع وانج لونج المال للرجل، وتوجّه إلى المعبد في المدينة، وهناك ساوم الكاهن المسؤول عن المعبد، واستأجر مكاناً ليُوضع فيه نعش أولان حتّى يوم الدفن. حيث بدا لوانج لونج أنه لا يستطيع تحمّل وجوده تحت ناظره في المنزل.

بعد ذلك، كان وانج لونج حريضاً على القيام بكلّ ما يجب القيام به للمُتوفّى، لذا طلب ملابس حدادٍ له ولأبنائه، وصُنعت أحذيتهم من قماشٍ خشنٍ أبيض، وهو لون الحداد. وربطوا حول كاحلهم شرائط من القماش الأبيض، وربطت النساء في المنزل شعورهنّ بخيوطٍ بيضاء.

لم يحتمل وانج لونج النوم في الغرفة التي تُوفيت فيها أولان، فأخذ ممتلكاته، وانتقل بصورة كليّة إلى الساحة الداخليّة، حيث كانت تعيش لوتس، وقال لابنه الأكبر:

- اذهب مع زوجتك إلى تلك الغرفة، حيث عاشت وماتت والدتك التي حملتك وأنجبتك، وأنجب هناك أبناءك أنت.

لذا انتقل إليها الزوجان، وأحسّا بالرضى.

بعد ذلك، وكأنَّ الموت لا يستطيع أن يفارق المنزل بسهولة بعد أن زاره لأول مرة، رقد العجوز والد وانج لونج في فراشه ذات ليلة لينام، وكان شديد الاضطراب منذ أن رأهم يضعون جسد أولان المتصلّب في النعش، وعندما دخلت إليه الابنة الثانية في الصباح لتجلب له الشاي، كان ممدّدًا على سريره، وقد ارتفعت لحيته العجوز المتناثرة في الهواء، ورأسه الميت مُلقًى للوراء.

صرخت لمرآه، وركضت إلى والدها باكية، فدخل وانج لونج ووجد العجوز على هذا النحو، حيث كان جسده العجوز الضئيل المتصلّب جافًا وباردًا ونحيلًا مثل شجرة صنوبر مغضّنة، وكان قد مات منذ ساعاتٍ مضت، ربما بمجرد أن تمدّد على فراشه لينام. غسل وانج لونج العجوز بنفسه، ووضعه برفقٍ في النعش الذي اشتراه له، وجلب من يقوم بختمه، وقال:

- سندفن هذين المتوفيين من منزلنا في اليوم ذاته، وسوف أخصّص قطعة جيّدة من أرضي الكائنة في التّلال، وسندفنها هناك معًا. وعندما أموت أنا، سوف أدفن هناك أنا الآخر.

لذا، نفَّذ ما قال إنّه سيفعله. بعد أن ختم نعش العجوز، وضعه على مقعدين في الغرفة الوسطى، وظلَّ هناك حتّى جاء اليوم المُحدّد. وبدأ لوانج لونج أن العجوز ينعم بالسكينة لوجوده هناك، حتّى في موته،

كما شعر بأنّه قريبٌ من والده وهو في نعشه. وكان وانج لونج حزينًا لفراق والده، لكن ليس حدّ الموت، لأنّ والده كان طاعنًا في السنّ، وقد تقدّمتْ به السنوات، وظلّ شبه ميتٍ لأعوامٍ عديدة.

في اليوم الذي حدّده ضارب الرمل، في أوج فصل الربيع في ذلك العام، دعا وانج لونج الكهنة من المعبد الطاوي، فجاءوا مرتدين أرديتهم الصفراء، وشعرهم الطويل معقودٌ على قمة رؤوسهم. ودعا الكهنة من المعابد البوذية، ودخلوا بأرديتهم الرمادية الطويلة، ورؤوسهم حليقة تزينها الندوب التسع المقدّسة. قرع هؤلاء الكهنة الطبول، ورتلوا طوال الليل من أجل الاثنين اللذين تُوفيا. وكلما انقطعوا عن ترتيلهم، كان وانج لونج يسكب الفضّة في أيديهم، فكانوا يلتقطون أنفاسهم مرّة أخرى ويرتلون، ولم يتوقّفوا حتى بزوغ الفجر.

كان وانج لونج قد تخبّر مكانًا جيّدًا في حقوله للقبور، على تلّ أسفل نخلة من نخيل التمر. حفر تشينج القبرين وجهرهما، وأقام جدارًا من الطين حولهما، وكانت هناك مساحة داخل الجدران لجسد وانج لونج ولكلّ أبنائه وزوجاتهم، كما كانت هناك مساحة لأبناء الأبناء أيضًا. لم يضمن وانج لونج بهذه الأرض، على الرغم من أنّها كانت أرضًا مرتفعة، وصالحة لزراعة القمح، لأنّها كانت علامة على رسوخ أسرته في أرضهم. أمواتًا وأحياء، سوف يستقرون جميعًا في أرضهم.

في اليوم المُحدّد، بعد أن أكمل الكهنة ترتيلهم الليليّة، ارتدى وانج لونج ثوبًا من الخيش الأبيض، ومنح رداءً مثله لعمّه وابن عمّه، كما أعطى كلا من أبنائه رداءً، ولزوجة ابنه، ولابنتيه. طلب المحفّات

من المدينة لحملهم، فلم يكن من اللائق أن يسيروا إلى مكان الدفن وكأنّه رجلٌ فقيرٌ عاديٌّ. لذا ركب على أكتاف الرجال لأوّل مرّة، وراء النعش الذي ترقد فيه أولان. لكنّ عمّه ركب خلف نعش والده أولاً. حتّى لوتس، التي لم تستطع الظهور أمام أولان في حياتها، جاءت الآن في محفّة بعد وفاتها، كي تظهر أمام الآخرين وكأنّها تلتزم بواجبها حيال الزوجة الأولى لزوجها. لذا استأجر وانج لونج محفّاتٍ لزوجة عمّه وابن عمّه أيضاً، وجلب لهم جميعاً أردية من الخيش. وحتى البلهاء المسكينة صنع لها رداءً، واستأجر محفّة ووضعها فيها. لكنّها كانت في حيرة بالغة، وأطلقت ضحكاتٍ عالية، في حين كان ينبغي أن تكون هناك دموعٌ فقط.

توجّهوا نحو القبور وهم يندبون ويتحبّون بصوتٍ مرتفعٍ، وتبعهم العمّال وتشينج وهم يسرون مرتدين أحذية بيضاء. وقف وانج لونج بجوار القبرين. كان قد أرسل في طلب نعش أولان من المعبد، ووُضع على الأرض في انتظار دفن العجوز أولاً. وقف وانج لونج وراقبهم، وكان حزنه قاسياً وجافاً، فلم ينتحب بصوتٍ مرتفعٍ كما فعل الآخرون، حيث خلت عيناه من الدموع. بدا له أنّ ما حدث قد حدث، وليس هناك بوسعه ما يفعله أكثر ممّا قام به بالفعل.

لكن حين أהלوا عليهما التراب، وساواوا القبرين، استدار في صمتٍ، وصرف حامل المحفّة وعاد إلى المنزل سائراً بمفرده. ومن وسط ثقل حزنه، برزت له فكرة واحدة بشكلٍ غريبٍ، وسببت له الألم. كانت الفكرة هي أنّه تمنّى لو لم يأخذ اللؤلؤتين من أولان وهي تغسل

ملا بسه عند البركة، وأنه لن يتحمّل رؤية لوتس وهي تضعهما في أذنيها
مرّة أخرى أبداً.

انشغل بكآبة أفكاره هذه، ومضى وحده قائلاً لنفسه:

- هناك في أرضي تلك، دُفِن النصف الأول الطيّب من حياتي
وأكثر. يبدو الأمر وكأنّ نصفني مدفونٌ هناك، والآن سوف تصير الحياة
في منزلي مختلفة.

ثم بكى قليلاً فجأة، ومسح عينيه بظهر كفّه كما يفعل الطفل.



طوال هذه الفترة، لم يفكّر وانج لونج في محاصيله إلا لِمَا، حيث إنّه كان منشغلاً للغاية بوليمة الزفاف وبالجنازات في أسرته. لكنّ تشينج أتاه في أحد الأيام، وقال:

- الآن بعد أن انقضى الفرح والحزن، فلديّ ما أخبرك به بخصوص الأرض.

أجاب وانج لونج:

- قل ما لديك إذن. لم أشغل تفكيري بالأرض هذه الأيام إلا قليلاً، فيما يتعلّق بدفن موتاي فيها.

انتظر تشينج في صمتٍ لبضع دقائق من باب الاحترام لوانج لونج عندما تحدّث هكذا، ثم قال بهدوءٍ:

- فلتُجنّبنا السماء هذا الأمر، لكن يبدو أنّه سينهمر فيضانٌ هذا العام كما لم يحدث أبداً من قبل. الماء يغمر الأرض على الرغم من أنّ الصيف لم يأتِ بعد، وما زال الوقت مبكراً حتّى يرتفع منسوبه على هذا النحو.

لكنّ وانج لونج قال بقوة:

- لم أفرّ بأيّ خيرٍ أبداً من ذلك العجوز في السماء. سواء أحرقتنا له البخور أم لا، فهو دوماً ما يميل إلى الشرّ. دعنا نذهب لنرى الأرض. ونهض بينما هو يتحدث.

كان تشينج رجلاً جبّاراً ومتردّداً، ومهما ساءت الظروف، لم يكن يجرؤ أن يفعل مثل وانج لونج، ويعلن احتجاجه ضد السماء. اكتفى فقط بقول: «هذه مشيئة السماء»، وتقبّل الفيضان والجفاف بصبر. لكنّ وانج لونج لم يكن كذلك. خرج إلى أرضه، وذهب إلى هذه القطعة وتلك، ورأى أنّ الوضع كما قال تشينج. فكلّ القطع الواقعة بجوار الخندق، بطول الممرّات المائية، التي اشتراها من السيد العجوز في منزل هوانج، كانت رطبة وموحلة من المياه الغزيرة التي كانت تنزّ من أعماقها، حتّى صار القمح الطيّب على أرضه مريضاً وذابلاً.

كان الخندق نفسه أشبه بالبحيرة، والقنوات مثل الأنهار، سريعة وتموج بالدوامات الصغيرة. وحتّى الأحرق كان بوسعه أن يرى أنّه مع عدم هطول الأمطار الصيفيّة بعد، فسوف يكون هناك فيضانٌ عظيمٌ في ذلك العام، وسوف يتضوّر الرجال والنساء والأطفال جوعاً مرّة أخرى. هرول وانج لونج على عجل في هذا الاتجاه وذاك من أرضه، وتبعه تشينج في صمتٍ كظله، وقدّراً معاً أيّ أرضٍ يمكن زراعتها بالأرز، وأيّ أرضٍ ستغمرها المياه قبل أن يتمكّنوا من زراعة الأرز الغضّ بها. نظر وانج لونج إلى القنوات التي تفيض بالفعل عن جوانب ضفافها، وجدّ قائلاً:

- سوف يستمتع ذلك العجوز في السماء الآن، حيث إنه سينظر إلى الأسفل، ويرى الناس غرقى ويتصوّرون جوعاً، وهذا هو ما يحبه ذلك اللعين.

قال هذا بصوتٍ مرتفعٍ وبغضبٍ، حتّى ارتعد تشينج، وقال:
- مع ذلك فهو أعظم من أيّ منّا. لا تتحدّث على هذا النحو يا سيدي.
لكن حيث أنّه كان ثريّاً، فلم يكثرث وانج لونج، وأطلق العنان لغضبه كما يحلو له، وهمهم بينما هو يسير عائداً إلى منزله، وهو يفكّر في المياه التي تغمر أرضه ومحاصيله الطيّبة.

ثم حدث كلّ شيءٍ كما توقّع وانج لونج. حطّم النهر الشمالي سدوده، وكان أبعدها أوّل ما تحطّم. عندما رأى الرجال ما حدث، هروا هنا وهناك لجمع المال من أجل إصلاحها. دفع كلّ رجلٍ ما في مقدّرتة، حيث كان من مصلحة الجميع إبقاء النهر داخل حدوده. عهدوا بالمال إلى حاكم المقاطعة، الذي كان رجلاً جديداً أتى للتوّ. كان هذا الحاكم رجلاً فقيراً، ولم يسبق أن رأى مثل هذا القدر من المال في حياته من قبل، حيث أنّه ترقّى إلى منصبه حديثاً بفضل سخاء والده الذي دفع كلّ المال الذي بحوزته، والذي اقترضه لشراء هذا المنصب لابنه، حتّى تتمكّن الأسرة من اكتساب الثروة عن طريقه. وعندما فاض النهر مرّة أخرى، توجّه الناس إلى منزل الحاكم وهم يصرخون ويتصايحون، لأنّه لم يف بوعده بإصلاح السدود. لكنّه هرب واختبأ، لأنّه أنفق المال البالغ مقداره ثلاثة آلاف قطعة من الفضة على منزله هو. اقتحم عامّة الناس منزله صارخين، ومطالبين بحياته ثمناً لما فعله. وعندما رأى أنّه سوف

يتعرّض للقتل، ركض وقفز في الماء وأغرق نفسه، وهكذا هدا الناس .
لكن المال كان قد ضاع، وحطّم النهر سدًّا ثانيًا، ثم ثالثًا، قبل
أن يكتفي بالمساحة التي حصل عليها لنفسه. ثم أذاب تلك الجدران
الطينيّة حتّى لم يعد أحدٌ يتمكّن من معرفة مكان وجود أيّ سدٍّ في البلاد
بأكملها. وتضخّم النهر، وفاضت أمواجه كالبحر على كلّ الأراضي
الزراعية الجيدة، وصار القمح والأرز الغصّ في قاع البحر.

تحوّلت القرى واحدة تلوّ الأخرى إلى جزرٍ، وراقب الرجال
المياه وهي ترتفع. وعندما وصلت على بُعد قدمين من أبوابهم، ربطوا
طاولاتهم وأسرتهم معًا، ووضعوا أبواب منازلهم فوقها واستخدموها
كأطواف. كدّسوا ما في وسعهم من مفروشاتهم وملابسهم ونسائهم
وأطفالهم على هذه الأطواف. وارتفعت المياه إلى البيوت الطينيّة؛
فلانت الجدران وتفتّتت وذابت في المياه وكأنّها لم تكن. هطلت
الأمطار كما لو أنّ المياه على الأرض كانت تسحب المياه من السماء،
وكانّ الأرض تعاني من الجفاف. وظلّ المطر ينهمر يومًا تلوّ الآخر.

جلس وانج لونج في مدخل منزله، ونظر إلى المياه التي كانت لا
تزال بعيدة بما يكفي عن منزله المبني أعلى تلٍّ مرتفعٍ وعريضٍ. لكنّه
رأى المياه تغمر أرضه، وراقبها لئلا تغمر القبرين الحديثين. لكن ذلك
لم يحدث رغم أنّ أمواج المياه الصفراء المُحمّلة بالطين التفتّ حول
الفقيدين بنهم.

لم تنم أيّ محاصيلٍ من أيّ نوعٍ في ذلك العام، وتضوّر الناس جوعًا
في كلّ مكانٍ، وانتابهم الغضب لِمَا وقع لهم مرّة ثانية. توجه بعضهم

صوب الجنوب، أما البعض ممن كانوا جسورين وغاضبين، ولا يكثرثون بما يفعلونه، فقد انضموا إلى عصابات اللصوص التي انتشرت في كل مكان في الريف. بل إنهم حاولوا محاصرة المدينة، حتى أغلق سكان المدينة بوابات السور بشكل مستمر، باستثناء بوابة واحدة صغيرة تُسمى بوابة المياه الغربية. وكان الجنود يحرسونها، ويغلقونها ليلاً هي الأخرى. وإلى جانب أولئك الذين اتجهوا للسرقة، وأولئك الذين توجهوا إلى الجنوب للعمل والتسول، كما فعل وانج لونج من قبل مع والده العجوز وزوجته وأطفاله، كان هناك آخرون مسنين ومتعبين وجبناء، وليس لديهم أبناء مثل تشينج، بقي هؤلاء وتصوروا جوعاً، وأكلوا الحشائش وأوراق الشجر التي تمكّنوا من العثور عليها في المناطق المرتفعة، ومات الكثيرون على الأرض وفي الماء.

رأى وانج لونج أنّ مجاعة لم يشهد مثلها من قبل حلّت على البلاد، حيث لم تنحسر المياه في وقت ملائم لزراعة القمح لفصل الشتاء، ولن يكون بوسعهم حصاد أي محاصيل في العام المقبل. راقب شؤون منزله جيّداً فيما يتعلّق بإنفاق المال واستهلاك الطعام، وتشاجر بشدّة مع كوكو لأنّها ظلّت لفترة طويلة تشتري اللحم من المدينة كلّ يوم. وأحسّ بالراحة أخيراً، حيث إنّه لم يكن هناك مفرّ من وقوع الفيضان، حينما قطع الماء الطريق بين منزله وبين المدينة، بحيث لم تعدّ تستطيع الذهاب إلى السوق كلّما شاءت. فلم يكن يسمح بإخراج القوارب دون إذنه، وكان تشينج يطيعه هو، لا كوكو، على الرغم من سلاطة لسانها.

لم يسمح وانج لونج ببيع أو شراء أيّ شيء بعد حلول فصل الشتاء،

إلا بإذنه، واقتصد بعناية في استهلاك كل ما لديهم. كان يعطي زوجة ابنه الطعام الذي يحتاجه المنزل يوميًا، كما كان يمنح تشينج ما يجب أن يحصل عليه العمّال، على الرغم من شعوره بالألم لاضطراره إلى إطعام رجال عاطلين عن العمل. وقد حَزَّ فيه ذلك بشدّة، لدرجة أنّه مع حلول برد الشتاء وتجمّد المياه، أمر الرجال بالتوجّه إلى الجنوب للتسوّل والعمل حتّى يأتي الربيع، وحينها يمكنهم العودة إليه. كان يعطي لوتس فقط السكر والزيت في الخفاء، لأنّها لم تألف خشونة العيش. وفي مطلع العام الجديد، لم يأكلوا سوى سمكة اصطادوها بأنفسهم من البحيرة، وخنزيرٍ قتلوه من المزرعة.

لكنّ وانج لونج لم يكن فقيرًا بالدرجة التي كان يرغب في الظهور بها، حيث كانت لديه فضّة جيّدة مخبّأة في جدران الغرفة التي ينام فيها ابنه مع زوجته، بالرغم من أنّ ابنه وزوجة ابنه لم يعرفا ذلك. وكان لديه فضّة جيّدة، بل وبعض الذهب، مخبّأين في جرّة في قاع البحيرة تحت أقرب حقوله، وخبأ بعضها بين جذور أعواد الخيزران، كما كانت لديه حبوبٌ منذ العام السابق، لم يبعها في السوق، ولم يكن هناك خطرٌ من وقوع مجاعة في منزله.

لكنّ الناس كانوا يتصوّرون جوعًا في كلّ مكانٍ حوله، وتذكّر صرخات الجوعى عند بوابة المنزل الكبير عندما مرّ به ذات مرّة، وكان يدرك أنّ هناك الكثيرين ممن يكرهونه بشدّة، لأنّه كان لا يزال يمتلك ما يمكن أن يأكله ويطعمه لأبنائه. لذلك أبقى أبوابه مُغلّقة، ولم يسمح بدخول أحدٍ لا يعرفه. لكنّه كان لا يزال يعلم جيّدًا أنّ هذا لم يكن لينقذه

في هذه الأوقات التي انتشرت فيها اللصوصية والخروج على القانون، لولا عمّه. كان وانج لونج يدرك تمامًا أنّه لولا نفوذ عمّه، لكان قد تعرّض للسرقة والنهب بسبب توافر الطعام والمال والنساء في منزله. لذا التزم بالتعامل بلطفٍ مع عمّه وابن عمّه وزوجة عمّه، وكان الثلاثة مثل الضيوف في منزله، وكانوا يتناولون الشاي قبل الآخرين، ويمدّون أعواد طعامهم إلى الصحن أولاً في أوقات الوجبات.

أدرك هؤلاء الثلاثة بما فيه الكفاية أنّ وانج لونج يخشاهم، فتغطرسوا مطالبين بهذا وذاك، وجأروا بالشكوى من طعامهم وشرابهم. وقد اشتكتِ المرأة بشكلٍ خاصٍّ، حيث افتقدت الأطباق الشهية التي كانت تتناولها في الساحات الداخلية، واشتكت لزوجها، واشتكى ثلاثتهم لوانج لونج.

رأى وانج لونج أنّ عمّه نفسه كان عجوزاً أشيب، وكسولاً ولا يبالي بشيءٍ، ولم يكن ليكلّف نفسه عناء الشكوى لو تركوه لحاله. لكنّ ابنه الشاب وزوجته كانا يحرّضانه. وفي أحد الأيام بينما هو واقفٌ بجوار البوابة، سمعهما وانج لونج وهما يحثّان العجوز قائلين:

- حسنًا، إنّ لديه المال والطعام، فلنطلب منه الفضة.

وقالت المرأة:

- لن ننعم بمثل هذه السطوة مرّةً أخرى، فهو يدرك جيّدًا أنّه لولا كونك عمّه وشقيق والده، لكان قد تعرّض للسرقة والنهب، ولبقي منزله فارغاً خرباً، حيث إنّك نائب زعيم ذوي اللّحي الحمراء.

انتاب وانج لونج غضبٌ عارمٌ، وهو واقفٌ هناك يسمع حديثهم هذا في الخفاء، حتّى كاد يخرج من جلده. لكنّه بذل جهدًا كبيرًا ليتمكّن من التزام الصمت، وحاول التفكير فيما يمكنه القيام به مع هؤلاء الثلاثة، لكنّه لم يتوصّل لشيءٍ. لذلك، عندما جاء إليه عمّه في اليوم التالي قائلاً: - حسنًا يا بن أخي الطيّب، فلتمنحني حفنة من الفضة كي أشتري لنفسي غليونًا وبعض التبغ، كما أنّ ملابس امرأتي بالية، وهي بحاجة إلى سترة جديدة.

لم يستطع وانج لونج أن يقول شيئًا، بل ناول العجوز خمس قطع من الفضة من حزامه، على الرغم من أنّه جزّ على أسنانه في الخفاء، وبدأ له أنّ المال لم يفارق يده على مضضٍ هكذا أبدًا، حتّى في الأيام الخوالي عندما كانت الفضة شحيحة لديه.

ولم يكد ينقضي يومان حتّى أتاه عمّه طالبًا الفضة مرّة أخرى، فصاح وانج لونج في النهاية:

- حسنًا، هل ترغب في أن نموت جميعنا جوعًا عمّا قريب؟

ضحك عمّه، وقال بلا مبالاة:

- أنت رجلٌ حسن الطالع. هناك رجالٌ أقلُّ منك ثراءً تدلّوا في المشانق من عوارض منازلهم المحترقة.

عندما سمع وانج لونج هذا، تصبّب منه العرق البارد، ومنحه الفضة دون كلمة. وهكذا على الرغم من أنّهم لم يكونوا يتناولون اللحم في المنزل، فقد كان لا بدّ من تقديم اللحم لهؤلاء الثلاثة. وبالرغم من

أَنَّ وَانِجَ لَوْنِجَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يَدْخُنُ التَّبَغَ إِلَّا لِمَامًا، فَإِنَّ عَمَّهُ كَانَ يَنْفُثُ غَلِيُونَهُ بِلَا انْقِطَاعٍ.

كَانَ الْإِبْنُ الْأَكْبَرُ لَوَانِجَ لَوْنِجَ مُسْتَعْرِفًا فِي حَيَاتِهِ الزَّوْجِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَرَى مَا يَدُورُ حَوْلَهُ تَقْرِيبًا، لَكِنَّهُ أَبْعَدَ زَوْجَتَهُ بَغِيرَةً عَنِ أَنْظَارِ ابْنِ عَمِّهِ، حَتَّى لَمْ يَعُودَا صَدِيقَيْنِ، بَلْ عَدَوَّيْنِ. نَادِرًا مَا كَانَ ابْنُ وَانِجَ لَوْنِجَ يَسْمَحُ لَزَوْجَتِهِ بِالْخُرُوجِ مِنْ غُرْفَتِهِمَا، إِلَّا فِي الْمَسَاءِ عِنْدَمَا كَانَ الرَّجُلُ الْآخَرُ يَخْرُجُ مَعَ أَبِيهِ، وَكَانَ يَجْعَلُهَا تَبْقَى حَبِيسَةً فِي الْغُرْفَةِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ. لَكِنْ عِنْدَمَا رَأَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ يَتَحَكَّمُونَ فِي وَالِدِهِ، انْتَابَهُ الْغَضَبُ، حَيْثُ كَانَ عَصَبِي الطَّبَاعِ، وَقَالَ:

- حَسَنًا، إِذَا كُنْتَ تَهْتَمُ بِأَمْرِ أَوْلَئِكَ النَّمُورِ الثَّلَاثَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمُ بِابْنِكَ وَزَوْجَتِهِ، وَالِدَةُ أَحْفَادِكَ، فَذَلِكَ أَمْرٌ غَرِيبٌ. وَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ نَنْتَقِلَ لِلْمَسْكَنِ فِي مَكَانٍ آخَرَ.

قَالَ لَهُ وَانِجَ لَوْنِجَ بِصَرَاحَةٍ مَا لَمْ يَخْبِرْ بِهِ أَيَّ شَخْصٍ آخَرَ:

- إِنَّنِي أَكْرَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ أَكْثَرَ مِمَّا أَكْرَهُ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ فِي حَيَاتِي، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ التَّفَكِيرَ فِي طَرِيقَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ لَفَعَلْتُ ذَلِكَ. لَكِنْ عَمَّكَ هُوَ رَئِيسُ عَصَابَةِ مِنَ اللَّصُوصِ الْمُتَوَحِّشِينَ، وَلَوْ أَطْعَمْتَهُ وَلَا طَفْتَهُ فَسَوْفَ نَظَلُّ فِي أَمَانٍ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ مَنَّا أَنْ يُظْهِرَ الْغَضَبَ حَيَالَهُمْ.

عِنْدَمَا سَمِعَ الْإِبْنُ الْأَكْبَرُ هَذَا، حَدَّقَ بِهِ حَتَّى جَحِظَتْ عَيْنَاهُ مِنْ مَحْجَرِيهِمَا، لَكِنْ عِنْدَمَا فَكَّرَ فِي الْأَمْرِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، أَزْدَادَ غَضَبًا أَكْثَرَ مِنْ قَبْلٍ، وَقَالَ:

- ما رأيك في هذه الطريقة؟ دعنا ندفعهم جميعاً في الماء ذات ليلة. يمكن أن يدفع تشينج المرأة، حيث إنها بدينة وضعيفة، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها. وسوف أدفع أنا ابن عمي الشاب الذي أكرهه للغاية، فهو دومًا ما يختلس النظر إلى زوجتي. ويمكنك أنت أن تدفع الرجل. لكن وانج لونج لم يكن قادرًا على القتل. وعلى الرغم من أنه كان يفضل قتل عمه عن قتل ثوره، إلا أنه لم يكن يستطيع الإقدام على القتل حتى بدافع من الكراهية. لذا قال:

- لا، وحتى لو كنت أستطيع القيام بهذا، وكان بوسعي دفع شقيق والدي في الماء، فلن أفعل. فماذا سنفعل إذا سمع اللصوص الآخرون عن الأمر؟ نحن في أمان ما دام هو على قيد الحياة. وإذا رحل، سوف نصير مثل باقي الناس ممن يمتلكون القليل، ولهذا يكونون عرضة للخطر في مثل هذه الأوقات.

بعد ذلك صمت الاثنان، وكلاهما مستغرق في التفكير فيما عليهما القيام به. رأى الشاب أن والده على حق، وأن الموت حل سيئ سيعرّضهم للكثير من المتاعب، وأنه لا بُدَّ من وجود وسيلة أخرى. تحدّث وانج لونج أخيرًا بصوت مرتفع، وتفكّر قائلاً:

- لو كانت هناك طريقة يمكن من خلالها إبقاؤهم هنا، وفي نفس الوقت نضع حدًا لأذاهم وأطماعهم، سيكون ذلك أمرًا رائعًا. لكن لا يوجد سحرٌ مثل هذا!

حينها ضرب الشاب كفيه معًا، وصاح قائلاً:

- حسنًا، لقد أوحيت لي بما علينا القيام به! دعنا نشتر لهم الأفيون ليستمتعوا به، وكلّما استهلكوه اشترينا لهم المزيد منه، ولينالوا منه ما يشاؤون كما يفعل الأثرياء من الناس. سأتظاهر بالصدقة مع ابن عمّي مرّة أخرى، وسوف أغريه بالذهاب إلى صالة الشاي في المدينة، حيث يمكن للمرء أن يدخن الأفيون، ويمكن أن نشتره لعمّي وزوجته.

لكن وانج لونج بدا متردّدًا، حيث إنّهُ لم يكن هو من فكّر في الفكرة أولاً. قال بتأنّ:

- سوف يتكلّف ذلك مبلغًا طائلًا، حيث إنّ الأفيون غالٍ مثل حجر اليشم.

جادله الشاب قائلاً:

- لكنّ إبقاءهم هكذا يكلفنا ما هو أعلى من اليشم. إلى جانب اضطرابنا إلى تحمّل عجزتهم والنظرات المختلّسة التي يسترّقها ذلك الشاب من زوجتي.

لكنّ وانج لونج رفض إبداء موافقته على الفور، حيث إنّهُ لم يكن من السهل الإقدام على مثل هذا الأمر، وسيكلّف تنفيذه قدرًا غير يسير من الفضة.

وربّما لم يكونوا لينفّذوا الأمر أبدًا، ولاستمرّ حالهم على ما كان عليه حتّى انحسار المياه، لولا أنّ وقع أمرٌ ما.

كان ما حدث هو أنّ ابن عمّ وانج لونج وضع عينه على الابنة الثانية لوانج لونج، والتي هي بنت ابن عمّه، وبمثابة شقيقته من حيث الدم.

كانت ابنة وانج لونج الثانية فتاة بالغة الجمال، وتشبه الابن الثاني الذي كان تاجرًا، لكنّها كانت ضئيلة الحجم ورقيقة، ولم تكن بشرتها صفراء مثله. كانت بشرتها بيضاء شاحبة مثل زهور اللوز، ولديها أنفٌ صغيرٌ منخفضٌ وشفتان حمراوان رقيقتان، كما كانت قدماها صغيرتين.

أمسك بها ابن عمّها ذات ليلة عندما كانت تمرُّ بمفردها عبر الساحة في طريقها من المطبخ. قبض عليها بخشونة، وأدخل يده في صدرها فصرختُ، وهَرَعَ وانج لونج خارجًا، وضرب الشاب على رأسه. لكنّه كان مثل كلبٍ بحوزته قطعة من اللحم المسروق ويرفض التخلي عنها، حتى اضطرَّ وانج إلى أن ينتزع ابنته بالقوة. عندها أطلق الرجل ضحكة غليظة، وقال:

- الأمر مزاحٌ ليس إلّا. أليست مثل شقيقتي؟ وهل يمكن أن يوقع الرجل بشقيقته أيَّ شرٍّ؟

لكنّ عينيه التمعنا بالشهوة وهو يتحدّث، وهمهم وانج لونج وسحب الفتاة بعيدًا، وأرسلها إلى غرفتها.

أخبر وانج لونج ابنه بما حدث تلك الليلة، فاعتَمَّ الشابُ وقال:

- يجب أن نرسل الفتاة إلى منزل خطيبها في المدينة. وحتى لو قال التاجر ليو إنّه عامٌ أسوأ من أن يقام فيه زفافٌ، يجب أن نرسلها، مخافة ألاّ نتمكّن من الحفاظ على عذريتها ما دام هذا النمر الشَّيْق في المنزل. لذا قام وانج لونج بذلك. توجّه إلى المدينة في اليوم التالي، وذهب إلى منزل التاجر ليو، وقال:

- أتمت ابنتي الثالثة عشرة من العمر، ولم تعد طفلة، وصارت أهلاً
للزواج.

لكن ليو تردد قائلاً:

- لم أجن ما يكفي من الأرباح هذا العام حتى أنشئ أسرة جديدة
في منزلي.

خجل وانج لونج من أن يقول:

- ابن عمي في المنزل، وهو نمّر خطير.

لذا اكتفى بأن قال:

- لا أريد أن أظّل مسؤولاً عن رعاية هذه الفتاة، حيث إنّ والدتها
تُوفيت، وهي جميلة وقد بلغت سن الحمل، ومنزلي كبيرٌ ومليءٌ بهذا
وذاك من الناس، ولا أستطيع مراقبتها على مدار الساعة. حيث إنّها
سوف تصير من أفراد أسرتك، فمن الأفضل الحفاظ على عذريتها هنا،
وليكن زفافها عاجلاً أو آجلاً كما تشاء.

كان التاجر رجلاً متساهلاً ولطيفاً؛ لذا أجاب قائلاً:

- حسناً، إذا كان الحال كذلك، فلترسل الفتاة، وسوف أتحدث مع
والدة ابني، ويمكنها أن تأتي وتنعم بالأمان هنا في ساحة حمايتها. وبعد
الحصاد التالي أو نحو ذلك، يمكن إتمام الزفاف.

هكذا تمت تسوية الأمر، وأحسّ وانج لونج بالرضى وانصرف.

لكن في طريق عودته إلى بوابة السور، حيث كان تشينج في القارب
بانتظاره، مرّ وانج لونج بمتجرٍ يبيع التبغ والأفيون، ودخل ليشتري

لنفسه بعض التبغ المفروم ليعمّر به نارجيلته في المساء. وبينما كان
البائع يزنه، قال وانج لونج للرجل على مضضٍ إلى حدٍّ ما:

- كم سعر الأفيون، إذا كان لديك؟

قال البائع:

- من غير المسموح قانوناً بيعه جهراً في هذه الأيام، ونحن لا نبيعه.
لكن إذا رغبتَ في شرائه وكنتَ تمتلك الفضة، فهناك من يزنه في الغرفة
الواقعة خلف هذه، مقابل قطعة من الفضة لكل أوقية.

لم يطل وانج لونج التفكير فيما يفعله، بل قال بعجلٍ:

- سوف آخذ ست أواقٍ منه.



بعد رحيل الابنة الثانية، وتحرّر وانج لونج من قلقه حيالها، قال لعمّه ذات يوم:

- حيث إنّك شقيق والدي، هاك بعض التبغ فائق الجودة من أجلك.
وفتح علبة الأفيون، فبدا المخدّر لزجًا زكيّ الرائحة. تناوله عمّ وانج لونج وشمّه، وضحك قائلاً بسرور:

- حسنًا إذن، لقد دخّنتُ بعضًا منه، في مراتٍ قليلة فقط قبل الآن،
حيث إنّّه باهظ الثمن للغاية، لكنني أحبه حقًا.

أجابه وانج لونج متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- إنّها مجرد كمية قليلة اشتريتها لوالدي ذات مرّة عندما تقدّم في السن، وصار عاجزًا عن النوم ليلاً. وجدتها اليوم لم تُستخدم، وفكرتُ: «ها هو شقيق والدي، فلم لا يأخذه هو بدلًا مني، حيث إنّني أصغر في السنّ ولا أحتاجه بعد؟». فلتأخذه إذن، ودخّنه عندما تشاء، أو حين تشعر ببعض الألم.

عندئذٍ تناوله عمّ وانج لونج بجشع، حيث كان زكيّ الرائحة، ولا يستخدمه سوى الأثرياء من الرجال. أخذه واشترى غليوناً، ورقد في فراشه طوال اليوم وهو يدخن الأفيون. حرص وانج لونج على شراء الغلايين، وتركها ملقاة هنا وهناك، وتظاهر هو نفسه بالتدخين، لكنّه كان يكتفي فقط بأخذ الغليون إلى غرفته، ويتركه هناك بارداً. ولم يسمح لابنيه الموجودين بالمنزل ولا للوتس أن يمسوا الأفيون، متخذاً سعره الباهظ كذريعة. لكنّه أغرى به عمّه وزوجة عمّه وابنهما، وعبقت الساحات برائحة الدخان الزكية، ولم يضمنّ عليهم وانج لونج بالفضّة التي أنفقها في سبيل ذلك، حيث إنّه كفّل له راحة البال.

عندما أوشك الشتاء أن ينقضي، وشرعت المياه تنحسر حتّى صار بوسع وانج لونج أن يمشي في أرضه، تبعه ابنه الأكبر ذات يوم، وقال له بفخر:

- حسناً، سيكون هناك فمّ آخر في المنزل عمّا قريب، وهو فمّ حفيدك.

عندما سمع وانج لونج هذا، استدار ضاحكاً وفرك يديه، وقال:

- هذا يومٌ سعيدٌ حقاً!

وضحك مرّةً أخرى، وذهب ل يبحث عن تشينج، وأمره بالذهاب إلى المدينة لشراء السمك والطعام الطيّب، وأرسله لزوجة ابنه قائلاً:

- فلتأكلي وتجعلني جسد حفيدي قوياً!

وطوال الربيع، كان تطلّع وانج لونج لهذه الولادة بمثابة مصدرٍ للراحة له. وكلّما انشغل بأمورٍ أخرى، فكّر فيها، وعندما كان القلق يتتابه، تشاغل بها ليجد سلواه.

وعندما انقضى الربيع وحلّ الصيف، عاد الناس الذين رحلوا بسبب الفيضان مرّة أخرى واحدًا تلو الآخر، وجماعة تلو جماعة، بعد أن أنهكهم الشتاء. سعدوا بعودتهم، على الرغم من أنّه لم يكن هناك شيء سوى الطين الأصفر للأرض الغارقة بالماء، حيث كانت منازلهم قائمة من قبل. لكن من هذا الطين، كان بوسعهم بناء المنازل مرّة ثانية، وشراء الحُصُر لتسقيفها. جاء الكثيرون إلى وانج لونج طالبين اقتراض المال، فأقرضهم بفائدة مرتفعة، حيث كان الطلب عليه كبيرًا، وأصرّ دومًا على أن يكون الضمان هو الأرض. وبالمال الذي اقترضوه، زرعوا الحبوب في الأرض التي كانت خِصبة بالطيني الفائض من الماء المنحسر. وعندما صاروا بحاجة إلى الثيران والبذور والمحارِث، ولم يُعدّ بوسعهم اقتراض المزيد من المال، باع بعضهم الأرض وجزءًا من حقولهم، على أمل أن يتمكّنوا من زراعة ما تبقى منها. اشترى وانج لونج من هؤلاء الكثير من الأرض، واشتراها بثمنٍ بخسٍ، حيث كان الرجال في حاجة ماسّة إلى المال.

لكن كان هناك البعض ممن رفضوا بيع أرضهم، وعندما لم يعد بحوزتهم ما يشترّون به البذور والمحارِث والثيران، باعوا بناتهم. وجاء بعضهم إلى وانج لونج ليبيعوا له، لأنّه كان من المعروف أنّه رجلٌ ثريٌّ وقويٌّ وطيب القلب.

وكان هو يفكر باستمرار في الطفل القادم، وفي الأطفال الآخرين المرتقبين عندما يتزوج كلُّ أبنائه، لذا اشترى خمس جوارٍ، اثنتان منهنَّ في الثانية عشرة من العمر تقريباً، لهما أقدامٌ كبيرة وجسدان قويان، واثنتان أصغر منهما لخدمة الجميع ولأداء مختلف المهام، وواحدة لخدمة لوتس، حيث إنَّ كوكو تقدّمت في العمر، ومنذ رحيل الابنة الثانية لم يعد هناك من يقوم بالأعمال المنزلية. اشترى الجوّاري الخمس في يومٍ واحدٍ، حيث كان ثرياً بما يكفي لتنفيذ ما يقرّره على الفور.

بعد ذلك ببضعة أيام، جاء رجلٌ إلى وانج لونج حاملاً فتاة صغيرة رقيقة في حوالي السابعة من العمر، راغباً في بيعها. رفض وانج لونج في البداية شراءها، حيث كانت صغيرة للغاية وضعيفة. لكنَّ لوتس رأتها وأُعجبت بها، وقالت وهي نكّدة:

- أريد الحصول على هذه، لأنّها جميلة للغاية. بينما الأخرى غليظة ورائحتها تشبه رائحة لحم الماعز، ولا أحبّها.

تأمّل وانج لونج الطفلة، ورأى عينيها الجميلتين المليئتين بالخوف، وهزّاهما المثير للشفقة، وقال لإرضاء لوتس من جهة، ولتتمكّن من تغذية الفتاة وتسمينها من جهة أخرى:

- حسناً، ليكن ذلك إذا شئت.

لذلك اشترى الطفلة مقابل عشرين قطعة من الفضة، وعاشت في الساحات الداخلية، ونامت عند قدم الفراش الذي تنام عليه لوتس.

بدا لوانج لونج أن بوسعه أن ينعم بالسلام في منزله. وعندما انحسرت المياه وحلَّ الصيف، وصار من الممكن زراعة الأرض بالبدور الطيبة، تجوّل هنا وهناك، ودرس كلّ قطعة من أرضه، وتناقش مع تشينج بخصوص طبيعة تربة كلّ قطعة أرض، والتعديلات التي يجب إجراؤها في المحاصيل لضمان خصوبة الأرض. وكلّما ذهب، اصطحب معه ابنه الأصغر، الذي كان سيخلفه في الأرض، حتّى يتعلّم الفتى. ولم يلتفت وانج لونج أبدًا ليرى كيف يستمع إليه الصبي، أو حتّى إذا كان يستمع من الأساس. حيث كان الصبي يسير منكس الرأس، وعلى وجهه أمارات الكآبة، ولم يعرف أحدًا ما يدور بخلده.

لكنّ وانج لونج لم يرَ ما يفعله الصبي، بل اكتفى فقط بكونه يسير هناك خلف والده في صمتٍ. وحين انتهوا من تخطيط كلّ شيء، عاد وانج لونج إلى منزله راضيًا، وخاطب نفسه قائلاً:

- أنا لم أعُد صغيرًا في السنّ، ولم أعد مضطرًا إلى العمل بيدي، حيث إنّ لديّ عمّالًا في أرضي، ولديّ أبنائي، والسلام يعمّ في منزلي.

مع ذلك، عندما دخل إلى منزله، لم يجد السلام سائدًا. فعلى الرغم من أنّه منح ابنه زوجة، واشترى من الجوّاري ما يكفي لخدمتهم جميعًا، وعلى الرغم من أنّ عمّه وزوجة عمّه كانا ينالان من الأفيون ما يكفي لمتعتهما طوال اليوم، إلّا أنّ البيت ظلّ يفتقر إلى السلام. وكان السبب مرّة أخرى هو ابن عمّه وابنه الأكبر.

بدا وكأنّ ابن وانج لونج الأكبر لن يستطيع التخلّي أبدًا عن كراهيته لابن عمّه، ولا عن ارتياحه العميق فيما يضمّره من شرّ. فقد رأى جيّدًا

بأم عينيه خلال صباه أن ابن عمّه ذاك مفعمٌ بكافة أشكال الشرِّ، ووصل الوضع إلى حدٍّ أن ابن وانج لونج بات يرفض حتى مغادرة المنزل للذهاب إلى صالة الشاي، ما لم يذهب ابن عمّه أيضًا. كان يراقب ابن عمّه، ولا يخرج إلّا بعد رحيله. وكان يشكُّ أن الرجل على علاقة بالجواري، بل وحتى على علاقة بلوتس في الساحات الداخلية، على الرغم من أن شكوكه الأخيرة تلك كانت باطلة. حيث إنّ لوتس أخذت تزداد وزنًا وتتقدّم في السن يومًا بعد يومٍ، وفقدت الاهتمام بأيّ شيءٍ منذ زمنٍ طويلٍ، باستثناء طعامها وبيذها، ولم تكن لتكلّف نفسها عناء النظر إلى الرجل لو كان قد اقترب منها. بل إنّها شعرت بالارتياح عندما قلّت زيارات وانج لها أكثر وأكثر مع تقدّمه في السنّ.

عندما دخل وانج لونج بصحبة ابنه الأصغر عائداً من الحقول، انتحى به ابنه الأكبر جانباً وقال:

- لن أتحمّل وجود ابن عمّي هذا في المنزل بعد الآن، وهو يسترق النظرات، ويتسكّع وأزرار ملابسه مفتوحة، وعيناه على الجواري.

ولم يجرؤ على مواصلة الحديث بما يجول في خاطره، قائلاً: «حتى إنّ يتجرأ على اختلاس النظر إلى امرأتك في الساحات الداخلية»، لأنّه تذكر بضيقٍ شديدٍ في أعماقه أنّه هو نفسه كان يحوم في السابق حول امرأة أبيه تلك. والآن، بعد أن رآها وقد صارت بدينة ومتقدّمة في السنّ، لم يتخيّل كيف أقدم على مثل ذلك الشيء، وانتابه الخجل على نحوٍ مريرٍ، ولم يكن ليذكر والده بذلك أبداً. لذا التزم الصمت حيال هذا، واكتفى بذكر الجواري فقط.

كان وانج لونج قد عاد من الحقول نشيطاً معتدل المزاج، لأنّ المياه انحسرت عن الأرض، ولأنّ الجو كان جافاً ودافئاً. كما أنّه كان مسروراً لأنّ ابنه الأصغر رافقه إلى الحقول. وأجاب شاعراً بالغضب لهذه المشاكل الجديدة التي ثارت في منزله:

- حسناً، يا لك من فتى أحمق لانشغالكَ بالتفكير في هذا الأمر باستمرارٍ. لقد أصبحت مغرماً بزوجتك أكثر ممّا ينبغي، وهذا لا يليق. لأنّه لا ينبغي أن يهتمّ الرجل بزوجه التي منحه والداه إياها أكثر من اهتمامه بأيّ شيءٍ آخر في العالم. لا يليق بالرجل أن يحبّ زوجته حباً جنونياً مفرطاً، وكأنّها بغيّ.

أحسّ الشاب بالألم من توبيخ والده هذا؛ حيث كان أكثر ما يخشاه هو أن يتّهمه الآخرون بسوء التصرف، وكأنّه مجرد رجلٍ بسيطٍ جاهلٍ. لذا أسرع قائلاً:

- ليس لزوجتي علاقة بالأمر. بل من غير اللائق أن يحدث هذا في منزل والدي.

لكنّ وانج لونج لم يسمعه، كان يتفكّر غاضباً، فأضاف قائلاً:

- أألن أنتهي أبداً من كلّ هذه المشاكل في بيتي بين الذكور والإناث؟ ها أنا أتقدّم في العمر، وصار دمي أبرد، وتحرّرت أخيراً من الشهوات، وأريد أن أنعم ببعض السلام. فهل يجب عليّ تحمّل شهوات أبنائي وغيرتهم؟

ثم صاح مرّة أخرى، بعد فترة من الصمت:

- حسنًا، وما الذي تريدني أن أفعله؟

- أتمنى لو كان بوسعنا مغادرة هذا المنزل، والذهاب للعيش في المدينة. ليس من اللائق أن نستمر في العيش في الريف مثل الفلاحين. يمكننا أن نرحل ونترك عمي وزوجته وابن عمي هنا، لنحيا بأمان في المدينة خلف بوابات الأسوار.

ضحك وانج لونج ضحكة قصيرة مريرة عندما قال ابنه هذا، ونحى رغبة الشاب جانبًا بوصفها شيئًا تافهًا غير جدير بالنظر.

جلس إلى الطاولة، وجذب غليونه نحوه، وهو يقول بقوة:

- هذا هو منزلي. ويمكنك العيش فيه أو لا. هذا منزلي، وهذه أرضي، ولولا الأرض لتضوّرنا جميعًا من الجوع مثلما حدث للآخرين، ولن يكون بوسعك أن ترفل بملابسك الأنيقة وأنت عاطل عن العمل مثل عالم من العلماء. إنّ الأرض الطيبة هي التي صنعت منك ما هو أفضل من مجرد ابن مزارع.

نهض وانج لونج، وذرع الغرفة الوسطى بخطوات ثقيلة، وبدأ سلوكه غليظًا وهو يبصق على الأرض، ويتصرف كما قد يتصرف المزارع. لأنّه على الرغم من أنّ جانبًا من قلبه كان يشعر بالزهو لبراعة ابنه، إلّا أنّ الجانب الآخر كان يزدريه بعنف، وذلك رغم أنّه كان يدرك أنّه يفتخر بابنه سرًّا، ويفتخر بأنّ كلّ من يرى ابنه هذا لا يتخيّل أنّ هناك جيلًا واحدًا فحسب يفصله عن الأرض نفسها.

لكنّ الابن الأكبر لم يكن على استعدادٍ للاستسلام. لذا تبع والده قائلاً:

- حسناً، هناك المنزل الكبير القديم لآل هوانج. الجزء الأمامي منه يعجُّ بهذا الصنف وذاك من عامة الناس، لكنّ الساحات الداخليّة مغلقة وهادئة. يمكننا أن نستأجرها، ونعيش هناك في سلام. ويمكنك أنت وشقيقي الأصغر الذهاب إلى الأرض والعودة منها، ولن أشتعل أنا غضباً من ذلك الكلب، ابن عمّي.

ولكي يقنع أباه، ترك عينيه تلتمعان بالدموع، وتركها تسيل على وجنتيه ولم يمسحها، وواصل قائلاً:

- أنا أحاول أن أكون ابنًا جيّدًا، ولا أَلعب القمار ولا أدخّن الأفيون، وأنا قانعٌ بالمرأة التي وهبتني إياها. ولا أطلب منك سوى شيءٍ بسيطٍ، هذا كلُّ ما في الأمر.

لم يدرِ وانج لونج ما إذا كانت الدموع وحدها تكفي للتأثير عليه، لكنّه تأثر بكلمات ابنه عندما قال: «المنزل الكبير لآل هوانج».

لم ينسَ وانج لونج أبدًا أنّه ذهب ذات مرّة زاحفًا إلى ذلك المنزل الكبير، ووقف بخجلٍ في حضرة أولئك الذين كانوا يسكنون هناك، لدرجة أنّه كان يخشى حارس البوابة. ظلّت هذه الذكرى تُشعره بالخزي طوال حياته، وكان يكرهها. لطالما استشعر طوال حياته أنّ الناس ينظرون إليه باعتباره أدنى مكانة من سكان المدينة، وعندما مثل أمام السيدة العجوز في المنزل الكبير، تحوّل شعوره هذا إلى أزمة. لذلك ما إن قال ابنه: «يمكننا أن نعيش في المنزل الكبير»، حتّى وثبت الفكرة إلى

ذهنه، وكأنّه يراها رأي العين بالفعل.

- يمكنني الجلوس على المقعد الذي جلست عليه تلك العجوز،
والذي أمرتني منه بالوقوف وكأنّني من عبيد الأرض. بوسعي الآن
الجلوس هناك، ودعوة غيري للمثول بين يدي.
وفكرّ محدّثاً نفسه مرّة أخرى:

- يمكنني القيام بذلك في حال ما إذا أردت.

وشرع يعبث بتلك الفكرة، وجلس صامتاً، ولم يُجِبْ ابنه. لكنّه ملأ
غليونه بالتبغ، وأشعله بلفافة من الورق كانت مُعدّة لذلك، ودخّن وهو
يحلم بما يستطيع أن يفعله إذا أراد. لذا، حلم أنّ في استطاعته العيش في
منزل هوانج، الذي ظلّ في نظره دوّماً «المنزل الكبير»، لا بسبب ابنه ولا
بسبب ابن عمّه.

لهذا على الرغم من أنّه لم يُبدِ استعداداً في البداية لأن يقول إنّهُ
سوف يرحل، أو سوف يغيّر أيّ شيءٍ، إلّا أنّه استاء بعد ذلك أكثر من
أيّ وقتٍ مضى من بطالة ابن عمّه، وراقب الرجل من كثبٍ، ورأى أنّه
من الصحيح أنّه يُلقِي بنظراته على الجوّاري. غمغم وانج لونج قائلاً:

- لا يمكنني العيش الآن مع هذا الكلب الشهواني في منزلي.

ونظر إلى عمّه، ورأى أنّه أضحى هزياً من تدخين الأفيون، وقد
جعل الأفيون بشرته صفراء، وصار عجوزاً محنّياً، يبصق دمّاً عند سعاله.
ونظر إلى زوجة عمّه، وقد صارت بدينة مثل الكرنبة، واعتادت تدخين
الأفيون بشغفٍ، واكتفت به في رضى والنّعاس يغلبها. لم يعد هذان

الاثنان يمثّلان له مشكلة كبيرة الآن، وقد أتى الأفيون بالمفعول الذي كان وانج لونج يتمناه.

لكن بقي ابن عمّه هذا، ذلك الشاب الأعزب، بشهواته الوحشيّة الجامحة، الذي لم يخضع لتأثير الأفيون بسهولة كما فعل العجوزان، ولم يكتفِ بإفراغ شهواته في الأحلام. لم يكن وانج لونج ليسمح له عن طيب خاطرٍ بالزواج في المنزل، بسبب ذرّيته التي سوف ينجبها، في حين أنّ شخصاً واحداً فقط مثله كافٍ. كما أنّ الشاب رفض العمل، حيث لم تكن هناك ضرورة لذلك، ولا يوجد من يجبره عليه، إلّا إذا كان من الممكن إطلاق مسمّى العمل على الساعات التي كان يقضيها بعيداً عن المنزل ليلاً. لكن حتّى هذه الساعات صار عددها أقل، لأنّه مع عودة الرجال إلى الأرض، استتبّ النظام مرّة أخرى في القرى وفي المدينة، وانسحب اللصوص إلى التلال في الشمال الغربي، فلم يذهب الشاب معهم، مُفضّلاً العيش على نفقة وانج لونج. هكذا ظلّ كشوكة في المنزل، وتجوّل في كلّ مكانٍ، مثرثراً ومتبطلاً ومتثائباً، وهو نصف عارٍ حتّى في الظهيرة.

لذلك عندما توجّه وانج لونج إلى المدينة في أحد الأيام ليرى ابنه الثاني في سوق الحبوب، سأله:

– حسنًا يا بني الثاني، ما رأيك فيما يريده شقيقك الأكبر، بخصوص انتقالنا إلى المدينة والعيش في المنزل الكبير إذا تمكّنّا من استئجار جزء منه؟

كان الابن الثاني قد صار شاباً الآن، وأصبح رقيقاً وأنيقاً مثل باقي

الكتبة في المتجر، على الرغم من أنه كان لا يزال ضئيل القامة أصفر البشرة بعينين ماكرتين. أجاب برقة قائلاً:

- إنها فكرة رائعة، وهي تناسبني للغاية. حيث يمكنني حينها الزواج والسكن هناك مع زوجتي أيضاً، وسوف نكون جميعاً تحت سقفٍ واحدٍ شأن الأسر الكبيرة.

لم يكن وانج لونج قد اتخذ أيَّ خطواتٍ في سبيل تزويج ابنه هذا، حيث كان شاباً هادئاً بارد الدم، ولم يُظهر أيَّ أماراة من أمارات الشهوة أبداً، وكان لدى وانج لونج الكثير غيره ممّا يسبّب له الإزعاج. مع ذلك، قال الآن بشيءٍ من الخجل، لأنّه كان يدرك أنّه قصّر في حق ابنه الثاني:

- لقد حدّثت نفسي طوال هذه الفترة قائلاً بأنك يجب أن تتزوَّج، لكن مع انشغالي بهذا الأمر وذاك، لم يسنح لي الوقت. ومع حلول هذه المجاعة الأخيرة، واضطرارنا إلى تجنّب إقامة الولايم... أما الآن وقد بتنا نستطيع دعوة الناس إلى الطعام مرّة أخرى، فسوف يتمّ إنجاز الأمر. وفكّر في عقله سرّاً أين يمكنه العثور على عروسٍ. حينها قال الابن الثاني:

- حسناً، سوف أتزوَّج إذن. فهو أمرٌ جيّد، وأفضل من إنفاق المال على العاهرات عندما تشتد الرغبة بالمرء. ومن الصواب أن يكون للرجل أبناء. لكن لا تجلب لي زوجة من منزلٍ في المدينة مثل أخي، حيث إنّها سوف تثرثر طوال الوقت عمّا كان في منزل أبيها، وستجعلني أسرف في النفقات، وسيتسبّب ذلك في إثارة غضبي.

سمع وانج لونج هذا بدهشة، حيث لم يكن يعرف أن طبع زوجة ابنه كان كذلك. لم ير سوى أنها كانت امرأة حريصة على السلوك القويم، وجميلة بما فيه الكفاية. لكنه بدا له وكأنه كلامٌ يتّصف بالحكمة، وأحسّ بالسعادة لأنّ ابنه ذكيٌّ وبارعٌ لادّخاره للمال. لم يكن يعرف ابنه هذا إلا بالكاد في الواقع، حيث إنه نشأ ضعيفاً مقارنة بقوة شقيقه الأكبر، وباستثناء حكاياته الهادئة، لم يكن طفلاً أو شاباً تلتفت إليه الأنظار. حتّى إنه عندما ذهب للعمل في المتجر في المدينة، نسي وانج لونج أمره يوماً بعد يوم، ولم يكن يتذكّره إلا عندما يجيب سؤال أحدهم عن عدد أطفاله ويقول: «لدي ثلاثة أبناء».

تأمّل الآن الشاب، ابنه الثاني، ورأى شعره القصير الناعم، وهو مدهونٌ بالزيت وأملس، وثوبه النظيف من الحرير الرمادي مزيناً بنقوشٍ صغيرة، ولاحظ حركات الشاب الأنيقة، وعينيه الرصينتين الكتومتين، وحدّث نفسه قائلاً بدهشة:

- حسناً، هذا أيضاً ابني!

ثم قال بصوتٍ مرتفع:

- أي نوع من الفتيات تريد إذن؟

أجاب الشاب بهدوءٍ وثباتٍ، كما لو أنّه درس الأمر مسبقاً:

- أريد فتاة من القرية، من أسرة تمتلك أراضي شاسعة، ودون أقارب فقراء. فتاة ستجلب معها دودة وفيرة، وليست قبيحة ولا جميلة، وتجيد الطهو بحيث إنه حتّى في وجود الخدم في المطبخ، يمكنها

الإشراف عليهم. ويجب أن تكون من النوع الذي يشتري ما يكفي من الأرز فحسب، ولا يزيد ما تشتريه على ذلك ولو بمقدار حفنة، وإذا اشترت قماشاً، يجب أن تتمَّ خياطة الثوب بإحكام، بحيث تكفي قبضة يدها للإمساك بالقصاصات المتبقية. أريد فتاة من هذا النوع.

ازدادت دهشة وانج لونج عندما سمع هذا الحديث، حيث كان هناك شابٌ لم يشهد هو حياته، على الرغم من أنه كان ابنه. لم تكن مثل هذه الدماء تسري في جسده هو الممتلئ حيوية عندما كان شاباً، ولا في جسد ابنه البكر. مع ذلك أعجب بحكمة الشاب، وقال ضاحكاً:

- حسناً، سوف أبحث عن مثل هذه الفتاة، وسوف يبحث عنها تشينج بين القرى.

مضى في طريقه وهو لا يزال يضحك، ومراً من الشارع المؤدي إلى المنزل الكبير. وقف متردداً بين الأسدين الحجريين، ثم دخل، حيث لم يكن هناك من يوقفه. كانت الساحات الأمامية كما تذكرها عندما جاء باحثاً عن العاهرة التي خاف على ابنه منها. كانت الملابس معلقة على الأشجار لتجف، وجلست النساء في كلِّ مكانٍ تتبادلن الثثرة، بينما هن يغرسن إبرهن الطويلة في نعال الأحذية التي صنعنها. وكان الأطفال العراة المُعَبَّرُون يتدحرجون على بلاط الساحات، والمكان يعبق برائحة العوام من الناس الذين يتدفقون إلى ساحات الكبار بعد أن يغيب الكبار. نظر نحو الباب حيث كانت تعيش العاهرة، لكنَّ الباب كان مغلقاً، وكان هناك شخصٌ آخر يسكن هناك الآن - رجلٌ عجوزٌ - فشعر وانج لونج بالراحة لذلك، ودخل.

في الأيام الخوالي عندما كانت الأسرة الكبيرة تسكن هنا، كان وانج لونج سيشعر أنّه واحدٌ من هؤلاء العوام، يحمل النقمة ضد الأثرياء، ويكرههم نصف كراهية، ويخافهم نصف خوفٍ. لكن الآن بعد أن صار يمتلك الأرض، ولديه ذهبٌ وفضّة مخبّان في أمانٍ، بات يحتقر أولئك الناس الذين احتشدوا في كلّ مكانٍ، وقال لنفسه إنّهم قدرون، وشقّ طريقه بينهم شامخًا بأنفه، حابسًا أنفاسه، بسبب الرائحة الكريهة التي تفوح منهم. شعر حيالهم بالازدراء، ونقم عليهم وكأنّه هو نفسه ينتمي إلي المنزل الكبير.

واصل طريقه عبر الساحات، رغم أنّ ذلك كان بدافعٍ من الفضول، وليس بسبب أنّه اتّخذ أيّ قرارٍ. لكنّه واصل طريقه مع ذلك، ووجد في الخلف بوابة مغلقة تؤدي إلى إحدى الساحات، وبجوارها امرأة عجوزٌ ناعسة. نظر إليها، وأدرك أنّها زوجة حارس البوابة التي خلف الجدري آثاره على وجهها. أدهشه ذلك، وأمعن النظر إليها، حيث تذكر أنّها كانت ممثلة الجسم وفي منتصف العمر، لكنّها أضحت الآن هزيلة متغصّنة ذات شعرٍ أشيب، وكانت أسنانها أشبه بأرومات شجرٍ صفراء، غير ثابتة في فكّيها. بينما هو يحدّق بها هكذا، رأى في لحظة كم مرّت سنواتٌ عديدة سريعًا، منذ أن كان شابًا وقد أتى مع ابنه البكر بين ذراعيه، ولأوّل مرّة في حياته، أحسّ وانج لونج بزحف الشيخوخة.

بعد ذلك قال للمرأة بشيءٍ من الحزن:

- استيقظي، وافتحي لي البوابة كي أدخل.

جفّلت المرأة العجوز، وطرفت بعينيها، ولعقت شفّتيها الجافّتين،

وقالت:

- ليس مسموحٌ لي بأن أفتح إلا لمن يستطيع استئجار الساحات
الداخلية بأكملها.

وقال وانج لونج فجأة:

- حسنًا، ربّما أفعل، إذا راق لي المكان.

لكنّه لم يُفصح لها عن هويّته، بل دخل وراءها فحسب، وكان يتذكّر
الطريق جيّدًا، فتبعها. هنا كان الصمتُ يسود الساحات، وهناك كانت
الغرفة الصغيرة التي ترك فيها سلّته، وهنا الشرفات الطويلة القائمة على
الأعمدة الرقيقة المطلية باللون الأحمر. تبعها إلى القاعة الكبرى نفسها،
وعاد ذهنه بسرعة إلى الوراء عبر السنوات، عندما وقف هناك منتظرًا
الزواج من جارية من جواري المنزل. كان في قبالة المنصة المنحوتة
الضخمة حيث جلست السيدة العجوز، وقد لفتّ جسدها الضعيف
المترب برداءٍ من الساتان الفضي.

دفعه حافزٌ غريبٌ لأن يتقدّم إلى الأمام، وجلس حيث جلست هي
من قبل، ووضع يده على الطاولة. ومن مكانه المرتفع على المنصة، نظر
إلى وجه العجوز الشمطاء الأعمش، التي طرفت بعينيها، وانتظرت في
صمتٍ ما سوف يفعله. ثم امتلأ قلبه بشعور بالرضى كان يتوق له طوال
حياته دون أن يدرك ذلك، فضرب المائدة بكفّه، وقال فجأة:

- سوف أحصل على هذا المنزل!



في تلك الأيام، بات وانج لونج يرغب في تنفيذ القرارات التي يتخذها بأسرع ما يمكن. صار نافذ الصبر مع تقدُّمه في السنّ، ويرغب في الانتهاء ممّا يجب إنجازه، كي يتمكّن من قضاء باقي اليوم في سلامٍ وهدوءٍ وهو يراقب شمس آخر النهار، وينام لبعض الوقت بعد أن يتحوّل في أرضه. لذا أبلغ ابنه الأكبر بقراره، وأمر الشاب بترتيب الأمر. كما أرسل في طلب ابنه الثاني كي يأتي للمساعدة في الانتقال من سكنهم. انتقلوا في اليوم الذي باتوا مستعدّين فيه، بحيث بدأوا بلوتس وكوكو والجواري والبضائع، ثم الابن الأكبر لوانج لونج، وزوجته، وخدمهما، وجواريهما.

لكنّ وانج لونج نفسه رفض الذهاب على الفور، وأبقى ابنه الأصغر معه. عندما حان الوقت لمغادرة الأرض التي وُلد عليها، لم يستطع القيام بذلك بسهولة، ولا بسرعة كما كان يعتقد، وعندما ألحّ عليه أبنائُه، قال لهم:

- حسنًا إذن، أعدّوا لي ساحة لاستخدامي الشخصي بمفردي، وسوف آتي في اليوم الذي أرغبه. وسيكون ذلك اليوم قبل ولادة حفيدي. ويمكنني العودة إلى أرضي عندما أشاء.

وعندما ألحوا عليه مرّة أخرى، قال:

- هناك حمقائي المسكينة، ولا أعرف ما إذا كان عليّ اصطحابها معي أم لا، لكن يجب أن آخذها، فلن يهتم أحدٌ بإطعامها ما لم أفعل أنا ذلك.

قال وانج لونج هذا بنبرة من التوبيخ لزوجة ابنه الأكبر، حيث لم تكن تتحمّل اقتراب البلهاء المسكينة منها، بل كانت تتأفّف وتتقرّز منها، وتقول:

- لا يجب أن تظلّ مثل هذه المخلوقة على قيد الحياة على الإطلاق. يكفي أن أنظر إليها حتّى يتشوّه الجنين الذي أحمله في أحشائي.

تذكّر ابن وانج لونج الأكبر نفور زوجته هذا، لذا التزم الصمت، ولم يقل المزيد. بعد ذلك ندم وانج لونج على عتابه، وقال بهدوءٍ:

- سوف آتي عندما نعثر على عروس ابني الثاني، فمن الأسهل البقاء هنا حيث يوجد تشينج، حتّى يتمّ الأمر. لذا تخلّى الابن الثاني عن إلحاحه.

لم يبقَ في المنزل حينها سوى العمّ وزوجته وابنه، وتشينج والعمّال، إلى جانب وانج لونج وابنه الأصغر والبلهاء. انتقل العمّ وزوجته وابنه إلى الساحات الداخليّة، حيث كانت لوتس تقيم من قبل، واتخذوها سكناً لهم. لكنّ ذلك لم يزعج وانج لونج كثيراً، حيث أدرك بوضوح أنّه لم يتبقّ الكثير من الوقت لعمّه في هذه الحياة، وبوفاة ذلك العجوز الخامل، يكون واجب وانج لونج حيال ذلك الجيل قد

انقضى. وإذا لم ينفذ ابنه الشاب ما يُؤمر به، فلن يلوم أحدً وانج لونج في حال طرده. بعد ذلك انتقل تشينج، ومعه العمّال، إلى الغرف الخارجية. وأقام وانج لونج وابنه والبلهاء في الغرف الوسطى، واستأجر وانج لونج امرأة قويّة لتقوم على خدمتهم.

خلّد وانج لونج إلى النوم والراحة، ولم يعر انتباهًا لأيّ شيء، حيث انتابه الإرهاق فجأة، وكان الهدوء يعمّ المنزل. لم يكن هناك من يزعجه، حيث كان ابنه الأصغر فتى صامتًا يتعد عن طريق أبيه. لم يكد وانج لونج يعرف شيئًا عن طبيعة شخصيته، حيث كان الفتى كتمًا للغاية.

لكنّ وانج لونج تحرّك في نهاية المطاف، وأمر تشينج بالبحث عن عروسٍ لابنه الثاني.

كان تشينج قد تقدّم في العمر؛ وبات ذاويًا ونحيلًا مثل عودٍ من القصب، لكنّه كان لا يزال يتمتّع بقوة ووفاء كلبٍ عجوزٍ، على الرغم من أنّ وانج لونج لم يعدّ يسمح له برفع معولٍ في يده أو اتباع الثيران خلف المحراث. فقد كان لا يزال مفيدًا، حيث كان يراقب باقي العمّال، ويشرف على وزن الحبوب وقياسها. لذا عندما سمع ما يريد منه وانج لونج القيام به، اغتسل وارتدى سترته القطنيّة الزرقاء الجيدة، وذهب إلى هذه القرية وتلك، ورأى الكثير من الفتيات، حتى عاد في النهاية، وقال:

- كان من الأسهل أن أبحث عن زوجة لنفسى، من أن أبحث لابنك. لكن لو كنت أنا من سيتزوّج، وكنت لا أزال أتمتّع بالشباب، فهناك فتاةٌ تسكن على مبعدة ثلاث قرى، وهي طيبة، وموفرة الصحة،

وتتَّصَف بالحرص. لا يعيِّبها سوى ضحكاتها الحاضرة على الدوام،
ووالدها مستعدُّ، ويسعده أن تربطه ابنته بأسرتك. الدوطة جيِّدة بالنسبة
لهذه الأيام، كما أنَّه يمتلك أرضًا. لكنني أخبرته أنني لا أستطيع قطع أيِّ
وعودٍ قبل موافقتك.

بدا الأمر ملائمًا بما فيه الكفاية بالنسبة لوانج لونج، وكان يتوق
لإنتمام الموضوع، لذا منحهم كلمته. وعندما وصلت الأوراق، وذيلها
بتوقيعه، شعر بالارتياح، وقال:

- لم يعدْ هناك الآن سوى ابنٍ واحدٍ، وبعدها أنتهي من كلِّ هذه
الأعراس والزواج. أنا سعيدٌ لأنني أوشكتُ على أن أنعم بالسلام.

وعندما تمَّ الأمر، وتحدَّد يوم الزفاف، استراح، وجلس في الشمس
ونام، كما كان يفعل والده من قبل.

بعد ذلك، بدا لوانج لونج أنَّ تشينج ازداد ضعفًا مع تقدُّمه في
العمر. وحيث إنَّه هو نفسه ثَقُلَتْ عليه وطأة السنوات، وبات يغلبه
النُّعاس بعد تناول الطعام، بينما ابنه الثالث ما زال أصغر من أن يتحمَّل
المسؤولية، فقد رأى أنَّه سيكون من الجيِّد لو أجَّر بعض حقوله البعيدة
لأناسٍ آخرين من القرية. قام وانج لونج بذلك، وجاء إليه العديد من
الرجال من القرى المجاورة لاستئجار أرضه. تحدَّد الإيجار، بحيث
يؤوِّل نصف المحصول إلى وانج لونج لأنَّه مالك الأرض، والنصف
الآخر للمستأجر مقابل عمله في الأرض. إلى جانب ذلك، كانت هناك
أشياء أخرى يتوجَّب على كلِّ طرفٍ تقديمها: كان على وانج لونج
توفير كمِّيَّات محدَّدة من السماد والكسب وفضلات السمسم المتبقية

من مطحنته بعد عصر الزيت منه، وكان على المستأجر أفراد جزءٍ من المحاصيل لاستهلاك منزل وانج لونج.

وحيث إنَّه لم تعدْ هناك حاجة إلى إدارته للأمور كما كان الحال من قبل، كان وانج لونج يتوجَّه إلى المدينة أحيانًا، ويبيت في الساحة التي طلب إعدادها له. لكن بحلول النهار، كان يذهب إلى أرضه، ويعبر بوابة السور المحيط بالمدينة ما أن تُفتَح عند بزوغ الفجر. كان يشمُّ رائحة الحقول المنعشة، ويتهيج عندما يصل إلى أرضه.

وكما لو أنَّ الآلهة شاءت أن تبدي كرمها حياله، وتعد له السلام في شيخوخته، فقد ضاق صدر ابن عمِّه بالمنزل الذي صار هادئًا وخالياً من النساء، باستثناء الخادمة البدينة التي كانت زوجة لأحد العمَّال. سمع ابن عمِّه عن حربٍ تدور في الشمال، فقال لوانج لونج:

- يُقال إنَّ هناك حربًا في الشمال، وسوف أذهب للمشاركة فيها حتَّى أنشغل بشيءٍ ما، وأشهد مناطق جديدة. هذا في حال إذا منحني الفضة اللازمة لشراء المزيد من الملابس، والمفروشات، وبندقية أجنبية أحملها على كتفي.

عند ذلك قفز قلب وانج لونج من فرحته، لكنَّه أخفى سعادته بدهاءٍ، وتظاهر بالاحتجاج، وهو يقول:

- أنت الابن الوحيد لعمِّي، ولا يوجد بعدك من يحمل نعشه. ومن يدري ما قد يحدث لو ذهبت للمشاركة في الحرب؟
فأجاب الرجل ضاحكًا:

- حسنًا، أنا لستُ أحمق. لن أضع نفسي في أي موقفٍ تتعرّض فيه حياتي للخطر. إذا نشبتُ معركة، سوف أبقى بعيدًا حتى تنتهي. أتوق لشيءٍ من التغيير، والسفر لرؤية بعض البقاع الأجنبية، قبل أن يتقدّم بي السنُّ ولا أتمكن من القيام بذلك.

لذا أعطاه وانج لونج الفضة عن طيب خاطرٍ، ولم يكن العطاء صعبًا هذه المرّة أيضًا، حتّى إنّهُ سكب المال في يد الرجل، وقال لنفسه:

- حسنًا، إذا كان يرغب في ذلك، فسوف يضع هذا حدًا للعنة وجوده في منزلي. فهناك دومًا حربٌ ما تدور في منطقة من مناطق هذه البلاد.

وقال لنفسه أيضًا:

- ربما حتّى يتعرّض للقتل، إذا استمرَّ حُسن طالعي. حيث إنّ هناك من يموتون في الحرب في بعض الأحيان.

شعر بسعادة غامرة حينها، على الرغم من أنّه أخفى ذلك، وواسى زوجة عمّه عندما بكت بعض الشيء لسماعها خبر رحيل ابنها، ومنحها المزيد من الأفيون، وأشعل غليونها، وقال:

- لا شكّ أنّه سوف يترقّى ليصير ضابطًا، وستنال جميعًا الشرف من خلاله.

بعد ذلك ساد السلام أخيرًا، حيث لم يعدّ هناك سوى العجوزين النائمين في المنزل المجاور لمنزله في الريف. وفي المنزل الكائن في المدينة، أُرِفَت ساعة ولادة حفيد وانج لونج.

مع اقتراب تلك الساعة، تزايد بقاء وانج لونج في منزله بالمدينة أكثر وأكثر، وكان يتجول في ساحاته وهو لا يستطيع التوقف عن التفكير فيما حدث، ولا ينتهي أبداً من التعجب، من أن هذه الساحات التي كانت تسكنها من قبل أسرة هوانج العظيمة، صار هو يسكن بها الآن مع زوجته، وأبنائه وزوجاتهم، وسيولد الآن طفل من الجيل الثالث.

فاض قلبه سعادةً، ولم يضمن بماله لشراء أي نفيس، فاشترى لهم جميعاً كميات من الساتان والحرير، حيث لم يكن من اللائق رؤية ثياب قطنية عادية تجلس على الكراسي المزخرفة وحول الطاولات المنحوتة المصنوعة من الأبنوس المجلوب من الجنوب. واشترى للجواري كميات من القطن الجيد الأزرق والأسود حتى لا تضطر أي واحدة منهن إلى ارتداء ملابس بالية. وانتابه السرور عندما أتى الأصدقاء الذين تعرّف عليهم ابنه الأكبر في المدينة، ودخلوا ساحات المنزل، وشعر بالفخر عندما شاهدوا كل ما بها من فخامة.

أصبح وانج لونج مهتماً بتناول الأطعمة الشهية، وفي حين كان يقنع من قبل بساق من الثوم الملفوف برغيف من الخبز الأبيض الجيد، إلا أنه بعد أن اعتاد النوم حتى وقت متأخر، ولم يعد يعمل بيديه في الأرض، لم يعد يرضى بسهولة بهذا الطبق أو ذاك. صار يتناول الخيزران الشتوي، وبطارخ الجمبري، والأسماك الجنوبية، والمحار من بحار الشمال، وبيض الحمام، وكل تلك الأشياء التي يلجأ إليها الأثرياء من الرجال لإثارة شهيتهم الخاملة إلى الطعام. كما شاركه أبنؤه الطعام، ولوتس أيضاً. وعندما رأت كوكو كل التغيير الذي حدث، ضحكت قائلة:

- حسنًا، هذا مثل الأيام الخوالي، عندما كنتُ أقيم في هذه الساحات، إلّا أنّ جسدي صار ذاويًا وجافًا، ولم يعد يصلح حتّى لسيدٍ عجوز.

قالت هذا وهي ترمق وانج لونج بخبثٍ، وضجكت مرّة أخرى. تظاهر بأنّه لم يسمع خلاعتها تلك، لكنّه أحسّ بالسُرور على الرغم من ذلك، لأنّها شبّهته بالسيد العجوز.

وسط هذه الحياة المُترّفة الخاملة التي يستيقظون فيها وقتما يريدون، وينامون متى رغبوا، أخذ وانج لونج ينتظر مولد حفيده. وذات صباح، سمع أنين امرأة، فتوجّه إلى ساحات ابنه الأكبر، وقابله ابنه، وقال:
- لقد آن الأوان، لكن كوكو تقول إنّ الأمر سوف يطول، حيث إنّ المرأة تعاني من ضيقٍ في تكوين جسدها، وستكون الولادة صعبة.

لذا عاد وانج لونج إلى ساحته الخاصّة، وجلس يستمع إلى الصرخات. ولأوّل مرّة منذ سنواتٍ طويلة، أحسّ بالخوف، وأنّه بحاجة إلى نوعٍ من المساعدة الروحيّة. لذلك نهض، وتوجّه إلى متجر البخور، واشترى البخور، وذهب إلى المعبد في المدينة، حيث توجد إلهة الرحمة في محرابٍ مُذهّبٍ، واستدعى كاهنًا كان يجلس في خمولٍ، وأعطاه المال وطلب منه وضع البخور أمام الإلهة، قائلاً:

- لا يليق بي كرجلٍ أن أفعل ذلك، لكنّ حفيدي الأوّل على وشك أن يُولّد، والأم تعاني من مخاضٍ عسيرٍ، حيث إنّها من بنات المدن، وتكوين جسدها أضيّق ممّا يجب. وقد تُوفيتُ والدة ابني، ولا توجد امرأةٌ تغرس البخور أمام الإلهة.

ثم راقب الكاهن وهو يغرس البخور وسط الرماد في الجرة أمام الإلهة، وفكر برعبٍ مفاجئ: «ماذا لو لم يكن حفيدًا، بل حفيدة؟». وصاح على عجل:

- إذا كان حفيدًا، فسوف أدفع ثمن رداءٍ أحمر جديدٍ للإلهة، لكنني لن أدفع شيئًا إذا كانت حفيدة!

خرج والقلق يغمره، لأنّه لم يكن قد فكر في ذلك من قبل، أنّ المولود قد لا يكون ذكرًا، بل فتاة. ذهب واشترى المزيد من البخور، على الرغم من أنّ النهار كان حارًّا، وبلغت كثافة الغبار في الشوارع شبرًا. توجه على الرغم من ذلك إلى المعبد الريفي الصغير، حيث يجلس الاثنان اللذان يحرسان حقوله وأرضه، ودفع البخور بداخله وأشعله، وهو يتمتم قائلاً للزوجين:

- حسنًا إذن، لقد قمنا برعايتكما، والدي، وأنا، وابني. وها هي ثمرة جسد ابني في الطريق، وإذا لم يكن المولود ذكرًا، فلن أقدم لكما أي شيءٍ آخر.

بعد أن فعل كلّ ما في وسعه، عاد إلى المنزل خائر القوى، وجلس إلى طاولته، وتمنّى لو تأتيه إحدى الجوارى بالشاي، وأن تجلب له أخرى منشفة مغموسة في الماء المغلي ومعصورة، كي يمسح وجهه. لكن على الرغم من أنّه صفّق بيديه، إلّا أنّ أحدًا لم يأت. لم يعرف أحدًا الانتباه، وكانوا يهرعون جيئةً وذهابًا، لكنّه لم يجرؤ على إيقاف أيٍّ منهم للسؤال عن جنس الطفل المولود، أو حتى لو كان هناك أيُّ طفلٍ قد وُلد من الأساس. جلس هناك مغبرًا ومُنْهَكًا، ولم يحادثه أحدٌ.

أخيراً، عندما بدا له أنَّ الليل على وشك أن يحلَّ، حيث إنَّ الانتظار طال به إلى ذلك الحدِّ، جاءت لوتس متمائلة على قدميها الصغيرتين، وهي تستند إلى كوكو بسبب بدانتها المفرطة، وضحكت، قائلة بصوت مرتفع:

- هناك ابنٌ في منزل ابنك، وكلُّ من الأم والابن على قيد الحياة. لقد رأيتُ الطفل، وهو جميلٌ وصحيح البنية.

عند ذلك ضحك وانج لونج أيضاً، ونهض قائماً، وهو يضرب كفيه ببعضهما ببعض، وضحك مرَّة أخرى، ثم قال:

- كنتُ أجلس هنا مثل رجلٍ ينتظر مولوده الأوَّل، ولا أدري ما ينبغي أن أفعله، خائفاً من كلِّ شيءٍ.

وبعد أن عادت لوتس إلى غرفتها، جلس مرَّة أخرى وشرع يتأمَّل، وفكَّر قائلاً لنفسه:

- حسناً، لم أشعر بالخوف على هذا النحو عندما وضعتُ تلك المرأة الأخرى مولودها الأوَّل.

وجلس صامتاً متأمِّلاً، وتذكَّر ذلك اليوم، وكيف دخلت وحدها الغرفة الصغيرة المعتمة، وكيف أنجبت له الأبناء والبنات في صمتٍ دون أن يعاونها أحدٌ، وكيف كانت تعود لتعمل إلى جواره في الحقول مرَّة أخرى. وها هي هذه المرأة الآن، زوجة ابنه، التي صرخت من الألم مثل الأطفال، وقد جعلت كلَّ الجوّاري يهرولن في أرجاء المنزل، بينما زوجها هناك عند بابها.

وتذكّر كما يتذكّر المرء حلمًا انقضى منذ عهدٍ طويلٍ، كيف كانت أولان ترتاح من عملها لبعض الوقت وهي ترضع الطفل، واللبن الأبيض الغني يسيل من صدرها ويتدفّق على الأرض. بدا أنّ هذا وقع منذ زمنٍ طويلٍ للغاية، بحيث صار وكأنّه لم يحدث في الواقع قط.

حينها، دخل ابنه مبتسمًا، شاعرًا بأهميته، وقال بصوتٍ مرتفعٍ:

- وُلِدَ الطفل الذكر يا أبي، وعلينا الآن أن نجد امرأة لترضعه. فلن أفسد جمال زوجتي وأنهكها بفعل الرضاعة. لا تقوم أيّ من النساء ذوات المكانة في المدينة بذلك.

قال وانج لونج بحزنٍ، على الرغم من أنّه لم يكن يعرف سبب حزنه:

- حسنًا، فليكن، ما دام ليس هناك مفرٌّ من ذلك، وما دامت لا تستطيع إرضاع طفلها.

عندما أتمّ المولود شهرًا من العمر، أقام والده، ابن وانج لونج، وليمة الميلاد، ودعا الضيوف من المدينة، ووالد زوجته ووالدها، وجميع أعيان المدينة. كما صبغ المئات من بيض الدجاج باللون القرمزي، ووزّعها على كلّ الضيوف، وعلى أيّ شخصٍ كان يأتي له بالضيوف. أُقيمت الولائم، وعمّت البهجة أرجاء المنزل، حيث كان الطفل ذكرًا سمينًا جميلًا، وقد تجاوز يومه العاشر وبقي على قيد الحياة، وزال هذا الخوف، فابتهجوا جميعًا.

بعد انتهاء وليمة الميلاد، جاء ابن وانج لونج إلى والده، وقال:

- الآن وقد أضحت هناك ثلاثة أجيالٍ في هذا المنزل، يجب أن

تكون لدينا ألواحٌ منقوشٌ عليها أسماء أسلافنا، مثل تلك التي تمتلكها الأسر الكبيرة، كما يجب أن نضع هذه الألواح في مكانٍ يتيح لنا أن نقدّسها في أيام الأعياد، حيث صرنا أسرة عريقة الآن.

أسعد هذا وانج لونج للغاية، فأمر بتنفيذه حتّى تمّ بالفعل. وُضع صفُّ الألواح في القاعة الكبرى، وقد نُقش على أحدها اسم جدّه، وعلى الذي يليه اسم والده. وكانت المساحات الفارغة مُعدّة لاسم وانج لونج واسم ابنه بعد وفاتهما. اشترى وانج لونج جرّة بخورٍ، ووضعها أمام الألواح.

عندما انتهوا من ذلك، تذكّر وانج لونج الثوب الأحمر الذي وعد به إلهة الرحمة، فذهب إلى المعبد ليدفع لهم المال من أجل ذلك.

بعد ذلك، في طريق عودته، وكأنّما الآلهة لا تطيق أن تجود بالعطاء دون أن تخفي في عطائها ذاك شوكة ما، جاء أحدهم راکضاً من حقول الحصاد ليخبره أنّ الموت حضر تشينج فجأة، وقد أبدى رغبته في أن يزوره وانج لونج وهو يحتضر. استمع وانج لونج إلى الرجل اللاهث، وصاح غاضباً:

- أعتقد أنّ هذين الزوجين اللعينين في المعبد قد شعرا بالغيرة، لأنني منحتُ ثوباً أحمر لإلهة في المدينة، وعلى ما أظنّ فهما لا يعرفان أنّه لا سلطان لهما على الولادة، بل على الأرض فحسب.

وعلى الرغم من أنّ وجبة الظهيرة كانت جاهزة ومُعدّة له كي يتناولها، فقد رفض أن يمسك بأعواد طعامه. ورغم أنّ لوتس نادته بصوتٍ مرتفعٍ كي ينتظر حتى غروب الشمس، فإنّه رفض البقاء من

أجلها، وخرج. عندما رأت لوتس أنه لم يعرها انتباهًا، أرسلت في أعقابها جارية تحمل مظلة من الورق المُزَيَّت. لكنَّ وانج لونج هروول مُسرِّعًا لدرجة أنَّ الجارية القوية وجدت صعوبة في إبقاء المظلة فوق رأسه.

توجَّه وانج لونج على الفور إلى الغرفة التي وُضع فيها تشينج، وصاح مخاطبًا الجميع:

- كيف حدث كلُّ هذا؟

كانت الغرفة مليئة بالعمَّال المحتشدين، وأجابوا بارتباكٍ وعجلة:

- أراد أن يدرس القمح بنفسه...

- قلنا له ألا يفعل ذلك في سنَّه هذا...

- هناك عاملٌ تمَّ تعيينه حديثًا...

- لم يكن يعرف كيف يمسك المدراس بصورة صحيحة، وأراد تشينج أن يريه كيف يفعل ذلك...

- هذا عملٌ شاقٌّ للغاية بالنسبة لرجلٍ عجوز...

صرخ وانج لونج بصوتٍ رهيب:

- أحضروا لي هذا العامل.

فدفعوا بالرجل أمام وانج لونج، ووقف هناك مرتجفًا وركبتاه العاريتان تصطكان بعضهما ببعض. كان فتى ريفيًا خشنًا، ضخم الجثة، مُتورِّد البشرة، وأسنانه ناتئة كالرفِّ فوق شفته السفلية، وله عينان مستديرتان بليدتان مثل الثَّور. لكنَّ وانج لونج لم يُشْفِق عليه. صفع

الفتى على وجنتيه، وتناول المظلة من يد الجارية، وشرع يضربه بها على رأسه. ولم يجرؤ أحدٌ على إيقافه، لئلا يتسرّب غضبه إلى دمه، ويتسبّب له في التسمّم في سنّه هذا. تحمّل الفتى الريفي الأمر بخنوعٍ، وهو يبكي بعض الشيء، ويشهق من بين عبراته.

عندئذٍ ارتفع أنين تشينج من الفراش الذي كان يرقد فيه، فألقى وانج لونج المظلة، وصرخ قائلاً:

- سيموت هذا الرجل الآن، بينما أنا منشغلٌ بضرب أحرق!

ثم جلس بجوار تشينج، وأخذ يده وأمسك بها، وكانت خفيفة وجافةً وصغيرة، مثل ورقة بلوطٍ ذابلة، ولم يكن من الممكن تصديق أنّ هناك أيّ دماءٍ تسري بها، وهي جافةٌ وخفيفةٌ وملتهبةٌ على هذا النحو. لكنّ وجه تشينج، الذي كان شاحباً وأصفر اللون كلّ يومٍ، صار الآن داكناً ومُلطّخاً بدمائه الهزيلة، وعيناه نصف مفتوحتين، تعلوهما غشاوة، وقد صارتا عاجزتين عن الرؤية، وكانت أنفاسه غير منتظمة. انحنى وانج لونج مقترباً منه، وقال في أذنه بصوتٍ مرتفع:

- ها أنا ذا، وسوف أشتري لك تابوتاً لا يفوقه سوى تابوت أبي!

لكن أذن تشينج كانت ممتلئة بالدماء، وإذا كان قد سمع وانج لونج، فلم تبدر منه أيّ إشارة تدلّ على ذلك. رقد لاهثاً وهو يحترق، حتى مات.

عندما تُوفّي، انحنى وانج لونج فوقه، وبكى كما لم يبكِ عند وفاة والده، وأمر بنعشٍ من أجود الأنواع، واستأجر الكهنة للجنائز، وسار

خلفه مرتديًا ملابس الحداد البيضاء. حتّى إنّه جعل ابنه الأكبر يرتدي شرائط بيضاء على كاحليه، وكأنّ أحد أقاربهم قد مات. وعلى الرغم من أنّ ابنه تذرّ قائلًا:

- لم يكن سوى كبير الخدم، وليس من اللائق أن نرتدي الحداد على الخادم بهذا الشكل.

لكنّ وانج لونج أجبره على ذلك لمدة ثلاثة أيام. ولو كان وانج لونج قد تمكّن من تنفيذ رغبته بالكامل، لدفن تشينج داخل الجدار الطيني، حيث دفن والده وأولان، لكنّ أبناءه رفضوا، واحتجّوا قائلين:

- هل ترغب في أن ترقد أمنا وجدنا مع خادمٍ؟ وهل يجب علينا ذلك نحن أيضًا عندما يحين أجلنا؟

عجز وانج لونج عن جدالهم، لأنّه أراد أن ينعم بالسلام في منزله في سنّه هذا. لذا دفن تشينج عند مدخل الجدار، واطمأنّ لما فعله، وقال:

- حسنًا، هذا ملائمٌ، حيث إنّهُ دومًا ما كان يحرسني من الشرور.

وأوصى أبناءه بأن يدفنوه عند وفاته في أقرب مكانٍ ممكنٍ من تشينج.

منذ ذلك الحين، صار وانج لونج يذهب لزيارة أرضه بقدر أقل من أي وقتٍ مضى، لأنّ الذهاب وحده بات يؤلمه بعد رحيل تشينج، وقد سئم العمل، وأصبحت عظامه تؤلمه كلّما سار عبر الحقول الوعرة بمفرده. لذا أجّر كلّ ما يستطيع تأجيرهُ من أراضيهِ، وأقبل عليها الرجال بحماسة، حيث كان من المعروف أنّها أرضٌ طيّبة. لكنّ وانج لونج

رفض تمامًا الحديث عن بيع ولو قدم من أي قطعة من أرضه، وكان يؤجّرهما فقط لمدة عامٍ في المرّة الواحدة مقابل مبلغٍ متفقٍ عليه. وهكذا كان يشعر أنّها لا تزال كلها ملكًا له، وتحت يده.

عيّن أحد العمّال وزوجته وأولاده للعيش في المنزل الريفي، ورعاية مُدخني الأفيون العجوزين. وعندما رأى الحزن في عيني ابنه الأصغر، قال:

- فلتأتِ معي إلى المدينة، وسأصطحب حمقائي معي أيضًا، ويمكنها أن تعيش في ساحتي الخاصّة. سوف تشعر أنت بالوحشة هنا بعد رحيل تشينج، وبعد وفاته لست متأكدًا ما إذا كانوا سيحسنون معاملة البلهاء المسكينة، حيث لن يكون هناك من يبلّغني لو تعرّضت للضرب أو سوء التغذية. كما لا يوجد من يُعلّمك أسرار الأرض بعد رحيل تشينج.

لذا اصطحب وانج لونج معه ابنه الأصغر والبلهاء المسكينة. ومنذ ذلك الحين ولفترة طويلة، لم يعد يزور المنزل الواقع على أرضه إلّا نادرًا.



بدا لوانج لونج أنّه لم يعد ينقصه شيء، وأنّه بوسعه الآن الجلوس في مقعده تحت الشمس، بجوار حمقائه، وهو يدخن النارجيلة وينعم بالهدوء، حيث إنّ أرضه تحظى بالرعاية، والمال يتدفّق منها إلى يده دون أن يبذل هو أيّ جهد.

وربما كان سيحظى بما أراده، لولا ابنه الأكبر الذي لم يكن يقنع أبداً بحالهم الذي يسير على ما يرام، بل دوّماً ما كان يتطلّع إلى المزيد. لذا أتى إلى والده وقال:

- نحن بحاجة إلى هذا وذاك من الأشياء المختلفة في هذا المنزل، ولا يجب أن نظن أنّه بوسعنا أن نكون أسرة كبيرة لمجرد أنّنا نعيش في هذه الساحات الداخلية. والآن ها هو موعد زفاف أخي الأصغر بعد ستة أشهر فقط، ولا توجد لدينا مقاعد كافية للضيوف، كما لا توجد لدينا صحون ولا طاولات ولا أيّ شيء كافٍ في هذه الغرف. وعلاوة على ذلك، فمن العار أن نطلب من الضيوف الدخول من البوابات الكبيرة، والمرور من بين كلّ ذلك الحشد من العوام الذين تفوح منهم الروائح النتنة، ويصدر عنهم الضجيج. ومع زواج شقيقي، وفي وجود أطفاله وأطفالي المنتظرين، سوف نكون في حاجة إلى تلك الساحات أيضاً.

عندئذٍ، نظر وانج لونج إلى ابنه الواقف هناك بملابسه الأنيقة،
أغمض عينيه، وسحب نفساً عميقاً من نارجيلته، وزمجر قائلاً:

- حسناً، ماذا تريد الآن؟ ما الذي قلته مرّة أخرى؟

رأى الشاب أنّ والده ضاق ذرعاً به، لكنّه قال بعنادٍ، وهو يرفع صوته
بعض الشيء:

- أقول إنّنا يجب أن نحصل على الساحات الخارجية أيضاً، ويجب
أن يكون لدينا ما يليق بأسرة تمتلك هذا القدر من المال الذي نمتلكه،
وأرضاً طيّبة مثل التي نمتلكها.

حينها غمغم وانج لونج والنارجيلة في فمه:

- حسناً، تلك الأرض ملكي أنا، وأنت لم تمدّ يدك لتعمل بها قطّ.

صاح الشاب قائلاً عندما سمع ما نطق به والده:

- حسناً، يا أبي، أنت الذي أردت أن تجعل مني عالمًا، وحين
أحاول التصرّف كما يليق بابن رجلٍ يمتلك الأرض، فإنّك تحتقرني،
وتريدني أن أصير أنا وزوجتي من الفلاحين.

واستدار الشاب غاضبًا، وتظاهر بأنّه سوف يضرب رأسه بشجرة
صنوبر ملتوية كانت هناك في الساحة.

حينها انتاب الخوف وانج لونج، لئلا يؤذي الشاب نفسه، حيث إنّهُ
كان حادّ الطباع على الدوام. لذا ناداه قائلاً:

- افعل ما يحلو لك. افعل ما يحلو لك، بشرط ألاّ تزعجني بالأمر!
عند سماعه هذا، انصرف الابن على عجلٍ؛ كي لا يغيّر والده

رأيه، وكان يشعر بالسرور. بأسرع ما في استطاعته، اشترى الطاولات والمقاعد المنقوشة والمزخرفة من سوتشاو، واشترى ستائر من الحرير الأحمر لتعليقها في المداخل، ومزهريات ضخمة وأخرى صغيرة، كما اشترى لفائف لتعليقها على الجدران، وكان أكبر قدر استطاع شراءه منها يصوّر النساء الجميلات. واشترى أيضًا صخورًا غريبة لينشئ الحدائق الصخرية في الساحات، مثل تلك التي شاهدها في المناطق الجنوبية. وهكذا ظلّ منشغلًا طوال أيام عديدة.

مع كلّ ذهابه ومجيئه هذا، كان مضطرًا إلى المرور عدة مرّات في اليوم الواحد، عبر الساحات الخارجية. ولم يستطع المرور من بين عامة الناس، دون أن يشمخ بأنفه وهو لا يطيقهم، حتى إنّ الناس الذين كانوا يسكنون هناك كانوا يتضاحكون بعد مروره، قائلين:

— لقد نسي رائحة الرّوث في فناء مزرعة والده!

لكن مع ذلك، لم يكن أحدٌ يجرؤ على الحديث على هذا النحو أثناء مروره، حيث إنّّه كان ابن رجلٍ ثريٍّ. وبحلول يوم العيد الذي تتحدّد فيه الإيجارات، وجد هؤلاء الناس البسطاء أنّ إيجار الغرف والساحات التي كانوا يقيمون فيها ارتفعت إلى حدٍّ كبيرٍ، لأنّ هناك من أبدى استعدادَه لدفع ذلك القدر من المال مقابلها، فاضطّروا إلى الرحيل. عرفوا بعد ذلك أنّ ابن وانج لونج الأكبر هو من فعل هذا، على الرغم من أنّه كان حريصًا ولم يعلن شيئًا، وأنجز الأمر كلّهُ من خلال مراسلة ابن السيد هوانج العجوز، الذي يقيم في بلادٍ أجنبية. ولم يكن ابن السيّد العجوز هذا يهتم بشيءٍ سوى من أين، وكيف يحصل على أكبر قدرٍ من المال مقابل المنزل القديم.

اضطرَّ أولئك العوام إلى الرحيل، وغادروا المكان متذمّرين ولاعينين، لأنَّ رجلًا ثريًا استطاع أن ينفذ ما أَرادَه. حزموا أمتعتهم الرثّة، ورحلوا والغضب يغمرهم، مهمهمين أنَّهم سوف يعودون في يوم من الأيام، مثلما يعود الفقراء كلّما ازداد الأثرياء ثراءً بدرجة تفوق الحدّ.

لكن وانج لونج لم يسمع كلّ هذا، حيث كان في الساحات الداخليّة، ونادراً ما كان يغادرها. مع تقدُّمه في السنّ، بات يخلد إلى النوم ويتناول طعامه ويرتاح، تاركًا مقاليد الأمور في يد ابنه الأكبر. دعا ابنه النجّارين والبنّائين المهرة، ورَمَموا الغرف والبوابات المقنطرة بين الساحات، التي دَمَرها عوام الناس بأساليب معيشتهم الخسنة. كما أعاد بناء البرك، واشترى الأسماك المرقّطة والأسماك الذهبيّة ووضعها فيها. وبعد أن انتهى من كلّ شيء وجعله جميلًا، بقدر مفهومه هو عن الجمال، زرع اللوتس والزنبق في البرك، كما زرع الخيزران الهندي ذا الثمار القرمزيّة، وكلّ ما تذكّر أنّه شاهده في مناطق الجنوب. وعندما خرجت زوجته لتشاهد ما أنجزه، تجوّل كلاهما في جميع الساحات والغرف، وأبدت رأيها فيما رآته ناقصًا، فأنصت إليها بانتباهٍ شديد كي ينفذ ما قالته.

سمع الناس في شوارع المدينة عن كلّ ما فعله ابن وانج لونج الأكبر، وتحَدَّثوا عمّا يدور في المنزل الكبير الآن، بعد أن صار هناك رجلٌ ثريٌّ يعيش هناك مرّةً أخرى. وأخذ الناس الذين كانوا يقولون «وانج المزارع» يقولون بدلًا من ذلك «وانج، الرجل الكبير»، أو «وانج، الرجل الثري».

كان المال اللازم من أجل كل تلك الأعمال قد خرج من يد وانج لونج تدريجيًا، بحيث لم يكن يشعر بالنفقات تقريبًا. حيث كان الابن الأكبر يأتي قائلًا: «أحتاج إلى مئة قطعة من الفضة هنا»، أو: «هناك بوابة جيّدة لا تحتاج سوى القليل من الفضة لإصلاحها، وستصبح وكأنّها جديدة»، أو كان يقول: «هناك مكانٌ نحتاج فيه إلى منضدة طويلة».

منحه وانج لونج الفضة شيئًا فشيئًا، وهو جالسٌ يدخن ويستريح في ساحته، حيث كانت الفضة تتدفّق من الأرض بسهولة عند كلّ حصادٍ، وكلّما احتاج إليها، لذا قدّمها لابنه عن طيب خاطرٍ. لم يكن ليعرف مقدار ما منحه إياه، لولا ابنه الثاني الذي جاءه إلى ساحته ذات صباحٍ، حينما كانت الشمس بالكاد قد تخطّت السور، وقال:

- يا أبي، ألن يكون هناك حدٌّ لكلّ هذه الأموال المتدفّقة؟ وهل نحن بحاجة إلى أن نعيش في قصرٍ؟ لو أقرضنا كلّ هذا المال بفائدة تبلغ عشرين في المئة، لكان عاد علينا بأرطالٍ عديدة من الفضة. وما فائدة كلّ هذه البرك والأشجار المزهرة التي لا تحمل أيّ ثمرٍ، وكلّ هذه الزنابق المتفتّحة العقيمة؟

أدرك وانج لونج أن الشقيقتين سوف يتجادلان بخصوص هذا الشأن، وقال على عجلٍ، خشية ألا ينعم بالسلام أبدًا:

- حسنًا، كلّ هذا على شرف زفافك.

أجاب الشاب مصطنعًا الابتسام، دون أيّ شعورٍ بالسعادة:

- من الغريب أن يتكلّف الزفاف عشرة أضعاف ما كلّفته العروس .
ها هو ميراثنا الذي يجب تقسيمه بيننا بعد وفاتك، يُبدّد الآن لا لشيء
سوى من أجل كبرياء أخي الأكبر .

كان وانج لونج يعرف عناد ابنه الثاني هذا، وكان يعلم أنّه لن
يتخلّص منه أبداً إذا انفتح معه الحديث، فقال على عجلٍ :

- حسناً، حسناً . سوف أضع حدّاً لذلك . سأحدّث مع أخيك،
وأقبض عنه يدي . هذا يكفي . أنت على حقّ !

أخرج الشاب ورقة مُدوّنًا بها قائمة بكلّ الأموال التي أنفقها شقيقه،
وعندما رأى وانج لونج طول القائمة، قال على عجلٍ :

- أنا لم أتناول الطعام بعد، وفي سنّي هذا أشعر بالدوار في الصباح،
حتى أتناول الطعام . سننظر في هذا الأمر في وقتٍ آخر .

واستدار متوجّهاً إلى غرفته، وهكذا صرف ابنه الأصغر .

لكنّه تحدّث مع ابنه الأكبر في مساء نفس ذلك اليوم، وقال :

- هل انتهيتَ من كلّ هذا الدهان والتلميع ؟ هذا يكفي . فنحن من
أهل الريف، على أيّ حال .

لكنّ الشاب أجاب بفخرٍ :

- لسنا كذلك . بدأ الناس في المدينة يطلقون علينا اسم «أسرة وانج
العظيمة» . ومن اللائق أن نعيش بما يتناسب إلى حدّ ما مع ذلك الاسم .
وإذا كان أخي لا يستطيع أن يرى أهمية الفضة فيما هو أبعد من قيمتها
لحدّ ذاتها، فسوف أعمل أنا وزوجتي على إعلاء اسم الأسرة .

لم يكن وانج لونج يعلم أنَّ الناس يطلقون هذا الاسم على أسرته،
لأنَّه مع تقدُّمه في السنَّ نادرًا ما عاد يرتاد صالات الشاي، كما لم يعدَّ
يذهب إلى أسواق الحبوب، حيث كان ابنه الثاني ينوب عنه في أعماله
هناك. لكنَّه شعر بالسرور في قرارة نفسه، وقال:

- حسنًا، حتَّى الأسر الكبيرة أتت من الأرض، وتمتدُّ جذورها في
الأرض. لكنَّ الشاب أجاب بذكاء:

- أجل، لكنَّهم لا يبقون هناك. بل تمتدُّ فروعهم وتحمل الزهور
والثمر.

لم يعجب وانج لونج كون ابنه ردَّ عليه بمثل هذه السهولة والسرعة،
لذا قال:

- لقد قلتُ ما قلته، وانتهينا من تبذير المال. وإذا كانت الجذور
سوف تحمل الثمر، فيجب أن تظلَّ راسخة في تربة الأرض.

وحيث إنَّ المساء كان قد حلَّ، تمنَّى لو أنَّ ابنه رحل وعاد إلى ساحته
الخاصَّة. كان يريد أن يذهب الشاب، ويتركه ينعم بالسلام بمفرده في
الغسق. لكنَّه لم يكن لينعم بالهدوء في وجود ابنه هذا. كان ابنه على
استعدادٍ لطاعته حيث صار راضيًا عن الغرف والساحات، في الوقت
الحالي على الأقل، وقد انتهى من تنفيذ ما أراده. لكنَّه عاد للحديث مرَّة
أخرى:

- حسنًا، هذا يكفي. لكنَّ هناك شيئًا آخر.

عند ذلك، ألقى وانج لونج غليونه أرضًا، وصاح:

- أَلنْ أَنْعَمَ بِالسَّلَامِ أَبَدًا؟

واصل الشاب قائلاً بعنادٍ:

- هذا ليس من أجلي، ولا من أجل ابني. بل من أجل شقيقي الأصغر، الذي هو ابنك. لا يليق أن يشبَّ وهو جاهلٌ لهذا الحدِّ. يجب أن يتعلَّم شيئاً ما.

حدَّق به وانج لونج، حيث كان ذلك الأمر جديداً. كان قد حسم مصير حياة ابنه الأصغر منذ زمنٍ بعيدٍ، لذا قال الآن:

- لسنا بحاجة إلى المزيد من العلماء في هذا المنزل، يكفي اثنان. وسوف يتولَّى هو أمر الأرض بعد موتي.

أجابه ابنه الأكبر:

- أجل، وهذا هو سبب بكائه ليلاً، وما يجعله فتى شاحباً وناحلاً لهذا الحدِّ.

لم يسبق وأن فكَّر وانج لونج من قبل في سؤال ابنه الأصغر عما يريد أن يفعله بحياته، حيث إنَّه قرَّر أنَّه من الواجب أن يتولَّى أحد أبنائه أمر الأرض. لذا فقد صدمه ما قاله ابنه الأكبر، وظلَّ صامتاً. التقط غليونه من الأرض ببطءٍ، وهو يفكِّر في ابنه الثالث. لم يكن الفتى يشبه أباً من شقيقه، بل كان صامتاً مثل والدته، وبسبب صمته هذا لم يكن أحدٌ يعيره أيَّ اهتمامٍ.

سأل وانج لونج ابنه الأكبر متشكِّكاً:

- هل سمعته يقول هذا؟

أجاب الشاب:

- فلتسأله بنفسك، يا أبي.

قال وانج لونج مجادلًا فجأة، بصوتٍ مرتفعٍ للغاية:

- لكن يجب أن يتولَّى أحدُ الأبناء رعاية الأرض.

ألحَّ الشاب قائلاً:

- لكن لِمَ، يا أبي؟ إنَّ رجلاً مثلكَ ليس بحاجةٍ إلى أن يكون أبنائهُ

مثل عبيد الأرض. إنَّ ذلك أمرٌ لا يليق. سيقول الناس إنَّك قاسي القلب.

«ها هو ذا رجل يجعل ابنه فلاحًا، بينما يحيا هو مثل الأمراء». هذا هو

ما سوف يقولونه.

تحدَّث الشاب ببراعة، حيث كان يعرف مدى اهتمام والده بما

يقوله عنه الناس. واصل قائلاً:

- يمكننا استدعاء مدرِّسٍ لتعليمه، كما يمكننا إرساله ليتعلَّم في

إحدى المدارس في الجنوب. وحيث إنَّني موجودٌ في منزلِك كي

أساعدك، وشقيقي الثاني منشغلٌ بتجارته الناجحة، فدع الصبي يختر

ما يشاؤه.

في النهاية، قال وانج لونج:

- أرسله إلى هنا.

بعد فترة، جاء الابن الثالث، ووقف أمام والده. تأمَّله وانج لونج

ليكتشف طبيعته. رأى فتى نحيلًا طويل القامة، لا يشبه والده ولا والدته،

سوى أنَّه كان يتمتَّع بجديَّة والدته وصمتها. لكنَّه كان ينعم بقدرٍ من

الجمال أكثر من ذلك الذي حازت عليه والدته. وفيما يتعلق بالجمال وحده، كان لديه قدرٌ منه أكثر من باقي أبناء وانج لونج، باستثناء الابنة الثانية التي ذهبت إلى أسرة زوجها، ولم تعد تنتمي إلى منزل وانج. لكن كان هناك على جبين الفتى ما يكاد يشين جماله: حاجباه الأسودان، اللذان كانا كثين وشديدي السواد بالنسبة لوجهه الشاحب حديث السن. وعندما كان يعبس، وكثيرًا ما كان يفعل ذلك، كان حاجباه الأسودان يلتقيان، كثيفين ومستقيمين عبر جبينه.

حدّق وانج لونج بابه، وقال بعد أن ملأ عينه منه:

- يقول شقيقك الأكبر إنك ترغب في تعلّم القراءة.

قال الفتى، وهو لا يكاد يحرك شفّتيه:

- أجل.

نفض وانج لونج الرماد من غليونيه، ودفع بداخله التبغ الجديد بإبهامه ببطء.

- حسنًا، أعتقد أنّ هذا يعني أنّك لا ترغب في العمل في الأرض، ولن يكون لديّ ابنٌ يرعى أرضي، مع أنّي رُزقتُ العديد من الأبناء.

قال هذا بمرارة، لكنّ الفتى لم يقل شيئًا. وقف منتصب القامة هادئًا في ردائه الصيفي الأبيض الطويل المصنوع من الكتان. شعر وانج لونج في النهاية بالغضب من صمته هذا، وصاح به:

- لمَ لا تتحدث؟ هل صحيحٌ أنّك لا تريد أن تتولّى أمر الأرض؟

ومرّة أخرى، أجابه الفتى بكلمة واحدة فقط:

- نعم.

تأمله وانج لونج مرّة أخرى، وقال لنفسه إنّ أبناءه هؤلاء كانوا أكثر ممّا يتحمّله في شيخوخته، وكانوا يمثلون همًّا وعبئًا بالنسبة له، ولم يكن يعرف ما يجب عليه أن يفعله معهم. صاح مرّة ثانية، وهو يشعر أنّ أبناءه هؤلاء سيثثون استغلاله:

- ما الذي تريدني أن أفعله؟ اغرب عن وجهي!

انصرف الفتى على عجل، وجلس وانج لونج بمفرده، وحدّث نفسه قائلاً إنّ ابنتيه كانتا في النهاية أفضل من أبنائه، حيث إنّ إحداهما، البلهاء المسكينة، لم ترغب أبدًا فيما هو أكثر من القليل من أيّ نوع من الطعام، وشريطٍ من القماش تعبّث به، بينما كانت الأخرى متزوّجة وبعيدة عن منزله. وحلّ الغسق على الساحة، وحبسّه هناك في وحدته.

على الرغم من ذلك، ترك وانج لونج أبنائه يفعلون ما يحلو لهم، كما كان يفعل دومًا بعد أن يهدأ غضبه. استدعى ابنه الأكبر، وقال:

- فلتجلب معلّمًا لشقيقك الثالث إذا كان يرغب في ذلك، ودعه يفعل ما يشاء. لكن لا تزعجوني بشأن ذلك.

ونادى ابنه الثاني، وقال:

- حيث إنّّه لن يكون هناك أحدٌ من أبنائي للإشراف على الأرض، فسوف يكون من واجبك متابعة عوائد الإيجار والفضّة التي تدرّها الأرض عند كلّ حصادٍ. يمكنك الإشراف على الوزن والقياس، وسوف تكون مدير أعماله.

شعر الابن الثاني بالسرور لهذا، حيث إنَّ ذلك يعني أنَّ المال سيمرُّ عبر يديه على الأقل، وسيتمكَّن من معرفة مقدار دخلهم، وبصير بوسعه الشكوى لوالده إذا حدث أيُّ تبذيرٍ في المنزل.

بدا هذا الابن الثاني أكثر غرابة لوانج لونج من أيٍّ من أبنائه. فحتى عندما حلَّ يوم زفافه، كان حريصًا على الأموال التي أنفقت على اللحوم والنبيد. وقسَّم الموائد بعناية، واحتفظ بأجود اللحوم لأصدقائه في المدينة الذين يعرفون تكلفة هذه الأطباق. أمَّا بالنسبة للمستأجرين وسكان الريف الذين كان يتحمَّم دعوتهم، فقد وزَّع لهم الطاولات في الساحات، ولم يقدِّم لهم سوى لحوم ونبيد من الدرجة الثانية، حيث كانوا معتادين على الأطعمة الخشنة كلَّ يوم، وكان ما يفوق ذلك جودة بعض الشيء مناسبًا للغاية بالنسبة لهم.

راقب الابن الثاني المال والهدايا الواردة، ومنح الجواري والخدم أقلَّ قدرٍ يمكنه أن يمنحه إياهم، حتَّى إنَّ كوكو أبدت السخرية عندما وضع في كفها قطعتين زهيدتين من الفضة، وقالت على مسمعٍ من الكثيرين:

- الأسر الكبيرة حقًا لا تبدي كلَّ هذا الحرص على الفضة، ويمكن للمرء رؤية أنَّ هذه الساحات ليست هي المكان الطبيعي لتلك الأسرة. سمع الابن الأكبر هذا، وأحسَّ بالخجل، وخشي لسانها، فمنحها المزيد من الفضة خلسة، وانتابه الغضب حيال شقيقه الثاني. هكذا نشبت الخلافات بينهما حتَّى في يوم زفافه، بينما الضيوف جالسين إلى الموائد، ومحفَّة العروس في طريقها، وهي تدخل الساحات.

لم يدعُ الابن الأكبر من أصدقائه سوى عددٍ قليلٍ من بين أقلهم شأنًا لحضور الوليمة، لأنَّه شعر بالخجل من شُحِّ أخيه، ولأنَّ العروس لم تكن سوى فتاة قروية. انتحى جانبًا، وقال بازدراءٍ:

- لقد اختار أخي قِدرًا من الفخار، في حين كان بوسعه الاستفادة من منزلة والدي، والحصول على كأسٍ من اليشم.

أبدى ازدراءه، وأومأ برأسه على نحوٍ اتَّسم بالجفاف، عندما أتى الزوجان، وانحنيا أمامه هو وزوجته بوصفهما الشقيق والشقيقة الأكبر لهما. وكانت زوجة الابن الأكبر رصينة وشامخة، وانحنت بأقل قدرٍ ممكنٍ تبعًا لِمَا رآته ملائمًا لمكانتها.

بدا أنَّه لا يوجد أحدٌ من بين جميع الذين يسكنون تلك الساحات يتمتَّع بالسلام والراحة التامة، سوى حفيد وانج لونج الصغير. حتَّى وانج لونج نفسه كان يستيقظ تحت ظلال الفراش المزخرف الضخم حيث ينام في غرفته، التي كانت مجاورة للساحة التي تقيم بها لوتس، ويحلم أحيانًا أنَّه عاد إلى البيت الطيني البسيط المعتم، حيث يمكن للرجل أن يسكب ما تبقى من شايه البارد، دون أن يلوِّث قطعة أثاثٍ من الخشب المزخرف، وحيث يمكنه الانتقال إلى حقوله بخطوة واحدة.

أما بالنسبة لأبناء وانج لونج، فقد كان هناك قلقٌ متواصلٌ. كان الابن الأكبر يخشى ألا ينفقوا كما يجب، فيصغر شأنهم في أعين الناس، كما كان يقلق من دخول القرويين عبر البوابة الكبيرة أثناء زيارة أحد سكان المدينة لهم، ممَّا يصيبهم بالخزي. وكان الابن الثاني يخشى التبذير وإهدار المال. أمَّا الابن الأصغر، فكان يسعى جاهدًا لتعويض السنوات

التي أضاعها بوصفه مجرد ابن مزارع.

لكن كان هناك من يركض متعثرًا هنا وهناك، راضيًا بحياته، وهو ابن الابن الأكبر لوانج لونج. لم ينشغل هذا الصغير أبدًا بالتفكير في أيّ مكانٍ آخر، سوى هذا المنزل الكبير. وبالنسبة له، لم يكن كبيرًا ولا صغيرًا، بل كان منزله فحسب. وكانت هناك والدته، ووالده، وجدّه، وكلُّ أولئك الذين يحيون لخدمته فقط. استمدَّ وانج لونج السلام منه، ولم يكن يكتفي أبدًا من مراقبته والضحك عليه، والتقاطه حين يسقط. كما تذكّر أيضًا ما فعله والده، وأحسَّ بالسعادة عندما أحاط خصر الطفل بحزام، واصطحبه للمشي، حائلًا بينه وبين السقوط بهذه الطريقة. انتقلا من ساحة إلى أخرى، والطفل يشير إلى الأسماك المتدافعة في البرك، ويهذر بهذا الحديث وذاك، ويقطع رأس إحدى الأزهار وهو مطمئنٌ لكلِّ شيء. كان وانج لونج يستشعر الهدوء في هذا فقط.

ولم يكن هذا هو الطفل الوحيد. فقد كانت زوجة الابن الأكبر مخلصة له، وكانت تحمل وتلد بانتظام. ولكلِّ طفلٍ مولود، كانت تُخصَّص جارية. وهكذا رأى وانج لونج في كلِّ عامٍ المزيد من الأطفال في الساحات، والمزيد من الجواري، بحيث إنّه عندما كان يقول له أحدهم:

- سيكون هناك فمٌ إضافيٌّ آخر في ساحة الابن الأكبر.

كان يضحك فقط، ويقول:

- آه... آه... حسنًا، هناك من الأرز ما يكفي الجميع، حيث إنَّ لدينا أرضًا طيبة.

وأحسَّ بالسرور عندما حملتُ زوجة ابنه الثاني أيضًا في موعدها، وأنجبت فتاة أولًا، كما كان من اللائق، بدافعٍ من الاحترام نحو زوجة الابن الأكبر. وفي غضون خمس سنواتٍ، صار لدى وانج لونج أربعة أحفادٍ وثلاث حفيداتٍ، وامتلأت الساحات بضحكهم وبكائهم.

لا تُعدُّ خمس سنواتٍ شيئًا مذكورًا في حياة المرء، ما لم يكن في أوج الشباب، أو في آخر العمر. وإذا كانت تلك السنوات قد منحتُ وانج لونج كلَّ هؤلاء الآخرين، إلَّا أنَّها سلبته أيضًا ذلك الحالم العجوز، عمِّه، الذي كاد ينسى شأنه لولا أنَّه كان يمدُّه هو وزوجته العجوز بما يحتاجانه من مأكَلٍ وملبسٍ، وما يرغبان فيه من الأفيون.

كان شتاء السنة الخامسة قارس البرودة، وأشدَّ برودة من أيِّ شتاءٍ سبقه طوال ثلاثين عامًا، لدرجة أنَّ المياه تجمَّدت في الخندق المحيط بسور المدينة، وصار بوسع الناس أن يسيروا عبره جيئةً وذهابًا لأوَّل مرَّةٍ حسبما كان يذكر وانج لونج. كما هبَّت رياحٌ جليديَّة على نحوٍ متواصلٍ من جهة الشمال الشرقي، ولم يكن هناك شيءٌ يجعل المرء ينعم بالدفء، ولا حتى الملابس المصنوعة من جلد الماعز أو الفراء. أشعلوا مجامر الفحم في جميع غرف المنزل الكبير، وعلى الرغم من ذلك، ظلَّ الجو باردًا بما يكفي لرؤية أنفاس المرء عند زفيره.

كان تدخين الأفيون قد تسبَّب في فقدان عمِّ وانج لونج وزوجته لوزنهما منذ زمنٍ طويلٍ، وظلَّا راقدين في فراشهما يومًا بعد يومٍ، مثل عصوين عتيقتين جافتين، وكان جسداهما خاليين من الدفء. سمع وانج لونج أنَّ عمِّه صار عاجزًا حتى عن الجلوس في فراشه، وكان يبصق دمًا

كلّما تحرّك أيّ حركة، فذهب لرؤيته، وأدرك أنّه لم يتبقّ للعجوز سوى ساعاتٍ معدوداتٍ من الحياة.

عند ذلك، اشترى وانج لونج نعشَيْن مصنوعَيْن من خشبٍ جيّدٍ بدرجة كافية، لكنّه ليس فائق الجودة، وأمر بوضع النعشَيْن في الغرفة التي يرقد فيها عمّه، كي يراهما العجوز، ويموت قرير البال، وهو مطمئنٌّ أنّ هناك مكانًا تستريح فيه عظامه. قال عمّه بصوتٍ هامسٍ مرتجفٍ:

– أنت بمثابة الابن لي، أكثر من ذلك الغائب الذي من صلبِي.

وقالت المرأة العجوز، على الرغم من أنّها كانت لا تزال أكثر قوة من الرجل:

– إذا متُّ قبل عودة ذلك الابن إلى المنزل، عدني أنّك ستعثر له على عروسٍ طيّبة، حتّى ينجب من الأبناء ما يخلّد ذكرانا. ووعدها وانج لونج بذلك.

لم يعرف وانج لونج في أيّ ساعة تُوفّي عمّه، سوى أنّه كان ميتًا ذات مساءٍ عندما دخلتُ إليه الخادمة بوعاءٍ من الحساء. دفنه وانج لونج في يومٍ قارس البرودة، ذرت الريح فيه الثلوج في سحبٍ فوق الأرض، ووضع النعش في مدفن الأسرة بجانب والده، أسفل قبر والده بقليلٍ، لكن أعلى من المكان الذي خصّصه لنفسه.

طلب وانج لونج ملابس الحداد للأسرة كلها، وارتدوا شارة الحداد لمدة عام، ليس لشعورهم بالحزن حقًا لوفاة هذا العجوز الذي لم يكن سوى همٍّ بالنسبة لهم، بل لأنّ هذا هو ما يليق بأفراد الأسر الكبيرة في حال وفاة أحد أقاربهم.

بعد ذلك، نقل وانج لونج زوجة عمّه إلى المدينة، حيث لن تكون بمفردها، ومنحها غرفة خاصّة بها في طرف ساحة بعيدة، وطلب من كوكو الإشراف على جارية لترعاها. استلقت المرأة العجوز في فراشها وهي تدخن الأفيون بسعادة بالغة، وتغرق في النوم يومًا بعد يومٍ، ونعشها بجوارها حيث يمكنها أن تراه وتطمئن.

تعجّب وانج لونج من أنّه كان يخشاها فيما مضى، حين كانت امرأة رقيقة بدينة، مشعّثة، خاملة، ذات صوتٍ عالٍ، وها هي ترقد الآن ذاوية وصفراء وصامتة، مثلما كانت السيدة العجوز في أسرة هوانج التي انهارت، ذاوية وصفراء هي الأخرى.



لطالما سمع وانج لونج طوال حياته عن حربٍ تدور هنا أو هناك، لكنّه لم يرها تقترب أبداً، باستثناء تلك المرّة التي قضى خلالها الشتاء في المدينة الجنوبية إبّان شبابه. لم تقترب منه على الإطلاق أكثر من ذلك، على الرغم من أنّه كثيراً ما سمع الناس يقولون منذ أن كان طفلاً: «هناك حربٌ تدور جهة الغرب هذا العام»، أو كانوا يقولون: «تدور رحي الحرب في الشرق، أو الشمال الشرقي».

وكانت الحرب بالنسبة له شيئاً مثل الأرض والسماء والماء، لا يعرف أحدٌ سببها، وكلُّ ما يعرفونه هو أنّها موجودة فحسب. كان يسمع الرجال يقولون بين الحين والآخر: «سوف نذهب للمشاركة في الحرب». كانوا يقولون هذا وهم على وشك التضرُّع جوعاً، ويفضّلون أن يكونوا جنوداً عن التسوّل. وفي بعض الأحيان، كان الرجال يقولون ذلك عندما تضيق صدورهم بالمنزل، كما قال ابن عمّه. لكن مهما كان الأمر، ظلّت الحرب دوماً بعيدة، وفي مكانٍ ناءٍ. ثم اقتربت فجأة، مثل ريحٍ بلا هدفٍ تهبُّ من السماء.

سمع وانج لونج بها في بادئ الأمر من ابنه الثاني، الذي عاد من السوق في أحد الأيام لتناول أرز الظهيرة، وقال لوالده:

- لقد ارتفعت أسعار الحبوب فجأة، حيث إنَّ الحرب تدور إلى الجنوب من الآن، وتزداد اقتراباً كلَّ يومٍ. يجب أن نحافظ على مخزوننا من الحبوب حتى وقتٍ لاحقٍ، لأنَّ السعر سيرتفع أكثر وأكثر، مع اقتراب الجيوش منّا، ويمكننا البيع مقابل سعرٍ جيّدٍ.

استمع وانج لونج لهذا، بينما هو يتناول طعامه، وقال:

- حسناً، هذا شيءٌ غريبٌ. يسعدني أن أشهد حرباً لأرى طبيعتها، حيث إنني سمعتُ عنها طوال حياتي دون أن أراها.

ثم تذكّر حينها أنَّ الخوف انتابه ذات مرّةٍ لأنّه كان سيُقبَض عليه ويُجرّ إلى الحرب رغماً عنه، لكنّه صار عجوزاً الآن، ولا نفع منه، وإلى جانب ذلك كان ثرياً، ولا داعي لأن يشعر الأثرياء بالخوف من أي شيءٍ. لذا لم يعر الأمر انتباهاً أكثر من ذلك، ولم يشعر سوى ببعض الفضول، وقال لابنه الثاني:

- تصرّف في الحبوب على النحو الذي تراه مفيداً. الأمر بين يديك.

وفي الأيام التالية، كان يلعب مع أحفاده عندما يكون في حالة مزاجيّة جيّدة، ويخلد إلى النوم، ويتناول الطعام، ويدخن غليونه، كما كان يذهب أحياناً لرؤية البلهاء المسكينة التي كانت تجلس في ركنٍ بعيدٍ من ساحته.

وفي أحد الأيام في أوائل الصيف، أتى حشدٌ من الرجال من الشمال الغربي، واجتاحوا المنطقة كسرِبٍ من الجراد. وقف حفيد وانج لونج الصغير عند البوابة مع أحد الخدم ليراقب المارّة ذات صباحٍ مشمسٍ

جميلٍ في مطلع الربيع، وعندما شاهد الصفوف الطويلة من الرجال ذوي الملابس الرمادية، ركض عائدًا إلى جدّه وصاح:

- انظر مَنْ قادمٌ في الطريق، أيُّها العجوز!

عندئذٍ عاد وانج لونج معه إلى البوابة ليسعده، وكان الرجال هناك يملؤون الشارع، ويملؤون المدينة. شعر وانج لونج كما لو أنّ الهواء وضوء الشمس قد انقطعا فجأة، بسبب أعداد الرجال المكتسبين بالرمادي، الذين تردّد وقع خطواتهم الثقيلة والمتناغمة عبر المدينة. عندما تأملهم وانج لونج من كثبٍ، رأى أنّ كلّاً منهم يحمل أداة من نوع ما، يبرز من طرفها سكينٌ. وبدا وجه كلّ رجلٍ منهم متوحّشًا وقاسيًا وخشنتًا، وعلى الرغم من أنّ بعضهم لم يكونوا سوى مجرد صبية صغار، فإنّهم بدوا كذلك. جذب وانج لونج الطفل إليه على عجلٍ، عندما رأى وجوههم وغمغم قائلاً:

- لندخل ونغلق البوابة. إنّ هؤلاء ليسوا رجالًا صالحين حتى ننشغل بمراقبتهم، أيُّها الصغير الحبيب.

لكن فجأة، قبل أن يستدير، شاهده رجلٌ من بين الرجال، وصاح به:

- مرحى، ها هو ابن شقيق والدي العجوز!

رفع وانج لونج رأسه عند هذا النداء، ورأى ابن عمّه، وكان يرتدي نفس الملابس مثل الآخرين، وهو مُعَبَّرٌ وأشيب، لكنّ وجهه كان أكثر وحشيّة وقسوة من أيّ وجه آخر. ضحك بخشونة، ونادى رفاقه:

- يمكننا التوقّف هنا يا رفاق، فهذا رجلٌ ثريٌّ، وهو من أقاربي!

قبل أن يتمكّن وانج لونج من الحركة وهو يشعر بالرعب، مرّ به الحشد مندفعًا من بوابته، وكان عاجزًا بينهم. تدفّقوا إلى ساحاته كالماء الخبيث القذر، وملؤوا كلّ زاوية وصدع، وتمدّدوا على الأرض، واغترفوا الماء بأيديهم من البرك وشربوا، وألقوا بمُدِّيَّهم على الطاولات المزخرفة محدثين جلبةً، وبصقوا حيث يشاؤون، وصاحوا منادين بعضهم بعضًا.

غمر اليأس وانج لونج أمام ما حدث، فهرع عائداً مع الطفل ليعثر على ابنه الأكبر. توجه إلى ساحة ابنه، حيث كان جالسًا يقرأ كتابًا، ونهض عندما دخل والده. وعندما سمع ما قاله وانج لونج لاهثًا، شرع يتأوّه، ثم خرج.

لكن عندما رأى ابن عمّه، لم يدرِ ما إذا كان عليه أن يلعنه أم يرحّب به. لكنّه نظر وتأوّه قائلاً لوالده الذي كان يقف خلفه:

- كلّ رجلٍ منهم معه مُدِيّة!

لذا رَحّب به عندئذٍ، وقال:

- حسنًا يا ابن عمّي، مرحبًا بك في منزلك مرّة أخرى.

ابتسم ابن عمّه ابتسامة عريضة، وقال:

- لقد جلبتُ بعض الضيوف.

قال ابن وانج لونج الأكبر:

- مرحبًا بهم، طالما كانوا بصحبتك. وسوف نعد وجبة حتى

يتمكّنوا من تناول الطعام، قبل أن يمضوا في طريقهم.

عند ذلك قال ابن العمّ، وهو لا يزال يتسم ابتسامة عريضة:

- فلتفعلوا، لكن لا تتعجلوا بعدها. حيث إنّنا سنرتاح لبضعة أيام، أو شهرًا، أو ربما عامًا أو عامين، فسوف نعسكر في المدينة حتى يتمّ استدعاؤنا للحرب.

عندما سمع وانج لونج وابنه ذلك، لم يتمكّن من إخفاء فزعهما إلّا بصعوبة، لكنّهما اضطرّا على الرغم من ذلك إلى إخفائه، بسبب المدى التي تلتصق في كلّ مكانٍ بالساحات. لذا أجبرا أنفسهما على الابتسام قدر استطاعتهما، وقالوا:

- نحن محظوظون، نحن محظوظون!

وتظاهر الابن الأكبر بأنّه يجب عليه أن يذهب لإعداد التجهيزات اللازمة، وأخذ يد والده، وهرع كلاهما إلى الساحة الداخلية، وأحكم الابن الأكبر إغلاق الباب. ثم حدّق كلاهما، الأب وابنه، بعضهما ببعض برعبٍ، ولم يدرِ أيُّ منهما ما يتعيّن عليهما فعله.

ثم جاء الابن الثاني راكضًا، وقرع الباب. وحينما فتحا له ليدخل، كاد ينكفي على وجهه وهو يندفع في عجلة، ولهث قائلاً:

- هناك جنودٌ في كلّ منزلٍ، في كلّ مكانٍ، حتى في منازل الفقراء. وقد جئتُ راكضًا كي أخبركما أنّه لا يجب أن تبدأ أيّ اعتراضٍ. هناك كاتبٌ في متجري أعرفه جيدًا، كان يقف بجانبني كلّ يومٍ عند طاولة البيع، سمع اليوم عمّا يحدث، وعندما ذهب إلى منزله وجد الجنود، حتى في الغرفة التي ترقد بها زوجته المريضة. وحين أبدى احتجاجه،

أغمدوا به سكيناً وكأنّه مصنوعٌ من شحم الخنزير -بسلاسة هكذا!- ونفذت منه تمامًا من الجانب الآخر! علينا أن نقدّم لهم ما يريدونه، مهما كان. ولنصلّ فقط طالبين أن تنتقل الحرب لمناطق أخرى عمّا قريب.

ثم تبادل ثلاثتهم نظراتٍ ثقيلة، وفكّروا في نسائهم، وفي هؤلاء الرجال الشهوانيين الجوعى. وفكّر الابن الأكبر في زوجته الطيّبة الصالحة، وقال:

- يجب أن نجمع النساء معًا في أبعد ساحة داخلية، وعلينا أن نحرسهنّ ليلاً ونهارًا، ونُبقي البوابات مغلقة، وبوابة الأمان الخلفية جاهزة كي نفتحها وقت الحاجة.

وهكذا فعلوا. جمعوا النساء والأطفال، ووضعوهم جميعًا في الساحة الداخلية حيث كانت لوتس تعيش بمفردها مع كوكو وخادمتها، وعاشوا هناك، وهم يعانون من الضيق والزحام. كان الابن الأكبر ووانج لونج يراقبان البوابة ليلاً ونهارًا، بينما الابن الثاني يأتي حين يستطيع ذلك، وراقبا بحرصٍ في الليل كما كانا يراقبان خلال النهار.

لكن كان هناك ابن العمّ، الذي لم يكن أحدٌ يستطيع إبقائه في الخارج بصورة شرعية، لأنّه من أقاربهم. كان يقرع البوابة ويدخل، ويتجوّل كما يشاء، حاملاً مُديته المتألّقة اللامعة مفتوحة في يده. كان الابن الأكبر يتبعه وملاحه مليئة بالمرارة، لكنّه رغم ذلك لم يجرؤ على قول شيء، حيث كانت هناك مُدية مفتوحة ولامعة. نظر ابن العمّ لهذه وتلك، وقَيّم كلّ امرأة.

تأمل زوجة الابن الأكبر، وضحك ضحكته الغليظة، وقال:

- يا لها من زوجة رائعة ورقيقة تلك التي لديك يا ابن العمّ، سيدة من المدينة وقدهاها صغيرتان مثل براعم اللوتس!

وقال لزوجته الابن الثاني:

- حسنًا، ها هي فجلة حمراء ممتلئة من الريف. قطعة من اللحم الأحمر المكتنز!

قال ذلك لأنّ المرأة كانت سمينة ومتورّدة، ذات عظام عريضة، لكنّها كانت مع ذلك لا تزال جميلة. وفي حين انكمشتُ زوجة الابن الأكبر عندما نظر إليها، وأخفتُ وجهها خلف كمّها، فقد ضحكتُ هذه المرأة، حيث كانت تتّسم بالمرح والفظاظة، وأجابت بوقاحة:

- حسنًا، هناك بعض الرجال ممن يحبّون مذاق الفجل الحارّ، أو قطعة من اللحم الأحمر!

وأجاب ابن العمّ على الفور:

- أنا من هؤلاء!

وحاول أن يمسك يدها.

طوال هذا الوقت، كان الابن الأكبر يعاني من ألم الشعور بالعار لهذا الحديث الطائش بين رجلٍ وامرأة لم يكن من المفترض أن يتبادلا الحديث من الأساس. ونظر إلى زوجته شاعرًا بالخزي أمامها، بسبب ابن عمّه وزوجة شقيقه، وقد نشأت هي نشأة أرقى منه. رأى ابن عمّه خجله أمام زوجته، وقال بخبث:

- حسنًا، أنا أفضل تناول اللحم الأحمر في أيّ يوم، عن تناول شريحة من السمك البارد عديم المذاق مثل تلك الأخرى!

عندئذٍ نهضتُ زوجة الابن الأكبر بوقارٍ، وانسحبتُ إلى إحدى الغرف الداخلية. بعد ذلك، ضحك ابن العم بفضاظة، وقال للوتس التي كانت جالسة تدخن نارجيلتها:

- من الصعب إرضاء نسوة المدينة هؤلاء، أليس كذلك أيُّها السيِّدة الكبيرة؟

ثم تأمَّل لوتس من كثبٍ، وقال:

- يا لك من سيدة كبيرة حقًّا! لو لم أكن أعرف أن ابن عمِّي وانج لونج رجلٌ ثريٌّ، لعرفتُ من النظر إليك. لقد صرتُ جبلاً من اللحم، وأكلتُ الأطعمة المترفة الباذخة! إنَّ زوجات الأثرياء من الرجال فقط هنَّ من يمكنهنَّ أن يشبهنَّك!

شعرتُ لوتس بالسرور البالغ عندما أطلق عليها «السيِّدة الكبيرة»، لأنَّه لقبٌ لا يمكن أن تحوزه سوى سيِّدات الأسر الكبيرة. أطلقتُ ضحكة عميقة مقرقرة من حلقها السمين، ونفخت الرماد من غليونها، وناولت الغليون لجارية كي تملأه مرَّة أخرى. ثم استدارتُ لكوكو قائلة:

- يبدو أنَّ هذا الفتى الفظَّ يميل إلى المزاح!

وبينما هي تقول هذا، نظرتُ لابن العمِّ بغنجٍ، على الرغم من أنَّ نظراتها تلك صارتُ أقلَّ دلالة ممَّا كانت عليه في السابق، بعد أن فقدتُ عيناها اتساعهما وشكلهما الشبيه بالمشمش، بسبب وجنتيها السميتين. وعندما رأى النظرة التي منحته إياها، أطلق ابن العمِّ ضحكة مدويَّة، وصاح قائلاً:

- حسنًا، إنها لا تزال عاهرة عجوزًا!

وضحك بصخب مرة أخرى.

ظلّ الابن الأكبر واقفًا في صمتٍ طوال هذا الوقت، شاعرًا بالغضب. وبعد أن شاهد ابن العمّ كلّ شيءٍ، ذهب لرؤية والدته، وذهب وانج لونج معه ليريه مكانها. كانت مستلقية على فراشها، غارقة في النوم، حتّى إنّ ابنها لم يتمكّن من إيقاظها إلّا بصعوبة. لكنّه نجح في إيقاظها بأن طرق بلاط الأرض عند رأس فراشها بطرف بندقيته السميكة. استيقظت حينها، وحدّقت به وكأنّها في حلم، فقال بنفاد صبرٍ:

- ها هو ابنك، ومع ذلك تستغرقين في النوم!

رفعت نفسها في فراشها، وحدّقت به ثانية، وقالت متعجبة:

- ابني... إنه ابني...

تأمّلته لفترة طويلة، وفي النهاية، كما لو أنّها لا تعرف ما تفعله سوى ذلك، قدمت له غليون الأفيون الخاص بها، وكأنّها لا تستطيع التفكير فيما هو أفضل من ذلك، وقالت للجارية التي تتولّى رعايتها:

- أعدّي له بعضًا منه.

فحدّق بها، وقال:

- لا، لن أتناوله.

وقف وانج لونج بجوار الفراش، وانتابه الذعر فجأة، خشية أن يستدير إليه هذا الرجل، ويقول:

- ما الذي فعلته بأمي، حتى صارت ذابلة وصفراء هكذا، وزال عنها لحمها الوفير؟

لذا قال وانج لونج على عجل:

- أتمنى لو كانت ترضى بقدرٍ أقل منه، فالأمر يتكلّف حفنة من الفضة يوميًا من أجل أفيونها. لكننا لا نجرؤ على معارضتها في سنّها هذا، وهي تريده كله.

وتنهّد بينما هو يتحدّث، ونظر إلى ابن عمّه خلسة. لكنّ الرجل لم يقل شيئًا، بل حدّق فحسب بما آلت إليه والدته، وعندما غرقت في النوم مرّة أخرى، نهض خارجًا، واستخدم بندقيته كعصا في يده.

لم يكن وانج لونج وأسرته يخشون ويكرهون أيّ رجلٍ من حشد الرجال العاطلين الذين احتلّوا الساحات الخارجية، كما كانوا يخشون ويكرهون ابن عمّهم هذا. هذا رغم أنّ الرجال مزّقوا الأشجار وشجيرات الخوخ واللوز المزهرة، وكسروها كيفما شاؤوا، وعلى الرغم من أنّهم سحقوا الكراسي المزخرفة الرقيقة بأحذيتهم الجلدية الضخمة، ولوثوا بقذارتهم البرك التي كانت تسبح فيها الأسماك المرقّطة والذهبيّة، حتّى ماتت الأسماك وطفّت على سطح الماء وتعفّنت، وبطونها البيضاء مقلوبة إلى الأعلى.

كان ابن العمّ يدخل ويخرج كيفما يشاء، ويلقي بنظراته على الجوّاري، بينما وانج لونج وأبنائهم يتبادلون النظرات بأعينهم المنهكة الغائرة، لأنّهم لم يكونوا ليجرؤوا على الخلود إلى النوم. رأّت كوكو ذلك، وقالت:

- هناك شيءٌ واحدٌ فقط يمكننا القيام به. يجب أن نمنحه جارية لمتعته أثناء وجوده هنا، وإلا سيبحث عن المتعة حيث لا ينبغي له ذلك. استقبل وانج لونج حديثها بحماسة، لأنّه شعر أنّه لم يعد بوسعه تحمّل حياته مع كلّ تلك المشاكل في منزله. لذا قال:

- هذه فكرة جيّدة.

وأمر كوكو بأن تذهب، وتسأل ابن عمّه أيّ جارية يريدّها، حيث إنّّه رآهن جميعاً.

قامت كوكو بذلك، وعادتُ قائلة:

- يقول إنّّه يريد تلك الصغيرة الشاحبة، التي تنام عند فراش السيدة. كانت هذه الجارية الشاحبة تدعى زهر الكمثرى، وهي التي اشتراها وانج لونج في عام المجاعة عندما كانت صغيرة ومثيرة للشفقة وتكاد تتصوّر جوعاً. ولأنّها كانت رقيقة على الدوام، فقد دلّوها وسمحوا لها بمساعدة كوكو فقط، وأن تؤدي الخدمات البسيطة للوتس مثل ملء غليونها وصبّ الشاي لها، وهكذا رآها ابن العمّ.

عندما سمعتُ زهر الكمثرى هذا، صرختُ وهي تصبّ الشاي للوتس، حيث ذكرتُ كوكو الأمر أمامهم جميعاً في الساحة الداخليّة التي كانوا يجلسون بها، وأسقطت البراد فتحطّم على البلاط وسال منه الشاي، لكنّ الجارية لم ترَ ما تسبّب في وقوعه. ألقتُ نفسها أمام لوتس ضاربة برأسها البلاط، وهي تنوح قائلة:

- أوه، يا سيدتي. ليس أنا... ليس أنا... أنا أخشى على حياتي منه.

اغتاظت منها لوتس، وأجابتها بحدة:

- إنه ليس سوى مجرد رجل. والرجل حين يكون مع امرأة هو الرجل، فجميعهم سواء. فلم كل هذه الجلبة؟
واستدارت لكوكو قائلة:

- خذي هذه الجارية، وامنحها له.

ضمّت الجارية الصغيرة كفيها معاً على نحوٍ مثيرٍ للشفقة، وبكت، وكأنّها ستموت من البكاء والرعب، وارتعد جسدها الضئيل بأكمله بفعل الخوف، ونقلت نظراتها من هذا الوجه لذاك متوسّلة وهي تبكي.

لم يكن بوسع أبناء وانج لونج مخالفة زوجة أبيهم، كما لم يكن بمقدور زوجاتهم الحديث ما داموا لم يتحدثوا هم، ولا الابن الأصغر كذلك، لكنّه وقف محدّقاً بها، ويداه مقبوضتان إلى صدره، مقطّباً حاجبيه في خطّ مستقيمٍ داكنٍ فوق عينيه. إلّا أنّه لم ينبس بكلمة. ظلّ الأطفال والجواري يشاهدون الموقف في صمتٍ، ولم يكن هناك سوى صوت الفتاة الصغيرة الباكية في ذعرٍ على نحوٍ رهيبٍ.

إلّا أنّ وانج لونج شعر بعدم الارتياح حيال الأمر، ونظر للفتاة الصغيرة بترددٍ، وهو لا يرغب في إغضاب لوتس، لكنّه كان لا يزال يشعر بالتأثر، لأنّه لطالما اتّصف برقة القلب. ثم رأت الجارية مشاعره منعكسة على ملامحه، فهرعت وقبضت على قدميه بكفيها، وحنّت رأسها إلى قدميه وهي تبكي بكاءً مريئاً. نظر إليها ورأى مدى ضآلة كتفيها، وارتجافهما الشديد، وتذكر ضخامة جسد ابن عمّه الخشن المتوحش، الذي تخطّى

سن الشباب بسنواتٍ طويلة، فغلب عليه الشعور بالتقزُّز، وقال لكوكو بصوتٍ هادئٍ:

- حسنًا إذن، من السيِّئ إجبار الجارية الشابة على هذا النحو.

نطق هذه الكلمات بلطفٍ كافٍ، إلَّا أنَّ لوتس صاحتُ بعدةً:

- عليها أن تنفِّذ ما تؤمِّر به. وأقول إنَّها حماقة منها، أن تبكي كلَّ هذا البكاء بسبب شيءٍ بسيطٍ يجب أن يقع عاجلاً أو آجلاً لكلِّ النساء.

لكن وانج لونج بدا متسامحاً، وقال للوتس:

- لنر أولاً ما الذي يمكننا القيام به خلاف ذلك. وسوف أشتري لك جارية أخرى إذا شئت، أو أيَّ شيءٍ آخر تريدونه. لكن دعيني أرى ما يمكن عمله.

حينها التزمتُ لوتس الصمت فجأةً، حيث إنَّها كانت ترغب منذ فترة طويلة في ساعة أجنبية الصناعة، وخاتمٍ جديدٍ مُرصَّعٍ بالياقوت. فقال وانج لونج لكوكو:

- اذهبي، وأخبري ابن عمِّي أنَّ الفتاة مصابة بمرضٍ خبيثٍ غير قابلٍ للعلاج، لكن إذا أراد أن ينالها على الرغم من ذلك، فله ما يشاء، وسوف تذهب إليه. أمَّا إذا خشي الأمر كما نخشاه جميعاً، فأخبريه أنَّ لدينا جارية أخرى سليمة الجسد من أجله.

وألقى نظرة على الجواري الواقفات من حوله، فأدرن وجوههنَّ ضاحكاتٍ، وتصنَّعن الخجل، باستثناء جارية ممثلة كانت في حوالي العشرين من العمر، قالت، وقد احمرَّ وجهها من الضحك:

- حسنًا، لقد سمعتُ ما فيه الكفاية بخصوص هذا الأمر، وأريد أن أجربَه، إذا قَبِلَ هو بي. فهو ليس في بشاعة بعض الرجال الآخرين.

عندئذٍ أجاب وانج لونج بارتياحٍ:

- حسنًا، فلتذهبي إذن!

قالت كوكو:

- اتبعيني من كَشِبٍ، فالأمر واقعٌ لا محالة، وأنا على يقينٍ من أنه سوف يقطف أقرب الثمار إليه.

وخرجتا معًا.

كانت الجارية الصغيرة لا تزال متشبَّهةً بقدمي وانج لونج، إلَّا أنَّها توقَّفتُ عن البكاء، وشرعتُ تستمع لِمَا يدور. وكانت لوتس لا تزال تشعر بالغضب حيالها، فنهضتُ وتوجَّهْتُ إلى غرفتها دون كلمة. عند ذلك رفع وانج لونج الجارية برفقٍ، ووقفتُ أمامه شاحبة وواهنة. رأى أنَّ لها وجهًا بيضاويًا صغيرًا ناعمًا، بالغ الرقة والشحوب، وفمًا صغيرًا أحمر شاحبًا. وقال بلطفٍ:

- ابتعدي عن سيدتك ليومٍ أو يومين يا ابنتي، حتى ينقضي غضبها. وعندما يأتي ذلك الآخر، اختبئي لئلا يرغب فيكِ مرَّةً أخرى.

رفعتُ عينيها، ونظرتُ إليه بتمعنٍ ومودةٍ، ثم ابتعدتُ في صمتٍ كالخيال، ومضتُ.

أقام ابن العمِّ هناك طوال شهرٍ ونصفٍ، وكان ينال الجارية حين يرغب في ذلك، حتى حملتُ منه، وتفاخرتُ بذلك وسط الساحات. ثم

دعاهم داعي الحرب فجأة، فرحل الحشد بسرعة مثل قشٍّ تحملهُ الريح وتذروه بعيداً، ولم يخلّفوا شيئاً سوى القذارة والدمار الذي أحدثوه. شدَّ ابن عمّ وانج لونج مُدَيْتِه إلى خصره، ووقف أمامهم وبندقيتِه على كتفه، وقال ساخراً:

- حسناً، إذا لم أعد إليكم مرّة أخرى، فقد تركتُ بينكم نفسي الثانية، وحفيداً لأمي. وليس كلُّ رجلٍ يستطيع أن يخلّف وراءه ابناً حيث يحلُّ لشهرٍ أو شهرين، وهذه إحدى مميزات حياة الجندي، فبذرتُه تنبتُ من خلفه، وعلى الآخرين الاعتناء بها!

ثم مضى في طريقه مع باقي الجنود، وهو يضحك منهم جميعاً.



بعد رحيل الجنود، اتفق وانج لونج وابناه لأوّل مرّة، واجتمعت أراؤهم على أنّه يجب محو أي أثرٍ لِمَا حدث، فاستدعوا البنّائين والنّجارين مرّة أخرى، وقام الذكور من الخدم بتنظيف الساحات، وأصلح النّجارون الأثاث المزخرف والطاولات المحطّمة ببراعة. كما أُفرغت القاذورات من البرك، وأُعيد ملؤها بالمياه العذبة، واشترى الابن الأكبر مرّة أخرى الأسمك المرقّطة والذهبيّة، وزرع الأشجار المزهِرة مرّة أخرى، وقلم الأفرع المكسورة للأشجار الباقية. وفي غضون عامٍ، عاد المكان ناضراً ومزهِراً، وانتقل كلُّ ابنٍ مرّة أخرى إلى ساحته، وساد النظام ثانية في كلّ مكانٍ.

أمّا الجارية التي حملت من ابن عمّ وانج لونج، فقد أمرها بخدمة زوجة عمّه ما دامت على قيد الحياة، وهو ما لم يكن سيّطول كثيراً، وبأن تضعها في نعشها عندما تفارق الحياة. وأحسّ وانج لونج بالسّرور عندما أنجبت الجارية فتاة، حيث إنّها كانت ستفخر بالأمر لو كان ذكراً، وتطالب بمكانة في الأسرة. لكن حيث إنّها كانت فتاة فقط، فلم تكن سوى جارية أنجبت جارية، ولم يتغيّر وضعها عمّا كان عليه من قبل.

مع ذلك، كان وانج لونج عادلاً معها، كما كان مع الجميع. قال لها إنَّه يمكنها الاحتفاظ لنفسها بغرفة المرأة العجوز إذا كانت ترغب في ذلك، بعد وفاة العجوز، كما يمكنها الاحتفاظ بالفراش أيضاً، حيث إنَّهم لن يفتقدوا غرفة واحدة وفراشاً واحداً من بين الستين غرفة التي يضمُّها المنزل. كما منح الجارية القليل من الفضة، وكانت المرأة راضية بما يكفي، باستثناء شيء واحدٍ فقط، أفصحت عنه لوانج لونج عندما منحها الفضة.

- فلتحتفظ بالفضة كدوطة لي يا سيّدي، وإذا لم يكن الأمر يمثل إزعاجاً بالنسبة لك، زوّجني من مزارع، أو من رجلٍ فقيرٍ طيّب. سيكون ذلك فضلاً منك، حيث إنَّني بعد أن ألفتُ الحياة مع رجلٍ، بات من الصعب عليّ العودة إلى فراشي وحيدة.

عندئذٍ وعدّها وانج لونج بذلك عن طيب خاطرٍ. وعندما قطع وعده هذا، طرأت على ذهنه فكرة. ها هو يعدّ بتزويج امرأة من رجلٍ فقيرٍ، وقد كان هو نفسه من قبل رجلاً فقيراً، أتى لهذه الساحات ذاتها طالباً امرأته. كان قد أمضى نصف عمره دون أن يفكر في أولان، وانشغل بالتفكير فيها الآن بحزنٍ. لم يكن أسى، بل مجرد ثقل الذكريات والأشياء التي مضت منذ زمنٍ بعيدٍ، حيث صار أبعد ما يكون عنها الآن. قال بكآبة:

- عندما تموت مدخنة الأفيون العجوز، سوف أجد لك زوجاً، إذن. لن يطول الأمر كثيراً.

ونفّذ وانج لونج ما وعد به. جاءت المرأة إليه ذات صباحٍ، وقالت:

- فلتف بوعدك الآن، يا سيدي. حيث ماتت العجوز هذا الصباح دون أن تستيقظ على الإطلاق، وقد وضعتها في نعشها.

شرع وانج لونج يفكر فيمن يعرفهم من العاملين في أرضه الآن، وتذكر الفتى الباكي الذي تسبب في وفاة تشينج، الذي كانت أسنانه بارزة كالرف فوق شفته السفلية، وقال:

- حسنًا، إنه لم يقصد أن يفعل ما تسبب فيه، ومثله مثل أي شاب آخر. وهو الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه الآن.

لذا أرسل في طلب الفتى، فجاء وقد صار رجلاً بالغاً الآن. لكنه كان لا يزال فظاً، وأسنانه كما هي على حالها. أراد وانج لونج أن يجلس على المنصة المرتفعة في القاعة الكبيرة، واستدعى الاثنين للمثول أمامه، وقال بأناة كي يستسيغ مذاق اللحظة الغريبة كاملاً:

- ها هي هذه المرأة، أيها الفتى، وهي لك إذا رغبت في ذلك. ولم يمسها أحد سوى ابن عمي.

وأخذها الرجل بامتنان، حيث كانت امرأة قوية ليّنة الطبع، وكان أفقر من أن يتزوج إلا من مثل هذه المرأة.

نزل وانج لونج عن المنصة، وبدأ له أن دورة حياته قد اكتملت، وقد فعل كل ما قال إنه سوف يفعله في حياته، وأكثر ممّا حلم أنه قادر على تحقيقه، ولم يكن هو نفسه يعرف كيف تحقق كل ذلك. بدا له أنه يمكنه الآن فحسب أن ينعم بالسلام حقاً، وأن ينام في الشمس. وكان الوقت قد حان لذلك، حيث إنه شارف الخامسة والستين من العمر،

وأحفاده يحيطون به كأعواد الخيزران الغضة: ثلاثة أبناء لابنه الأكبر، وكان أكبرهم في حوالي العاشرة، وابن ابن لابنه الثاني. كما كان هناك الابن الثالث، الذي يجب أن يتزوج قريباً، وعندما ينتهي من ذلك الأمر، لن يعود هناك شيء يزعجه في حياته، ويمكنه أن ينعم بالهدوء.

لكن لم يكن هناك أي سلام. بدا وكأن مجيء الجنود كان مثل مجيء سرب من النحل البري، الذي يخلف وراءه اللسعات أينما استطاع ذلك. حيث إن زوجة الابن الأكبر والابن الثاني، اللتين كانتا تتعاملان بما يكفي من التهذيب حتى تشاركتا العيش في ساحة واحدة معاً، تعلّمتا أن تكره كل منهما الأخرى كراهية شديدة. تولّد ذلك من مئات الشجارات الصغيرة، كشجارات النساء اللاتي يجب أن يحيا أطفالهن ويلعبون معاً، ويتقاتلون مثل الكلاب والقطط. هرعت كل أم للدفاع عن طفلها، وضربت أبناء الأخرى، دون أن تضرب أطفالها هي، ودوماً ما كانت تجد الحق في صف أبنائها في أي شجار. لذا صارت المرأتان عدوتين.

كما كان ما حدث في ذلك اليوم، عندما أثنى ابن العم على الزوجة الريفية، وسخر من الزوجة التي من المدينة، أمراً لا يُغتفر. كانت زوجة الابن الأكبر تشمخ برأسها متغترسة كلما مرّت بسلفتها، وقالت لزوجها بصوت مرتفع، وهي تمرّبها في أحد الأيام:

- من المحزن أن تكون هناك في الأسرة امرأة وقحة سيئة التربية، لدرجة أن يُطلق عليها رجل لقب اللحم الأحمر، فتضحك في وجهه. ولم تترث زوجة الابن الثاني، بل ردّت عليها بصوت مرتفع:

- صارت سلفتي تشعر بالغيرة الآن، لأنَّ رجلاً قال إنَّها قطعة من السمك البارد فحسب!

لذا شرعت كلتا المرأتين تتبادل نظرات الغضب والكراهية، على الرغم من أنَّ أكبرهما كانت معترِّة بحسن تنشئتها، لذا كانت تكتفي بالازدراء الصامت، وتحرص على تجاهل وجود الأخرى. لكن عندما كان أطفالها يخرجون من ساحتهم، كانت تناديهن قائلة:

- أريدكم أن تبتعدوا عن الأطفال سيِّئِي التربية!

قالت ذلك في وجود سلفتها، التي كانت تقف على مرمى البصر في الساحة المجاورة. فنادت تلك الأخرى قائلة لأطفالها:

- لا تلعبوا مع الثعابين، وإلَّا لدغتمكم!

لذا تزايدت كراهية المرأتين لبعضهما، ومما زاد من مرارة الأمر أنَّ الشقيقتين لم يكونا يحبَّان بعضهما بدرجة كبيرة. كان الأكبر دوماً يخشى أن تبدو نشأته وأسرته متواضعة في عيني زوجته التي نشأت في المدينة، وكانت من أسرة أعلى مكانة منه. بينما كان الأصغر خائفاً من أن تؤدِّي رغبة شقيقه في التبذير والجاه إلى تبديد ميراثهما قبل تقسيمه. علاوة على ذلك، كان الأخ الأكبر يشعر بالخزي لأنَّ شقيقه الثاني يعرف كلَّ شيءٍ عمَّا يمتلكه والدهما من مالٍ، وما يتمُّ إنفاقه، وأنَّ المال كان يمرُّ بين يديه. فعلى الرغم من أنَّ وانبج لونج كان يتلقَّى جميع الأموال الواردة من أرضه ويتصرَّف فيها، فإنَّ الشقيق الثاني كان يعرف تفاصيل كلَّ شيءٍ، بينما الأكبر لا يعرف، وكان مضطراً إلى سؤال والده عن هذا الأمر أو ذاك وكأنَّه طفلٌ صغيرٌ. لذا عندما تبادلَت الزوجتان الشعور

بالكراهية، امتدَّت تلك الكراهية للرجلين أيضًا، وفاضت ساحات كلا الطرفين بالغضب، وتنهَّد وانج لونج لأنَّ منزله كان يفتقر إلى السلام.

كما كان وانج لونج يعاني أيضًا من مشاكل سرّية مع لوتس، منذ اليوم الذي حمى فيه جاريتها من ابن عمّه. باتت لوتس مستاءة من الجارية الشابة منذ ذلك اليوم، على الرغم من أنَّ الفتاة كانت تخدمها في صمتٍ وتفانٍ، وتقف إلى جانبها طوال اليوم وهي تملأ غليونها، وتجلب لها هذا الشيء أو ذاك، وتقوم في الليل عندما تشتكي لوتس من الأرق وتفرّك ساقها وجسدها كي تهدّئها، إلّا أنَّ لوتس ظلّت غير راضية عنها.

كانت تشعر بالغيرة من الجارية، وتبعدها عن الغرفة كلّما جاء وانج لونج، متّهمة إياه بالنظر إلى الجارية. لم يكن وانج لونج قد فكّر في الفتاة سوى بوصفها طفلة صغيرة مسكينة تشعر بالخوف، وكان يحنو عليها كما يحنو على حمقائه المسكينة، ليس إلّا. لكن عندما وجّهت لوتس إليه الاتّهام، فكّر في النظر إليها، ورأى أنّه من الصحيح أنَّ الفتاة فائقة الجمال، وشاحبة كزهر الكمثرى. وعندما رأى هذا، ثار في دمه شيءٌ ظلّ هادئًا طوال عشر سنواتٍ أو أكثر.

لذا في حين أنّه ضحك من لوتس قائلاً:

- ماذا؟ هل تظنين أنَّ الشهوة ما زالت تغلب عليّ، في حين أنّني لم أعد أدخل غرفتكِ إلا ثلاث مراتٍ في العام؟
إلّا أنّه اختلس النظر إلى الفتاة وقد أثارتة.

وعلى الرغم من جهلها بكل شيء آخر، إلا أن لوتس كانت خبيرة فيما يخص علاقات الرجال بالنساء، وكانت تعرف أن الرجال عندما يتقدمون في السن، تدب فيهم صحوة الشباب مرة أخرى لفترة وجيزة. لذا شعرت بالغضب حيال الجارية، وتحدثت عن بيعها لصالة الشاي. ومع ذلك كانت لوتس حريصة على راحتها الشخصية، وقد تقدمت كوكو في السن وصارت خاملة، بينما الجارية نشيطة ومعتادة على خدمة لوتس، وكانت تعرف ما تحتاجه سيدتها قبل أن تدرك هي نفسها ما تريده. هكذا كانت لوتس تكره الاستغناء عنها، على الرغم من أنها كانت تريد ذلك. وبسبب هذا الصراع غير المألوف بداخلها، أدى ضيق لوتس لزيادة إحساسها بالغضب، وصارت الحياة معها أصعب من المعتاد. بقي وانج لونج بعيداً عن ساحتها طوال أيام كاملة، لأن مزاجها كان أكثر حدة من أن يستمتع بصحبتها. قال لنفسه إنه سوف ينتظر، معتقداً أن الأمر سيمر. لكن في غضون ذلك، انشغل بالتفكير في الجارية الشابة الشاحبة الجميلة، أكثر مما كان يعتقد أنه سيفعل.

وكأنه لم يكن هناك ما يكفي من المشاكل مع اضطراب أحوال النساء في المنزل، أضيفت إليها مشاكل ابن وانج لونج الأصغر أيضاً. كان ابنه الأصغر فتى هادئاً للغاية، مستغرقاً في العكوف على كتبه التي شرع في دراستها مؤخراً، لدرجة أن أحداً لم يكن يفكر فيه سوى بوصفه فتى هزياً نحيلاً يتأبط كتبه على الدوام، بينما يتبعه معلّم عجوز كالكلب أينما ذهب.

لكن الفتى عاش بين الجنود أثناء وجودهم، واستمع لحكاياتهم

عن الحرب والنهب والمعارك، وأنصت لكلّ ذلك باستغراقٍ دون أن ينبس بكلمة. ثم رجا معلّمه أن يجلب له كتب الحكايات التي تدور حول حروب الممالك الثلاث، وقطّاع الطرق الذين عاشوا في العصور القديمة حول بحيرة سواي، وامتلاً رأسه بالأحلام.

لذا ذهب إلى والده، وقال:

- أعرف ما أريد أن أفعله. سوف أكون جنديًا، وأمضي إلى الحرب. عندما سمع وانج لونج ذلك، فكّر بفزعٍ شديدٍ أنّ هذا هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث له، وصاح بصوتٍ مرتفعٍ:

- أيُّ نوعٍ من الجنون هذا؟ ألن أحظى بالسلام مع أبنائي على الإطلاق؟

وتجادل مع الفتى، وحاول أن يكون هادئًا ولطيفًا عندما رأى حاجبي الفتى الأسودين يلتقيان ليشكّلا خطأً مستقيمًا، فقال:

- يا بني، لقد قيل منذ قديم الأزل إنّ الحديد الجيّد لا يُصنّع منه مسمارٌ فحسب، والرجل الصالح لا يُجعل منه مجرد جندي. وأنت ابني الصغير، أصغر أولادي وأفضلهم. كيف سأنام ليلاً، بينما أنت تجوب الأرض هنا وهناك، في غمار الحرب؟

لكنّ الصبي كان عاقداً العزم، ونظر لوالده مُقطّباً حاجبيه الأسودين، ولم يقل سوى:

- سوف أذهب.

حينها أغراه وانج لونج، قائلاً:

- يمكنك الذهاب إلى أي مدرسة تريدها، وسوف أرسلك إلى كبرى المدارس في الشمال، أو حتى إلى مدرسة أجنبية لتتعلم غرائب العلوم، وسيصير بوسعك الذهاب لأي مكان تشاء من أجل الدراسة، إذا صرفت النظر عن الجندية. وإنها لوصمة عارٍ بالنسبة لرجل مثلي، صاحب أموالٍ وأراضٍ، أن يكون أحد أبنائه جنديًا.

وعندما بقي الفتى على صمته، أغراه ثانية، وقال:

- فلتخبر والدك العجوز، لم تريد أن تصبح جنديًا؟

فقال الفتى فجأة، وقد التمتعت عيناه تحت حاجبيه:

- سوف تكون هناك حربٌ لم نسمع عن مثلها من قبل. ستكون هناك ثورة وقتالٌ، وحربٌ مثلما لم يحدث من قبل، وسوف تتحرر أرضنا!

استمع وانج لونج لحديثه هذا بأكبر قدرٍ من الدهشة أثاره في نفسه أيُّ من أبنائه، وقال متعجبًا:

- لا أدري ما كل هذا الهراء. إنَّ أرضنا حرّة بالفعل. كلُّ أرضنا الطيبة حرّة. فأنا أقوم بتأجيرها لمن أشاء، وهي تعود عليّ بالفضّة والحبوب الجيدة، وأنتم تأكلون وتلبسون وتتغذّون منها. لا أعرف أيَّ حرية تلك التي تريدها، أكثر ممّا لديك بالفعل.

لكن الفتى همهم بمرارة فحسب.

- أنت لا تفهم. أنت كبيرٌ في السنّ، ولا تفهم شيئًا.

فَكَرَّ وَانَجَ لَوْنَجَ وَتَأَمَّلَ وَجْهَ ابْنِهِ هَذَا، وَرَأَى الْوَجْهَ الشَّابَّ الْمُعَذَّبَ،
وَقَالَ لِنَفْسِهِ:

- لَقَدْ وَهَبْتُ ابْنِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى حَيَاتِهِ. كُلُّ مَا لَدِيهِ مِنِّي أَنَا.
حَتَّى إِنَّنِي سَمَحْتُ لَهُ بِمَفَارِقَةِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يُعْذِرْ لَدَيَّ وَلَدٌ يَرْعَى الْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِي. وَتَرَكْتَهُ يَتَعَلَّمُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ
لَأَسْرَتِنَا إِلَى ذَلِكَ فِي وَجُودِ اثْنَيْنِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالْفِعْلِ.

وَاصِلَ التَّفَكِيرِ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَحْدِّقُ بِالْفَتَى:

- كُلُّ شَيْءٍ يَمْتَلِكُهُ هَذَا الْفَتَى، مَصْدَرُهُ مِنِّي أَنَا.

ثُمَّ تَأَمَّلَ ابْنَهُ مِنْ كَثْبٍ، وَرَأَى أَنَّ قَامَتَهُ طَالَتْ كَالرِّجَالِ، عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ شَابًّا نَاحِلًا، وَقَالَ مَتَرَدِّدًا وَهُوَ يَهْمُهُمْ بِصَوْتٍ نَصْفِ
مَسْمُوعٍ، حَيْثُ لَمْ يَلْمَحْ أَيَّ أَمَارَةٍ مِنْ أَمَارَاتِ الشَّهْوَةِ عَلَى الْفَتَى:

- حَسَنًا، رُبَّمَا كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ.

ثُمَّ قَالَ بَأَنَاءً، وَبِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ:

- حَسَنًا، رُبَّمَا نَزَوَّجَكَ عَمًّا قَرِيبًا، يَا بَنِي.

لَكِنِ الْفَتَى رَمَى وَالِدَهُ بِنَظَرَةٍ نَارِيَةٍ مِنْ تَحْتِ حَاجِيهِ الْكَثِيفَيْنِ
الْمُقْطَبَيْنِ، وَقَالَ بَازِدْرَاءٍ:

- إِذْنُ سَوْفَ أَهْرَبُ حِينَهَا بِالْفِعْلِ، حَيْثُ إِنَّ الْمَرْأَةَ بِالنِّسْبَةِ لِي لَا
تُمَثِّلُ الْجَوَابَ لِكُلِّ شَيْءٍ، كَمَا هُوَ حَالُ شَقِيقِي الْأَكْبَرِ!

أَدْرَكَ وَانَجَ لَوْنَجَ عَلَى الْفُورِ أَنَّهُ اقْتَرَفَ خَطَأً، فَقَالَ عَلَى عَجَلٍ لِيَبْدِي
اعْتَذَارَهُ:

- لا، لا، لن نزوِّجك. لكن، أعني، إذا كانت هناك جارية ترغب فيها...

أجابه الفتى بنظراتٍ مترفّعة وكبرياءٍ، عاقداً ذراعيه على صدره:
- أنا لستُ شابّاً عادياً. لديّ أحلامي، وأتوق للمجد. وهناك نساءٌ في كلّ مكانٍ.

ثم وكأنّما تذكّر شيئاً كان قد نسيه، تخلّى عن ترفّعه فجأةً، وأنزل ذراعيه، وقال بصوته العادي:

- علاوة على ذلك، فلا توجد مجموعة من الجوّاري أقبح من أولئك اللاتي نمتلكهن. وفي حال ما إذا كنتُ أكثرث بذلك الأمر - لكنني لا أكثرث - فلا توجد أيُّ امرأة جميلة في هذه الساحات، ربما باستثناء الجارية الصغيرة الشاحبة التي تخدم السيّدة المقيمة في الساحات الداخليّة.

أدرك وانج لونج حينها أنّه يتحدّث عن زهر الكمثرى، وانتابته غيرة غريبة. شعر فجأةً أنّه أكبر سنّاً ممّا كان عليه بالفعل، رجلٌ عجوزٌ له بطنٌ كبيرة وشعرٌ أشيب، ورأى ابنه رجلاً نحيلًا وشابّاً، ولم يكونا في هذه اللحظة رجلاً وابنه، بل رجلان، أحدهما عجوزٌ، والآخر شابٌّ، وقال وانج لونج بغضبٍ:

- فلتبتعد عن الجوّاري. لن أسمح في منزلي بهذه العادات الفاسدة التي يمارسها الأسياد الشباب. نحن قومٌ ريفيون صالحون، وأناسٌ محترمون، فلن يحدث شيءٌ من هذا في منزلي!

حينها اتسعت عينا الفتى، ورفع حاجبيه الأسودين، وهز كتفيه قائلاً
لوالده:

- أنت الذي تحدثت عن الأمر أولاً!

ثم استدار، وخرج.

جلس وانج لونج في غرفته بمفرده بجانب طاولته، شاعراً بالكآبة
والوحدة، وغمغم لنفسه:

- لا أجد السلام في أي مكانٍ في منزلي.

تشوّش ذهنه بمشاعر غضبٍ شتّى، لكن على الرغم من أنّه لم يفهم
سبباً لذلك، من بين أوجه غضبه تلك كلها، كان أكثر ما برز هو غضبه
من أنّ ابنه تأمّل جارية صغيرة شاحبة في المنزل، ووجدها جميلة.



لم يستطع وانج لونج التوقُّف عن التفكير فيما قاله ابنه الأصغر عن زهر الكمثرى، وكان يراقب الجارية باستمرارٍ في ذهابها ومجيئها، ودون أن يدرك ذلك، انشغل عقله بها وشغف بها، لكنَّه لم يذكر لأحدٍ شيئاً عن الأمر.

وذات ليلة في مطلع الصيف ذلك العام، حين كان هواء الليل مثقلاً بالرطوبة الحارة والأريج، جلس مستريحاً بمفرده في ساحته الخاصة، تحت شجرة قرفة صينية مزهرة، وملأَتْ أنفه رائحةُ زهور القرفة الصينية القوية العذبة، وجرت دماؤه حارة كالشباب. كان قد استشعر حرارة دماؤه وهي تجري هكذا خلال النهار، وراودته نفسه أن يخرج للسير في أرضه، وأن يشعر بالأرض الطيبة تحت قدميه، وأن يخلع حذاءه وجواربه كي يشعر بها على جلده.

كان سيفعل ذلك، لولا أنَّه أحسَّ بالخجل من أن يراه الناس، بعد أن لم يعد سكان المدينة يعتبرونه مزارعاً، بل مالك أرضٍ، ورجلاً ثرياً. لذا تجوَّل بين الساحات في ضجرٍ، وابتعد تماماً عن الساحة التي كانت لوتس تجلس فيها في الظلِّ، تدخَّن نارجيلتها، لأنَّها كانت تعرف جيِّداً متى يكون الرجل مضطرباً، وكانت عيناها الثاقبتان ستلاحظان علته في

الحال. لذا تجوّل بمفرده، ولم يكن يرغب في رؤية أيّ من زوجتيّ ابنه المتخاصمتين، ولا حتى أحفاده الذين كان يستمدّ منهم البهجة عادة.

لذا مرّ اليوم طويلاً ومليئاً بالوحدة، وكانت دماؤه حارّة تندفق في عروقه. لم يتمكّن من نسيان ابنه الأصغر، وكيف بدا واقفاً منتصب القامة طويلاً، وحاجباه الأسودان منعقدان بوقار الشباب، كما لم يتمكّن من نسيان الجارية. وقال لنفسه:

- أعتقد أنّ سنّهما متقاربٌ. لا بُدَّ أنّ الفتى في الثامنة عشرة، وهي لم تتخطّ الثامنة عشرة.

ثم تذكّر أنّه هو نفسه سيصير في السبعين من العمر بعد عددٍ قليلٍ من السنوات، وأحسّ بالخجل من الدماء المتدفّقة في عروقه، وفكّر قائلاً:

- سيكون من الجيّد أن أمنح الجارية للفتى.

قال هذا لنفسه مراراً وتكراراً، وفي كلّ مرّة يقولها كانت الكلمات تطعنه كضربة في جسد جريح بالفعل. ولم يستطع إلّا أن يطعن نفسه، ولم يكن هناك مفرٌّ من أن يشعر بالألم.

لذا مرّ يومه طويلاً ومليئاً بالوحدة.

وعندما حلّ الليل، كان لا يزال وحيداً، جالساً في ساحته بمفرده، ولم يكن هناك أيّ شخصٍ في منزله يمكنه التوجّه إليه بوصفه صديقاً. وكان هواء الليل حارّاً وناعماً، ومثقلاً بعبق زهور شجرة القرفة الصينية.

وبينما هو جالسٌ هناك في الظلام أسفل الشجرة، مرّ شخصٌ ما بالقرب من المكان الذي يجلس فيه، بالقرب من بوابة ساحته حيث تقع الشجرة. نظر سريعاً، ورأى أنّها زهر الكمثرى.

ناداها، فخرج صوته هامساً:

- زهر الكمثرى!

وقفت فجأة، وحنّت رأسها، وهي مصيخة السمع.

ثم ناداها مرّة أخرى، وصوته يخرج من حلقه بالكاد:

- تعالي إليّ، هنا!

عندما سمعته، تسلّلت بخوفٍ عبر البوابة، ووقفت أمامه، وتمكّن بالكاد من رؤيتها وهي واقفة هناك في الظلام، لكنّه شعر بوجودها، فمدّ يده وأمسك بسترتها الصغيرة، وقال وهو يوشك أن يختنق:

- يا ابنتي!

وتوقّف عند هذه الكلمة. قال لنفسه إنّ رجلّ عجوز، وإنّ هذا الأمر مشينٌ بالنسبة لرجلٍ لديه أحفادٌ وحفيداتٌ أقرب لسنّ هذه الطفلة ممّا كان هو، ومرّر إصبعه على سترتها الصغيرة.

وبينما هي واقفة تنتظر، انتقلت إليها حرارة دمائه، وانحنّت ثم انزلت إلى الأرض، كزهرة تذوي على ساقها، وتشبّثت بقدميه وبقيت مستلقية هناك. قال ببطء:

- يا ابنتي، أنا شيخٌ عجوزٌ... شيخٌ عجوزٌ للغاية.

خرج صوّتها من وسط العتمة، كأنفاس شجرة القرفة الصينية نفسها، وقالت:

- أنا أحبُّ الشيوخ. أحبُّ الشيوخ؛ فهم في غاية الحنان.

انحنى نحوها بعض الشيء، وقال مرّة أخرى:

- يجب أن تقترن فتاة صغيرة مثلكِ بشابٍّ طويلٍ منتصبٍ القامة...
فتاة صغيرة مثلكِ!

وأضاف، فيما بينه وبين نفسه قائلاً:

- مثل ابني...

لكنّه لم يستطع النطق بذلك بصوتٍ مرتفعٍ، لئلا يضع تلك الفكرة
في ذهنها، ولم يكن ليتحمّل ذلك.
لكنّها قالت:

- الشبان ليسوا لطفاء، بل عنيفين فحسب.

عندما سمع صوتها الطفولي الصغير مرتجفاً عند قدميه، فاض قلبه
بموجة جارفة من الحب لهذه الجارية، فأخذها ورفعها برفقٍ، ثم قادها
إلى ساحته الخاصّة.

عندما انتهى الأمر، أحسّ بالدهشة من شعوره بالحبّ في هذا السنّ،
أكثر من أيّ من شهواته السابقة، حيث إنّهُ على الرغم من كل شغفه بزهر
الكمثرى، فلم ينل منها كما نال من الأخريات اللاتي عرفهن من قبل.

لا، بل ضمّها في رفقٍ، واكتفى بأن شعر بخفّة شبابها بالقرب من
جسده العجوز المُنثقل. وكان يشعر بالرضى من مجرد رؤيتها خلال
النهار، وبلمس سترتها وهي ترفرف ملاصقة يده، وبجسدها الهادئ
المستكين إلى جواره خلال الليل. وتعجّب من حبّ الشيخوخة الذي
يذوب شغفاً، ثم يرتوي بهذه السهولة.

أما بالنسبة لها، فقد كانت فتاة لا تعرف الحب، وتعلقت به كأنه والدها، وكانت بالنسبة له بالفعل تكاد تكون طفلة، أكثر منها امرأة. لم ينتشر نبأ ما أقدم عليه وانج لونج سريعاً، حيث إنه لم يقل شيئاً على الإطلاق. وما الذي يجبره على ذلك، وهو السيّد في منزله؟ لكنّ كوكو كانت هي أوّل من لمح الأمر، حين رأت الجارية تنسلّ فجراً خارجة من ساحته، فقبضت على الفتاة ضاحكة، والتمعت عيناها الشبيهتان بعيني صقرٍ عجوزٍ.

قالت:

- حسناً، ها هي حكاية السيّد العجوز تتكرّر مرّة أخرى!

سمِعها وانج لونج في غرفته، فربط رداءه حول جسده بالحزام بسرعة، وخرج وابتسم ابتسامة تجمع بين الحرج والفخر، وغمغم قائلاً:

- لقد قلتُ لها أنّه من الأفضل لها الاقتران بشابٍّ، لكنّها فضّلت

العجوز!

عندئذٍ قالت كوكو، وعيناها تلتمعان خبثاً:

- يا لها من حكاية جميلة، عليّ أن أرويها للسيدة.

أجاب وانج لونج بتأنٍّ:

- أنا نفسي لا أعرف كيف حدث ذلك. لم أنتوِ إضافة امرأة أخرى

إلى ساحتي، ووقع الأمر من تلقاء نفسه.

وعندما قالت كوكو:

- حسنًا، من الواجب إخبار السيدة.

ترجى وانج لونج كوكو قائلاً، وهو يخشى غضب لوتس أكثر من أي شيء آخر:

- أخبريها إذا شئت، وإذا استطعتِ التعامل مع الأمر بحيث لا يثور غضبها في وجهي، فسوف أمنحكِ حفنة من المال مقابل ذلك.
لذا وعدته كوكو بهذا، وهي لا تزال تضحك وتهزُّ رأسها، وعاد وانج لونج إلى ساحته، ولم يخرج حتى عادت كوكو، وقالت:

- حسنًا، لقد أخبرتها بالأمر، واثارت ثائرتها، حتى ذكرتُها أنها كانت ترغب منذ زمنٍ طويلٍ في تلك الساعة الأجنبية الصنع التي وعدتها أنتَ بها، وما زالتُ تريدها. كما أنها تريد خاتمًا مرصعًا بالياقوت ليدها، بل زوجًا منهما، حتى يكون هناك واحدٌ في كلِّ يدٍ. وسوف تطلب أشياءً أخرى عندما تطرأ على بالها، وتريد جارية لتحلَّ محل زهر الكمثرى. ولا تريد أن تقربها زهر الكمثرى مرّة ثانية. لا تذهب إليها أنتَ الآخر قبل انقضاء فترة من الوقت، لأنَّ رؤيتك تثير تقززها.

وعدها وانج لونج بحماسة، قائلاً:

- اجلسي لها كل ما تشاؤه، لن أضنَّ عليها بشيءٍ.

وأحسَّ بالسرور لأنَّه لن يكون مضطراً إلى رؤية لوتس قريباً، حتى يبرد غضبها مع تحقيق رغباتها.

لكن تبقى أمر أبنائه الثلاثة، وقد أحسَّ أمامهم بالخزي على نحوٍ غريبٍ بسبب ما أقدم عليه. قال لنفسه مرارًا وتكرارًا:

- ألسْتُ أنا سيّد المنزل، وأليس من حقي أن آخذ جاريتي، التي اشتريتها بمالي؟

لكنّه أحسَّ بالخجل، والفخر أيضًا، كما هو حال من يشعر بأنّه مفعّم بالرجولة والرغبة، في حين يعتبره الآخرون مجرد جدّ فحسب. وانتظر أن يأتي أبنائه إلى ساحته.

جاءوا واحدًا تلو الآخر، كلّ منهم على حدة، حضر الابن الثاني أولاً. وعندما حضر، تحدّث عن الأرض والحصاد، وعن جفاف فصل الصيف الذي سيتسبّب في خفض المحاصيل هذا العام حتى تبلغ ثلث القدر المعتاد. لكن وانج لونج لم يعدّ ينشغل في هذه الأيام بالأمطار أو الجفاف، حيث إنّّه في حال ما إذا عاد عليه حصاد العام بالقليل من المال، فقد كان لديه فضّة باقية من العام الماضي، وكان يقيّ ساحاته عامرة بالفضّة. كما كانت أسواق الحبوب مدينة له بالمال، وقد أقرض الكثير من المال مقابل فوائد مرتفعة، كان ابنه الثاني يجمعها من أجله، ولم يعد يتأمّل السماء فوق أرضه ليرى كيف يبدو حالها.

لكنّ الابن الثاني واصل الحديث على هذا النحو، وبينما هو يتحدّث، جال بنظراته خلصة بين الغرف هنا وهناك، وعرف وانج لونج أنّه يبحث عن الجارية، ليرى إذا كان ما سمعه صحيحًا. لذا نادى زهر الكمثرى من مخبئها في الغرفة، وقال:

- اجلبي لي الشاي، يا ابنتي، ولا بني أيضًا!

خرجتُ ووجهها الرقيق الشاحب متورّد كالخوخ، وأطرقتُ رأسها،
وتسلّلتُ على قدميها الصغيرتين الصامتتين، وحدّق بها الابن الثاني كما
لو أنّه سمع، لكنّه ظلّ عاجزًا عن التصديق حتى الآن.

لكنّه لم يقل شيئًا على الإطلاق، سوى أنّ حال الأرض كان على
هذا النحو أو ذاك، وأنّه يجب تغيير هذا المستأجر بحلول نهاية العام،
والتخلّص من الآخر لأنّه يدخّن الأفيون، ولا يُخرج من الأرض ما
يمكنها أن تجود به. وسأل وانج لونج ابنه عن حال أطفاله، فأجاب أنّهم
مصابون بالسُّعال الديكي، لكنّهم تحسّنوا بعد أن صار الجو دافئًا.

تبادلا الحديث وهما يتناولان الشاي، حتى قنع الابن الثاني بما رآه
وانصرف، وتخفّف وانج لونج من همّه حيال ابنه الثاني.

ثم جاء الابن الأكبر قبل انقضاء نصف ذلك النهار، وأقبل طويل
القامة وسيّمًا، معتزًّا بنضجه، فانتاب الخوف وانج لونج بسبب اعتزاز
ابنه ذاك، فلم ينادِ زهر الكمثرى في بادئ الأمر، بل انتظر وهو يدخّن
غليونه. جلس الابن الأكبر يملؤه الكبر والاعتزاز، وسأل والده عن
صحته وأحواله بدافعٍ من الأدب. فأجابه وانج لونج على عجلٍ وبهدوءٍ
أنّه على ما يرام، وبينما هو ينظر إلى ابنه، فقدّ شعوره بالخوف.

ذلك لأنّه رأى ابنه الأكبر على حقيقته: رجلًا ضخّم الجسد، لكنّه
يخشى زوجته ابنة المدينة، ويخشى أكثر من أي شيء آخر ألا يبدو كريم
النشأة. فاضتُ في نفس وانج لونج قوّة الأرض التي كانت عفّية بداخله،

حتى في الأوقات التي لم يكن يستشعرها، فعاد له شعوره السابق
باللا مبالاة حيال ابنه الأكبر، واللا مبالاة بحفاظه على المظاهر، ونادى
زهر الكمثرى فجأة بكل سهولة قائلاً:

- تعالي يا ابنتي، وصبي الشاي ثانية لابن آخر من أبنائي!

خرجت هذه المرة وهي هادئة وساكنة تمامًا، ووجهها البيضاوي
الصغير أبيض كالزهرة التي تحمل اسمها. خفضت نظراتها عندما
دخلت، وتحركت بهدوء، ولم تفعل سوى ما أُمِرَتْ به، ثم خرجت
بسرعة مرة أخرى.

جلس الرجلان في صمتٍ بينما كانت تصبُّ الشاي، لكن بعد
انصرافها، رفع كلُّ منهما إناءه، ونظر وانج لونج في عيني ابنه مباشرة،
فلمح فيهما نظرة إعجابٍ صريحة. كانت نظرة رجلٍ يحسد رجلًا آخر
سرًا. ثم شربا الشاي، وقال الابن أخيرًا بصوتٍ أجش مرتجفٍ:

- لم أصدق أنَّ الأمر حقيقيٌّ بالفعل.

أجاب وانج لونج بهدوءٍ:

- ولمَ لا؟ إنَّه منزلي أنا.

تنهَّد الابن، وأجاب بعد برهة:

- أنت ثريٌّ، وبوسعك أن تفعل ما تشاء.

ثم تنهَّد مرةً أخرى، وأضاف قائلاً:

- حسنًا، أعتقد أن ليس كل الرجال يمكنهم الاكتفاء بامرأة واحدة على الدوام، ولا بُدَّ أن يأتي يومٌ...

لم يكمل حديثه، لكن بدت في عينيه مسحة من نظرات رجل يحسد الآخر على الرغم منه، ونظر له وانج لونج وضحك في قرارة نفسه، حيث كان يعرف جيّدًا طبيعة ابنه الأكبر الشهوانيّة، وأن زوجته ابنة المدينة تلك لن تظلّ قابضة على الزمام إلى الأبد، ولا بُدَّ أن تُطلّ غريزته برأسها مرّة أخرى في أحد الأيام.

لم يقل الابن الأكبر شيئًا بعد ذلك، بل انصرف لحال سبيله كما يفعل رجل طرأت على ذهنه فكرة جديدة. جلس وانج لونج ودخّن غليونه، وكان فخورًا بنفسه أنّه فعل ما يشاء، على الرغم من أنّه رجلٌ عجوزٌ.

لكنّ الليل حلّ قبل أن يأتي الابن الأصغر، حتّى جاء بمفرده هو الآخر. في تلك اللحظة، كان وانج لونج جالسًا يدخّن في الغرفة الوسطى في ساحته، والشموع الحمراء مشتعلة على الطاولة. كانت زهر الكمثرى جالسة في صمتٍ على الجانب المقابل له من الطاولة، وكفّاهما متشابكان وساكنان في حجرها. كانت تنظر إلى وانج لونج نظراتٍ مباشرة أحيانًا، دون غنجٍ، كما يفعل الطفل، وكان هو يراقبها فخورًا بما فعله.

ثم ظهر ابنه الأصغر فجأة واقفًا أمامه، وقد خرج من عتمة الساحة، دون أن يراه أحدٌ وهو داخلٌ. لكنّه وقف بطريقة غريبة، وكأنّه جائمٌ، ودون أن يفكر في الأمر، ومضت في عقل وانج لونج ذكرى نمرٍ، رأى

رجال القرية يجلبونه من التلال ذات مرّة، حيث نجحوا في اصطياده. كان الوحش مقيّداً، لكنّه كان جائعاً وكأنّه على وشك الانقراض، وعيناه تلتمع، كما التمعتُ عينا الفتى اللتان ثبتّهما على وجه والده. أمّا حاجباه الكثيفان الداكنان بصورة زائدة على الحدّ بالنسبة لحدائث سنّه، فقد عقدهما بشراسة فوق عينيه. ظلّ واقفاً هكذا حتّى قال أخيراً بصوت خافتٍ مشحونٍ بالانفعال:

- سوف أمضي إلى الحرب الآن... سوف أمضي إلى الحرب...

لكنّه لم يوجّه نظراته إلى الفتاة، بل لوالده فحسب. وفي حين لم يخشَ وانج لونج ابنه الأوّل والثاني على الإطلاق، إلّا أنّه أحسّ بالخوف فجأةً من ابنه هذا، الذي لم يبال به إلّا بالكاد منذ مولده.

تلعثم وانج لونج وهمهم، وكان ينتوي الحديث، لكن عندما أخرج غليونه من فمه، لم يندّ عنه أيُّ صوتٍ، بل حدّق بابنه وحسب. وقال ابنه مراراً وتكراراً:

- سوف أمضي الآن... سوف أمضي الآن...

استدار فجأةً، ووجّه نظرة واحدة إلى الفتاة، فبادلته النظر وانكمشت، وأخفت وجهها بكفّيها حتّى لا تراه. بعد ذلك انتزع الشاب عينيه بعيداً عنها، وخرج من الغرفة بوثة واحدة. نظر وانج لونج عبر ظلام الباب المفتوح على ليل الصيف الحالك، لكنّه كان قد اختفى، وساد الصمتُ في كلّ مكانٍ.

التفت أخيراً إلى الفتاة، وقال بتواضع ورقة، وبحزنٍ كبيرٍ، بعد أن
زال كلُّ شعورٍ لديه بالفخر:

- أنا كبيرٌ في السنٍّ أكثر ممَّا ينبغي بالنسبة لكِ، يا فؤادي، وأدرك
جيداً أنّني رجلٌ عجوزٌ للغاية.

لكنّ الفتاة أبعدتُ كفيها عن وجهها، وصاحتُ بانفعالٍ لم يسمعها
تحدّث به من قبل:

- الشباب في غاية القسوة! أنا أفضل الرجال كبار السنّ!
وعندما جاء صباح اليوم التالي، كان ابن وانج لونج الأصغر قد
رحل، ولم يعرف أحدٌ أين ذهب.



كما يشتعل الخريف بحرارة الصيف الكاذبة قبل أن يموت، ويتحوّل
ليصير شتاءً، هكذا كان الحال مع حبّ وانج لونج العابر لزهر الكمثرى.
خمدت حرارته الوجيزة، وتلاشى الشغف بداخله. صار متعلّقاً بها دون
اتّقادٍ في العاطفة.

عندما خمد اللهب المتّقد بداخله، استشعر فجأة برودة الشيوخوخة،
وأنه صار رجلاً عجوزاً. على الرغم من ذلك كان يحبّها، ويشعر بالارتياح
لوجودها في ساحته، وكانت هي تخدمه بإخلاصٍ وصبرٍ يفوق سنوات
عمرها. عاملها هو بلطفٍ لأقصى الحدود، وتغيّر حبّه لها أكثر وأكثر
ليصير مثل حبّ الأب لابنته.

كانت أيضاً تعامل البلهاء المسكينة بلطفٍ من أجله، ووجد قلبه
عزاءً في هذا، حتّى أخبرها في أحد الأيام عمّا كان يدور في ذهنه منذ
فترة طويلة. كان وانج لونج قد انشغل مراراً عديدة بالتفكير فيما سوف
يحدث للحمقاء المسكينة بعد موته، حيث لم يكن هناك شخصٌ سواه
يكثرث ما إذا عاشت أم تصوّرت جوعاً، لذا اشترى من متجر الأدوية
صرّة صغيرة تحتوي على مادة بيضاء سائلة، وقال لنفسه إنّه سيعطيها

للحمقاء كي تأكلها عندما يرى اقتراب موته. لكنّه كان لا يزال يخشى ذلك أكثر ممّا يخشى ساعة موته هو، وأحسّ بالارتياح الآن عندما رأى إخلاص زهر الكمثرى.

لذا ناداها في أحد الأيام، وقال لها:

- لا يوجد شخصٌ آخر غيركٍ يمكنني أن أعهد إليه برعاية هذه البلهاء المسكينة بعد رحيلي. وسوف يطول بها العمر من بعدي، نظرًا لأنّ عقلها غير منشغل بالهموم، وليس لديها ما يتسبّب في موتها ولا أي مشاكل تزعجها. وأنا أعلم جيدًا أنّ أحدًا لن يكلف نفسه العناء بعد رحيلي، لإطعامها، أو إبعادها عن المطر وبرد الشتاء، وإخراجها لتجلس في الشمس صيفًا. وربما يطردونها لتهميم في الشوارع، هذه المسكينة التي نعمتْ طوال حياتها بالرعاية مني ومن والدتها. ها هي بوابة الأمان لها في هذه العبوة. عندما أموت، عليك أن تمزجيه لها في الأرز بعد وفاتي، ودعيها تأكله، حتى تلحق بي حيثما أكون. وهكذا سأرتاح.

لكن زهر الكمثرى جفلت ممّا كان يحمله في يده، وقالت بأسلوبها الهادئ:

- يمكنني بالكاد قتل حشرة، فكيف يسعني أن أسلب هذه الحياة؟ لا، يا سيدي. لكنني سأعتني بهذه البلهاء المسكينة وكأنّها ابنتي، لأنّك كنتَ كريمًا معي، أكرم من أيّ شخصٍ آخر التقيته في حياتي، بل الوحيد الذي أكرمني.

كاد وانج لونج يبكي من قولها هذا، فلم يسبق وأن كافأه أحدٌ بهذه الطريقة من قبل. تعلق قلبه بها، وقال:

- ومع ذلك، فلتأخذه يا ابنتي، فلا يوجد أحدٌ أثق به كما أثق بك، لكن حتى أنتِ يجب أن تموتي يوماً ما، على الرغم من أنني لا أستطيع نطق تلك الكلمات، ولا يوجد أحدٌ من بعدكِ - لا، لا أحد - وأعرف جيداً أن زوجات أبنائي منشغلاتٌ جداً بأطفالهن، وبشجاراتهن، وأبنائي رجالٌ لا يعنون بالتفكير في مثل هذه الأمور.

لذلك بعد أن فهمتُ ما يقصده، أخذتُ زهر الكمثرى منه الصرّة، ولم تقل شيئاً آخر. ووثق بها وانج لونج، وارتاح لمصير البلهاء المسكينة.

ازدادتُ عزلة وانج لونج أكثر وأكثر في شيخوخته، وعاش بمفرده إلى حدٍّ كبيرٍ، باستثناء هاتين الاثنتين اللتين كانتا تقيمان في ساحته: البلهاء المسكينة، وزهر الكمثرى. وفي بعض الأحيان كان يستفيق إلى حدٍّ ما وينظر إلى زهر الكمثرى فيشعر بالانزعاج، ويقول:

- هذه الحياة هادئة أكثر ممّا ينبغي بالنسبة لك، يا ابنتي.

لكنّها كانت دوّماً ما تجيبه برقةٍ وامتنانٍ عظيمٍ:

- إنّها هادئة وآمنة.

وفي أحيانٍ أخرى، كان يكرّر القول:

- أنا عجوزٌ جداً بالنسبة لك، وقد استحالت ناري رماداً.

لكنّها كانت دوّماً تجيبه بامتنانٍ كبيرٍ:

- أنت كريمٌ معي، ولا أطمع فيما هو أكثر من ذلك من أيّ رجلٍ

آخر.

عندما قالت هذا ذات مرّة، شعر وانج لونج بالفضول، وسألها:

- ماذا حدث في سنوات عمركِ الغصّ، حتّى صرتِ تخشين الرجال إلى هذا الحدّ؟

تأمّلها بحثًا عن جوابٍ، ورأى في عينيها رعبًا عظيمًا، حتّى أخفتها بيديها، وهمستُ قائلة:

- أنا أكره الرجال جميعهم، ما عدا أنت. حتّى والدي الذي باعني. لم أسمع عنهم سوى كلّ شرٍ، وأكرههم جميعًا. قال متعجبًا:

- كنتُ أظن أنّك تعيشين في هدوءٍ وطمأنينة في هذه الساعات. قالت، وهي تشيح بوجهها:

- الكراهية تملؤني. أنا مفعمة بالبغض، وأكرههم جميعًا. أبغض جميع الشباب.

ورفضتُ قول المزيد. فكّر وانج لونج في الأمر، ولم يدرِ ما إذا كانت لوتس قد ملأت عقلها بحكاياتٍ عن حياتها السابقة، وهدّتها بذلك، أو إذا كانت كوكو أخافتها بفسوقها، أو إذا كان هناك أمرٌ ما أصابها سرًّا، ترفض إخباره عنه، أم ماذا؟

لكنّه تنهّد، وتوقّف عن توجيه الأسئلة، لأنّ أكثر ما كان يتوق إليه الآن هو أن ينعم بالهدوء، ولم يكن يريد سوى الجلوس في ساحته بجوار هاتين الاثنتين.

جلس وانج لونج على هذا النحو، وزحف عمره يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، ونام تحت الشمس نومًا متقطعًا كما كان والده يفعل من قبل، وقال لنفسه إن حياته انتهت، وإنه راضٍ بها.

أحيانًا، في بعض المرات النادرة، كان يذهب إلى الساحات الأخرى، وفي أحيانٍ أخرى، وعلى نحو أكثر ندرة، كان يزور لوتس. ولم تذكر أبدًا الجارية التي اتخذها، بل كانت ترحب به بصورة لائقة بقدر كافٍ. تقدّمت في السنّ هي الأخرى، وباتت قانعة بالطعام والنبذ اللذين تحبّهما، وبالفضّة التي تنالها عندما تطلبها. كانت هي وكوكو تشاركان في جلستهما الآن بعد كلّ هذه السنوات بوصفهما صديقتين، ولم تعودا سيّدة وخادمتها. تبادلتا الحديث حول هذا وذاك، وكان أكثر ما تحدثتا عنه هو الأيام الخوالي مع الرجال، وتهامستا معًا حول أشياء لم يكن من الممكن ذكرها جهريًا. كانتا تتناولان الطعام والشراب، وتخلدان إلى النوم، وتستيقظان لمواصلة النسيمة مرّة أخرى، قبل حتى أن تتناولوا طعامهما وشرابهما.

وعندما كان وانج لونج يذهب في زيارته النادرة لساحات أبنائه، كانوا يستقبلونه باحترام، ويهرعون ليجلبوا له الشاي، وكان يطلب رؤية آخر أحفاده، ويسأل أكثر من مرّة، حيث صار ينسى بسهولة:

- كم عدد أحفادي الآن؟

وكان أحدهم يجيبه على الفور:

- لدى ابنك معًا أحد عشر ابنًا، وثمانية بناتٍ.

وكان هو يقهقه ويضحك، قائلاً:

- إذا أضفت اثنين في كلِّ عام، سأعرف العدد، أليس كذلك؟

بعد ذلك، كان يجلس لبعض الوقت ويتأمل الأطفال المحتشدين حوله ليحدِّقوا به. كان أحفاده صبية طوال القامة الآن، وكان يحدِّق بهم ليتبيَّن شكلهم، ويغمغم قائلاً لنفسه:

- هذا يشبه جدَّه الأكبر، وهذا الصغير يشبه التاجر ليو، وهذا يشبهني عندما كنتُ صغيراً.

وكان يسألهم:

- هل تذهبون إلى المدرسة؟

ردُّوا بنفس الجواب، بأصواتٍ متفرقة:

- نعم، يا جدي.

وسألهم مرّة أخرى:

- هل تدرسون الكتب الأربعة؟

ضحك الصغار باستهزاءٍ واضحٍ من هذا الرجل الطاعن في السنَّ لهذه الدرجة، وقالوا:

- لا، يا جدي. لم يعد أحدٌ يدرس الكتب الأربعة منذ الثورة.

فأجاب متأملاً:

- آه، لقد سمعتُ عن ثورة ما، لكنني كنتُ منشغلاً للغاية خلال حياتي بدرجة تعوقني عن الاهتمام بالأمر. لطالما شغلني الأرض.

لكن الصبية ضحكوا ساخرين من قوله هذا، حتّى نهض وانج لونج
أخيرًا، وأحسّ أنّه ليس في النهاية سوى مجرد ضيفٍ في ساحات أبنائه.
وبعد فترة، انقطع عن زيارة أبنائه، لكنّه كان يسأل كوكو في بعض
الأحيان:

- هل تعيش زوجتي ابناي في سلام، بعد كلّ هذه السنوات؟
وكانت كوكو تبصق على الأرض قائلة:

- هاتان المرأتان؟ إنهما في سلامٍ مثل قطّين تتربّصان بعضهما
ببعض. لكنّ الابن الأكبر انتابه الضجر من شكاوى زوجته بخصوص
هذا الأمر أو ذاك. إنّها امرأة أكثر تحفظًا من أن تُرضي رجلًا. ودومًا ما
تحدّث عمّا كانوا يفعلونه في منزل والدها، حتّى تصيب الرجل بالملل.
هناك حديثٌ يدور عن أنّه سوف يتّخذ امرأة أخرى، وكثيرًا ما يرتاد
صالات الشاي.

قال وانج لونج:

- آه؟

لكن عندما بدأ التفكير في الأمر، تضاعل اهتمامه بالموضوع، وقبل
أن يدرك ذلك، انشغل بالتفكير في شايه، وفي رياح الربيع الباردة التي
تهبُّ على كتفيه.

وقال لكوكو في مرّة أخرى:

- هل بلغ أحدًا أخبارًا بخصوص ابني الأصغر هذا، عن مكان
تواجده طوال هذه الفترة؟

وأجابته كوكو، حيث لم يكن هناك شيء يُخفى عنها في هذه
الساحات:

- إنه لا يرسل أيّ خطاباتٍ، لكن بين الحين والآخر يأتي أحدهم
حاملًا أخباره من الجنوب، ويقال إنه ضابطٌ عسكريٌّ، وله مكانة عظيمة
في شيءٍ ما يطلقون عليه هناك اسم الثورة، لكنني لا أعرف ماهيته، ربما
كان نوعًا ما من الأعمال.

كرّر وانج لونج قوله مرّة أخرى:

- آه؟

كان يريد التفكير في الأمر، لكنّ المساء أخذ يحلّ، وأصابه الهواء
الرطب البارد بعد انسحاب الشمس بآلام في عظامه. صار ذهنه يتشتّت
بسهولة، ولم يعد يستطيع التركيز في أمرٍ واحدٍ لمدة طويلة. وبات
احتياج جسده العجوز إلى الطعام والشاي الساخن أكثر أهمية من أي
شيء آخر. لكن عند شعوره بالبرد خلال الليل، كانت زهر الكمثرى
ترقد إلى جواره بدفء شبابها، وكان دفؤها في فراشه يشعره بالارتياح
في شيخوخته.

هكذا انقضى ربيعٌ تلو الآخر، وبمرور السنوات، صار يستشعر
قدوم هذا الفصل على نحوٍ يزداد غموضًا. لكن بقي له شيءٌ واحدٌ، وهو
حبّه لأرضه. كان قد ابتعد عنها، وأقام منزله في المدينة، وصار ثريًا. لكن
جذوره ظلّت في أرضه، وعلى الرغم من أنّه كان ينساها لأشهرٍ عديدة،
إلا أنّه كان يرغب في الذهاب إلى الأرض عند حلول الربيع في كلّ عام.
وعلى الرغم من أنّه لم يعد قادرًا على الإمساك بالمحراث، أو القيام

بأي شيء آخر، سوى مراقبة غيره وهو يقود المحراث عبر الأرض، إلا أنه كان لا يزال يشعر بالرغبة في الذهاب، وكان يذهب بالفعل. أحياناً كان يصطحب خادماً، ويأخذ فراشه، وينام مرةً أخرى في المنزل القديم المبني من الطين، على السرير الذي أنجب عليه أطفاله، وحيث ماتت أولان. وخرج حين استيقظ عند الفجر، ومدّ يديه المرتجفتين، وقطف برعمًا من الصفصاف، وفرعًا مزهرًا من الخوخ، وقبض عليهما في يده طوال النهار.

هكذا تجوّل في أحد الأيام عند أواخر الربيع، وقد أوشك حلول الصيف، وسار لمسافة قصيرة عبر حقوله، حتى وصل إلى المكان المحاط بسورٍ عند تلٍّ منخفضٍ، حيث دفن مواته. وقف مرتجفًا وهو يستند إلى عصاه، وتأمّل القبور، وتذكّرهم جميعًا. باتوا أكثر وضوحًا بالنسبة له الآن من الأبناء الذين يعيشون في منزله، وأوضح من أي شخصٍ آخر بالنسبة له، باستثناء حمقائه المسكينة، وزهر الكمثرى. عاد بذهنه إلى الوراء لسنواتٍ كثيرة، ورأى كلّ شيء بوضوحٍ، حتى ابنته الصغيرة الثانية التي لم تبلغه عنها أيّ أخبارٍ منذ فترة أطول من أن يتذكّرها، ورآها طفلة جميلة كما كانت في منزله، بشفاه رقيقة وحمراء مثل قصاصة من الحرير، وكانت بالنسبة له مثل أولئك الراقيدين هنا في الأرض. ثم فكّر، وقال فجأة:

- حسنًا، سوف أكون أنا التالي.

ثم دخل قطعة الأرض المحاطة بالجدار، وتأمّل المكان بعناية، ورأى المكان الذي سوف يرقد هو فيه، أسفل والده وعمّه، وفوق

تشينج، وعلى مقربة من أولان. حدّق بقطعة الأرض التي كان سيرقد فيها، ورأى نفسه بداخلها وقد عاد إلى أرضه للأبد. تمتم قائلاً:

- يجب أن أرتّب أمر النعش.

تشبّث في ذهنه بالفكرة لدرجة موجعة، وعاد إلى المدينة، ثم أرسل في طلب ابنه الأكبر، وقال:

- هناك شيءٌ يجب أن أقوله.

أجاب ابنه:

- فلتقل، إذن. أنا حاضرٌ هنا.

لكن عندما أراد وانج لونج الحديث، عجز فجأة عن تذكُّر ما كان يريد قوله، والتمعت عيناه بالدموع لأنّه تشبّث في عقله بالفكرة إلى حدٍّ مؤلمٍ، ورغم ذلك أفلتت منه الآن. لذا نادى زهر الكمثرى وقال:

- ما الذي كنتُ أريد قوله، يا ابنتي؟

وأجابت زهر الكمثرى برقّة:

- أين كنتَ اليوم؟

أجاب وانج لونج، وانتظر وعيناه مثبّتان على وجهها:

- ذهبتُ إلى الأرض.

قالت برقّة مرّة أخرى:

- أي قطعة من الأرض؟

عاد الأمر إلى ذهنه مرّة أخرى، وصاح ضاحكاً بعينه المبلّتين بالدموع:

- حسنًا، لقد تذكّرتُ. يا بني، لقد اخترتُ مكاني في الأرض، أسفل والدي وشقيقه، وفوق والدتك، وإلى جوار تشينج. وأريد أن أرى نعشي قبل أن أموت.

عندئذٍ صاح ابن وانج لونج كما يقتضي الإخلاص والواجب:

- لا تقل هذه الكلمة، يا أبي. لكنني سأفعل ما تريد.

ثم اشترى ابنه نعشًا مزخرفًا، صنّع من جذعٍ ضخيمٍ من الخشب ذي الرائحة العطرة، لا يُستخدَم إلا لدفن الموتى، حيث كان ذلك النوع من الخشب في مثل صلابة الحديد، ويدوم أكثر من عظام الإنسان، فأحسَّ وانج لونج بالارتياح.

طلب منهم جلب النعش إلى غرفته، وكان يتأملُه كلَّ يومٍ.

ثم طرأ على ذهنه شيءٌ فجأةً، فقال:

- أريد أن يتمَّ نقله إلى المنزل الطيني، وسوف أعيش أيامي الباقية هناك، وأموت هناك.

وعندما رأوا تصميمه على الأمر، نفَّذوا له ما يريد. هكذا عاد إلى المنزل القائم على أرضه، هو وزهر الكمثرى والبلهاء، ومن يحتاجونهم من الخدم، وعاد وانج لونج للسكن على أرضه مرّةً أخرى، وترك المنزل في المدينة للأسرة التي أسَّسها.

انقضى الربيع، وانتهى الصيف بموسم الحصاد، وتحت شمس الخريف الحارّة قبل قدوم الشتاء، جلس وانج لونج حيث كان والده يجلس، مستندًا إلى الجدار. لم يعد ينشغل بالتفكير في أي شيء الآن،

سوى طعامه وشرابه وأرضه. لكنّه لم يعد يفكر في المحصول الذي ستجود به الأرض، ولا البذور التي يجب زراعتها، ولا أي شيء سوى الأرض ذاتها. وكان ينحني أحياناً ويجمع حفنة من الأرض في يده، ويجلس هكذا قابضاً عليها في كفّه، وبدت وكأنّها تنبض بالحياة بين أصابعه. أحسّ بالرضى وهو قابضٌ عليها على هذا النحو، واستغرق في التفكير فيها وفي نعشه الفاخر، وانتظرته الأرض الطيبة دون عجلٍ، حتى يأتي إليها.

أظهر ابنه الاحترام الكافي نحوه، وكانا يأتیان لزيارته كلّ يومٍ، أو مرّة كلّ يومين على الأكثر. وكانا يرسلان إليه أنواع الطعام الشهية الملائمة لسنّه، لكنّه كان يفضّل أن يذيب له أحدهم الدقيق في الماء الساخن، ويشربه كما كان يفعل والده.

كان يبدي تذرّره من ابنه في بعض الأحيان إذا لم يحضرا لزيارته كلّ يومٍ، ويقول لزهر الكمثرى، التي كانت بجانبه على الدوام: - حسناً، ما الذي يبقيهما منشغلين لهذه الدرجة؟

لكن إذا ردّت زهر الكمثرى قائلة:

- إنّهما في مقبّل الحياة، ولديهما الكثير من المشاغل الآن. لقد صار ابنك الأكبر يتقلّد منصباً كبيراً بين أثرياء المدينة الآن، ولديه زوجة جديدة. أمّا ابنك الثاني، فهو يُنشئ لنفسه سوقاً كبيرة للحبوب.

كان وانج لونج يستمع لما تقوله، إلّا أنّه لم يكن يستطيع فهم كل ذلك، وكان ينسأه بمجرد أن ينظر إلى أرضه.

لكنّه رأى ما يدور حوله بوضوح في أحد الأيام، لفترة وجيزة. أتى ابنه لزيارته في ذلك اليوم، وبعد أن قدّم له التحيّة باحترام، خرجا وتجوّلا في الأرض حول المنزل. كان وانج لونج قد تبعهما في صمتٍ، واقترب منهما بهدوءٍ عندما وقفا، فلم يسمعا وقع خطواته، ولا صوت عصاه على الأرض اللينة. سمع وانج لونج ابنه الثاني يقول بزهو:

- سوف نبيع هذا الحقل، وهذا أيضًا، وسنقسّم المال بيننا بالتساوي. سأقترض نصيبك مقابل فائدة مناسبة، حيث إنّهُ مع امتداد خط السكّة الحديد، بات بوسعي شحن الأرز حتى البحر، وأنا...

لكنّ العجوز لم يسمع سوى هذه الكلمات: «نبيع الأرض»، فصرخ، ولم يستطع أن يمنع صوته من التقطّع والارتجاف تحت وطأة الغضب:

- أيّها الأبناء الأشرار، العاطلون! أتبيعان الأرض؟

اختلف وكاد يسقط، لولا أنّهما أمسكا به وأسنداه، وشرع يبكي.

عندئذٍ حاولا تهدئته، وقالا حتى يرتاح:

- لا، لا. لن نبيع الأرض أبدًا.

قال بانكسار:

- إنّها نهاية الأسرة، عندما يبدأون في بيع الأرض. من الأرض خرجنا، وإليها يجب أن نعود. إذا تمكّنتما من الاحتفاظ بأرضكما، ضمنتما الحياة. فليس في مقدور أحدٍ أن يسلبكما الأرض.

ترك العجوز دموعه الهزيلة تجفّ على وجنتيه، حيث خلّفت بقعًا مألحة. انحنى وقبض على حفنة من الأرض، وأمسك بها وهو يتمتم:

- إذا بعثما الأرض، فهذه هي النهاية.
أمسك به ابناه، وكلُّ واحدٍ منهما على أحد جانبيه يمسك بذراعه،
وقبض على حفنة التربة الدافئة اللينة في كفِّه بقوة. حاولا تهدئته، وقال
الابن الأول والابن الثاني مرارًا وتكرارًا:
- اطمئن يا أبانا، اطمئن. لن تُباع الأرض.
لكنهما تبادلا النظرات من فوق رأس العجوز، وابتسما.



